أمين معلوف

الحروب الصليبية
كما رآها العرب

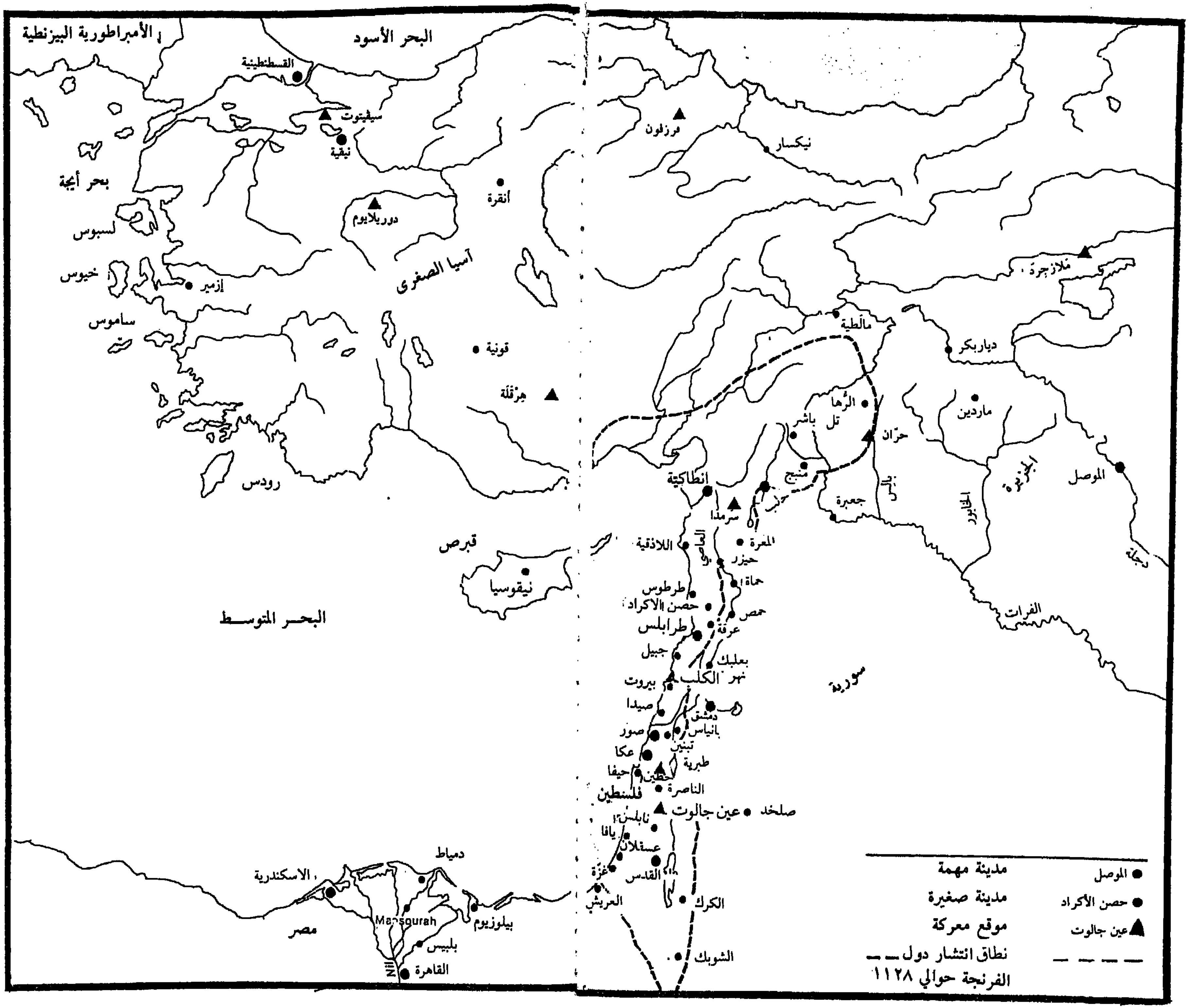


ترجمة :

د. عفيف دمشقية

الفارابي

الى اندريه



الأمبراطورية البيزنطية
البحر الأسود
القسطنطينية
سيفيتوت
نيقية
بحر أيجة
دوريلايوم
أنقرة
لسبوس
خيوس
إزمير
آسيا الصغرى
ساموس
قونية
هرقلة
رودس
قبرص
نيقوسيا
البحر المتوسط
مرزفون
نيكسار
ملازجرد
مالطية
ديار بكر
ماردين
الرُّها
تل باشر
حرّان
منبج
انطاكية
سرمدا
جعبرة
الجزيرة
الموصل
الخابور
اللاذقية
العاصي
المعرة
حيزر
حماة
طرطوس
حصن الاكراد
حمص
عرقة
طرابلس
دجلة
الفرات
جبيل
بعلبك
نهر الكلب
بيروت
سورية
صيدا
دمشق
بانياس
صور
تبنين
عكا
طبرية
حيفا
حطين
الناصرة
فلسطين
عين جالوت
صلخد
نابلس
يافا
عسقلان
القدس
غزة
العريش
الكرك
الشوبك
دمياط
الاسكندرية
Mansourah
بيلوزيوم
بلبيس
مصر
القاهرة
Nil
مدينة مهمة
مدينة صغيرة
موقع معركة
نطاق انتشار دول الفرنجة حوالي ١١٢٨
الموصل
حصن الأكراد
عين جالوت

توطئة

ينطلق هذا الكتاب من فكرة بسيطة: سرد قصة الحروب الصليبية كما نَظَر إليها وعاشها وروى تفاصيلها في «المعسكر الآخر»، أي في الجانب العربي. ويعتمد محتواه بشكل حصريّ تقريباً على شهادات المؤرخين والاخباريين العرب في تلك الحقبة.

ولا يتحدّث هؤلاء عن حروب صليبية بل عن حروب أو غزوات إفرنجية. وقد كُتِبت الكلمة التي تدلّ على الإفرنج بأشكال مختلفة باختلاف المناطق والمؤلِّفين والأزمنة: فَرَنْج، فَرَنْجة، إفْرَنْج، إفْرَنْجة... واخترنا طلباً للتوحيد أكثر الأشكال اختصاراً، أي الشكل الذي لا يزال مُستَخْدَماً حتى اليوم في المحكيّة الشعبية لتسمية «الغربيين»، وبصورة أخصّ «الفرنسيين»: «فَرَنْج».

وحرصاً على عدم إثقال العرض بالحواشي الكثيرة التي تفرض نفسها ـ الإحالات على الكتب والمراجع التاريخية وغيرها ـ فقد آثرنا الاحتفاظ بها إلى آخر الكتاب حيث صُنّفت تبعاً للفصول. ولسوف يقرأها الراغبون في مزيد من المعرفة فتعود عليهم بالفائدة، ولكنها ليست ضرورية أبداً لفهم العرض الذي يطمح إلى أن يكون في متناول الجميع. والحقّ أن ما أردنا أن نقدمه ليس كتاب تاريخ آخر بقدر ما هو، انطلاقاً من وجهة نظر أُهمِلت حتى الآن، «رواية حقيقية» عن الحروب الصليبية وعن هذين القرنين المضطربين اللذين صنعا الغرب والعالم العربي ولا يزالان يحدّدان حتى اليوم علاقاتهما.

تمهيد

بغداد، آب/أغسطس ١٠٩٩م.

دخل القاضي أبو سعد الهروي ديوانَ الخليفة المستظهر بالله الفسيحَ صائحاً حاسراً حليق الرأس علامة على الحداد، وفي أثره حشد من الرفاق شبّاناً وشيباً يصدقون بصخب على كل كلمة من كلماته ويُبدون مثله للعيان منظراً يشوبه التحدّي: لحية كثّة تحت رأس حاسر أملس. ويحاول بعض وجهاء البلاد تهدئته ولكنه يُزيحهم بحركة تنمّ عن ازدراء ويتقدّم بعزمٍ وتصميم إلى وسط القاعة فيأخذ في تبكيت الحاضرين من غير اكتراث مناصبهم بكلام لاذع كالذي يستخدمه الواعظ على المنبر:

ـ أتجرؤون على التهويم في ظل أمن رغد وعيش ناعم شأنَ زهرة في خميلة وإخوانكم في الشام لا مأوى لهم سوى ظهور الجمال وبطون النسور والعقبان؟ كم من دماء سُفكت! وكم من نساء أخفين وجوههن بأيديهن حياءً وخجلاً! أيرضى العرب البواسل بالمهانة ويقبل الأعاجم الشجعان بالذل؟ ![1].

---

(١) وردت هذه الأقوال على لسان الشاعر أبي المظفّر الأبيوردي من قصيدة عدد ابياتها اثنان وعشرون بيتاً، وهي مثبتة في كتاب «الكامل في التاريخ» لابن الأثير، ج ٨، ص ١٨٩ / ١٩٠، طبعة دار الكتاب العربي ـ بيروت/لبنان ـ الطبعة الثالثة، ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م. ومن ابياتها:

أتهويمة في ظلّ أمنٍ وغبطةٍ   وعيش لنوّار الخميلة ناعمِ؟
وإخوانكم بالشام يُضحي مَقيلُهُمْ   ظهورَ المَذاكي أو بطونَ القشاعمِ

ويقول الأخباريون العرب: «وكان خطاباً أبكى العيون وحرّك القلوب»[1]. وانتاب الحضورَ جميعاً نشيجٌ ونحيب، ولكنّ الهروي لا يريد شيئاً من دموعهم فيقول لهم:

- إن أسوأ ما يلجأ إليه المرء من سلاح أن يسكب الدمع بينما تُذكي السيوفُ نارَ الحرب.

وإذا كان قد سافر من دمشق إلى بغداد طوال ثلاثة أسابيع من أيام الصيف تحت أشعة الشمس المحرقة فما كان ذلك لاستدرار الشفقة، وإنما لإخطار أرفع السلطات الإسلامية بالمصيبة التي حاقت بالمؤمنين والطلب إليها أن تتدخل بلا إبطاء لوقف المجزرة. وردّد الهروي قائلاً: «لم يسبق قطّ أن أُذِلّ المسلمون هذا الإذلال ولا أن نهبت بلادهم بمثل هذه الوحشية». لقد كان كل من معه من رجال قد فرّوا من المدن التي نهبها الغازي؛ وكان بعضهم من القلّة القليلة الناجية من أهل بيت المقدس. وقد اصطحبهم ليتيح لهم أن ينقلوا بأنفسهم وقائع المأساة التي عاشوا فصولها قبل شهر.

والحقيقة أن الفرنج كانوا قد استولوا على المدينة المقدّسة يوم الجمعة في ٢٢ من شهر شعبان من عام ٤٩٢ هـ (١٥ تموز/يوليه ١٠٩٩ م) بعد حصار دام أربعين يوماً. ولا يزال النازحون يرتجفون كلما تحدّثوا بذلك وتجمد أبصارهم وكأنهم لا يزالون يرون بأعينهم أولئك المقاتلين الشُقر المدرّعين المعتمرين الخُوَذ وقد انتشروا في الشوارع شاهرين سيوفهم، ذابحين الرجال والنساء والأطفال، ناهبين البيوت، مخرّبين المساجد.

= وكم مِن دماءٍ قد أبيحت ومِن دُمى   تُواري حياءً حُسْنَها بالمعاصمِ
أتـرضى صناديدُ الأعاريب بالأذى   ويُغضي على ذلٍّ كُماةُ الأعاجمِ؟
(المترجم)

(١) عبارة ابن الأثير هي: «وورد المستنفرون من الشام في رمضان إلى بغداد صحبة القاضي أبي سعد الهروي فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون وأوجع القلوب». (الكامل، ج ٨، ص ١٨٩)   (المترجم)

وعندما توقّفت المذبحة بعد يومين لم يكن قد بقي مسلم واحد داخل الأسوار. فقد انتهز بعضهم فرصة الهَرْج فانسلّوا إلى الخارج من الأبواب التي كان المحاصِرون قد خلعوها. وأما الآخرون فكانوا مطروحين بالآلاف في مناقع الدم عند أعتاب مساكنهم أو بجوار المساجد، وكان بينهم عدد كبير من الأئمة والعلماء والزهّاد المتصوّفين الذين كانوا قد غادروا بلادهم وجاءوا يقضون بقيّة أيامهم في عزلة ورعة في هذه الأماكن المقدّسة. ولقد أُكرِه من بقوا على قيد الحياة على القيام بأشقّ الأعمال: أن يحملوا جثث ذويهم فوق ظهورهم ويكدّسوها بلا قبور في الأراضي البور ثم يحرقوها قبل أن يُذبحوا بدورهم أو يباعوا في أسواق النخاسة.

وكان مصير يهود القدس بمثل فظاعة مصير المسلمين. ففي الساعات الأولى من المعركة اشترك عدد كبير منهم في الدفاع عن حيّهم، الحيّ اليهودي القائم شمالي المدينة. ولكن عندما انهارت بقية السور المشرف على منازلهم وأخذ الفرسان الشقر يجتاحون الشوارع جنّ جنون اليهود واجتمعت الطائفة بأسرها للصلاة في الكنيس الرئيسي محتذية بذلك حذو جدودها في أوقات المحن. وعندها سدّ الفرنج جميع المنافذ وكدّسوا أكوام الحطب حول المكان وأضرموا فيها النار. ولقد أُجهِز على الذين حاولوا الخروج إلى الأزقّة المجاورة واحترق الباقون أحياء.

وبعد أيام على النكبة وصل أول اللاجئين من فلسطين إلى دمشق حاملين بعناية فائقة المصحف العثماني، أحد أقدم نسخ الكتاب المبين. واقترب الناجون من أهل القدس بدورهم من عاصمة الشام، وإذ لمحوا من بعيد مآذن المسجد الأموي الثلاث التي لاحت فوق الحرم المربّع بسطوا سجاجيد الصلاة وسجدوا شكراً للعليّ القدير الذي أطال أعمارهم وقد ظنّوا أنها بلغت آجالها. واستقبل أبو سعد الهروي بوصفه قاضي قضاة دمشق اللاجئين بحفاوة بالغة. وكان هذا القاضي، وهو من أصل أفغاني، أكثر شخصيات المدينة تمتّعاً بالاجلال والاحترام؛ وقد بذل

للفلسطينيين النصح والعزاء، فما كان ينبغي في رأيه أن يخجل المسلم من الفرار من منزله. ألم يكن النبي محمد نفسه أول مهاجر في الإسلام إذ اضطرّ إلى ترك مسقط رأسه مكة التي ناصبه أهلها العداء واللجوء إلى المدينة المنوّرة التي تقبّل أهلها الدين الجديد أحسن قبول؟ ألم ينطلق من مهجره هذا للجهاد من أجل تحرير موطنه من الوثنية؟ وعلى المهاجرين أن يعلموا علم اليقين أنهم خير المجاهدين، وأن الإسلام أكرمهم بجعله هجرة الرسول مبدأ العصر الإسلامي.

حتى إن الهجرة في رأي كثير من المسلمين فرض واجب في حال الاحتلال. ولسوف يَهُولُ الرحالةَ العربي الأندلسي الكبير ابن جبير الذي زار فلسطين بعد حوالي قرن من الزمن على بدء الغزو الفرنجي أن يرى بعض المسلمين ممن «استهواهم حبّ الوطن»[1] وقد قبلوا العيش في البلاد المحتلّة. ولسوف يقول: «وليست له [أي المسلم] عند الله معذرة في حلول بلدة من بلاد الكفر إلا مجتازاً. وهو يجد مندوحة في بلاد المسلمين لمشقّات وأهوال يعانيها في بلادهم [أي الكافرين] (. . .) ومنها سماع ما يفجع الأفئدة من ذكر من قدّس الله سرّه وأعلى خطره [أي النبي] لا سيما من أراذلهم وأسافلهم، ومنها عدم الطهارة والتصرّف بين الخنازير وجميع المحرّمات (. . .) فالحذرَ الحذرَ من دخول بلادهم. والله تعالى المسؤول حسن الإقالة والمغفرة من هذه الخطيئة (. . .) ومن الفجائع التي يعانيها من حلّ بلادَهم [أي الكافرين] أسرى المسلمين يرسِفون في القيود ويُصرَّفون في الخدمة الشاقّة تصريف العبيد، والأسيرات المسلمات كذلك في أَسْوُقِهِنَّ خلاخيل الحديد فتنفطر لهم الأفئدة ولا يغني الإشفاق عنهم شيئاً»[2].

---

(١) و(٢) نقلنا النص الذي أثبته المؤلف في كتابه بالفرنسية عن النص العربي من «رحلة ابن جبير» طبعة دار الكتاب اللبناني ودار الكتاب المصري، بلا تاريخ، ص ٢١٤ (المترجم)

وإذا كان في أقوال ابن جبير غلوّ من الوجهة العقديّة فإنها تعكس على كل حال تصرّف أولئك الألوف من النازحين من فلسطين وشمالي سوريا وقد تجمّعوا في دمشق في ذلك الشهر (تموز/يوليـة) من عام ١٠٩٩ م. إذ إنهم، وإن انفطرت قلوبهم بالطبع لتركهم منازلهم، مصمّمون على عدم العودة إلى ديارهم قبل رحيل المحتلّ إلى غير رجعة، وعلى إيقاظ ضمائر إخوتهم في جميع بلاد المسلمين.

وإن لم يكن كذلك فلماذا جاءوا إلى بغداد بقيادة الهروي؟ أليس على المسلمين أن يقصدوا إلى الخليفة، خليفة النبي، في الساعات العصيبة؟ أليس عليهم أن يرفعوا شكواهم وظلامتهم إلى أمير المؤمنين؟

ولسوف تكون خيبة النازحين في بغداد بقدر ما كانت آمالهم. فقد أخذ الخليفة المستظهر بالله يعبّر لهم عن أعمق تعاطفه معهم وأبلغ عطفه عليهم قبل أن يكلّف ستة من أصحاب المناصب الرفيعة في البلاط التحقيق في تلك الأحداث المفجعة. ترى هل ينبغي التأكيد بأن شيئاً لم يُسمع على الإطلاق عن لجنة الحكماء هذه؟

ولم يكن غزو بيت المقدس، وهو بداية حرب قديمة العهد بين ديار الإسلام والغرب، ليثير على الفور أية انتفاضة. وكان لا بد من الانتظار قرابة نصف قرن قبل أن يتحرك الشرق العربي لمواجهة المجتاح والاحتفاء بدعوة قاضي دمشق إلى الجهاد في ديوان الخليفة بوصفها أول عمل مشهود من أعمال المقاومة.

وقليلون هم العرب الذين سبروا على الفور في ابتداء الغزو هول الخطر الوافد من الغرب كما سبره الهروي. بل سرعان ما تكيّف بعض الناس مع الوضع الجديد. ولم يكن همّ السواد الأعظم سوى البقاء على قيد الحياة مستسلمين لقدرهم وإن على مضض. واتخذ بعضهم موقف المراقب شبه الواعي محاولين فهم الأحداث التي كانت غير متوقّعة بقدر ما كانت جديدة. وأكثر هؤلاء إثارة وتشويقاً مؤرخ دمشق ابن القلانسي،

وهو شاب مستنير من أسرة وجيهة. ولقد كان رقيباً للأحوال منذ الساعة الأولى، فعمره في سنة ١٠٩٦ م عندما وصل الفرنج إلى الشرق ثلاثة وعشرون عاماً، وقد انصرف بانتظام إلى تقييد الأحداث التي كانت تبلغه، وتاريخه يروي بأمانة ومن غير إفراط في الهوى مسيرة الغزاة كما شوهدت في مدينته.

وكانت بداية الحكاية بالنسبة إليه في تلك الأيام المفعمة بالكرب التي سرت فيها إلى دمشق أول الشائعات...

القسم الأول

الغزو (١٠٩٦ - ١١٠٠ م)

انظروا إلى الفرنج! انظروا بأية ضراوة يقاتلون في سبيل دينهم في حين لا نبـدي نحن المسلمين أيـة حميّة للجهاد في سبيل الله.

صلاح الدين

الفصل الأول

الفرنج قادمون

«في هذه السنة[1] كان مبدأ تواصل الأخبار بظهور عساكر الافرنج من بحر القسطنطينية[2] في عالم لا يُحصى عدده كثرة. وتتابعت الأنباء بذلك فقلق الناس لسماعها وانزعجوا لاشتهارها. وصحت الأخبار بذاك عند الملك (داود بن) سليمان بن قتلمش[3] وكان أقرب إليهم داراً»(*).

لم يكن الملك قلج أرسلان الذي يتحدّث عنه ابن القلانسي هنا قد بلغ بعدُ السابعة عشرة من عمره عند قدوم الغزاة. ولسوف يكون هذا السلطان التركي الشابّ ذو العينين المائلتين قليلاً، وهو أول قائد مسلم يبلغه خبر اقترابهم، أول من ينزل بهم هزيمة وأول من يدحره فرسانهم العتاة.

لقد علم قلج ارسلان منذ تموز/يولية ١٠٩٦ م أن جمهوراً غفيراً من الفرنج في طريقه إلى القسطنطينية. ولم يلبث أن خشي أسوأ العواقب، فهو لا يعرف بالطبع الأهداف الحقيقية التي ينشدها هؤلاء القوم، ولكن قدومهم إلى الشرق لا يبشّره بخير.

(*) نقلنا النص العربي من «ذيل تاريخ دمشق» لابن القلانسي، طبعة الآباء اليسوعيين، ص ١٣٤.

(١) سنة ٤٩٠ هـ. (المترجم)

(٢) بحر مرمرة في النص الفرنسي. (المترجم)

(٣) الملك قلج أرسلان في النص الفرنسي. (المترجم)

كانت السلطنة التي يحكمها تمتدّ على جزء كبير من آسيا الصغرى، وهي أرض انتزعها التركمان حديثاً من الروم. والواقع أن سليمان أبا قلج أرسلان كان أول تركي استولى على هذه الأرض التي ستعرف بعد عدّة قرون باسم تركيا. ولقد بقيت الكنائس البيزنطية في نيقية عاصمة هذه الدولة الإسلامية الفتية أكثر عدداً من المساجد. وإذا كانت حامية المدينة تتألف من فرسان تركمان فإن غالبية الشعب هم من الروم. ولم تكن الأوهام لتساور لحظة أفكار قلج أرسلان بشأن مشاعر رعاياه الحقيقية: لسوف يبقى في نظرهم زعيم عصابة من البرابرة. والملك الوحيد الذي يعترفون به ويتردّد اسمه بصوت خافت في صلواتهم هو «ألكسي كومنين»(١) امبراطور الروم. وألكسي هو بالحري امبراطور اليونانيين الذين يعتبرون أنفسهم ورثة الامبراطورية الرومانية. وهذه الصفة هي التي يعترف لهم العرب بها على أي حال - في القرن الحادي عشر (الميلادي) كما في القرن العشرين - إذ هم يُطلقون على اليونانيين اسم «الروم» أي «الرومان»، حتى إن الأرض التي غنمها أبو قلج أرسلان من الأمبراطورية اليونانية تُعرف باسم سلطنة الروم.

كان ألكسي في ذلك الحين أحد أكثر الوجوه إشراقاً في الشرق. وكان هذا الخمسيني القصير القامة، ذو العينين الناضحتين بالمكر، واللحية المشذّبة، والحركات الأنيقة، المحلّى على الدوام بالذهب والنسائج الزرقاء النفيسة، يثير في قلج أرسلان سحراً حقيقياً. فهو الذي يهيمن على القسطنطينية، بيزنطة الأسطورية، الواقعة على مسيرة أقلّ من ثلاثة أيام من نيقية. وإنه لجوار يهيج في نفس السلطان الشاب مشاعر متباينة. فهو يحلم، شأنه شأن كل المحاربين البدو، بالغزو والسلب، ولا يسوؤه أن يشعر بثروات بيزنطة الأسطورية في متناول يده. ولكنه يشعر في الوقت نفسه أنه مهدّد. فهو يعلم أن ألكسي لم يفقد الأمل يوماً في استرجاع نيقية، لا لأن المدينة كانت على الدوام يونانية وحسب، وإنما على الأخصّ لأن

---

(١) يُعرف هذا القيصر في الكتب العربية باسم «الكزايكس». (المترجم)

وجود المحاربين الأتراك على مثل هذه المسافة القصيرة من القسطنطينية يشكّل خطراً دائماً على سلامة الامبراطورية.

ولا يخفى على أحد أن في وسع ألكسي على الدوام الاستنجاد بمَدَد أجنبي، حتى عندما يغدو الجيش البيزنطي المنهوك من سنين بفعل الأزمات الداخلية عاجزاً عن أن يخوض وحده غمار حرب لاسترجاع البلاد. ولم يسبق قط أن تردّد البيزنطيون في الاستنجاد بالفرسان الوافدين من الغرب، وما أكثر الفرنج القادمين لزيارة الشرق مرتزقةً مدرعين بشِكّات الحرب الثقيلة أو حجّاجاً إلى فلسطين. وما كان أمرهم عام ١٠٩٦ م ليخفى قطّ على المسلمين. فقبل عشرين سنة ـ ولم يكن قلج أرسلان قد وُلد ولكن أمراء جيشه المسنّين رووا له الخبر ـ زحف إلى القسطنطينية أحد أولئك المغامرين ذوي الشعور الشقراء، واحد اسمه «روسيل دو بايّول» كان قد تمكن من إنشاء دولة مستقلة في آسيا الصغرى، فما كان من البيزنطيين الذين جنّ جنونهم للنبأ إلاّ أن استنجدوا بأبي قلج أرسلان الذي لم يصدّق أذنيه عندما توسّل إليه مبعوث خاص من قيصر الروم أن يخفّ لنجدتهم. ويومها سار الفرسان الأتراك بالفعل إلى القسطنطينية وأفلحوا في دحر «روسيل»، الأمر الذي كوفيء عليه سليمان بسخاء ذهباً وخيولاً وأراضي.

ومنذ ذلك الحين أخذ البيزنطيون يَحْذَرون الفرنج، ولكن الجيوش الامبراطورية التي كانت تفتقر إلى جنود محنّكين ظلّت تطوّع جنوداً من المرتزقة. ولم يقتصر الأمر في ذلك على الفرنج بأي حال، فالمحاربون الأتراك كُثُر تحت ألوية الامبراطورية المسيحية. وبفضل المجنّدين الاتراك في الجيش البيزنطي علم قلج أرسلان بالتحديد أن ألوفاً من الفرنج كانوا في تموز/يولية ١٠٩٦ م يقتربون من القسطنطينية. ولقد أوقعه ما وصفه له مخبروه في الحيرة والانزعاج، فهؤلاء الغربيون لا يشبهون كثيراً المرتزقة الذين أَلِفَ الناس رؤيتهم. إن فيهم بضع مئات من الفرسان وعدداً كبيراً من المشاة المسلّحين، ولكنّ فيهم أيضاً آلافاً من النساء والأطفال

والشيوخ بالأسمال، حتى لكأنهم جماعة من البشر طردهم من ديارهم غـازٍ مجتاح. ويقال أيضـاً إن على ظهـورهم جميعاً شريـطين من قماش مخيـطين بشكل صليب.

ويطلب السلطان الشاب الذي شقّ عليه أن يقدّر مدى الخطر المحدق به أن يضاعف عيونُه من يقظتهم ويطلعوه باستمرار على حـركات الغـزاة الجدد وسكناتهم، ويعاين بدوره كيفما اتفق تحصينات عاصمته. إن مئتين وأربعين برجاً تعلو أسوار نيقية التي يبلغ طولها أكثر من فـرسخ، وتؤلف مياه بحيرة «اسكانيوس» الهادئة حماية طبيعية ممتازة.

ومـع ذلك فقـد توضّحت معـالم الخطر المتـربّصِ في الأيام الأولى من شهر آب/أغسطس، فالفرنج يجتازون البوسفور تواكبهم سفن بيزنـطية، وهم يتقدمون على طول السـاحل بـالرغم من حـرارة الشمس المحرقـة. وكانت هتافاتهم بأنهم جـاءوا لإبادة المسلمـين تُسمع في كـل مكان. مـع أنهم شوهدوا ينهبـونَ في طريقهم أكـثر من كنيسة روميّـة. وكان قـائدهم عـلى ما يبـدو ناسكـاً يُدعى بـطرس. وقد قـدّر المخبرون عـددهم ببضع عشرات من الألـوف، ولكنّ أحداً لم يستـطع أن يقـول إلى أين تقـودهم أقدامهم. والظاهـر أن الامبراطـور ألكسي قرّر إيـواءهم في «سيڤيتوت»، وهو معسكر كان قد أقامه من قبل لغيرهم من المرتزقة على مسيرة أقلّ من يوم من نيقية.

ساد قصرَ السلطان هَرْجٌ جنونيّ، فالفرسان متأهبون لامتـطاء جيادهم الخفيفة السريعة في كل لحظة، والعيون والكشافـة يروحـونَ ويجيئون بـلا انقـطاع لنقل أدق التفـاصيل عن تحـرّكات الفـرنج. وقـد نُقل أن هؤلاء يغـادرون معسكرهم كـل صباح في حشـود من بضعة آلاف فيعيثـون في الجوار فساداً ناهبين بعض المزارع مضرمين النار في أخرى قبل أن يعودوا إلى «سيڤيتـوت» حيث تتنازع عشـائـرهم ثمـرات السلب. والحقّ أنـه لم يكنِ في هـذا ما يمكن أن يثيـر حفـائظ جنـود السلطان ولا مـا يمكن أن يقضّ مضجع سيّدهم. وقد ظلت الحال على هذا المنوال شهراً كاملاً.

ولكن كـان يوم في حـوالي منتصف أيلول/سبتمـبر غـيّر فيـه الفـرنـج عاداتهم بغتة. وإذ لم يبق في الجوار ما يلتقـطون فقد اتجهـوا على مـا يقال صوب نيقية واجتازوا ببعض القرى، وكلها مسيحية، ووضعوا اليد عـلى الغلال التي كانت قد خزنت في الأهـراء بعد الحصـاد ذابحين بـلا شفقة كل من حاول مقاومتهم من الفلاحين. ولعلّ أولاداً يـافعين قـد أحرقـوا أحياء.

أحسّ قلج أرسـلان أنه أُخـذ على حـين غرّة. فعنـدمـا تـرامت إليـه الأخبـار الأولى كان المحـاصيرون قد أصبحـوا تحت أسوار عـاصمته، ولم تكن الشمس قد حاذت بعـدُ خطّ الأفق عندمـا رأى أهل الحصن دخـان الحرائق يتعالى في السماء. وفي الحال أرسـل السلطان دورية من الفـرسان فاصطدمت بـالفرنـج. وإذ سُحق التركُ تحت وطـأة الكثرة العـددية فقـد مـزّقـوا أشـلاء ولم يعُـدْ منهم إلى نيقيـة سـوى نفـر قليـل جـداً مسربلين بدمائهم. وأراد قلج أرسلان وقد شعـر أن هيبته بـاتت في الميزان خـوضَ المعركة في الحال، ولكن أمراء جيشه ثنوه عن ذلـك، فالليـل يوشـك أن يحـلّ والفـرنـج يعـودون سراعـاً إلى معسكـرهم، ولا بـدّ لـلانتقـام من الانتظار.

ولم يطل الأمر كثيراً فقد أعاد الفرنـج الكرّة بعـد أسبوعـين مدفـوعين بفوزهم في المرة الأولى. وابن سليـمان، وقد أُعلم بـأمرهم في حينـه هذه المرة، يتابـع تقدمهم خـطوة بخطوة. إن جيشـاً من الفرنـج يضم بعض الفرسان، وعلى الأخصّ آلافاً من النهّابين في أسمالهم، يسلك الطريق إلى نيقية ويتوجّـه بعد الالتفـاف حول أربـاضهم نحو الشرق فيستـولي فجأة على حصن «كزيريغوردون».

حزم السلطان الشاب أمره فكرّ بجواده على رأس رجاله باتجاه الحصن الصغـير حيث كـان الفـرنـج يسكـرون احتفـالاً بنصرهم عـاجـزين عن التصوّر بأن مصيرهم كان قد تقرّر، وذلـك لأن «كزيـريغوردون» يشكّـل فخّاً يعرفه جنود قلج أرسلان جيداً ولم يقدّر لأولئك الغرباء اكتشافه: إن

تزويده بالماء يتم من خارج على مسافة غير قليلة من الأسوار، وقد أسرع الترك فحالوا بينهم وبين بلوغه، ولم يكن الأمر يتطلب منهم أكثر من التمركز حول الحصن وعدم الانتقال من مراكزهم، فلسوف يحارب العطش بالنيابة عنهم.

وبدأ ينتاب المحاصَرين عذاب أليم: بلغ بهم الأمر أن شربوا دماء مطاياهم ثم شربوا أبوالهم هم. وقد شوهدوا ينظرون بقنوط إلى السماء في هذه الأيام الأولى من تشرين الأول/أوكتوبر مترقّبين بضع قطرات من المطر، ولكن بلا جدوى. وبعد أسبوع رضي قائد الحملة، وهو فارس يُدعى «رينو» بالتسليم إذا ضُمن بقاؤه حيّاً. ولشدّ ما كانت دهشة قلج أرسلان حين طالب الفرنج بالارتداد علناً عن دينهم أن يقول «رينو» إنه مستعدّ لا لاعتناق الإسلام وحسب، بل لمقاتلة رفاقه بالذات إلى جانب الأتراك. ولقد أُرسل عدد كبير من رفاقه الذين قبلوا بالمطالب نفسها أسرى إلى مدن الشام وآسيا الوسطى، وأُعمل السيف في الباقين.

زها السلطان بما قدّمت يداه، ولكنه احتفظ برباطة جأشه. فبعد أن منح رجاله مهلة لتحقيق ما جرت عليه العادة من اقتسام الغنائم لم يلبث أن دعاهم منذ اليوم التالي إلى الانضباط، فالفرنج وإن خسروا بلا ريب ستة آلاف رجل فإن الباقي منهم هو ستة أضعاف ذلك العدد، وهذه هي الفرصة للخلاص منهم وإلّا فلا. واختار الحيلة لبلوغ مرامه: يرسل جاسوسين من الروم إلى معسكر «سيڤيتوت» فيعلنان أن رجال «رينو» في خير حال وأنهم نجحوا في الاستيلاء على نيقية نفسها وقرّروا بما لا رجعة فيه عدم السماح لإخوتهم في الدين بمشاركتهم ما غنموه من خيراتها، وفي هذه الأثناء يجهّز الجيش التركي كميناً ضخماً.

والحق أن الشائعات التي بُثّت بعناية كبيرة أثارت في معسكر «سيڤيتوت» ما كان مقدّراً لها من الحماسة فاحتشد القوم وكالوا الشتائم لـ «رينو» ورجاله، ولم يلبث أن انعقد العزم على المسير بلا إبطاء للمشاركة في نهب نيقية. ولكن وصل أحد الناجين من الحملة على

«كـزيريغـوردون» من غير أن يـدري أحد كيف تمّ لـه الـوصـول وكشف حقيقة المصير الـذي لقيه رفـاقه. وخيّـل إلى جاسـوسي قلج أرسلان أنهما أخفقا في مهمتهما إذ قـام أحكم رجال الفـرنج يبشّرون بـالتزام الـرويّة. ولكن مـا إن انقضت لحظة الـذهول حتى عـاد الهياج سيرته. فقـد ماج حشـد الناس صـائحاً. إنـه يريـد الانطلاق عـلى الفور لا لـلاشـتراك في النهب، بـل لـ«الانتقـام للشهـداء». ونُعت المتـردّدون بـالجبن، وانتهى الأمر بانتصار أكثر الناس سُعراً، وحُدِّد المسير في الغـداة. وكانت الغلبـة للجـاسوسـين، فهما وإن طـاشت حيلتهما فـإنها قد حقّقت الغـاية منهـا. وهكذا فقد أرسلا للسيد يقولان له أن يستعدّ للقتال.

وغـادر الفـرنـج معسكـرهـم في الحـادي والعشريـن من تشريـن الأول/أوكتـوبـر ١٠٩٦ م. ولم يكن قلج أرسـلان بـالبعيـد عنهم، فقـد أمضى الليـل في التلال القـريبـة من «سيڤيتـوت»، ورجـالـه في أمـاكنهم مستـورون تماماً عن الأنظار. وأمـا هو ففي وسعـه أن يرى من مـوضعه جحفل الفرنـج القادم من بعيـد في غيمة من العجـاج. وكان في طليعـة ذلك الجحفل بضـع مئات من الفـرسان أكـثرهم بلا دروع، وفي أثـرهم حشد من المشاة يسيرون بلا نظام. وكان قد مضى على مسـيرهم أقل من ساعة حينما سمع السلطان ضجيجهم يقترب منه والشمس المتعالية خلفه تلفـح وجوههم بأشعتها. وحبس أنفـاسه وأومـأ إلى أمرائه أن يتـأهبـوا فاللحظة المقـدّرة قد اقـتربت. وصدرت حـركة مكتـومة وبعض الأوامـر المهموسة من هنا وهناك فوتّر النبّالة أقواسهم على مهـل. واندفعت فجـأة ألوف السهام في صَفْرة واحدة طويلة، وسقط أكثر الخيّـالة منـذ الدقـائق الأولى، ولم يلبث أن هلك القسم الأكبر من المشاة بدورهم.

وعندما تمّ الالتحام بين الجيشين كانت الهزيمة قد كُتبت على الفـرنج، فتقهقر من كـانـوا في المؤخـرة راكضـين صـوب المعسكـر الـذي كـان القاعدون فيه عن القتال قـد استيقظوا لتـوّهـم، وكان كـاهن عجوز يُحيي قـدّاساً صبـاحياً وبعض النسـاء يُهيّئن طعامـاً. وأشاع وصـول الهـاربين

والأتراك في أثرهم الهلع فراح الفرنج يفرّون من كل صوب. وما لبث أن قُبض على بعضهم ممّن حاولوا بلوغ الغابات المجاورة، بينما كان بعضهم الآخر أحسن إلهاماً فتمترسوا في حصن مهجور كان من حسناته أن البحر من ورائه. وإذ لم يشأ السلطان أن يقتحم ما لا طائل تحته من أخطار فقد عدل عن محاصرتهم لعلمه بأن الأسطول البيزنطي الذي لن يلبث أن يدري بأمرهم سوف يأتي لتخليصهم، وبذلك يكون ألفا رجل أو ثلاثة قد نجوا، ونجا كذلك بطرس الناسك هو الآخر لوجوده منذ بضعة أيام في القسطنطينية. وأما حظّ مناصريه في النجاة فأقل من حظه، فقد خطف فرسان السلطان الشوابَّ من النساء لتوزيعهن على الأمراء أو بيعهن في أسواق النخاسة، ولقي بعض الفتيان المصير نفسه. وأما سائر الفرنج، أي قرابة عشرين ألفاً، فقد أبيدوا عن بكرة أبيهم بلا ريب.

وتكاد الدنيا تضيق بقلج أرسلان من فرط السرور. فلقد أباد ذلك الجيش الفرنجي الذي طالما قيل إنه مرهوب الجانب، وخسائر عسكره هو لا تكاد تذكر. وإنه لتراوده الأفكار وهو يتأمل أكداس الغنائم الضخمة عند قدميه بأنه يعيش أجمل انتصار.

ومع ذلك فإنه نادراً ما حدث في التاريخ أن كلّف انتصارٌ من حازه قَدْرَ ما كلّف هذا الانتصار.

كان قلج أرسلان المنتشي بنصره يسعى إلى تجاهل الأنباء التي تتابعت في الشتاء التالي عن وصول حشود جديدة من الفرنج إلى القسطنطينية. فلم يكن هناك في رأيه، ولا حتى في رأي أحكم امرائه، ما يشغل البال. وإذا حدث أن تجرأ فوج آخر من مرتزقة ألكسي على عبور البوسفور فسوف يمزّقون إرباً كما مُزّق سابقوهم. وفي خَلَد السلطان أنه آن أوان العودة إلى مشاغل الساعة الكبرى، وبعبارة أخرى إلى العراك الذي طالما خاضه بلا هوادة مع جيرانه من الأمراء الأتراك. فبهذا وحده دون غيره يتقرّر مصيره ومصير ملكه. ولن تكون المواجهات مع الروم أو أتباعهم الشذّاذ من الفرنج إلا فاصلاً للترويح عن النفس.

والسلطان الشاب في منزلة تؤهله جيداً لمعرفة ذلك. ألم يودّع أبوه سليمان الحياة عام ١٠٨٦ م في معركة من تلك المعارك التي لا نهاية لها بين الزعماء؟ لقد كان عمر قلج حينذاك سبع سنين، وكان من الممكن أن يخلف أباه بوصاية بعض الأمراء المخلصين، ولكنّه أبعد عن السلطة واقتيد إلى فارس بحجة أن حياته كانت في خطر. وكان مدلّلاً محوطاً بالعناية تقوم على خدمته طائفة من العبيد المخلصين، وإن مراقَبين أشدّ المراقبة، يرافق ذلك حظر قاطع لزيارة مملكته. ولم يكن مضيفوه، أي سجّانيه، سوى أفراد عشيرته بالذات: السلاجقة.

وإذا كان من اسم غير مجهول من أحد في القرن الحادي عشر (الميلادي) من تخوم الصين إلى أقصى بلاد الفرنج فهو ذاك الاسم. فقد استولى الأتراك السلاجقة الوافدون من آسيا الوسطى بصحبة ألوف من الفرسان البدو ذوي الشعور الطويلة المضفورة على المنطقة الممتدّة من أفغانستان إلى البحر المتوسط خلال بضع سنوات. ومنذ عام ١٠٥٥ م لم يعد الخليفة في بغداد، خليفة رسول الله ووارث الامبراطورية العبّاسية الذائعة الصيت، إلا دمية في أيديهم. وامراؤهم يحكمون من أصفهان إلى دمشق، ومن نيقية إلى بيت المقدس. ولقد توحّد الشرق الإسلامي كله للمّرة الأولى تحت حكم سلالة فذّة تجاهر برغبتها في أن تُعيد إلى الإسلام تالد مجده. ولم تقم للروم الذين سحقهم السلاجقة عام ١٠٧١ م قائمة مذّاك. فقد اجتيحت آسيا الصغرى أكبر ملحقاتهم؛ وعاصمتهم نفسها لم تكن في أمان؛ ولم ينفك أباطرتهم، ومنهم ألكسي نفسه، يوفدون البعثات إلى بابا روما الرئيس الأعلى للغرب يرجونه الدعوة إلى الحرب المقدّسة في وجه الظهور الإسلامي المباغت.

ولم يكن اعتزاز قلج أرسلان بالانتماء إلى أسرة بمثل هذه الشهرة بالقليل، ولكنه ليس بالمغفّل لينخدع بمظهر وحدة الامبراطورية التركية. فأبناء العمومة السلاجقة لا يعرفون بينهم أي تكاتف: إن على المرء أن يَقْتُل ليبقى على قيد الحياة. ولقد غزا أبوه آسيا الصغرى ـ الأناضول

المترامي الأطراف - بلا مساعدة من إخوته، وإذ أراد أن يتوسّع إلى الجنوب، نحو بلاد الشام، فقد قتله أحد أبناء عمومته. وفي الوقت الذي كان فيه قلج أرسلان محتجزاً بالقوة في أصفهان كانت أوصال مملكة أبيه قد تقطّعت. وعندما أُطلق سراح الفتى اليافع آخر عام ١٠٩٢ م بفضل عراك نشب بين سجّانيه لم يكن سلطانه يمتدّ إلى أبعد من أسوار نيقية. ولم يكن عمره إذّاك سوى ثلاثة عشر عاماً.

ثم إنه بفضل نصائح أمراء الجيش تمكّن بالحرب أو القتل أو الحيلة من استعادة جزء من ميراثه من أبيه. وفي وسعه اليوم أن يباهي بأنه أمضى من الوقت على صهوة حصانه أكثر مما قضى في قصره. ومع ذلك فقد وصل الفرنج ولمّا يُحسمْ شيء. فمنافسوه في آسيا الصغرى لا يزالون أقوياء حتى وإن كان أبناء عمومته من سلاجقة الشام وفارس غارقين لحسن حظّه في منازعاتهم الخاصّة.

وفي الشرق بشكل خاص، فوق المرتفعات المقفرة في الهضبة الأناضولية، يهيمن في أيام الشدّة هذه شخص عجيب اسمه الدنشمند، «الحكيم»، وهو أفّاق من أصل غير معروف، ولكنّه، بخلاف سائر الأمراء الأتراك الغارق معظمهم في الأميّة، متفقّه في شتّى العلوم. ثم إنه لن يلبث أن يصبح بطل ملحمة شهيرة عنوانها «انتصار الملك دنشمند» تصوّر فتح مالطية، وهي مدينة أرمنية في جنوب شرق أنقرة يرى مؤلفو الملحمة أن سقوطها منعطف حاسم إلى اعتناق تركيا الإسلام فيما بعد. وعندما بلغ قلج أرسلان نبأ وصول حملة فرنجية جديدة إلى القسطنطينية في الأشهر الأولى من عام ١٠٩٧ م كان قد مضى بعض الوقت على نشوب معركة مالطية. فدنشمند يحاصر المدينة والسلطان الشاب يرفض أن يتمكّن هذا المنافس الذي استغلّ موت أبيه فاحتلّ شمال شرق الأناضول برمّته من الفوز بنصر في مثل هذه الأهمية. وإذ كان قد قرر منعه من ذلك فقد توجّه على رأس فرسانه إلى نواحي مالطية وأقام معسكره بحذاء معسكر دنشمند لإرهابه. ولقد اشتد التوتّر وتعدّدت

المناوشات التي أخذت حصيلة القتلى فيها تزداد يوماً بعد يوم.

وفي نيسان/أبريل ١٠٩٧ م بدا أنه لا مناص من المواجهة، فأخذ قلج أرسلان يستعدّ لها. وكان قد حشد معظم عساكره تحت أسوار ملطية حين وصل إلى خيمته فارس خائر القوى وأخذ يبلّغ رسالته لاهثاً: الفرنج بين ظهرانينا؛ لقد عبروا البوسفور من جديد بأعداد تفوق أعدادهم في السنة الماضية. وظلّ قلج أرسلان رابط الجأش، فليس ما يسوّغ مثل هذا القلق. الفرنج، لقد سبق له أن عجم عودهم، وهو يعرف ما ينبغي فعله. وانتهى به الأمر إلى أن طلب من بعض فرق خيّالته الذهاب لمساندة حامية العاصمة لا لشيء إلا لطمأنة أهالي نيقية، ولا سيما زوجته السلطانة الشابة التي توشك أن تضع حملها. أمّا هو فسوف يعود عندما يُنهي شأنه مع دنشمند.

وكان قلج أرسلان مشغولاً من جديد جسداً وروحاً في معركة ملطية عندما وصل في الأيام الأولى من شهر أيار/مايو رسول آخر وهو يرتعد من التعب والخوف. ولقد نشر حديثه الذعر في معسكر السلطان، فالفرنج على أبواب نيقية وقد بدأوا بحصارها. وهم ليسوا كما كانوا في الصيف عصابات من النهّابين بالأسمال، بل جيوش حقيقية مؤلفة من آلاف من الفرسان مزوّدين بأحصن الدروع وأكمل العُدد، ومعهم جنود القيصر هذه المرة. وحاول قلج أرسلان تهدئة خواطر رجاله، ولكنه كان هو نفسه نهباً للقلق. أيترك مالطية لمنافسه ويعود إلى نيقية؟ أهو موقن من أنه لا يزال في وسعه إنقاذ عاصمته؟ تُرى ألن يخسر على الجبهتين؟ وبعد أن تشاور طويلاً مع أخلص أمرائه لاح له حلّ، نوع من تسوية: يذهب لمقابلة دنشمند، وهو رجل ذو مروءة، فيطلعه على محاولة الغزو التي يبيّتها الروم ومرتزقتهم ويصوّر له الخطر المحيق بمسلمي آسيا الصغرى جميعاً ويقترح عليه وقف القتال. وقبل أن يقدّم دنشمند ردّه كان السلطان قد أرسل قسماً من جيشه إلى العاصمة.

وأُبرمت بالفعل هدنةٌ بعد بضعة أيام وسلك قلج أرسلان غرباً بلا

إبطاء. ولكنّهُ ما إن بلغ المرتفعات القريبة من نيقية حتى جمد الدم في عروقه من هول ما ارتسم أمام ناظريه: المدينة الرائعة التي أورثه إياها أبوه محاصرة من كل صوب؛ وهناك حشد من الجنود المنهمكين في تركيز الأبراج النقّالة والدرّاعات والمجانيق التي ينبغي استعمالها في الهجوم الأخير؛ ورأي الأمراء قاطع: ما باليد حيلة، وينبغي الانكفاء إلى داخل البلاد قبل فوات الأوان: ومع ذلك فإن نفس السلطان الشاب لا تطاوعه على التسليم بترك عاصمته على هذا النحو. إنه يلحّ على محاولة اختراق أخيرة من ناحية الجنوب -حيث يبدو المحاصِرون أضعف تحصيناً. ودارت رحى المعركة فجر الحادي والعشرين من شهر أيار/مايو، فخاض قلج أرسلان غمارها مُخْنَقاً وظلّت مستعرة إلى الضحى. وكانت خسائر الفريقين فادحة، ولكنّ كلًّا منهما بقي محافظاً على مواقعه. وتخلّى السلطان عن إصراره إذ أدرك أن ليس هناك ما يتيح له فكّ الطوق، وأنّ العناد في دفع قواه كلّها إلى معركة أسيء أمر الإعداد لها إلى هذا الحدّ قد يطيل أمر الحصار عدّة أسابيع، بل عدّة أشهر، ولكنّه يعرّض وجود السلطنة نفسها للخطر. وإذ كان قلج أرسلان سليل شعب أخصّ خصائصه البداوة فإنه يعرف أن مصدر سلطانه هو في بضعة آلاف المحاربين الذين يدينون له بالطاعة، لا في امتلاك مدينة مهما يكن مقدار التعلّق بها. وبعدُ فإنه لن يلبث أن يختار عاصمة جديدة له مدينة قونية، وهي أبعد كثيراً إلى جهة الشرق، فيحتفظ بها خلفه حتى بداية القرن الرابع عشر (الميلادي)، ولن يرى نيقية بعدُ أبداً. . .

ويعث قبل أن يبتعد برسالة وداعية إلى حُماة المدينة لإخطارهم بقراره الأليم بأن يتصرّفوا «وفاقاً لمصالحهم». ومعنى هذا الكلام واضح للحامية التركية والشعب الرومي على السواء: ينبغي تسليم المدينة إلى ألكسي كومنين لا إلى مساعديه الفرنج. وعلى هذا جرت المفاوضات مع القيصر الذي كان قد تمركز على رأس جيشه غربي نيقية. وقد حاول رجال السلطان كسب الوقت آملين ولا ريب في إمكان عودة سيّدهم مصحوباً

بعض المَدَد. ولكن ألكسي على عجلة من أمره: إنه يهدّد بأن الغربيين يستعدّون للهجوم الأخير، وعندها لن يكون في وسعه أن يفعل شيئاً. وإذ تذكّر المفاوضون ما فعله الفرنج في العام الماضي في نواحي نيقية فقد دبّ الذعر إلى أفئدتهم وهم يتصورون مدينتهم منهْوبة ورجالها مذبوحين ونساءها مهتوكة أعراضهن، وقبلوا بلا تردّد أن يسلّموا أمرهم إلى القيصر الذي سيحدّد بنفسه طرق التسليم وشروطه.

وفي الليلة الثامنة عشرة من شهر حزيران/يونية أُدخل إلى المدينة جنود من الجيش البيزنطي معظمهم من الأتراك بواسطة قوارب اجتازت بهدوء بحيرة «اسكانيوس» فاستسلمت الحامية منْ غير قتال. وما إن انبلج الصباح حتى كانت رايات الإمبراطور الزرقاء والذهبية تخفق فوق الأسوار فعدل الفرنج عن شنّ الهجوم. وهكذا سيكون لقلج أرسلان عزاء عن حظه العاثر: لسوف يُعفى عن أعيان السلطنة وتُستقبل السلطانة الشابة بصحبة وليدها في القسطنطينية استقبال الملوك وسط حنق الفرنج واستنكارهم.

كانت زوجة قلج أرسلان الشابة بنتَ «تشقا»، وهو مغامر خارق الذكاء وأمير تركي كان قد ذاع صيته عشيّة الغزو الفرنجي. وقد سجنه الروم إذ كان يغزو غَزاةً في آسيا الصغرى فبهر سجّانيه بالسهولة التي أبداها في تعلّم اللغة الرومية، فما كادت تنقضي بضعة شهور حتى كان يتكلّمها بطلاقة وإتقان. ولما كان متوقّد الذهن ماهراً شيّق الحديث فقد أخذ يتردّد بانتظام على البلاط الإمبراطوري الذي ما لبث أن أغدق عليه أحد ألقاب الشرف. ولكنّ ذلك الإنعام العجيب ما كان ليكفيه. فقد كان يصبو إلى أعلى، أعلى بكثير: كان يريد أن يصبح إمبراطور بيزنطة!

وكانت للأمير «تشقا» بهذا الصدد خطة مُحْكَمَةٌ جداً، فقد ذهب للإقامة في ميناء إزمير على بحر إيجة حيث ابتنى بمساعدة سفّان رومي اسطولاً حربياً حقيقياً ضمّ شيراعيّات خفيفة، وسفناً بمجاذيف، ودَرامِد، ومجذافيّات بصفّين من المجاذيف، وأخرى بثلاثة صفوف، فبلغ

مجموعها نحو مئة قطعة. واحتلّ في المرحلة الأولى عدداً من الجزر، ولا سيما رودس وكيوس وساموس، وبسط سلطانه على الساحل الإيجيّ بأسره. وإذ تمّ له أن يصطنع إمبراطوريةً بَحْرِيةً فقد أعلن نفسه قيصراً منّظماً بلاّطه في إزمير على شاكلة البلاط الإمبراطوري، وأطلق أسطوله لمهاجمة القسطنطينية. ولقد بذل ألكسي جهوداً مضنية كي يتمكّن من صد الهجوم وتدمير جزء من السفن التركية.

* * *

ولم يفتّ ذلك في عضد والد الفتاة التي ستكون يوماً زوجة السلطان قلج أرسلان فجدّد بمضاء عزيمة بناء سفنه الحربية، وكان ذلك حوالي عام ١٠٩٢ م، أي في الوقت الذي تمت فيه عودة قلج أرسلان من المنفى. ولقد قال «تشقا» في نفسه إن ابن سليمان الشاب سوف يكون له نِعْمَ الحليف في قتال الروم فقدّم له يد ابنته. ولكن حسابات السلطان الشاب كانت مختلفة جداً عن حسابات حميه، فقد كان غزو القسطنطينية يبدو له أمراً غير معقول، ولم يكن أحد من بطانته يجهد في مقابل ذلك إنه كان يسعى إلى القضاء على الأمراء الاتراك الذين كانوا يحاولون اقتطاع أرض لأنفسهم في آسيا الصغرى، وعلى رأسهم دنشمند و«تشقا» الذي لا حدّ لطموحه. ولم يتردّد السلطان، فقبل وصول الفرنج ببضعة أشهر دعا حماه إلى مأدبة وأسكره وقتله بطعنة من خنجره، وبيده بالذات على ما يبدو. وكان لـ «تشقا» ابن فتولى بعد أبيه، ولكنه لم يكن يملك ذكاءه ولا طموحه. ولقد اكتفى أخو السلطانة بإدارة شؤون الإمارة البحرية حتى ذلك اليوم من صيف ١٠٩٧ م الذي وصل فيه أسطول الروم فجأة إلى مياه إزمير وعلى متنه رسول غير متوقّع: أخته.

ولقد أبطأت هذه في إدراك أسباب اهتمام الإمبراطور بها، ولكن ما إن أُرسل موكبها إلى إزمير التي قضت فيها صباحاً حتى اتضح لها كل شيء. إنها مكلّفة أن تشرح لأخيها أن ألكسي استولى على نيقية، وأن قلج أرسلان هُزم، وأن جيشاً قوياً من الروم والفرنج لن يلبث أن يهاجم إزمير يسانده أسطول ضخم، وأن ابن «تشقا» مدعوّ إذا أراد إنقاذ حياته

أن يوصل أخته إلى زوجها في مكان ما من الأناضول.

وإذ لم يُرفض العَرضُ فقد زال وجود إمارة إزمير. وهكذا خرج ساحل بحر إيجه برمته، وكل الجزر، والجزء الغربي من آسيا الصغرى بأسره، من يد الأتراك غداة سقوط نيقية. وبدا أن الروم يعاونهم مساعدوهم الفرنج قد قرّروا الذهاب إلى أبعد من ذلك.

ولكن قلج أرسلان القابع في ملاذه الجبلي لا يلقي السلاح.

وما إن انقضت وهلة الأيام الأولى حتى جدّ السلطان في التحضير للانتقام، «فشرع في الجمع والاحتشاد وإقامة مفروض الجهاد»[1]، كما يقول ابن القلانسي. ويضيف مؤرخ دمشق أن قلج أرسلان «استدعى من أمكنه من التركمان للإسعاد عليهم والإنجاد فوافاه منهم (...) العدد الكثير»[2].

والواقع أن هدف السلطان الأول هو عقد حلف مع دنشمند. إن مجرّد هدنة غير كافية، ومن الملحّ في الوقت الحاضر أن تتحّد قوّات آسيا الصغرى التركية كما لو كانت جيشاً واحداً. وقلج أرسلان واثق من استجابة منافسه. ولما كان دنشمند مسلماً ورعاً بقدر ما هو مخطّط حربيّ واقعيّ فقد قدّر أنه مهدّد من جرّاء توغّل الروم وحلفائهم الفرنج. وإذ كان يفضّل لقاءهم على أراضي جاره على أن يلقاهم على أراضيه فإنه لم يتلكّأ في الوصول إلى معسكر السلطان يحفّ به ألوف من فرسانه. وتآخى الفريقان وتشاورا ووضعا الخطط. وأدخل منظر ذلك الحشد من المحاربين والخيول وقد غطّى التلال الطمأنينة إلى قلب الزعيمين، فلسوف ينقضّان على العدو ما إن تسنح الفرصة للانقضاض.

وأخذ قلج أرسلان يتربّص بفريسته وقد زوّده عيونه المنبثّون بين الروم بمعلومات نفيسة. فالفرنج يجاهرون بقرارهم متابعة طريقهم إلى أبعد من نيقية وبرغبتهم في بلوغ فلسطين. وحتى خط سيرهم بات معروفاً:

(۱) و(۲) من كتاب «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي. ص ١٣٤، (المترجم)

سوف ينحدرون نحو الجنوب الشرقي باتجاه قونية المدينة المهمّة الوحيدة التي لا تزال في يد السلطان. وعليه فسوف يعرّض الغربيون جُنوبهم للهجمات على امتداد هذه المنطقة الجبلية التي لا مناص لهم من اجتيازها. وجماع الأمر هو في اختيار موقع الكمين. والأمراء الذين يعرفون المنطقة جيداً لا يتردّدون. فهناك بالقرب من مدينة «دوريله» على مسيرة أربعة أيام من نيقية موضع ينحدر فيه الدرب إلى وادٍ قليل العمق، وإذا تجمع المحاربون الأتراك خلف التلال لم يكن عليهم سوى الانتظار.

وعندما بلغ قلج أرسلان في أواخر شهر حزيران/يونية من عام ١٠٩٧ م أن الغربيين يرافقهم جيش صغير من الروم قد غادروا نيقية كان قد تمّ تجهيز الكمين في موضعه. ولاحت طلائع الفرنج في الأفق في اليوم الأول من شهر تموز/يولية، وكان الفرسان والمشاة يتقدّمون بهدوء، ولم يكن يبدو عليهم قطّ أنهم يرتابون بما ينتظرهم. وكان أخشى ما يخشاه السلطان أن يكتشف روّاد العدو أمر خديعته، ولكنّ شيئاً من ذلك لم يكن على ما يظهر. أمرٌ آخر أثلج صدر الملك السلجوقي هو أن الفرنج يبدون أقل عدداً مما كان قد بلغه. فهل يكون جزء منهم قد بقي في نيقية؟ إنه ليجهل ذلك. ومهما يكن فإنه يتمتّع للوهلة الأولى بالتفوّق العددي. وإذا أضيف إلى ذلك امتياز المباغتة فلا بدّ أن يعود اليومُ عليه بالخير. وقلج أرسلان متوتّر الأعصاب، ولكنه واثق. وكذلك هو دنشمند الحكيم الذي يزيده بعشرين سنة من الخبرة والتجربة.

كانت الشمس قد بزغت لتوّها من خلف التلال عندما صدر الأمر بالهجوم. وتعبئة المحاربين الأتراك حسنة التنظيم، وهي التي كفلت لهم التفوّق العسكري في الشرق منذ نصف قرن، وجيشهم مؤلف كلّه تقريباً من فرسان خِفاف يحسنون استعمال الأقواس بشكل يثير الإعجاب. إنهم يتقدّمون ويمطرون أعداءهم بوابل من السهام القاتلة ثم يبتعدون بأقصى سرعة تاركين المجال لصفٍ جديد من المهاجمين. ولقد أدخلت بضع

موجات متلاحقة منهم فريستهم بعامّةٍ في طور الاحتضار، وعندهـا بدأوا يستعدون للالتحام بها والإجهاز عليها.

ولكن السلطان القابع فوق ربوة هو وأركان جيشه كان قد لاحظ بقلق في يوم معركة «دوريله» تلك أن الطرق التركية القديمة لم تعد لها فعـاليتها المألوفة. والحق أن الفرنـج لا يتمتّعون بـأية رشـاقة، ولا يبـدو أنهم على عجلة للردّ عـلى الهجمات المتكـرّرة. ولكنهم يُبـدون مهـارة فـائقـة في فنّ الـدفاع، وتكمن قـوّة جيشهم الـرئيسيـة في تلك الـدروع الصفيقـة التي يغطّي بها الخيّالة أجسـادهم، وحتى أجساد مـطاياهم أحيـاناً. وإذا كـان تقدّمهم بطيئاً متثاقلاً فإنهم محميّون بشكل تـامّ من السهام. ولقـد أسقط منهم النبّالة الأتراك في ذلك اليوم عدداً كبيـراً من الضحايـا، ولا سيما في صفـوف المشاة، بعـد عدة سـاعـات من العـراك، ولكن معـظم الجيش الفرنجي سَلِم. فهل يلتحم بهم وجهـاً لوجـه؟ إن ذلك ليبـدو ضربـاً من المخاطرة: إنه في المناوشات الكثيرة التي جرت حول ساحة المعركة لم يكن فرسان السهوب قطّ أكفاء لتلك القلاع البشرية الحقيقيـة. هل يمـدّ أجل مرحلة الإرهاق إلى مـا لا نهاية؟ من المحتمـل جداً، وقـد زال الآن فعل المباغتة، أن تصدر المبادرة عن معسكر الخصم.

وكـان قد سبق أن نصـح بعض الأمراء بـالانكفاء عنـدمـا لاحت من بعيد غيمة من الغبار. إنه جيش فرنجي جديـد يقترب، وهـو يمثل عـدد الجيش الأول، ولم يكن أولئك الذين كانت تدور معهم رحى الحرب منذ الصبـاح إلا الطليعـة، وليس أمـام السلطان من خيـار، فعليـه أن يـأمـر بـالانسحاب. وقبـل أن يتمكن من التنفيذ بلغـه أن جيشاً فـرنجياً ثـالثـاً يُشاهَد خلف الخطوط التركية على تلّة مشرفة على خيمة القيادة العامة.

وأسلم قلج أرسـلان قياده إلى الخـوف هذه المـرة فـوثب عـلى صهـوة جـواده وكرّ صـوب الجبال تـاركاً حتى خـزنتـه الشهـيرة التي كـان يحملهـا معه على الدوام لدفع رواتب عساكره. وتبعه دنشمند عن قرب، وكذلك فعل معظم الأمراء. وتمكّن فرسـان كُثُرٌ من الابتعـاد بدورهم مستفيـدين من

الامتياز الوحيد الباقي لهم، وهو السرعة، فلم يقدر الغالبون على اللحاق بهم. وأما معظم الجنود فلبثوا على أرض المعركة محاطين بأعدائهم من كل جانب. وقد كتب ابن القلانسي فيما بعد أن الفرنج «كسروا عسكره (أي عسكر قلج أرسلان) فقتلوا منهم وأسروا ونهبوا وسَبَوْا»[1].

والتقى قلج أرسلان في أثناء فراره زمرة من الفرسان كانوا قد قدموا من الشام للقتال إلى جانبه فباح لهم بأن الأوان قد فات. فأولئك الفرنج كُثُرٌ أشدّاء ولا سبيل لصدّهم. وإذ كان السلطان المهزوم قد قرر انتظار انقضاء الإعصار فقد قرن القول بالفعل وتوارى في رحب الهضبة الأناضولية. ولقد كان عليه أن ينتظر أربعة أعوام كاملة قبل الانتقام.

وبدت الطبيعة وحدها قادرة على الصمود في وجه الغازي المجتاح. فجفاف الأراضي وضيق الدروب في الجبال وحرارة الصيف على طرق غير ظليلة تعوق بعض الشيء تقدم الفرنج، وهم بحاجة بعد «دوريله» إلى مسيرة مئة يوم لاجتياز الأناضول في حين أن شهراً واحداً كان يكفيهم. وكانت انباء الهزيمة التركية قد طبّقت آفاق الشرق في تلك الأثناء. ويقول مؤرخ دمشق في ذلك: «وتواصلت الأخبار بهذه النوبة المستبشعة في حقّ الإسلام فعظم القلق وزاد الخوف والفَرَق»[2].

وسرت شائعات متلاحقة عن وصول الفرسان المرهوبين الوشيك. وفي آخر شهر تموز/يوليه ورد الخبر بقربهم من قرية «البلانة» الواقعة في أقصى شمال الشام. وتجمّع ألوف الفرسان لمواجهتهم، ولكنه كان إنذاراً كاذباً ولم يَلُحِ الفرنج في الأفق، فأخذ أكثر الناس تفاؤلاً يتساءلون عما إذا لم يكن الغزاة قد عادوا أدراجهم، ويردّد ابن القلانسي صدى ذلك عبر واحد من تلك الرموز الفلكية المحبّبة إلى قلوب معاصريه فيقول: «وفي شعبان (سنة ٤٩٠ هـ) ظهر الكوكب ذو الذؤابة من الغرب وأقام

(١) و(٢) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي. ص ١٣٤، (المترجم)

طلوعه تقدير عشرين يوماً ثم غاب فلم يظهر»[1]. ولكن سرعان ما تبدّدت الأوهام فأخذت الأنباء تزداد دقّة، وأصبح بالإمكان منذ منتصف شهر أيلول/سبتمبر متابعة تقدّم الفرنج من قرية إلى أخرى.

وفي الحادي والعشرين من شهر تشرين الأول/أوكتوبر ١٠٩٧ م تعالت الصيحات من أعالي حصن أنطاكية أكبر مدينة في الشام «إنهم هنا!»، واندفع بعض المتسكّعين صوب الأسوار، ولكنهم لم يروا سوى غيمة مبهمة من الغبار بعيداً جداً في طرف السهل قرب بحيرة أنطاكية، فما يزال الفرنج على مسيرة يوم، وربما أكثر، وكل شيء يدعو إلى الاعتقاد بأنهم راغبون في التوقّف لنيل قسط من الراحة بعد رحلتهم الطويلة. ومع ذلك فإن الحيطة تقضي بالإسراع في إقفال أبواب المدينة الخمسة المتينة.

وهدأت جلبة الصباح في الأسواق، وسكن الباعة والشارون، وقامت بعض النسوة يتلون الأدعية، وران الخوف على المدينة.

(١) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي ص ١٣٤، (المترجم)

زرّاد ملعون

«حين بلغ ياغي سيان صاحب أنطاكية نبأ اقتراب الفرنج خاف أن يتمرّد نصارى المدينة، وعليه فقد قرّر طردهم»[1].

والمؤرخ العربي ابن الأثير هو الذي سيروي الحادثة، بعد أكثر من نصف قرن على بدء الغزو الفرنجي، بالاستناد إلى الشهادات التي خلّفها المعاصرون:

«في اليوم الأول أمر ياغي سيان المسلمين بالخروج لتنظيف الخنادق المحيطة بالمدينة. ولم يرسل في اليوم التالي للعمل نفسه إلا النصارى. وجعلهم يعملون حتى المساء، وحين أرادوا العودة منعهم منها قائلاً: «أنطاكية لكم ولكنْ عليكم أن تتركوها لي حتى أُنهي أمري مع الفرنج». وسألوه: «ومن يحمي أولادنا ونساءنا؟» فأجاب الأمير: «أنا أتولى الأمر عنكم». وقد حمى بالفعل عائلات المطرودين ولم يسمح بأن تُمسّ شعرة في رؤوسهم»[2].

في ذلك الشهر، تشرين الأول/أوكتوبر من عام ١٠٩٧ م، كان ياغي

(١) و (٢) النص العربي كما ورد في كتاب «الكامل في التاريخ» لابن الأثير هو: «ولما سمع صاحبها (أي صاحب انطاكية) ياغيسيان بتوجّههم (أي الفرنج) إليها خاف من النصارى الذين بها فأخرج المسلمين من أهلها ليس معهم غيرهم وأمرهم بحفر الخندق، ثم أخرج من الغد النصارى لعمل الخندق أيضاً ليس معهم مسلم فعملوا فيه إلى العصر، فلما أرادوا دخول البلد منعهم وقال لهم: «أنطاكية لكم تهبوها لي حتى أنظر ما يكون منّا ومن الفرنج» فقالوا له: «من يحفظ ابناءنا ونساءنا؟» فقال: «أنا أخلفكم فيهم». ج ٨، ص ١٨٦. (المترجم).

سيان العجوز الذي قضى أربعين عاماً في خدمة السلاطين السلاجقة يعيش في هاجس الخوف من خيانة. فهو مقتنع بأن عسكر الفرنج المحتشدين أمام أنطاكية لن يتمكّنوا أبداً من دخولها إلا إذا اطمأنوا إلى وجود تواطؤ داخل أسوارها لأنه لا يمكن الاستيلاء على مدينته باقتحامها، والحظّ للاستيلاء عليها بالحصار والتجويع أقلّ من ذلك أيضاً. والصحيح أن ما يملك هذا الأمير ذو اللحية التي وخّطها الشيب من عسكر لا يتعدّى ستة آلاف أو سبعةً، في حين يحشد الفرنج قرابة ثلاثين ألف مقاتل، ولكنّ أنطاكية موقع حصين لا يمكن عملياً الاستيلاء عليه، وطول سورها فرسخان وعليه ما لا يقلّ عن ثلاثمئة وستين برجاً مبنية على ثلاثة مستويات مختلفة. والسور المبنيّ بشكل متين من حجارة منحوتة ولبن فوق دعامة مرصوصة يرتفع إلى الشرق فيبلغ جبل حبيب النجّار ويتوّج قمّته بقلعة حصينة. وهناك في الغرب النهر الذي يدعوه أهل الشام العاصي، «النهر المتمرّد»، لأنه يوحي في بعض الأحيان بأنه يجري بعكس ما تجري الأنهار، أي من البحر المتوسط إلى داخل البلاد. ويحاذي مجراه أسوار أنطاكية مشكّلاً عقبة طبيعية ليس من اليسير اجتيازها. وفي الجنوب تشرف التحصينات على وادٍ شديد الانحدار حتى ليبدو مُنْحَدَرُه وكأنه امتداد للأسوار. ومن هذا الواقع يستحيل على المحاصرين حصار المدينة حصاراً كاملاً، ولا يجد المدافعون عنها أي بأس في الاتصال بالخارج والتموّن.

ومدّخرات المدينة الغذائية من الوفرة بحيث تسيّج أسوارها، علاوة على الأبنية والحدائق، مساحات شاسعة من الأراضي المزروعة. وقد كانت أنطاكية قبل الفتح الإسلامي مدينة رومانية سكّانها مئتا ألف نسمة؛ وعدد سكّانها في عام ١٠٩٧ م لا يتجاوزون أربعين ألفاً، وقد حُوِّل كثير من أحيائها التي كانت مأهولة قديماً إلى حقول وبساتين. وعلى الرغم من فقدانها أبهّتها الماضية فإنها لا تزال مدينة تثير الإعجاب. وجميع المسافرين - حتى وإن قدِموا من بغداد أو القسطنطينية - يبهرهم من النظرة الأولى مشهد هذه المدينة المترامية على امتداد البصر بمآذنها

وكنائسها وأسواقها المقنطرة وداراتها الفخمة الملتصقة بالسفوح المحّرجة، المائلة المصعّدة نحو القلعة.

لم يكن ياغي سيان يبدي أي قلق إزاء متانة تحصيناته ولا بشأن مُؤَنه. ولكنّ جميع وسائل دفاعه تغدو عديمة الجدوى إذا توصّل المحاصرون إلى العثور في موضع ما من السور الطويل على متواطيء يفتح لهم باباً أو يسهّل لهم أمر الوصول إلى برج، كما سبق أن حدث في الماضي. ومن هنا كان قراره بطرد معظم رعاياه من النصارى. ونصارى الشرق من الأروام والأرمن والموارنة واليعاقبة، في أنطاكية أو في غيرها، يخضعون منذ مجيء الفرنج إلى اضطهاد مزدوج: اضطهاد إخوتهم في الدين من الغربيين الذين يتهمونهم بالتعاطف مع العرب ويعاملونهم على أنهم رعايا من رتبة أدنى، واضطهاد مواطنيهم المسلمين الذين كثيراً ما يرون فيهم حلفاء طبيعيين للغُزاة. والحدّ الفاصل بين الانتماءات الدينية والوطنية معدوم عملياً في الواقع. فلفظة «روم» نفسها تطلق على البيزنطيين ونصارى الشام الذين يمارسون الطقوس الرومية ويعتبرون أنفسهم من جهة ثانية على الدوام من رعية القيصر؛ وكلمة «أرمني» تُطلق في وقت معاً على كنيسة وعلى شعب، وعندما يتحدّث المسلم عن «الأمّة» فإنما يعني جماعة المسلمين بالذات. وفي خَلَد ياغي سيان أن طرد النصارى ليس من قبيل التمييز الديني، وإنما هو إجراء يشمل في زمن الحرب رعايا قوّةٍ معادية هي القسطنطينية التي كانت أنطاكية تابعة لها زمناً طويلاً ولم تتخلّ قط عن فكرة استرجاعها.

لقد كانت أنطاكية آخر مدينة من كبريات مدن آسيا العربية تقع تحت سيطرة الأتراك السلاجقة، ففي عام ١٠٨٤ م كانت لا تزال تابعة للقسطنطينية. وإذ أتى الفرسان الفرنج لحصارها بعد ثلاثة عشر عاماً فقد كان من الطبيعي أن يقتنع ياغي سيان بأن الأمر محاولة من السلطات الرومية لاستعادتها بتواطؤ من السكّان المحليين الذين هم في معظمهم من النصارى. وأمام هذا الخطر لم يتحرّج الأمير من طرد «النصارى» -

أتباع الناصريّ، كما يسمّيهم العرب ـ وأشرف بنفسه على تموين الناس بالقمح والزيت والعسل، وكان يتحقّق يومياً من التحصينات فارضاً أشدّ العقوبة لقاء أيّ إهمال. فهل كان ذلك كلّه كافياً؟ ليس ما هو أدنى إلى الريب، ولكنّ التدابير المتّخذة لا بدّ أن تسمح بالصمود بانتظار وصول المَدَد، فمتى يصل؟ إن من يقيم في أنطاكية يلحّ في طرح هذا السؤال، وليس في وسع ياغي سيان أن يجيب عنه بأكثر ممّا في وسع رجل الشارع. ومنذ بدء الصيف، وكان الفرنج ما يزالون بعيدين، أوفد ابنه إلى قادة الشام لإعلامهم بما يتربّص بمدينته من خطر. ويخبرنا ابن القلانسي أن ابن ياغي سيان قد تحدّث في دمشق عن الجهاد. ولكنّ الجهاد لم يكن في بلاد الشام في القرن الحادي عشر (الميلادي) سوى شعار يرفعه الأمراء الواقعون في ضيق. ولكي يقبل أميرٌ بأن يُنجد أميراً آخر فلا بدّ أن يجد في إنجاده بعض النفع لنفسه، وعندها فقط يتجلّى له أن يتذرّع بالمبادىء الكبرى.

والحقّ أن أيّ مسؤول غير ياغي سيان نفسه لم يكن في ذلك الخريف من عام ١٠٩٧ م يشعر بأنه مهدّد مباشرة بالغزو الفرنجي. وإذا كان مرتزقة الإمبراطور راغبين في استعادة أنطاكية فليس هناك ما يخرج عن المألوف لأن هذه المدينة طالما كانت بيزنطية. وكان الاعتقاد السائد أن الروم لن يذهبوا إلى أبعد من ذلك على كل حال. ولأن يكون ياغي سيان في ضيق فليس ذلك حتماً بالأمر المزعج لجيرانه. فلقد عبث بهم منذ عشر سنوات زارعاً التفرقة، مؤجّجاً التحاسد، قالباً موازين التحالفات. وإذ يطلب إليهم الآن أن ينسوا صراعاتهم ويسعفوه فهل يدهش لرؤيتهم يتخلّفون عن النهوض لنجدته؟

إن ياغي سيان، بوصفه رجلاً واقعياً، يعلم أنهم سيجعلونه ينتظر عبثاً، وأنهم سيجبرونه على استجداء العون، وأنهم سيحملونه على دفع ثمن مهاراته ودسائسه وخياناته. ولكنه يتصوّر مع ذلك أن الأمر لن يبلغ بهم حدّ تسليمه مغلول اليدين والقدمين إلى مرتزقة القيصر. وبعدُ فإنه لم

يَسْعَ إلى أكثر من ضمان بقائه حيّاً وسط وكر لا يرحم من الزنابير. والصراعات الدامية لا تعرف التوقّف في العالَم الذي يتخبّط فيه صاحب أنطاكية، عالم الأمراء السلاجقة، وهو مضطر، شأنه شأن أمراء المنطقة الآخرين، إلى اتخاذ موقف. فلو حدث أن كان في الصفّ الخاسر فالموت في انتظاره، أو على الأقل السجن والنكبة. وإذا حالفه الحظّ وكان في المعسكر الفائز فإنه يتمتّع بنصره إلى حين ويكافأ ببعض السبايا الحسناوات قبل أن يتورّط من جديد في صراع يخاطر فيه بحياته. وعلى المرء لكي يحافظ على وجوده أن يراهن على الجواد الصالح، لا أن يعاند في المراهنة على الجواد نفسه باستمرار. وأيّ خطأ كفيل بأن يودي بصاحبه، وقلّة قليلة هم الأمراء الذين ماتوا في أسِرَّتهم.

والحياة السياسية في بلاد الشام كانت تسمّمها لدى وصول الفرنج «حرب الأَخَوَيْن»، وهما شخصيتان عجيبتان كأنهما أفلتتا للتوّ من مخيّلة قصّاص شعبي: رضوان ملك حلب، وأخوه الأصغر دُقاق ملك دمشق، وكلاهما يضمر للآخر بُغضاً مُقيماً لا يسمح لهما معه شيء، ولا حتى خطر يتهدّدهما معاً، بالتفكير في التصالح. وعمر رضوان في عام ١٠٩٧ م أكثر من عشرين سنة بقليل، ولكنْ تحيط به مع ذلك هالة من السحر وتشيع من حوله أشدّ الحكايات إثارة للرعب. وقد كان قصير القامة نحيلاً حادّ النظرات وإن نمّت نظراته أحياناً عن خوف. وربما كان قد وقع، كما يقول لنا ابن القلانسي، تحت سلطان «حكيم منجّم» ينتمي إلى فرقة الحشاشين التي كانت قد أبصرت النور منذ عهد قريب، وسيكون لها دور مهمّ على امتداد زمن الغزو الفرنجي، وتتجّه أصابع الاتهام - وليس ذلك من غير سبب - إلى ملك حلب باستخدام أولئك المتعصّبين للتخلّص من خصومه. ولقد أيقظ رضوان بجرائم القتل وانعدام التقوى وتعاطي أمور السحر الحذرَ في نفوس جميع الناس، ولكنّ أشدّ البغضاء وأقواها كانت التي أثارها في كنف أسرته بالذات. فلدى ارتقائه العرش عام ١٠٩٥ م دبّر خنق اثنين من إخوته الصغار خشية أن ينازعاه

السلطان ذات يوم؛ ولم ينجُ ثالث إلا بالهرب من قلعة حلب في الليلة التي كان مقدّراً فيها أن تُطبِق أيدي العبيد القوية على خناقه. وكان هذا الناجي دُقاق الذي نذر لأخيه الأكبر مذّاك كرهاً أعمى. وقد التجأ بعد هربه إلى دمشق فأعلنته حاميتها ملكاً. وعاش هذا الشاب الضعيف الإرادة، الشديد التأثّر بالآخرين، السريع الغضب والعطب، يساوره هاجس رغبة أخيه في قتله. وإذ كان مقدّراً لياغي سيان أن يجد نفسه بين هذين الأميرين نصف المجنونين فإن مهمّته لم تكن باليسيرة. فجاره المباشر هو رضوان الذي تقع عاصمته حلب، إحدى أقدم مدن الدنيا، على مسيرة أقل من ثلاثة أيام من أنطاكية. وكان ياغي سيان قد زوّجه ابنته قبل وصول الفرنج بعامين، ولكنّه سرعان ما أدرك أن هذا الصِهر يطمع في ملكه فأخذ بدوره يخشى على حياته منه. وفرقة الحشاشين تقضّ مضجعه كما تقضّ مضجع دُقاق. وإذ كان طبيعياً أن يقرّب الخطر المشترك بين الرجلين فقد توجّه ياغي سيان أوّل ما توجّه إلى ملك دمشق حين كان الفرنج يزحفون على أنطاكية.

ولكنّ دُقاق لا يقرّ له قرار. لا لأن الفرنج يخيفونه، وهذا ما يؤكّده، ولكنْ لأنه لا يرغب في سَوْق جيشه إلى جوار حلب متيحاً بذلك لأخيه فرصة الانقضاض عليه من خلف. ولقد أرسل إليه ياغي سيان ـ وكان يعرف مقدار صعوبة انتزاع قرار من حليفه ـ ابنه شمس الدولة، وهو شاب نابه مندفع مشبوب العاطفة لا يعرف التراخي. ورابط شمس في البلاط الملكي يلحف في الطلب من الملك ومستشاريه مختالاً تارة ومهدّداً طوراً. بيد أن صاحب دمشق لم يقبل المسير على مضض بجيشه نحو الشمال إلا في كانون الأول/ديسمبر ١٠٩٧م، أي بعد شهرين من بدء معركة أنطاكية. ورافقه شمس لأنه كان يعلم أن أمام دُقاق متسع من الوقت للعدول عن رأيه خلال أسبوع من المسير. والحقّ أن الملك الشاب كان يبدو أكثر ضيقاً كلما أوغل في الطريق. وفي الحادي والثلاثين من كانون الأول/ديسمبر، وكان جيش دمشق قد قطع ثلثي الرحلة،

التقى زمرة من الفرنج كانوا قد جاءوا يعيثون فساداً في تلك الناحية. وعلى الرغم من تفوّق دُقاق العددي والسهولة النسبية التي نجح بها في تطويق العدو فإنه رفض إعطاء الأمر بالهجوم. وقد أتاح ذلك للفرنج الذين كانوا قد فقدوا صوابهم في وقت من الإوقات فرصة الثواب إلى رشدهم والتخلّص من الطوق المضروب. وعندما شارف النهار على الانتهاء لم يكن هناك غالب ولا مغلوب، ولكنّ الدمشقيين كانوا قد فقدوا من الرجال أكثر ممّا فقد خصومهم: وما كان دُقاق بحاجة إلى أكثر من ذلك لِتَهِنَ عزيمته، فإذا به يأمر رجاله على الفور بأن يعودوا أدراجهم على الرغم من توسّلات شمس المفعمة بالقنوط.

وفي أنطاكية أثار ارتداد دُقاق أشدّ المرارة، ولكنّ حُماتها لا يستسلمون. وفي تلك الأيام الأولى من عام ١٠٩٨ م دبّ الاضطراب، ويا للعجب، في معسكر المحاصرين. فقد أفلح كثير من جواسيس ياغي سيان في الانسلال إلى صفوف العدو. وكان بعض أولئك المخبرين يتصرّفون بدافع الكره للروم، ولكنّ معظمهم كانوا من نصارى المدينة الآملين في الحُظوة لدى الأمير جزاء ما يفعلون. فقد تركوا أُسَرَهم في أنطاكية وهم يَسْعَوْن إلى ضمان سلامتها. والمعلومات التي ينقلونها تدخِل الطمأنينة إلى قلوب السكان: فبينما لا تزال مؤن المحاصَرين وفيرة فإن الفرنج فريسة للمجاعة. ولقد أُحصي منهم مئات الموتى، ومعظم مطاياهم ذُبحت. وكانت غاية الحملة التي اصطدمت بجيش دمشق هي بالضبط العثور على بعض الخِراف والماعز ونهب الأهراء. وكانت تنضاف إلى الجوع نكبات أخرى تحطّم كل يوم مزيداً من معنويات الغُزاة. فقد تساقط المطر بلا انقطاع مؤكداً اللقب الزقاقي الذي يُطلقه أهل الشام على أنطاكية وهو «الشخّاخة»، وغرق معسكر المحاصِرين في الوحل. ثم إن هناك هذه الأرض التي لا تنفكّ تُزَلْزَل. إن أهل المدينة قد أَلِفوا أمرها، وأما الفرنج فلا ينفكون يرتعدون منه فَرَقاً؛ وجلبة صلواتهم عندما يجتمعون للابتهال إلى السماء معتقدين أنهم ضحايا عقاب إلهي

تعالى فتُسمع في المدينة. ويقال إنهم قرّروا لكي يهدّئوا من غضب الله تعالى أن يطردوا من معسكرهم البغايا ويغلقوا الحانات ويمنعوا القمار بالنرد. وكثيرة هي حالات الفرار، حتى في صفوف القادة.

وبديهي أن ترفع مثل هذه الأخبار من روح القتال لدى المدافعين الذين أخذوا يضاعفون هجماتهم الباسلة. كما سيقول لنا ابن الأثير فإنه «ظهر من شجاعة ياغي سيان وجودة رأيه وحزمه واحتياطه ما لم يشاهد من غيره»[1]. ويضيف المؤرخ العربي مدفوعاً باعتزازه وحماسته: «فهلك أكثر الفرنج موتاً، ولو بقوا على كثرتهم التي خرجوا فيها لطبّقوا بلاد الإسلام»[2]. وإنها لمبالغة مضحكة، ولكنها تعبّر عن تكريم مستحقّ لبطولة حامية أنطاكية التي ستتحمّل وحدها وطأة الغزو شهوراً طويلة.

ذلك لأن النجدة ما تزال في طور الترقّب والانتظار. وفي كانون الثاني/يناير ١٠٩٨ م اضطر ياغي سيان الذي قرّحه خَرَع دُقاق إلى التوجّه شطر رضوان. وكُلّف شمس الدولة من جديد مشقّة تقديم أشدّ اعتذاراته إلى ملك حلب، والإصغاء من غير اعتراض إلى تهكّماته، والتوسّل إليه باسم الإسلام وروابط القربى أن يتكرّم بإرسال عسكره لإنقاذ أنطاكية. وشمس يعرف تماماً أن هذا النوع من الحجج لا يثير في صهره الملكي أيّة نخوة، وأنه ربّما فضل أن تُقطع يده على أن يمدّها إلى ياغي سيان. ولكنّ الأحداث أشدّ قهراً. فالفرنج الذين يزداد وضعهم الغذائي حراجة قد قاموا بغزوة لأراضي الملك السلجوقي ناهبين ومدمّرين حتى أرباض حلب، ورضوان يشعر للمرة الأولى بوطأة التهديد المحيق بأملاكه الخاصة. وعليه فقد قرّر إرسال جيشه لمواجهة الفرنج بدافع حماية نفسه أكثر مما هو بدافع مساعدة أنطاكية. وانتصر شمس وأبلغ أباه رسالة يُعلِمُه فيها بموعد الهجوم الحلبي ويسأله الخروج بأعداد كبيرة للإمساك بالمحاصرين في فكّ كمّاشة.

وفي أنطاكية كان انقطاع الرجاء في تدخّل رضوان من الشدّة بحيث

(١) و(٢) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٨، ص ١٨٦. (المترجم)

بدا وكأنه هدّية من السماء. أتراه المنعطف الحاسم لهذه المعركة التي تدور رحاها منذ أكثر من مئة يوم؟

وبُعيْد ظهر التاسع من شباط/فبراير ١٠٩٨ م أعلن المترقّبون القابعون في القلعة عن اقتراب جيش حلب. وهو يعدّ عدّة آلاف من الفرسان في حين لا يستطيع الفرنج أن يحشدوا سوى سبعمئة أو ثمانمئة لفداحة ما أحدثته المجاعة من تلف في المطايا. وأراد المحاصَرون المتأهّبون منذ عدّة أيام فتح المعركة على الفور. ولكنْ لما كان عسكر رضوان قد توقّفوا وأخذوا ينصبون الخيام فقد تأجّل الأمر بالقتال إلى اليوم التالي. وتوالت الاستعدادات طوال الليل، وبات كل جندي يعرف على وجه الدقّة مكانَ جَوَلانِه وزمانَه. وياغي سيان واثق من رجاله ومتأكّدٌ من تنفيذهم ما يعود إليهم تنفيذه من الاتفاق.

ولكنّ ما يجهله الجميع هو أن المعركة كانت خاسرة حتى قبل خوضها. فإذ كان ما يُحكى عن صفات الفرنج القتالية قد ألقى الرعب في قلب رضوان فإنه لم يجرؤ على الإفادة من تفوّقه العددي. وبدلاً من أن ينشر عساكره فإنه لم يكن يسعى إلا إلى حمايتهم. ولكي يتجنّب كل خطر بالحصار فقد حشر نفسه طوال الليل في شريط ضيّق من الأرض بين نهر العاصي وبحيرة أنطاكية. وعندما بدأ الفرنج بالهجوم فجراً بدا الحلبيون وكأنهم مشلولون. فقد امتنع عليهم التحرّك بسبب ضيق الساحة. وهاجت المطايا. وقبل أن يتمكّن الساقطون من النهوض كانت مطايا إخوتهم الراكبين قد داستهم. ولم يكن ليجدي بالطبع تطبيق الطرق القتالية التقليدية وإطلاق موجات متتابعة من الفرسان النبّالة على الأعداء. وأجبر رجال رضوان على الالتحام بالفرسان المدرعين بالشّكات الذين ما لبثوا أن احرزوا في يسر تفوّقاً ساحقاً. وكانت مجزرة حقيقية. ولم يكن للملك وجيشه وقد جدّ الفرنج في أثرهم من شاغل سوى الفرار بشكل فوضوي يستعصي على الوصف.

وأما عند أسوار أنطاكية فكانت المعركة تدور بشكل مختلف. فمنذ

خيوط الصباح الأولى خرج المدافعون بكثافة خرجة أجبرت المحاصيرين على التقهقر. وبدا القتال ضارياً وجنود ياغي سيان في موقع ممتاز. وكانوا قد بدأوا قبيل الظهر بمحاصرة معسكر الفرنج عندما بلغتهم أنباء هزيمة الحلبيين، فأوعز الأمير إلى رجاله والأسى يعصر فؤاده أن يلوذوا بمدينتهم. وما كادوا يتمون انسحابهم حتى رجع الفرسان الذين هزموا رضوان وهم محمّلون بأسلاب جنائزية. وما لبث أهل أنطاكية أن سمعوا قهقهات عريضة وبعض الصَفَرات الخافتة قبل أن يروا رؤوس الحلبيين الممثّلِ بها أشنع تمثيل تتساقط على أرضهم وقد قذفت بها المجانيق. واستولى على المدينة صمت كصمت القبور.

وعلى الرغم من بذل ياغي سيان ما وسعه من توزيع عبارات التشجيع من حواليه فقد شعر للمرّة الأولى أن الخناق يشتدّ على مدينته. فبعد انهزام الأخوين اللدودين لم يبقَ ما ينتظره من أمراء الشام. عونٌ وحيد كان قد بقي له: صاحب الموصل الأمير القوي كربوقا، ولكنّ سيّئته أنه يقيم على مسيرة أكثر من أسبوعين من أنطاكية.

والموصل، موطن المؤرّخ ابن الأثير، هي عاصمة الجزيرة، جزيرة الفرات، أي ذلك السهل الخصب الذي يرويه النهران الكبيران دجلة والفرات. وهي مركز سياسي وثقافي واقتصادي من الدرجة الأولى في الأهمية. والعرب يفاخرون بثمارها الشهية، بتفاحها وإجّاصها وعنبها ورمّانها. والعالم بأسره يقرن اسم الموصل بالنسيج الناعم الذي تصدّره، «الموسلين». وعند قدوم الفرنج كانت قد بدأت تُستخرج من أراضي الأمير كربوقا ثروةٌ من نوع آخر وصفها الرحالة ابن جبير بإعجاب بعد ذلك ببضع عشرات من السنين: ينابيع النفط. وكان هذا السائل الأسمر النفيس الذي سوف يشكّل ذات يوم ثروة هذا الجزء من العالم قد بدأ بالظهور أمام عيني المارة:

«مررنا بموضع يُعرف بالقيّارة بمقربة من دجلة. وبالجانب الشرقي منها، وعن يمين الطريق إلى الموصل فيه، وهدةٌ من الأرض سوداء كأنها

سحابة قد أَنْبَطَ الله فيها عيوناً كباراً وصغاراً تنبع بالقار، وربما يقذف بعضُها بحَبَابٍ منه كأنه الغليان، ويُصنع له أحواض يجتمع فيها فتراه شبه الصلصال منبسطاً على الأرض أسودَ أملسَ صقيلاً رطباً عطرَ الرائحة شديدَ التعلّك فيلصقُ بالأصابع لأوّل مباشرة من اللمس.

«وحول تلك العيون بِرْكَةٌ كبيرة سوداء يعلوها شبه الطحلب الرقيق أسود تقذفه إلى جوانبها فيرسب قاراً؛ فشاهدنا عجباً كنا نسمع به فنستغرب سماعه».

«وبمقربة من هذه العيون على شطّ دجلة عينٌ أخرى منه كبيرة أبصرنا على البُعد منها دخاناً فقيل لنا إن النار تُشعل فيه إذا أرادوا نقله، فتنشّف النار رطوبته المائية وتعقده فيقطعونه قطرات ويحملونه. وهو يعمّ جميع البلاد إلى الشام إلى عكّة إلى جميع البلاد البحرية. والله يخلق ما يشاء، سبحانه تعالى جَدُّه وجلّت قدرته لا ربّ غيره»(١).

ويعزو سكان الموصل إلى السائل الأسمر فضائل شِفائية ويأتون للغطس فيه إذا مرضوا. ويُستخدم كذلك القار الذي ينتج عن النفط في البناء لِلَزْب القرميد. وإذ كان يمنع تسرّب الماء فإنه يستعمل لطلاء جدران الحمّامات فيبدو وكأنه رخام أسود مصقول. ولكنْ أكثرُ ما يُستعمل النفط في الحقل العسكري كما سنرى.

وللموصل بمَعْزِل عن ثرواتها العميمة دورٌ استراتيجي أساسي في بداية الغزو الفرنجي. وإذ كان حكامها قد اكتسبوا حقّ الرقابة والتوجيه في أمور بلاد الشام فقد عقد كربوقا الطمّوحُ النيّة على ممارسة ذلك الحقّ. وفي رأيه أن هذا النداء من ياغي سيان للنجدة هو الفرصة التي طالما حلم بها لبسط سلطانه. وبلا تردّدٍ وَعَدَ بحشد جيش كبير. ومذّاك لم يَعُدْ لأنطاكية من شاغل إلا انتظار كربوقا.

لقد كان هذا الرجل الذي جاءت به العناية الإلهية عبداً فيما مضى،

---

(١) «رحلة ابن جبير»، بالنص العربي، ص ١٦٧. (المترجم)

بيد أنّ ذلك ما كان ليقلّل من شأنه في عيون الأمراء الأتراك. فقد تعوّد الأمراء السلاجقة في الواقع أن يعيّنوا أخلص عبيدهم وأكثرهم فطنة وموهبة في مراكز المسؤولية. وكثيراً ما كان قوّاد الجيش وحكّام المدن عبيداً، «مماليك»، وكان سلطانهم من القوّة بحيث لم يكونوا يحتاجون حتى إلى العتق بصورة رسمية. ولسوف يصبح حكّام الشرق المسلم بأسره من السلاطين المماليك حتى قبل انتهاء الاحتلال الفرنجي. زد على ذلك أن أكثر الرجال نفوذاً في دمشق والقاهرة وعدد كبير من العواصم كانوا عام ١٠٩٨ م عبيداً أو أبناء عبيد.

وكان كربوقا واحداً من أنفذهم. وكان هذا الضابط الشديد السطوة ذو اللحية الموخّطة بالشيب يحمل لقب «أتابك» التركي، وهو يعني حرفياً «والد الأمير». ففي الإمبراطورية السلجوقية يصيب الموت بكثرة أفراد الأسرة الحاكمة ـ معارك وجرائم قتل وحوادث إعدام ـ وغالباً ما يتركون ورثة قاصرين. وللحفاظ على مصالح هؤلاء الورثة يُعينّ للواحد منهم وصيٌّ يتزوج بشكل عام والدة الموصى عليه لتأدية دور الأب المتبنّي على أكمل وجه. ويصبح أولئك الأتابكة تبعاً لكل منطق أصحاب السلطان الحقيقيين، وغالباً ما يورثونه أبناءهم الذين هم من لحمهم ودمهم. وعليه فإنه لا يكون الأمير الشرعي إلا دُمية في أيديهم، وحتى رهينة في بعض الأحيان. ولكنْ كان يُحرص على الدقّة في احترام المظاهر، و«يقود» الجيوشَ رسمياً أطفالٌ في الثالثة أو الرابعة من العمر وقد «فوّضوا» سلطانهم إلى أتابكتهم.

وذلكم هو بالضبط المشهد الغريب الذي تجلّى في أواخر شهر نيسان/أبريل ١٠٩٨ م يوم احتشد زهاء ثلاثين ألف رجل في خراج الموصل، وأعلن الفَرَمان الرسمي أن المقاتلين البواسل سيقومون بواجب مجاهدة الكفار بإمرة طفل سلجوقي لا يُعرف من أمره شيء، وقد عَهِد من مقامطه بقيادة الجيش إلى الأتابك كربوقا.

وحسبما يقول المؤرخ ابن الأثير الذي سيقضي حياته في خدمة أتابكة

الموصل فإنه «لما سمعت الفرنج عظمت المصيبة عليهم وخافوا لما هم فيه من الوهن وقلّة الأقوات عندهم»[1]. وبالمقابل انتعشت آمال المدافعين فتأهبوا كرّة أخرى للخروج عند اقتراب عساكر المسلمين. وبالمصابرة نفسها أخذ ياغي سيان يعاضده بعزم ابنه شمس الدولة في التحقّق من مخزون القمح والنظر في التحصينات واستنهاض همّة العسكر بوعدهم بقرب انتهاء الحصار «بإذن الله».

ولكنّ ما كان يبديه من ثقة لم يكن إلا مظهراً خدّاعاً فمنذ أسابيع والوضع في تدهور محسوس. فقد اشتدّ حصار المدينة عن ذي قبل، وأصبح التموين أعسر، وكان أكثر ما يشغل البال فوق ذلك أن المعلومات عن معسكر العدو باتت شديدة النُدرة. فالفرنج الذين أدركوا على ما يبدو أن كلّ ما يقولونه أو يفعلونه يُنقل أمره إلى ياغي سيان عقدوا العزم على البطش. فقد شاهدهم عيون الأمير يقتلون رجلاً ويشوونه على سفّود ويأكلون لحمه وهم يصيحون بأعلى أصواتهم أن أي جاسوس يُقبض عليه سوف يلقى المصير نفسه. وإذ دبّ الهلع في قلوب المُخبرين فقد لاذوا بالفرار ولم يعُد ياغي سيان يعلم من أمر المحاصرين شيئاً يُذكر. ولما كان جندياً محنّكاً فقد رأى أن الوضع مُقنط للغاية.

بيد أن مايُطَمْئِنه هو عِلْمُه بأنّ كربوقا في الطريق إليه. وينبغي أن يكون هنا مع عشرات الألوف من رجاله في أواسط شهر أيار/مايو. وجميع الناس في أنطاكية يرتقبون هذه اللحظة. وفي كل يوم تسري شائعات يرّوجها بعض سكان المدينة ممن ينظرون إلى أمانيهم وكأنها حقائق. وكثر الهمس والركض نحو الأسوار وإلحاف العجائز بحنان الأمهات على بعض الجنود الذين لما تنبت لحاهم بالسؤال. وكان الجواب واحداً على الدوام. كلا، لّما تظهرْ جيوش النجدة، ولكنها لا يمكن أن تتأخر عن المجيء.

كان الجيش المسلم الكبير يبدي وهو يغادر الموصل مشهداً باهراً

(١) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٨، ص ١٨٧. (المترجم)

بالتماعات رماحه التي لا تُحصى تحت أشعة الشمس، وبراياته السوداء، شعار العباسيين والسلاجقة، وهي تخفق وسط بحر من الفرسان المتلفّعين بالبياض. وعلى الرغم من شدّة الحرارة فقد كانت خطاهم حثيثة، وإذا استمروا على هذا المنوال فإنهم سيكونون في أنطاكية في أقلّ من أسبوعين. ولكنّ كربوقا منشغل البال. فقد تلقّى قبيل الرحيل أنباء مقلقة مفادها أن زمرة من الفرنج تمكّنت من الاستيلاء على الرُّها، وهي مدينة أرمنية كبيرة واقعة شمال الطريق المؤدّية من الموصول إلى أنطاكية. وليس في وسع الأتابك الامتناع عن التفكير في أن فرنج الرُّها سيكونون خلفه عند اقترابه من المدينة المحاصَرة. أفلا يوشك أن يقع في فكّ كمّاشة؟ وجمع في الأيام الأولى من شهر أيار/مايو أمراءه الرئيسيين ليبلغهم أنه قرّر تعديل طريقه، فسوف يتّجه أوّلاً نحو الشمال ويسوّي معضلة الرُّها في بضعة أيام، وبعدها يستطيع مواجهة محاصري أنطاكية من غير أن يعرّض نفسه للخطر. واحتجّ بعضهم مذكّرين بنداء ياغي سيان الحافل بالكرب. ولكنّ كربوقا أسكتهم، فهو ما إن يتخذ قراراً حتى يغدو عنيداً كمثل تيس. وفيما كان الأمراء يطيعون على مضض كان الجيش يوغل في الدروب الجبلية المؤدية إلى الرُّها.

والواقع أن وضع المدينة الأرمنية يشغل البال، وقد نقل الأخبار عن ذلك قلّة قليلة من المسلمين الذين تمكنوا من مغادرتها. فقد وصل في شباط/فبراير قائد فرنجي اسمه بغدوين على رأس عدّة مئات من الفرسان وأكثر من ألفين من المشاة. انه الذي دعاه صاحب المدينة «طوروس»، وهو أمير أرمني عجوز، لدعم حاميتها في وجه هجمات المحاربين الأتراك المتكرّرة. ولكنّ بغدوين رفض أن يكون مجرّد مرتزق، وهو يطالب بإعلانه وريثاً شرعياً لـ«طوروس»، وقد قبِل هذا لأنه طعن في السنّ ولا ولد له. وأقيم احتفال رسمي للتبنّي على الطريقة الأرمنية. وإذ كان «طوروس» مرتدياً ثوباً أبيض فضفاضاً جداً فقد جاء بغدوين عاري الجذع وانزلق تحت ثوب «أبيه» ليلتصق جسده بجسده. ثم كان

دور «أمـه»، أي امرأة «طـوروس» التي انزلق بغـدوين تحت ثوبهـا أيضـاً فالتصق لحمه بلحمهـا تحت أبصار الحـاضرين المسرورين الذين تهـامسوا بـأن هـذا الـطقس المتّبـع لتبنّي الأولاد نـابٍ بعض الشيء حين يكـون «الابن» فارساً طويلاً يكسو جسمه الشعر!

وقد ضحك جنود الجيش المسلم وقهقهوا وهم يتخيّلون المشهـد الذي نُقـل إليهم. ولكنّ بقية الخـبر جعلتهم يرتعـدون، فبعد بضعـة أيـام من الاحتفـال سحـل الجمهـور «الأب والأم» بتحـريض من «الابن» الـذي حضر إعـدامهما من غـير أن يرفّ لـه جفن قبل أن يُعلن نفسـه «كونت» الرُّها ويعهد إلى رفاقه الفرنج بجميع المراكز المهمّة في الجيش والإدارة.

وإذ وجد كربوقا ما يؤكّد مخاوفه فقد أخذ يُعدّ العدّة لمحاصرة المدينـة. ولكنّ أمراءه حاولوا ثنيه عن ذلك مجدّداً، فثلاثة الآلاف من جنود الرُّهـا الفرنج لا يجـرؤون قطّ على مهـاجمة جيش المسلمـين الذي يَعُـدّ عشرات الألـوف من الرجـال، وهم يكفون في المقـابل للدفـاع عن المدينـة نفسها فيوشك الحصار أن يمتدّ أشهراً. ومن الممكن في غضون ذلك أن يستسلم يـاغي سيان المـتروك لقدره إلى ضغط المجتـاحين. ولكن الاتـابـك يصمّ أذنيـه عن كل ذلـك ولا يعدل عن خـطأه ليستأنف مُكـرَهاً مسـيره نحـو أنطاكية إلا بعد إضاعة ثلاثة أسابيع تحت أسوار الرُّها.

وفي المدينة المحاصَرة كان الاضطراب الذي لا مزيد عليه قد حلّ محلّ أمل الأيام الأولى من شهـر أيار/مـايو. ولم يكن النـاس في القصر كما في الشوارع ليجدوا تفسيراً لتأخّر عساكر الموصل، وكان ياغي سيان قد فقد كل أمل.

كان التوتّر قد بلغ ذروته عندما أعلن الحرس قبيل مغيب شمس الثاني من حزيران/يونية أن الفرنج قـد جمعوا قـوّاتهم كلّها وأنهم يتّجهـون نحو الشـمال الشرقي. ولم يجد الأمـراء والجنود غـير تفسير واحـد لذلـك: إنّ كربوقـا في الجوار والمحـاصِرون ذاهبون للقـائه. ومـا هي إلا دقائق حتى

كان الخبر قد عمّ جميع البيوت والمحتشدين عند الأسوار. وأخذت المدينة تتنّفس من جديد، فمن الغد سوف يخلّصها الأتابك. وكانت العشيّة رطبة بليلة الهواء فأمضى الناس الساعات الطويلة في الحديث والنقاش عند أعتاب المنازل وقد أطفئت جميع الأنوار. لقد قُدِّر لأنطاكية أخيراً أن تنام مطمئنة وإنْ منهوكة القوى.

إنها الرابعة صباحاً: في جنوب المدينة صوت خافت صادر عن احتكاك حبل بالحجر. وانحنى رجل من أعلى برج مخمّس ضخم وأخذ يومىء بيده. إنه لم يغمض له جفن طوال الليل ولحيته منفوشة. وكان ذلك فيروز «وهو زرّاد (و) أحد المستحفظين للأبراج»[1]، كما يقول ابن الأثير. وقد كان فيروز - وهو مسلم من أصل أرمني - زمناً طويلاً من حاشية ياغي سيان، ولكنّ هذا اتّهمه بالاتّجار في السوق السوداء وغرمّه غرامة كبيرة. وإذ كان فيروز يسعى للانتقام فقد اتّصل بالمحاصرين وقال لهم إنه يتولّى حفظ شبّاك يطلّ على الوادي جنوبي المدينة، وأبدى استعداده لتسهيل دخولهم. بل إنه فعل أكثر من ذلك فبعث إليهم ابنه رهينة ليثبت لهم أنه لا ينصب لهم شركاً. وقد وعده المحاصرون من جهتهم بالذهب والأراضي. ووُضِعت الخطة، وحُدّد موعد التنفيذ فجر الثالث من حزيران/يونية. وقد تظاهر المحاصرون بالابتعاد في العشيّة استغفالاً للحامية وصَرفاً ليقظتها. ويقول ابن الأثير:

«فلما تقرّر الأمر بينهم وبين هذا المعلوم الزرّاد جاءوا إلى الشبّاك ففتحوه ودخلوا منه وصعد جماعة كثيرة بالحبال. فلما زادت عِدّتهم على خمسمائة ضربوا البوق، وذلك عند السَحَر وقد تعب الناس من كثرة السهر والحراسة، فاستيقظ ياغي سيان فسأل عن الحال فقيل إن هذا البوق من القلعة، ولا شكّ أنها قد مُلِكت»[2].

كانت الأصوات تترامى من برج «الأُختَينْ». ولكنّ ياغي سيان لم

---

(١) و(٢) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٨، ص ١٨٦ (المترجم)

يكلّف نفسه عناء التحقّق، فهو يعتقد أنه فَقَد كل شيء. وإذ هاله الأمر فقد أمر بفتح أحد أبواب المدينة ولاذ بالفرار مصحوباً ببعض الحراس، وظلّ يركض بحصانه ساعات وهو ذاهل تائه عاجز عن استعادة وعيه. فلقد انهار صاحب أنطاكية بعد مقاومة دامت مئتي يوم. وهذا ابن الأثير يصوّر لنا نهايته بشيء من الأسى على الرغم من مؤاخذته إياه على ضعفه:

«وجعل يتلهّف ويسترجع على ترك أهله وأولاده والمسلمين، فلشدّة ما لحقه سقط عن فرسه مغشيّاً عليه. فلما سقط إلى الأرض أراد أصحابه أن يُركِبوه فلم يكن فيه مسكة، قد قارب الموت، فتركوه وساروا عنه. واجتاز به إنسان أرمني كان يقطع الحطب وهو بآخر رمق فقتله وأخذ رأسه وحمله إلى الفرنج بأنطاكية»[1].

وأما المدينة فقد غاصت في النار والدم. فالرجال والنساء والأولاد يحاولون الهرب في الأزقّة الموحلة، ولكنّ الخيّالة يمسكون بهم من غير جهد ويذبحونهم بأرضهم. وما هي حتى اختنقت صيحات الذعر التي كان يطلقها آخر الناجين وحلّت محلّها أصوات نشاز صادرة عن بعض الناهبين الفرنج الذين كانوا قد ثملوا. وارتفع الدخان من البيوت المحروقة الكثيرة، وما حلّ الظهر حتى كانت تلّف المدينة غلالة من الحِداد.

رجل واحد كيف يحتفظ برباطة الجأش وسط ذلك الجنون الدموي في الثالث من حزيران/يونية ١٠٩٨م. إنه شمس الدولة الذي لا يتعب. فما إن اجتيحت المدينة حتى تمترس ابن ياغي سيان مع بعض المقاتلين في القلعة. وقد حاول الفرنج إخراجه منها عدّة مرات، ولكنّهم كانوا يُصدّون في كل مرة وقد مُنوا بخسائر فادحة. حتى إن أكبر زعماء الفرنج بيمند [بوهيمون]، وهو عملاق طويل الشعر أشقره، قد جرح في إحدى هذه الهجمات. وإذ لقّنه فشل مسعاه درساً فقد أرسل رسالة إلى شمس

(١) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٨، ص ١٨٦ (المترجم)

الدولة يعرض عليه فيها ترك القلعة لقاء جواز مرور. ولكنّ الأمير الشاب رفض بشمم، فأنطاكية هي الإقطاعة التي طالما حلم بأن يرثها ذات يوم، ولسوف يقاتل حتى آخر نَفَس من أنفاسه. فلا المؤن تنقصه ولا السهام المسنونة. وإذ كانت القلعة متربّعة على قمة جبل «حبيب النجار» ففي وسعها أن تتحدّى الفرنج أشهراً. ولسوف يخسر هؤلاء آلاف الرجال إذا هم عاندوا لتسلّق أسوارها.

وتبينّ أن عزم آخر المقاومين غالي الثمن، فعدّل الفرسان عن مهاجمة القلعة واكتفوا بإحاطتها بحزام أمني. ولقد علموا من صيحات الفرح التي أطلقها شمس ورفاقه بعد ثلاثة أيام من سقوط أنطاكية أن جيش كربوقا قد لاح في الأفق. ففي نظر شمس ورفاقه القلائل الذين لا يقهرون أن ظهور فرسان الإسلام أمر يكاد لا يُصدَّق. وها هم أولاء يفركون عيونهم ويبكون ويبتهلون ويتعانقون، وأصوات «الله أكبر» تترامى إلى القلعة في هدير متواصل. ولبد الفرنج وراء أسوار أنطاكية، وغدوا محاصَرين بعد أن كانوا محاصِرين.

وشمس سعيد، ولكنْ خلف سعادته شيءٌ من المرارة. فما إن التقاه أمراء حَمْلة النجدة في ملاذه حتى أمطرهم بألف سؤال وسؤال. لماذا تأخروا في المجيء؟ لماذا أتاحوا للفرنج الوقت لاحتلال أنطاكية وذبح أهلها؟ وشدّ ما كانت دهشته عندما أجمع مخاطبوه من غير أن يسعوا إلى اختلاق الأعذار عن تصرّف جيشهم على اتهام كربوقا بكلّ الشرور، كربوقا المتغطرس المدّعي العاجز الجبان.

ولم تقتصر المسألة على مجرد خلافات شخصية، بل كانت مؤامرة حقيقية لم يكن المحرِّض عليها غير دُقاق ملك دمشق الذي رافق جيوش الموصل منذ دخولها بلاد الشام. والحقّ أن الجيش المسلم لم يكن قوة متجانسة، وإنما كان تحالفاً لأمراء ذوي مصالح متناقضة في أغلب الأحيان. فمطامع الأتابك الإقليمية لم تكن خافية على أحد، ولم يلقَ دُقاق أي عناء في إقناع أنداده بأن عدوهم الحقيقي هو كربوقا نفسه. فإذا

خرج ظافراً من المعركة مع الكفار فإنـه سينصّب نفسه مخلّصـاً ولن يكون في مقدور أيّ من مدن الشـام الإفلات من سيـطرته. وإذا هـزم كربـوقا بالمقابل فسوف يُستبعد الخطر الذي ينوء بثقله على المدن الشـامية. وإزاء هذا التهديد فإن الخـطر الفرنجي هـو أهون الشرّين. ولأن يكـون الروم راغبين في استعادة مدينتهم أنطاكيـة بمعونـة مرتـزقتهم فليس في الأمر مـا يهول ما دام لا يُعقل أن ينشيء الفرنج دويلاتهم في بلاد الشام. وكما قال ابن الأثـير فإن الأتـابك «أسـاء السـيرة فيمن معـه من المسلمـين (. . .) وتكـبّر عليهم (. . .) فأغضبهم ذلـك وأضمروا لـه في أنفسهم الغدر إذا كان قتالٌ»(1).

ولم يكن ذلك الجيش الرائع إذن سوى عملاق بقدمين من الطين قـابل لـلانهيار من النقفـة الأولى! وإذ كان شمس عـلى استعداد لتنـاسي القرار بالتخلّي عن أنطاكية فقد جدّ في محـاولة الترفّع عن كـل هذه الـترّهات. فالأوانُ ليس على ما يبدو له أوانَ تسوية الحسابات. ولكنّ آمالـه لم تعمرّ طويلاً، فغداة وصول كربوقا استدعاه ليفهمه أن قيادة القلعة قد سُحبت منه. وثارت حفيظة شمس. أوَلم يقاتل قتال الشجعـان؟ ألم يقف معانـداً في وجـه كل الفـرسان الفـرنـج؟ أليس وريث صـاحب أنـطاكيـة؟ لكنّ الأتابك يرفض كل نقاش، إنه القائد، وهو يطالب بأن يُطاع.

أصبـح ابن ياغي سيـان مقتنعـاً الآن بـأن الجيش المسلم عـاجـز عن الانتصار على الرغم من حجمه الهائل. وعزاؤه الوحيد علمه بأن الوضع في المعسكـر المعادي ليس أحسن عـلى الإطلاق. فبحسب مـا يقـول ابن الأثير فقد «أقام الفرنج بأنطاكية بعد أن ملكوها اثني عشر يومـاً ليس لهم ما يأكلونه. وتَقَوّتَ الأقوياء بدوابّهم والضعفاء بـالميتة وورق الشجـر»(2). وعرف الفرنج مجاعات أخرى في هذه الأشهر الأخـيرة، ولكنهم كانـوا قد أدركوا أنهم أحرار في الذهاب لغزو الجوار لإحضـار بعض المؤن. بيد أن وضعهم الجـديد كمحـاصَرين يمنعهم من ذلك، واحتيـاطي ياغي سيـان

(1) و(2) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٨، ص ١٨٧. (المترجم)

الذي يعوّلون عليه قد نفِد في الواقع. وعادت عمليات الفرار إلى الظهور بشكل لم يسبق له مثيل.

ولم يكن القدر قد حزم أمره للوقوف إلى جانب أحد هذين الجيشين المنهوكين المحطّمي المعنويات المتواجهين في حزيران/يونية ١٠٩٨م حول أنطاكية عندما جدّ حدث خارق لحسم القرار. وقد رأى فيه الغربيون معجزة، ولكنّ الرواية التي يسوقها ابن الأثير لا تدع مجالاً للقول بأيّ خارق للمألوف:

«وكان معهم (. . .) بيمند صاحب أنطاكية وهو المقدّم عليهم، وكان معهم راهب (. . .) وكان داهية من الرجال فقال لهم إن المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بالقُسيان الذي في أنطاكية، وهو بناء عظيم، فإن وجدتموها فإنكم تظفرون، وإن لم تجدوها فالهلاك متحقّق. وكان قد دفن قبل ذلك حربة في مكان فيه وعفا أثرها. وأمرهم بالصوم والتوبة ففعلوا ذلك ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع أدخلهم الموضع جميعهم ومعهم عامّتهم والصنّاع منهم وحفروا في جميع الأماكن فوجدوها (. . .) فقال لهم أبشروا بالظفر. فخرجوا في اليوم الخامس من الباب متفرّقين من خمسة وستة، فقال المسلمون لكربوقا ينبغي أن نقف على الباب فنقتل كل من يخرج منهم، فإن أمْرهم الآن وهم متفرقون سهل، فقال لا تفعلوا، أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم»[1].

لم يكن حساب الأتابك غير معقول بالقدر الذي يبدو فيه. فليس في وسعه أن يطيل أمد الحصار بعساكر بهذا القدر من عدم الانضباط، وبأمراء ينتظرون أول فرصة للفرار. وإذا كان في نيّة الفرنج خوض المعركة فينبغي عدم إخافتهم بهجوم شامل جداً خشية أن يعودوا فيدخلوا المدينة. غير أن ما لم يتوقّعه كربوقا هو أن قراره بالتأجيل سوف يستغلّه على الفور أولئك الذين كانوا يسعون إلى ضياعه. ففيما كان الفرنج

---

(١) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٨، ص ١٨٧. (المترجم)

يتابعون انتشارهم كانت عمليات الفرار من معسكر المسلمين قد بدأت. وأخذ كل واحد يكيل للآخر تهمة الجبن والخيانة. وإذ شعر كربوقا بأن أمر السيطرة على عسكره قد خرج من يده، وبأنه قلّل من تقدير عِدّة المحاصَرين، فقد التمس من هؤلاء عقد هدنة. وكان ذلك كافياً للتقليل من شأنه في نظر أصحابه وتقوية ثقة أعدائه بأنفسهم، فانقضّ الفرنج عليه من غير أن يتنازلوا لتقديم جواب عن عرضه مُكرِهين إياه على أن يرسل بدوره عليهم موجة من فرسانه النبّالة. بيد أن دُقاق ومعظم الأمراء كانوا قد ابتعدوا بعساكرهم ناعمي البال. وإذ رأى الأتابك اشتداد العزلة عليه فقد أمر بانسحاب شامل ما لبث أن تحوّل إلى انهزام.

وهكذا تفتّت جيش المسلمين القوي «ولم يضرب أحد منهم بسيف ولا طعن برمح ولا رمى بسهم»[1]. ويكاد مؤرخ الموصل أن يبالغ: «فلما رأى الفرنج ذلك ظنّوه مكيدة، إذ لم يجرِ قتال يُنْهَزَمُ من مثله، وخافوا أن يتبعوهم»[2]. لقد أصبح في مكنة كربوقا أن يعود إلى الموصل، فجميع طموحاته تبدّدت إلى الأبد أمام أنطاكية، والمدينة التي أقسم أن يخلّصها هي الآن في قبضة الفرنج المتينة. ولأجل طويل جداً.

غير أن أخطر ما جرى بعد يوم العار ذاك هو أنه لم يعُد في بلاد الشام من قوّة قادرة على إعاقة تقدُّم الغُزاة.

---

(١) و (٢) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٨، ص ١٨٧. (المترجم)

أكلة لحوم البشر في المعرّة

«لست أدري إذا كـان هـذا مسرح وحشٍ أو كـان منـزلي ومسقط رأسي!»[1].

ليست صيحة التفجّع هذه، وهي لشاعر من المعرّة لا يُدرى من هو، مجرّد صورة بلاغية. ونحن مضطرون ويا للأسى إلى التقيّد بحرفيّة كلماته والتساؤل معه: ما الذي جرى من حوادث هائلة في مدينة المعرّة الشامية في أواخر عام ١٠٩٨ م؟

لقد كان أهلها يعيشون حتى وصول الفرنج عيشة راضية في حِمى سورها الدائري. وكانت كرومهم وحقول زيتونهم وتينهم تؤمّن لهم رخاء متواضعاً. وأما شؤون مدينتهم فقد كان يقوم بها بعض الوجهاء المحلّيين الطيّبين ممّن ليس لهم عظيم طموح بتعيين من رضوان صاحب حلب ذي السلطان المطلق. ومفخرة المعرّة هي أنها موطن أحد أكبر وجوه الأدب العربي، أبي العلاء المعري المتوفى عام ١٠٥٧ م. ولقد جرؤ هذا الشاعر الضرير الحرّ التفكير على انتقاد عادات عصره من غير التفات إلى المحظورات. وكان لا بدّ من الشجاعة للقول:

اثنانِ أهلُ الأرضِ، ذو عقلٍ بلا دِينٍ، وآخرُ دَيِّنٌ لا عقلَ لَهْ[2]

(١) لم اعثر في المصادر التي بين يديّ على النص العربي لهذا الكلام فترجمته عن النص الفرنسي الذي أورده المؤلف. (المترجم)

(٢) ابو العلاء المعري، اللزوميات، تحقيق امين عبد العزيز الخانجي، منشورات =

ولسوف يهيمن بعد أربعين سنة من وفاته تعصّب وافد من بعيد فيقرّر على ما يبدو أن ابن المعرّة كان على حقّ في عدم تديّنه وتشاؤمه الأسطوري على السواء:

يُحطِّمنا رَيْبُ الزمانِ كأنّنا زجاجٌ، ولكن لا يُعادُ له سَبْكُ[1]

فسوف تتحول مدينته بالفعل إلى ركام من الأطلال، وسيكون للارتياب الذي طالما عبّر عنه حيال أبناء جلدته أشنعُ الصُّوَر.

في الأشهر الأولى من عام ١٠٩٨ م كان أهل المعرّة قد تابعوا بقلق معركة أنطاكية التي تدور رحاها على مسيرة ثلاثة أيام في الشمال الشرقي من مدينتهم. وقد قام الفرنج بعد فوزهم بنهب بعض القرى المجاورة من غير أن يتعرّضوا للمعرّة، ولكنّ بعض عائلاتها آثرت تركها إلى أماكن أكثر أماناً مثل حلب وحمص وحماة. ولقد اتّضح أن مخاوفهم كانت في محلها حين حضر في نهاية شهر تشرين الثاني/نوفمبر آلاف من المحاربين الفرنج فأحاطوا بالمدينة. وإذا كان قد تيسّر لبعض سكانها أن يفرّوا فإن معظمهم وقعوا في الشَّرَك. فليس للمعرّة جيش وإنما ميليشيا محلية بسيطة انضم إليها بضع مئات من الشبان الذين ليست لهم أية خبرة عسكرية. وقد قاوموا بشجاعة أولئك الفرسانَ المرهوبي الجانب مدّة أسبوعين، وذهبوا في المقاومة إلى حدِّ رشقِ المحاصِرين بقفائر النحل من أعلى الأسوار. ويقول ابن الأثير:

«ورأى الفرنج منهم شدّة ونكاية، ولقوا منهم الجدّ في حربهم والاجتهاد في قتالهم فعملوا عند ذلك برجاً من خشب يوازي سور المدينة (. . . و) خاف قوم من المسلمين وتداخلَهم الفشل والهلع وظنوا أنهم إذا تحصّنوا ببعض الدور الكبار امتنعوا بها. وأخلوا الموضع الذي كان

= مكتبة الهلال/بيروت ومكتبة الخانجي/القاهرة، ج ٢، ص ٢٠٨ وص ١٤٧. (المترجم).

(١) ابو العلاء المعري، اللزوميات، تحقيق امين عبد العزيز الخانجي، منشورات مكتبة الهلال/بيروت ومكتبة الخانجي/القاهرة، ج ٢، ص ٢٠٨ وص ١٤٧. (المترجم).

يحفظونه فرآهم طائفة أخرى ففعلوا كفعلهم فخلا مكانهم أيضاً من السور. ولم تزل تتبع طائفة منهم التي تليها في النزول حتى خلا السور فصعد الفرنج إليه على السلاليم، فلما عَلَوْه تحيّر المسلمون ودخلوا دورهم»[1].

وجاء مساء الحادي عشر من كانون الأول/ديسمبر، وكان الظلام حالكاً فلم يجرؤ الفرنج على التوغّل في المدينة. واتّصل وجهاء المعرّة ببيمند صاحب أنطاكية الجديد الذي كان على رأس المهاجمين. ووعد الزعيم الفرنجي الأهالي بالإبقاء على حياتهم إذا توقّفوا عن القتال وانسحبوا من بعض الأبنية. واستكانوا بيأس إلى كلامه فاحتشدت العائلات في بيوت المدينة وأقبيتها تنتظر طوال الليل وهي ترتعد.

وعند الفجر وصل الفرنج: إنها المذبحة: «فوَضَع الفرنج فيهم السيف ثلاثة أيام فقتلوا ما يزيد على مئة ألف وسَبَوا السبي الكثير»[2]. وبديهي أن أرقام ابن الأثير مزاجيّة لأن سكان المدينة ربما كانوا عند سقوطها أقل من عشرة آلاف. ولكنّ الهول يكمن هنا في المصير المستعصي على التصوّر الذي لقيه الضحايا أكثر ممّا يكمن في عددهم.

«كان جماعتنا في المعرّة يغلون وثنيين بالغين في القدور ويشكّون الأولاد في سفافيد ويلتهمونهم مشويّين». إن سكان القطاعات المجاورة للمعرّة لن يقرأوا هذا الاعتراف الذي سجّله المؤرخ الفرنجي «راول دي كين»، ولكنّهم سوف يتذكرون ما رأوا وسمعوا حتى آخر يوم من عمرهم، لأن ذكرى هذه الفظاعات التي نشرها الشعراء المحلّيون وتناقلتها الروايات الشفوية سوف تحفر في الأذهان صورة عن الفرنج من الصعب محوها. وسيكتب ذات يوم المؤرخ أسامة بن منقذ الذي وُلد في مدينة شيزر المجاورة قبل ثلاث سنوات من هذه الأحداث قائلاً:

---

(1) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٨، ص ١٨٧. (المترجم)

(2) «الكامل في التاريخ» بالنص العربي، ج ٨، ص ١٨٧. (المترجم)

«إذا خبر الإنسان أمور الإفرنج (. . .) رأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير، كما في البهائم فضيلة القوّة والحَمْل»[1].

إنه حُكْمٌ لا مواربة فيه، وهو يختصر جيداً الانطباع الذي أحدثه الفرنج لدى وصولهم: مزيج من الخشية والاحتقار له ما يسوّغ صدوره عن أمّة عربية متفوّقة جداً بثقافتها وإن كانت قد فقدت كل روح قتالية. ولن ينسى الأتراك قط تصرّفات الغربيين تصرّفَ أكلة لحوم البشر. ولسوف يُوصَف الفرنجُ بلا أدنى تحوير عَبْرَ أدبهم الملحمي بأنهم يأكلون لحوم البشر.

تُرى أتكون هذه النظرة إلى الفرنج ظالمة اوهل ٱلْتَهَمَ المجتاحون الغربيون سكّان المدينة الشهيدة بهدف أوحد هو البقاء على قيد الحياة؟ إن زعماءهم سيؤكّدون ذلك في السنة التالية في رسالة رسميّة إلى الباب: «اجتاحت الجيش مجاعة فظيعة في المعرّة وألجأتهم إلى ضرورة جائرة هي التقوّت بجثث المسلمين». ولكن ذلك يبدو مقولاً على عجل شديد، لأن سكان خراج المعرّة كانوا يشهدون طوال ذلك الشتاء المشؤوم تصرّفات لا يكفي الجوع لتفسيرها. فقد كانوا يرون بالفعل عصابات من الفرنج المشحونين بالتعصّب، جماعة «الطفور»، ينتشرون في الأرياف وهم يجأرون بأنهم راغبون في قضم لحم المسلمين، ويتحلّقون في المساء حول النار لالتهام فرائسهم. أهم أكلة لحوم بشر بفعل الحاجة؟ أكلة لحوم بشر بفعل التعصّب؟ كل ذلك يبدو غير مطابق للحقيقة، ومع ذلك فإن الشواهد عليه دامغة سواء بالوقائع التي تُصوِّرها أو بالجوّ المَرَضيّ الذي تُشيعه. وفي هذا الصدد تظلّ عبارة المؤرّخ الفرنجي «ألبير دكس» الذي شارك بشخصه في معركة المعرّة عديمة المثيل في فظاعتها: «لم تكن جماعتنا لتأنف وحسب من أكل قتلى الأتراك والعرب، بل كانت تأكل الكلاب أيضاً»!

(١) «كتاب الاعتبار»، حرّره فيليب حتي، مطبعة جامعة برنستون، الولايات المتحدة، ١٩٣٠، ص ١٣٢. (المترجم).

ولن ينتهي عذاب مدينة أبي العلاء إلا في الثالث عشر من كانون الثاني/يناير ١٠٩٩ عندما سيسلك الأزقّة مئات من الفرنج مسلّحين بالمشاعل فيضرمون النار في كل منزل. ولسوف يكون السور عندها قد هُدم حجراً حجراً.

لسوف تُسهم حادثة المعرّة في حفر هوّة بين العرب والفرنج لن تكفي عدّة قرون لردمها. ومع ذلك فإن الأهالي الذين شلهم الرعب لن يقاوموا إلا إذا أكرهوا على الصمود. وعندما سيعاود المجتاحون مسيرتهم نحو الجنوب غير تاركين وراءهم سوى أطلال يتصاعد منها الدخان فإن الأمراء سوف يتراكضون ليرسلوا إليهم موفدين محمَّلين بالهدايا مؤكّدين لهم حسن نيّاتهم، عارضين عليهم كل مساعدة يحتاجون إليها.

وأوّلهم سلطان بن منقذ (عمّ المؤرّخ أسامة) الذي يحكم إمارة شيزر الصغيرة. فقد بلغ الفرنج أراضيه في اليوم التالي لرحيلهم عن المعرّة، وكان على رأسهم صنجيل (Saint-Gilles) أحد زعمائهم الذين غالباً ما يذكرهم المؤرّخون العرب. ولقد أرسل إليه الأمير وفداً، وما لبث أن عُقد بينهما اتفاق لا يلتزم سلطان بموجبه بتموين الفرنج وحسب، وإنما يسمح لهم أيضاً بالحضور إلى سوق شيزر لشراء الخيل ويؤمّن لهم الأدلّاء لاجتياز سائر بلاد الشام من غير عقبات.

ولم تكن المنطقة لتجهل شيئاً عن تقدّم الفرنج، بل إن الناس باتوا يعرفون مسارهم. أليسوا يجاهرون بأن هدفهم الأخير هو بيت المقدس الذي يريدون السيطرة فيه على قبر السيد المسيح؟ وكل الذين هم على طريق المدينة المقدّسة يحاولون حماية أنفسهم من الكارثة التي يحملها أولئك. فأفقرهم يحتمي بالغابات المجاورة رغم امتلائها بالوحوش من أسود وذئاب ودببة وضباع. وأمّا الذين يملكون وسائل الهجرة فقد توجهوا إلى داخل البلاد، والتجأ آخرون إلى أقرب القلاع. وهذا هو ما اختاره فلّاحو سهل البقيعة الغني حين أخبروا في الأسبوع الأخير من

شهر كانون الثاني/يناير عن وجود العساكر الفرنجية على مقربة منهم. فقد جمعوا ماشيتهم ومؤنهم من الزيت والقمح وصعدوا إلى حصن الأكراد الذي يشرف على السهل بأسره حتى البحر المتوسط من قمّة جبل صعب البلوغ. وعلى الرغم من أن القلعة كانت قد هُجرت من زمان فإن أسوارها متينة، ويرجو الفلاحون أن يجدوا فيها ملاذاً. ولكن ها قد أتى الفرنج الذين يجدّون على الدوام في سبيل التزوّد بالمؤن لمحاصرتهم. وبدأ محاربوهم بتسلّق أسوار حصن الأكراد في الثامن والعشرين من كانون الثاني/يناير. وإذ شعر الفلاحون بأنهم هالكون فقد تخيّلوا خدعة. لسوف يفتحون أبواب القلعة على حين غرّة ويدعون قسماً من ماشيتهم يهرب فينسى الفرنج القتال ويهجمون على البهائم للاستيلاء عليها. وكانت البلبلة في صفوفهم من الضخامة بحيث تشجّع المدافعون وخرجوا فبلغوا خيمة صنجيل الذي كان حرّاسه الراغبون هم أيضاً في نصيبهم من الماشية قد تخلّوا عنه، ولم يُفلت من الأسر إلا بأعجوبة.

ولم يكن رضى فلاحينا عن عمليتهم بالقليل. ولكنهم يعلمون أن المحاصِرين سيعودون للانتقام. وعندما أطلق صنجيل رجاله لمهاجمة الأسوار في اليوم التالي فإنهم لم يظهروا. وتساءل المهاجمون عن الحيلة الجديدة التي ابتدعها الفلاحون. إنها في الحق أحكم الحيل: لقد انتهزوا حلول الليل للخروج بلا جلبة والاختفاء بعيداً. ولسوف يبني الفرنج بعد أربعين سنة مكان حصن الاكراد واحدة من أكثر قلاعهم مَنَعَة، ولسوف يتغير اسمها قليلاً فتحرّف «أكراد» إلى «كرات» ثم إلى «كراك» إنه حصن «كراك الفرسان» الذي ما يزال يهيمن بقامته الفارعة حتى اليوم، في القرن العشرين، على سهل البقيعة.

وفي شباط/فبراير ١٠٩٩ م غدت القلعة لبضعة أيام مقر قيادة الفرنج العامة. وشوهد فيها منظر أخّاذ. فقد وصلت إليها من جميع المدن المجاورة، وحتى من بعض القرى، وفود تجرّ وراءها بغالاً محمّلة بالذهب والنسائج والمؤن. وقد بلغ التفكّك السياسي حدّاً أصبحت معه أصغر

البلدات تتصرّف وكأنها إمارة مستقلّة. فكل واحد يعرف أنه لا يمكن أن يعوّل إلا على قوّاته الخاصّة لحماية نفسه ومفاوضة الغُزاة. وليس في وسع أي أمير، ولا أي قاضٍ، ولا أي وجيه، أن يأتي بأقلّ حركة مقاومة دون أن يعرّض جماعته بأسرها للخطر. وعليه فقد ترك الناس عواطفهم الوطنية جانباً وجاءوا يقدّمون الهدايا وآيات الاجلال وعلى شفاههم بسمات مغتصبة. فهناك مثلٌ محلّي يقول: «اليد التي لا تستطيع كسرها قبّلها وادعُ عليها بالكسر».

وحكمة الخضوع هذه هي التي ستُملي على الأمير جناح الدولة صاحب مدينة حمص سلوكه. فقد كان هذا المحارب المشهور بالشجاعة منذ سبعة أشهر خلت على وجه التقريب أخلص حلفاء الأتابك كربوقا. ويؤكّد ابن الأثير أن جناح الدولة كان آخر من فرّ من أمام أنطاكية. ولكنّ الأوان ليس أوان التفاني الحربي ولا الديني، وها هوذا الأمير يبدو متلهّفاً على استمالة صنجيل مقدِّماً إليه فوق الهدايا التقليدية عدداً كبيراً من الخيول لأن جناح الدولة قد علم ـ كما يؤكد موفدو حمص بشيء من التملّق ـ أن الفرسان كانوا بحاجة إليها.

وأكرمُ الوفود المتقاطرة إلى حجرات حصنِ الأكراد الشاسعة الخالية من الأثاث هو وفد طرابلس. فإذ كان الموفدون يُخرِجون واحدةً تلو الأخرى الجواهرَ الرائعة التي صنعها حِرَفيّو المدينة اليهود فقد كانوا يرحّبون في الوقت نفسه بالفرنج باسم أكثر أمراء الساحل الشامي مهابةً، القاضي جلال الملك. وينتمي هذا إلى أسرة بني عمّار الذين جعلوا من طرابلس درّة الشرق العربي. وليست هذه الأسرة إحدى العشائر المحاربة التي اقتطعت لنفسها الإقطاعات بقوة السلاح وحدها، وإنما هي سلالة من المثقّفين على رأسها قاضٍ، وهو اللقب الذي احتفظ به ملوك المدينة.

وكانت طرابلس ونواحيها عند اقتراب الفرنج تتمتّع بفضل حكمة القضاة بعهد من الأمن والازدهار يحسدها جيرانها عليه. ومفخرة أهلها هي «دار العلم» الفخمة التي تضمّ مكتبة تحتوي على مئة ألف مجلّد،

وتُعَدّ واحدة من أهم المكتبات في ذلك الزمان. وتحيط بالمدينة حقول الزيتون والخروب وقصب السكر والأشجار المثمرة الكثيرة الجنى من كل نوع. ويعرف ميناؤها حركة تجارية ناشطة.

وهذا الرخاء هو بالضبط الذي سيسبّب للمدينة المضايقات الأولى مع الغُزاة. فقد دعا جلالُ الملك صنجيلَ في الرسالة التي بعثها إليه في حصن الأكراد أن يرسل وفداً إلى طرابلس للتفاوض على حلف. وإنه لخطأ لا يُغتفر. فقد بلغ في الواقع إعجاب الموفدين الفرنج بالبساتين والقصور والميناء وسوق الصاغة حدّاً جعلهم لا يُصغون إلى اقتراحات القاضي وعروضه. فهم مشغولوا البال بالتفكير في كل ما بإمكانهم نهبه إذا استولوا على المدينة. ويبدو جيّداً أنهم لدى عودتهم إلى زعيمهم قد بذلوا قصارى جهدهم لشحذ أطماعه. ولشدّ ما كانت دهشة جلال الملك الذي كان ينتظر بسذاجة ردّ صنجيل على عرضه لإقامة حلف معه عندما علم أن الفرنج قد ضربوا في الرابع عشر من شباط/فبراير حصاراً أمام عرقة، وهي المدينة الثانية في إمارة طرابلس. ولقد خاب أمله ولا ريب، ولكنه مذعور على الأخص ومقتنع بأن العملية التي قام بها الغزاة ليست سوى الخطوة الأولى إلى غزو عاصمته. وعليه فكيف السبيل إلى الامتناع عن التفكير في مصير أنطاكية؟ وها هوذا جلال الملك يتخيّل نفسه مكان ياغي سيان المسكين وهو يركض بفرسه بشكل معيب نحو الموت أو النسيان وكُدّست المؤن في طرابلس احتياطاً لحصار طويل. وأخذ الناس يتساءلون بقلق عن المدّة التي يمكن أن يقضيها الغُزاة مصدودين عن عرقة. وكان كل يوم يمرّ يمثّل وقف تنفيذ غير متوقّع.

وانقضى شباط/فبراير ثم آذار/مارس ونيسان/أبريل. وأخذت روائح البساتين المزهرة تعمّ طرابلس كما في جميع الأعوام. ومما زاد في جمالها أن الأنباء أكثر تطميناً: لا يزال الفرنج عاجزين عن الاستيلاء على عرقة التي لا تقلّ دهشة المدافعين عنها عن دهشة محاصريها. فالحق أن أسوارها متينة، ولكنّها ليست أمتن من أسوار مدنٍ أهم منها تمكّن الفرنج من

الاستيلاء عليها. والذي يشدّد من قوة عرقة أن أهلها كانوا مقتنعين منذ اللحظة الأولى من المعركة بأنه لو فُتحت ثغرةٌ واحدة لـذُبحوا عن بكـرة أبيهم كـما ذُبح إخـوتهم في المعـرّة وأنـطاكيـة. وإنهم ليسهـرون ليـلَ نهارَ صادّين جميع الهجمات مانعـين أدنى تسلُّل. وانتهى الأمر بـالمجتاحـين إلى الكلال، وترامت أصوات منازعاتهم إلى المدينة المحاصَرة. وأخيـراً رفعوا معسكرهم في الثالث عشر من أيار/مايو وابتعدوا منكّسي الـرؤوس. لقد كوفِيء المقاومون على مقاومتهم بعد ثلاثة أشهر من النضال المضني، وهـا هي ذي عرقة تهلّل ابتهاجاً.

وعـاود الفرنـج مسـيرهم نحـو الجنـوب، وهـا إنهم يمرّون من أمـام طرابلس ببطء مُقلِق. ولم يَتوانَ جـلال الملك الذي يـدري أنهم مَغِيظون عن نقل أفضل تمنّياته إليهم بمتـابعة سفـرهم. وقد حـرص على أن يضمّ إلى تلك التمنيات بعض المؤن والمال والخيـول والادلّاء الذين سيعبرون بهم الطريق الساحلي الضيّق الموصل إلى بيروت. وسرعان ما انضاف إلى الكشّـافـة الـطرابلسيـين مسيحيـون مـوارنـة من الجبـل اللبنـاني جـاءوا يعرضون، على غرار الأمراء المسلمين، معونتهم على المحاربين الغربيين.

وبلغ الغُزاة نهر الكلب من غير أن يعتدوا على أمـلاك بني عمّار كمثـل جبيـل (بيبلوس القديمـة). وما إن اجتـازوا هذا النهـر حتى نشب القتـال بينهم وبين خليفة مصر الفاطمي.

ولم يكن رجـل القاهـرة القويّ، الـوزيـر المتنفّـذ العـريض المنكبـين، الأفضل شاهنشاه، قد أخفى سروره حين قدم إليه موفدو ألكسي كومنين في نيسان/أبريل ١٠٩٧ م يخبرونـه بوصـول حشود الفـرسان الفـرنج إلى القسطنطينية وبدايـة هجومهم عـلى آسيا الصغـرى. وقد نقـل الأفضل ـ وهـو مملوك سابق في الخـامسة والثـلاثين من العمـر يحكم بلا منـازع أمّة مصـريّة تعـدادها سبعـة ملايـين نسمة ـ إلى الإمـبراطور تمنيـاته بـالنجاح وطلب أن يكون، بوصفه صديقاً، على علم بأخبار تقدّم الحملة.

«وقيـل إن أصحـاب مصر (. . .) لمـا رأوا قـوّة الـدولـة السلجـوقيـة

وتمكّنها (. . .) فخافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه ويكون بينهم وبين المسلمين، والله أعلم»[1].

ويدلّ هذا التوضيح الغريب الذي قدّمه ابن الأثير عن أصل الغزو الفرنجي دلالة كبرى على الانقسام الداخلي الذي كان سائداً في العالم الإسلامي بين أهل السنة الموالين للخليفة العباسي في بغداد، والشيعة المنتمين إلى الخلافة الفاطمية في القاهرة. ولم ينفكّ الانشقاق الذي يعود تاريخه إلى القرن السابع (الميلادي)، وتعود أسبابه إلى نزاع داخل أسرة النبي، يُحدِث صراعات حادّة في صفوف المسلمين. ويبدو أنه، حتى في نظر رجال دولةٍ كصلاح الدين، لا يقلّ قتالُ الشيعة أهمّيةً عن محاربة الفرنج. ولا ينفكّ يُنسب إلى «الهراطقة» جميعُ الشرور التي تنزل بالإسلام، فلا عجب أن يُعزى الغزو الفرنجي نفسه إلى دسائسهم. وبعدُ فإنه إذا كانت دعوة الفاطميين للفرنج محضَ خيالٍ فإن فرحة حكّام القاهرة بوصول المحاربين الغربيين أمر حقيقي.

لقد هنأ الوزير الأفضل القيصر بحرارة لدى سقوط نيقية، وقبل استيلاء الغُزاة على أنطاكية بثلاثة أشهر زار وفد مصري محمّلٌ بالهدايا معسكر الفرنج متمنّياً لهم نصراً قريباً، وعارضاً عليهم حِلفاً. ولم يكن سيّد القاهرة، وهو رجل عسكري من أصل أرمني، ليُكنّ أيّ ميل إلى الاتراك، وكانت مشاعره الشخصية تلتقي في ذلك مع مصالح مصر. فمنذ منتصف القرن كان تقدّم السلجوقيين قد قضم ممتلكات الخلافة الفاطمية في الوقت الذي قضم فيه ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية. فبينما كان الروم يرون إفلات أنطاكية وآسيا الصغرى من قبضتهم، كان المصريون قد خسروا دمشق والقدس اللتين كانتا ملكاً لهم طوال قرن من الزمن. ونشأت صداقة وطيدة بين القاهرة والقسطنطينية، كما بين الأفضل وألكسي. وانتظمت المشاورات، وتُبودلت المعلومات، ورُسمت مشاريع مشتركة. وكان الرجلان قد لاحظا قُبيل مجيء الفرنج أن

(1) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٨، ص ١٨٦. (المترجم)

الإمبراطورية السلجوقية ملغومة بالخلافات الداخلية. ولقد قامت في آسيا الصغرى كما في الشام دويلات كثيرة متنافسة. فهل تكون ساعة الانتقام من الأتراك قد أزفت؟ أليس الوقت ملائماً للمصريين كما للروم لاسترداد أملاكهم المفقودة؟ إن الأفضل يحلم بعملية منسقة تقوم بها القوّتان المتحالفتان، ويشعر وقد علم بحصول القيصر على مَدَد كبير من العسكر من بلاد الفرنج بأن الانتقام في متناول اليد.

ولم يتحدث الوفد الذي أرسله إلى محاصري أنطاكية عن معاهدة عدم اعتداء. ففي نظر الوزير أن هذا من تحصيل الحاصل. وما يقترحه على الفرنج هو قسمةٌ حسب الأصول الواجبة: لهم شمال الشام وله جنوبه، أي فلسطين ودمشق والمدن الساحلية حتى بيروت. وقد تعمّد أن يقدّم عرضه في أقرب وقت ممكن، أي في الوقت الذي لم يكن الفرنج فيه واثقين بعدُ من الاستيلاء على أنطاكية. وكان مقتنعاً بأنهم سوف يتهالكون على القبول.

والعجيب أن جوابهم كان غامضاً. فقد سألوه توضيحات وتحديدات، ولا سيما بشأن مصير بيت المقدس. وأبْدَوْا بالطبع للدبلوماسيين المصريين كبير ودّ، حتى إنهم عرضوا عليهم مشهد رؤوس مقطوعة لثلاثمئة قتيل تركي بالقرب من أنطاكية، ولكنهم رفضوا إبرام أي اتفاق. ولم يعرف الأفضل سبباً لذلك. أفلم يكن عرضه واقعياً، بل حتى سخيّاً؟ وهل في نية الروم ومعاونيهم الفرنج حقاً أن يستأثروا بالقدس كما هو انطباع مبعوثيه؟ أيكون ألكسي قد كذب عليه؟

كان رجل القاهرة القويُّ لا يزال في حيرة من أمر السياسة الواجب اتّباعها عندما بلغه في حزيران/يونية ١٠٩٨ م نبأ سقوط أنطاكية يليه في أقل من ثلاثة أسابيع نبأ هزيمة كربوقا المخزية. وقرّ رأي الوزير على العمل فوراً للإيقاع سريعاً بالخصوم والحلفاء على السواء. ويروي ابن القلانسي أنه في شعبان [من عام ٤٩١ هـ، الموافق لشهر تموز/يولية من السنة المذكورة أعلاه] «وردت الأخبار بخروج الأفضل أمير الجيوش من

مصر في عسكر كثير إلى ناحية الشام ونزل على بيت المقدس وفيه الأميران سكمان وإيل غازي ابنا ارتق (. . .) فقاتل البلد ونصب عليه المناجيق»[1]. وكان الأخوان التركيان قد وصلا لتوّهما من الشمال حيث كانا قد اشتركا في حملة كربوقا التعسة، واستسلمت المدينة بعد أربعين يوماً من الحصار. وقد أحسن الأفضل إلى الأميرين وأنعم عليهما وأطلقهما ومن معهما.

وأظهرت الأحداث خلال عدة أشهر أن صاحب القاهرة كان على حقّ. فقد جرى بالفعل كل شيء وكأنّ الفرنج قد عدلوا أمام الأمر الواقع عن التقدّم. ولم يعد شعراء البلاط الفاطمي يجدون ما يكفي من كلمات المدح للتنويه بعمل رجل الدولة الذي انتزع فلسطين من «الهراطقة» السنّة. ولكنّ الأفضل قَلِقَ عندما استأنف الفرنج في كانون الثاني/يناير ١٠٩٩ م مسيرتهم بعزم نحو الجنوب.

وأرسل أحد رجاله الخلّص إلى القسطنطينية لاستشارة ألكسي الذي باح له في رسالة شهيرة بأشدّ الاعترافات إثارة للبلبال: إن القيصر لا يمارس على الفرنج أية رقابة. وأبعدُ ما يكون عن التصوّر أن هؤلاء القوم يتصرّفون لحسابهم الخاص ويسعون إلى إقامة دولهم الخاصة رافضين إعادة أنطاكية إلى الإمبراطورية خلافاً لما كانوا قد أقسموا على فعله، ويبدو أنهم عازمون على أخذ القدس بكل الوسائل. فقد دعاهم البابا إلى الحرب المقدّسة للاستيلاء على قبر المسيح، وليس هناك ما يمكن أن يثنيهم عن هدفهم. ويُضيف ألكسي أنه يُنكِر من جهته عملهم ويتمسّك بشدّة بحلفه مع القاهرة.

وعلى الرغم من هذا التحديد الأخير فإن الأفضل يشعر بأنه تردّى في دوّامة قاتلة. وإذ كان هو نفسه من أصل مسيحي فإنه لم يجد صعوبة في إدراك أن الفرنج المؤمنين إيماناً عارماً وساذجاً عازمون على حجّهم المسلّح حتى النهاية. وهو نادم الآن على أنه زجّ نفسه في المغامرة

(١) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ١٣٥. (المترجم)

الفلسطينية. ألم يكن خيراً له أن يَدَعَ الفرنج والأتراك يتقاتلون على القدسِ بدلاً من أن يعترض هو مقابل لا شيء طريق هؤلاء الفرسان الذين تُعادِل شجاعتُهم تعصُّبَهم؟

وإذ كان يعرف أنه بحاجة إلى عدّة أشهر لإعداد جيش قادر على مواجهة الفرنج فقد كتب إلى ألكسي يستحلفه أن يبذل كل ما في وسعه للتخفيف من سرعة سير الغُزاة. والحق أن القيصر أرسل إليهم في نيسان/أبريل ١٠٩٩ م في أثناء حصار عرقة رسالة يطلب منهم فيها تأخير انطلاقهم إلى فلسطين بحجّة أنه لن يلبث أن يصل شخصياً للانضمام إليهم. وعَمِلَ صاحب القاهرة من جهته على إبلاغ الفرنج عروضاً جديدة بشأن عقد اتفاق بينه وبينهم. فهو يجدّد علاوة على عملية اقتسام بلاد الشام سياسته حيال المدينة المقدسة: احترام صارم لحرية العبادة، وتمكين الحجّاج من زيارة المدينة متى شاءوا بشرط أن يفدوا في جماعات قليلة، ومن غير سلاح بالطبع. وجاء جواب الفرنج فظّاً لاذعاً: «نذهب إلى القدس جميعاً بإهاب الحرب رافعي الرماح!».

إنه إعلان حرب. وفي التاسع عشر من أيار/مايو ١٠٩٩ م جمع الغُزاة العملَ إلى القول واجتازوا بلا تردّد نهر الكلب، وهو الحدّ الشمالي للأراضي الفاطمية.

ولكنّ نهر الكلب حدّ وهمي لأن الأفضل اكتفى بتقوية حامية القدس تاركاً الممتلكات المصرية الساحلية لِقَدَرِها. وهكذا سارعت جميع المدن الساحلية تقريباً إلى عقد محالفات مع المجتاح.

وكان أوّلها بيروتَ الواقعة على مسيرة أربع ساعات من نهر الكلب. فقد أوفد أهلها بعثة إلى الفرسان لقطع الوعود بإعطائهم المال والمؤن والأدلّاء شرط أن يحترموا محاصيل السهل الواقع بحذاء المدينة. وأضاف البيروتيون أنهم على اتمّ الاستعداد للاعتراف بسلطان الفرنج إذا هم تمكّنوا من الاستيلاء على القدس. وكان ردّ فعل صيدا مختلفاً. فقد قامت حاميتها بعدّة هجمات باسلة على الغُزاة الذين انتقموا من أهلها

بتدمير بساتينهم ونهب القرى المجاورة لهم. ولسوف تكون هذه حالةَ المقاومةِ الوحيدة. فقد اقتدى ميناءا صور وعكّا ببيروت مع أن الدفاع عنهما لا يخلو من سهولة. وفي فلسطين كانت معظم المدن والقرى قد خلت من أهلها حتى قبل وصول الفرنج. ولم يصادف هؤلاء في أية لحظة مقاومة حقيقية، ومنذ صبيحة السابع من حزيران/يونية ١٠٩٩ م لمحهم سكّان القدس من بعيد فوق التلة بالقرب من مسجد النبي اسماعيل. وكان الناس يسمعون تقريباً هتافاتهم. وعند الأصيل كانوا قد عسكروا تحت أسوار المدينة.

وأخذ افتخار الدولة قائدُ الحامية المصرية يراقبهم بِدَعَةٍ من أعلى برج داود. فقد اتّخذ منذ عدّة أشهر جميع التدابير اللازمة لتحمّل حصار طويل الأَمَد: أصلح جزءاً من السور كان قد تهدّم خلال هجوم الأفضل على الأتراك في الصيف الماضي. جمع مؤناً هائلة لتجنّب كل أخطار المجاعة بانتظار وصول الوزير الذي وعد بالمجيء قبل نهاية شهر تموز/يولية لتخليص المدينة. ولمزيد من الحيطة احتذى مثال ياغي سيان فطرد السكّان النصارى الكفيلين بالتعاون مع إخوتهم في الدين من الفرنج. حتى إنه سمّم في هذه الأيام الأخيرة الينابيع والآبار القائمة في الجوار لمنع العدو من الانتفاع بها. وهكذا فإن حياة المحاصِرين لن تكون رخيّة تحت شمس حزيران/يونية، وفي هذا المشهد الجبلي الجاف الذي تتخلّله هنا وهناك بعض شجيرات الزيتون.

وهكذا بدا لافتخار أن المعركة ستنشب في ظروف حسنة. وإنه ليشعر بالقدرة على الثبات بفضل فرسانه العرب ونبّالته السودانيين المتمترسين بإحكام خلف التحصينات المتينة التي تتسلّق التلال وتغوص في الوهاد. والحقّ أن فرسان الغرب مشهورون بالبسالة، ولكن تصرّفهم تحت أسوار القدس مخيّب ومحيّر بعض الشيء في نظر عسكري محنّك. فقد كان افتخار يتوقّع أن يراهم يبنون منذ لحظة وصولهم أبراجاً متنقّلة ومختلف وسائل الحصار، ويحفرون الخنادق للاحتماء بها من خرجات الحامية

إليهم. بيد أنهم، بعيداً عن الانشغال بمثل هذه التدابير، شرعوا ينظّمون حول الأسوار زيّاحاً يقوده كهنة يَدْعُون ويرفعون عقائرهم بالتراتيل قبل أن ينقضّوا كالكلاب المسعورة للهجوم على الأسوار من غير أن يستخدموا أدنى سُلَّم. ولقد أدهشه هذا التعصّب المغرق في العماية، مع أن الأفضل كان قد شرح له بإسهاب أن الفرنج راغبون في الاستيلاء على المدينة لأسباب دينية. فهو نفسه مسلم مؤمن، ولكنّه إذا كان يحارب في فلسطين فلحماية مصالح مصر، ثم، ولماذا الإنكار، لرفع رتبته العسكرية بالذات.

وهو يعلم جيداً أن هذه المدينة ليست كغيرها. ولطالما دعاها باسمها الدارج، «ايلياء»، ولكنّ العلماء والفقهاء يدعونها القدس أو بيت المقدس أو البيت المقدّس. وهم يقولون إنها المدينة المقدّسة الثالثة بعد مكة والمدينة، إذ إليها أسرى الله بنبيّه في ليلة مباركة ليلتقي بموسى وعيسى ابن مريم. ومذّاك أصبحت القدس في نظر كل مسلم رمزاً لاستمرار الرسالة السماوية. وكثير من المتعبّدين يأتون للخشوع والتأمّل داخل المسجد الأقصى تحت القبّة الضخمة البرّاقة التي تهيمن بجلال على بيوت المدينة المربّعة.

وعلى الرغم من أن السماء بادية هنا في كل زاوية من زوايا الشارع فإن افتخار بالذات يشعر بأن قدميه لاصقتان بالأرض. وهو يرى أن الفنون العسكرية هي هي مهما تكن المدينة. وزيّاحات الفرنج الترتيلية تزعجه ولكنها لا تقلقه. ولم يبدأ القلق بمساورته إلا في نهاية الأسبوع الثاني من الحصار عندما انصرف العدو بكدّ إلى بناء برجين خشبيين ضخمين. وها هما في بداية تموز/يولية منتصبان متأهّبان لنقل مئات المقاتلين إلى أعلى الأسوار. وإن شبحيهما ليرتفعان متوعِّدَيْن وسط المعسكر المعادي.

وتعليمات افتخار صارمة: إذا قامت أية واحدة من هاتين الآلتين بأدنى تحرّك باتجاه الأسوار فينبغي إمطارها بوابل من السهام. وإذا تمكن البرج

بعد ذلك من الاقتراب فينبغي استخدام النار اليونانية، وهي مزيج من النفط والكبريت يُصبّ في جِرار ويُقذف به مشتعلاً فوق رؤوس المحاصِرين. ويُحدِث السائل وهو يُراق حرائق من العسير إخمادها. ولسوف يتيح هذا لسلاح الرهيب لجنود افتخار صدّ عدّة هجمات متلاحقة خلال الأسبوع الثاني من تموز/يولية على الرغم من أن المحاصِرين كانوا قد فرشوا البرجينْ المتحرّكينْ بجلود حديثة السلخ ومضمّخة بالخل لوقاية أنفسهم من لهيب النار. وسرت في أثناء ذلك شائعات بوصول الأفضل الوشيك. وإذ خشي المحاصِرون أن يقعوا بين نارين فقد ضاعفوا جهودهم. ويقول ابن الأثير:

«ونصبوا (الفرنج) برجين أحدهما من ناحية صهيون وأحرقه المسلمون وقتلوا كل من به. فلما فرغوا من إحراقه أتاهم المستغيث بأن المدينة قد مُلكت من الجانب الآخر، وملكوها من جهة الشمال منه ضحوة نهار يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان (٤٩٢ هـ)»[1].

وانسحب افتخار في ذلك اليوم المهول من تموز/يولية ١٠٩٩ م إلى برج داود، وهو حصن مثمّن الاضلاع لُحمت أسسه بالرصاص ويُعدّ أقوى نقطة من نقاط السياج. وكان في وسعه الصمود عدّة أيام أُخَر، ولكنّه يعلم أن المعركة قد خسرت. فلقد اجتيح الحيّ اليهودي والشوارع ملآى بالجثث، والعِراك دائر منذ وقت عند أطراف المسجد الجامع. ولن يلبث أن يُحاصر هو ورجاله من كل صوب. ومع ذلك فإنه مستمر في القتال. فماذا في مقدوره أن يفعل غير ذلك؟ وعند العصر توقّفت عملياً المعارك التي كانت دائرة في قلب المدينة، لم تعُد راية الفاطميين البيضاء ترفرف إلا فوق برج داود.

وفجأة توقّفت هجمات الفرنج واقترب أحد الرسل. إنه قادم من قِبَل صنجيل عارضاً على القائد المصري ورجاله أن يدعهم يذهبون سالمين

---

(١) «الكامل في التاريخ» بالنص العربي، ج ٨، ص ١٨٩. (المترجم)

إذا هم قبلوا أن يسلّموه البرج. وتردّد افتخار، فقد سبق للفرنج غير مرّة أن نكثوا بعهودهم، وليس ما يؤكد أن صنجيل قرّر التصرّف بشكل آخر. ومع ذلك فهو موصوف بأنه ستّيني أبيض الشعر يحيّيه جميع الناس بالإجلال، الأمر الذي يضمن عنده الحسّ باحترام العهد المقطوع. ومعروف على كل حال أنه بحاجة إلى التفاوض مع الحامية لأن برجه الخشبي كان قد دمّر وصدّت جميع هجماته. والحقّ أنه يسير منذ الصباح تحت الأسوار بينما إخوته الزعماء الفرنجيون الآخرون مشغولون بنهب المدينة والتنازع على بيوتها. وإذ كان افتخار قد وازن بين ما له وما عليه فقد انتهى به الأمر إلى إعلان استعداده للاستسلام شريطة أن يَعِد صنجيل بشرفه بتأمين سلامته وسلامة جميع رجاله.

وسوف يسجّل ابن الأثير موقف الفرنج بنزاهة قائلاً: «ووفى لهم الفرنج وخرجوا ليلاً إلى عسقلان فأقاموا بها[1]» قبل أن يضيف: «وركب الناسَ السيفُ. ولبث الفرنج في البلدة أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين (. . .) وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً»[2]. وأمّا ابن القلانسي الذي يتجنّب إيراد أرقام يصعب التحقّق من صحتها فيقول: «وقُتل خلق كثير، وجُمع اليهود في الكنيسة وأحرقوها عليهم (. . .) وهدموا المشاهد وقبر الخليل عليه السلام»[3].

ومن بين المشاهد التي خربها الغُزاة مسجد عمر الذي شيّد تخليداً لذكرى استخلاص ثاني خلفاء النبي، عمر بن الخطاب، مدينة القدس من أيدي الروم عام ٦٣٨ م. ولن يألوَ العرب جهداً فيما بعد للتذكير في كثير من الأحيان بهذا الحدث ابتغاء إظهار الفرق بين سلوكهم وسلوك الفرنج. ففي ذلك اليوم دخل عمر على جمله الأبيض الشهير في حين كان بطريرك المدينة المقدسة الرومي يتقدّم للقائه. ولقد بدأ الخليفة حديثه إليه مؤكداً له احترام حياة جميع السكان وممتلكاتهم قبل أن يسأله

---

(١) و(٢) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٨، ص ١٨٩. (المترجم)

(٣) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ١٣٧. (المترجم)

السماح له بزيارة الأماكن المقدّسة المسيحية. وإذ كانا في كنيسة القيامة فقد حضر وقت الصلاة فسأل عمر مضيفه أين يمكنه أن يفرش بساطه للسجود. ودعاه البطريرك إلى البقاء في مكانه، ولكنّ الخليفة أجاب: «إذا فعلت فسيستولي المسلمون غداً على هذا المكان قائلين: لقد صلّى عمر هنا». وحمل بساطه وسجد خارج الكنيسة. وكانت نظرته ثاقبة، فسوف يُشاد في المكان الذي صلّى فيه بالذات المسجد الذي يحمل اسمه. ولا يملك الزعماء الفرنج مع الأسف هذه الأريحية، فقد احتفلوا بانتصارهم بارتكاب مجزرة تعزّ على الوصف ثم خرّبوا بوحشيّة المدينة التي يزعمون إجلالها.

وحتى إخوانهم في الدين أنفسهم لم يوفّروهم، وكان من أول ما اتّخذوه من تدابير أنهم طردوا من كنيسة القيامة جميع الكهنة من الطقس الشرقي - روماً وجيورجيين وأرمنيين وأقباطاً وسرياناً - الذين كانوا يقيمون القداديس معاً تبعاً لمذهب كان جميع الفاتحين قد احترموه حتى ذلك الحين. وإذ ذهل وجهاء الطوائف المسيحية الشرقية أمام هذا القدر من التعصّب فقد عزموا على المقاومة، ورفضوا أن يكشفوا للمحتلّ عن المكان الذي خبّأوا فيه الصليب الحقيقي الذي مات عليه المسيح. والتفاني الديني بصدد هذه الذخيرة مقترن في نظر هؤلاء الناس بالعزّة القومية. أليسوا في الواقع مواطني الناصريّ؟ ولكنّ المجتاحين لا يَدَعون أيّ مجال للتأثّر. وإذ قبضوا على الكهنة الموكلين بحراسة الصليب وأخضعوهم للتعذيب فقد تمكنوا من انتزاع سرّهم والحصول من مسيحيي المدينة المقدّسة بالقوّة على أغلى ما يملكون من ذخائر.

وفي حين انتهى الغربيون من ذبح بعض الناجين بعد أن نصبوا لهم الكمائن، ومن الاستيلاء على كل ثروات القدس، كان الجيش الذي حشده الأفضل يتقدّم ببطء عبر سيناء. ولم يُقدَّر له الوصول إلى فلسطين إلا بعد عشرين يوماً على المأساة. وتردّد الوزير الذي كان يقوده بنفسه في المسير مباشرة إلى المدينة المقدّسة. فبالرغم من أن بأمرته زهاء ثلاثين ألف

رجل فإنه لا يعتبر نفسه في موقع قوّة لأنه يفتقر إلى معدّات للحصار، ويُخيفه تصميم الفرسان الفرنج. وعليه فقد قرّر الإقامة بعسكره في جوار عسقلان وإرسال وفد إلى القدس لسبر نيّات العدو. وفي المدينة المحتلّة اقتيد المبعوثون إلى فارس طويل القامة والشعر ذي لحية شقراء قُدِّم إليهم على أنه كندفري (غودفروا دوبويّون) صاحب القدس الجديد. وإليه نقلوا رسالة الوزير التي يتّهم فيها الفرنج بالتفريط بحسن نيّته، ويعرض عليهم تسوية إذا هم وعدوا بمغادرة فلسطين. وكان ردّ الغربيين الأوحد أن جمعوا قواهم واندفعوا بلا إبطاء على طريق عسقلان.

وكان تقدّمهم من السرعة بحيث وصلوا إلى محاذاة معسكر المسلمين من غير أن يلاحظ الكشّافة وصولهم. ويخبرنا ابن القلانسي أنه منذ الهجوم الأول «انهزم العسكر المصري إلى ناحية عسقلان ودخل الأفضل إليها، وتمكّنت سيوف الأفرنج من المسلمين، فأتى القتلُ على الراجل والمطوّعة وأهل البلد، وكانوا زهاء عشرة آلاف نفس. ونهب العسكر»[1]

* * *

ومما لا ريب فيه أنّ وصول زمرة اللاجئين بقيادة أبي سعد الهروي إلى بغداد قد تمّ بعد بضعة أيام من هزيمة المصريين. وقاضي دمشق لا يعلم بعدُ أن الفرنج قد أحرزوا انتصاراً جديداً، ولكنّه على علم بأن الغُزاة قد أصبحوا سادة القدس وأنطاكية والرُّها، وأنهم هزموا قلج أرسلان والدنشمند، وأنهم اجتازوا الشام من الشمال إلى الجنوب ذابحين ناهبين على هواهم من غير أن يزعجهم أحد. وهو يشعر بأن شعبه ودينه قد أهينا. وذَلّا، ويحسّ بالرغبة في الصراخ لعلّ المسلمين يتنبهّون. إنه يريد أن يهزّ إخوته، أن يثيرهم، أن يُشعرهم بالعار.

وقد قاد رفاقه إلى المسجد الجامع يوم الجمعة في التاسع عشر من

(١) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ١٣٧. (المترجم)

آب/أغسطس ١٠٩٩م لصلاة الظهر، وعندما أقبل المسلمون من كل صوب للصلاة أخذ يأكل علانية مع أن الناس في شهر رمضان. وما هي إلا ثوانٍ حتى اجتمع الناس حوله واقترب جماعة من الجند لاعتقاله. بيد أن أبا سعد نهض يسأل بهدوء من يحيطون به كيف يمكن أن يُظهروا مثل هذا الاضطراب حيال إفطار في شهر الصيام في حين يبدون لا مبالاة تامّة حيال ذبح آلاف المسلمين وتدمير المقدّسات الإسلامية. وإذ أكره الجمهور على الصمت فقد أخذ يصف بالتفصيل ما دَهَمَ بلاد الشام، ولا سيما القدس، من مصائب. ويعلّق ابن الأثير على ذلك بقوله: «وبكوا (أي اللاجئين) وأبكوا»[1].

وترك الهروي الشارع وطاف بالقصور يحمل إليها أنباء الفضيحة. وها هوذا يصرخ قائلاً: «أرى أن دعائم الدين قد وهت وضعفت»[2]! في ديوان أمير المؤمنين المستظهر بالله، وهو خليفة شاب في الثانية والعشرين من عمره أبيض البشرة قصير اللحية مدوّر الوجه. إنه عاهل مَرِحٌ سَمْحٌ لحظاتُ غضبه العارم وجيزةٌ جداً وقلما يُتْبع تهديداته بالتنفيذ. ولطالما فاخر هذا الخليفة الشاب بأنه لم يُلحق ضرراً بأحد في حقبة كان فيها الجَوْر على ما يبدو أوّل صفات الحكّام. ويلاحظ ابن الأثير بسذاجة أنه [كانت أيامه أيام سرور الرعيّة فكأنها من حسنها أعياد] «وكان إذا بلغه ذلك فرح به وسرّه»[3]. وإذ كان المستظهر حسّاساً مرهفاً دمثاً فقد كان يتذوّق الفنون، وكان كَلِفاً بفنّ العمارة، وقد أشرف بنفسه على بناء سور حول مكان إقامته، وهو السور القائم شرقي بغداد. وكان في ساعات فراغه، وما كان أكثرها، ينظم أشعار الغزل:

---

(١) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٨، ص ١٨٩. (المترجم)

(٢) ورد هذا الكلام شعراً في أحد أبيات قصيدة الأبيوردي المذكورة في «الكامل في التاريخ» على الشكل التالي: «أرى أمّتي لا يشرعون إلى العدى رماحهم، والدين واهي الدعائم»، ج ٨، ص ١٩٠. (المترجم)

(٣) و(٤) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٨ ص ٢٨١. (المترجم)

أذاب حرُّ الهوى في القلب ما جمدا   لمّا مددتُ إلى رسم الوداع يدا(٤)

ولسوء حظ رعاياه أن هذا الرجل الذي يقول فيه ابن القلانسي انه كان «جميل السيرة محبّاً للعدل والانصاف ناهياً عن قصد الجَوْر والاعتساف»(١) لم يكن يملك أي سلطان، مع أنه كان محاطاً في كل لحظة بالحفاوة والإجلال، وأن المؤرّخين يذكرون اسمه مقروناً بالاحترام. ويبدو أن لاجيء القدس الذين عقدوا عليه جميع آمالهم قد نَسُوا أن سلطته لا تُمارس خارج جدران قصره،وأن السياسة تضجّره على كل حال.

ومع ذلك فإنه وريث تاريخ مجيد. فأسلافه الخلفاء كانوا خلال القرنين اللذين أعقبا موت النبي (٦٣٢ - ٨٣٣ م) الرؤساء الدينيين والدنيويين لإمبراطورية شاسعة كانت تمتدّ في أوج مجدها من نهر السند إلى جبال البرانس، حتى إنها أوغلت قليلاً باتجاه واديي نهري الرون واللوار. وقد جعلت الأسرة العباسية التي ينتمي المستظهر إليها من بغداد مدينة ألف ليلة وليلة الأسطورية. وفي بداية القرن التاسع (الميلادي)، أي في عهد سلفه هارون الرشيد، كانت بلاد الخلافة العباسية أغنى وأقوى دولة في الأرض، وكانت عاصمتها مركز أرقى الحضارات. ففيها ألف طبيب مُجاز، ومستشفى كبير مجّاني، ومصلحة بريد منتظم، وعدّة مصارف لبعضها فروع في الصين، وشبكة مياه ممتازة، وأخرى متصلة بمنتفعات المنازل لتصريف مياه الخدمة، ومصنع للورق - ولسوف يتعلم الغربيون الذين لم يكونوا يستعملون غير الرّق للكتابة قبل دخولهم بلاد الشام، سوف يتعلمون فنّ صناعة الورق من تبن القمح.

ولكنّ هذا العصر الذهبي كان قد ولّى منذ زمن طويل في ذلك الصيف الدامي من عام ١٠٩٩ م، يوم جاء الهروي ينبىء في ديوان المستظهر بسقوط القدس. فهارون توفي عام ٨٠٩ م، وبعد ربع قرن فقد خلفاؤه كل سلطان حقيقي. وأصبحت بغداد نصف مدمّرة والإمبراطورية مفكّكة الأوصال. ولم يبقَ بعدُ سوى تلك الأسطورة التي

---

(١) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ٢٠٠. (المترجم).

سيحلُم بها العرب عن عصر من الوحدة والعظمة والازدهار. والصحيح أنّ العباسيين سوف يتولّون الخلافة أربعة قرون أخرى، ولكنّهم لن يحكموا قطّ، ولن يكونوا إلا رهائن في أيدي جنودهم الأتراك أو الفرس القادرين على اصطناع الملوك أو الإطاحة بهم على هواهم متوسّلين القتل في أغلب الأحيان. ولكي ينجو الخلفاء من مثل هذا المصير فإن معظمهم سوف يستنكفون عن كل نشاط سياسي وينزوون في أجنحة الحريم منصرفين حصراً إلى ملذّات الحياة، جاعلين من أنفسهم شعراء أو موسيقيين، جامعين حولهم الجواري الحسان المعطّرات.

لقد أصبح أمير المؤمنين الذي طالما كان فخرَ العرب مُجسَّداً رمزاً حيّاً لانحطاطهم. والمستظهر الذي يتوقّع منه لاجئو القدس معجزة هو ممثّل هذا العرق من الخلفاء الخاملين بالذات. إنه عاجز، حتى ولو شاء، عن نجدة المدينة المقدّسة، إذ لا يملك من جيش سوى حرس خاص مؤلف من بضع مئات من الخصيان السود والبيض. ومع ذلك فإن بغداد لا تفتقر إلى الجنود، فهم يتسكّعون بلا انقطاع بالآلاف في الشوارع، سكارى في أكثر الأحيان. ولكي يتجنّب أهل المدينة شرورهم وتجاوزاتهم فقد اعتادوا أن يسدّوا كل ليلة منافذ الأحياء جميعها بحواجز ثقيلة من الخشب أو الحديد.

وغنيّ عن البيان أن تلك المصائب بالبزّات العسكرية التي حكمت على الأسواق بالإفلاس نتيجة النهب المنظّم لا تنصاع لأوامر المستظهر. وقائدهم لا يتكلّم عملياً بالعربية، لأن بغداد قد سقطت، على غرار جميع مدن آسيا الإسلامية، تحت وطأة الأتراك السلاجقة منذ أكثر من أربعين عاماً. ورجل العاصمة العباسية القويّ، السلطان بركيارق الشاب ابن عم قلج أرسلان، هو نظرياً الآمر المطلق على جميع أمراء المنطقة. وأمّا الحقيقة فهي أنّ كل مقاطعة من الإمبراطورية السلجوقية مستقلّة عملياً، وأنّ أفراد الأسرة الحاكمة غارقون تماماً في خصوماتهم العائلية.

وعندما غادر الهروي العاصمة العباسية في أيلول/سبتمبر ١٠٩٩ م لم يكن قد تمكّن من لقاء بركيارق لأنّ السلطان يقود في شمالي فارس معركة ضد شقيقه محمد، وهي معركة ستنتهي لمصلحة هذا الأخير الذي سيستولي على بغداد نفسها ابتداء من شهر تشرين الأول/أوكتوبر. ومع ذلك فإن هذا الصراع اللامعقول لم يكن قد انتهى عند هذا الحدّ. بل إنه سيتّخذ تحت أبصار العرب الذين لم يكونوا يسعون إلى فهم ما يدور منحى هزلياً خالصاً. وإليكم ذلك! ففي كانون الثاني/يناير ١١٠٠ م ترك محمد بغداد على عجل ودخلها بركيارق منتصراً، ولكنْ ليس لأمدٍ طويل، فلسوف يفقدها من جديد ليعود إليها بالقوّة في نيسان ١١٠١ م بعد غيبة طالت عاماً فيهزم أخاه. وعاد خطباء الجمعة يدعون له على المنابر في مساجد العاصمة العباسية، ولكنّ الحال تغيّرت مرة أخرى في أيلول/سبتمبر. وكان قد بدا أن بركيارق الذي انهزم بفعل تحالف بين اثنين من إخوته لن تقوم له بعدُ قائمة. ولكنّ هذا القول ينمّ عن جهل بأمره: لقد عاد رغم هزيمته على حين غرّة إلى بغداد قبل أن يُطرد منها في تشرين الأول/أوكتوبر. ولكنّ غيابه كان قصيراً في هذه المرة أيضاً، فقد جرى منذ شهر أيلول/سبتمبر اتفاق يعيد إليه المدينة. وهكذا تكون هذه قد انتقلت من يد إلى يدٍ ثماني مرات في ثلاثين شهراً: لقد كان لها صاحب كل مئة يوم! هذا في الوقت الذي كان فيه الغُزاة الغربيون يعزّزون وجودهم في الأراضي المحتلّة.

ولسوف يصوّر ابن الأثير ذلك الواقع بشكل ملطّف بليغ فيقول: «واختلف السلاطين فتمكّن الفرنج من البلاد»[1].

---

(١) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٨، ص ١٨٩. (المترجم).

القسم الثاني

الاحتلال (١١٠٠ ـ ١١٢٨ م)

«ما إن يستولي الفرنج على حصن حتى يهاجموا آخر. وسوف تتزايد قوّتهم حتى يحتلوا بلاد الشام بأسرها ويطردوا منها المسلمين».

فخر الملك ابن عمّار
صاحب طرابلس

أيام طرابلس الألفان

بعد كل تلك الهزائم المتلاحقة، وذلك القدر من الخيبات والمهانات، وصلت إلى دمشق ثلاثة أنباء غير متوقعة في ذلك الصيف من عام ١١٠٠ م فأنعشت كثيراً من الآمال، لا في صفوف المجاهدين المتديّنين الذين يحفّون بالقاضي الهروي فحسب، بل في الأسواق أيضاً تحت قناطر الشارع المستقيم حيث يتنادى في ظل الدوالي تجّار الحرير الخام والديباج الموشى بالخيوط الذهبية والغلالات الدمقسية والأثاث المرصع بالأصداف من حانوت إلى حانوت من فوق رؤوس المارة وبنبرة الأيام السعيدة.

سرت الشائعة الأولى في بداية شهر تموز/يولية وما لبث أن تحقّقت: إنّ صنجيل الهرم الذي لم يُخْفِ قطّ أطماعه في طرابلس وحمص وسائر بلاد الشام الوسطى قد رحل فجأة إلى القسطنطينية على أثر نزاع مع الزعماء الفرنج الآخرين. ويتهامس الناس بأنه لن يعود البتّة.

وفي نهاية تموز/يولية وصل نبأ ثانٍ أكثر غرابة فانتشر في دقائق من مسجد إلى مسجد، ومن زقاق إلى زقاق. فقد «وصل كندفري صاحب بيت المقدس إلى ثغر عكا وأغار عليه فأصابه سهم فقتله»[1]، كما يروي لنا ابن القلانسي. ويسري الحديث أيضاً عن فاكهة مسمومة قد يكون وجيه

(١) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ١٣٨. (المترجم).

فلسطيني قدّمها إلى الزعيم الفرنجي. وبعضهم يعتقد أنه مات ميتة طبيعية ناتجة عن إصابة بوباء. ولكنّ الجمهور ميّال إلى الرواية التي ساقها مؤرخ دمشق: لقد سقط كندفري (غودفروا) تحت ضربات المدافعين عن عكّا. أفلا يشير هذا النص الذي تحقّق بعد سقوط القدس بعام إلى أن اتجاه الرياح بدأ يتغيّر؟

لقد تأكدت صحّة هذا الإحساس بعد بضعة أيام عندما عُلم أن بيمند أشرس الفرنج قد أُسِر. ودنشمند (الحكيم) هو الذي ظفر به. فقد جاء الزعيم التركي، كما فعل قبل ثلاثة أعوام يوم معركة نيقية، لمحاصرة مدينة مالَطية الأرمنية. ويقول ابن القلانسي: «فعاد بيمند عند معرفة ذاك إلى أنطاكية وجمع وحشد وقصد عسكر المسلمين»[1]. وإنها لمغامرة جريئة لأنه كان على الزعيم الفرنجي لكي يصل إلى المدينة المحاصَرة أن يسير بخيله مدة أسبوع في أرض جبلية يمسك بها الأتراك بقبضة من حديد. وما إن علم دنشمند بوصوله حتى نصب له كميناً. فقد استُقبل بيمند والفرسان الخمسمئة الذين يرافقونه بحاجز من السهام انهمرت على رؤوسهم في ممرّ ضيّق لم يكن في وسعهم أن ينتشروا داخله. «فنصر الله تعالى المسلمين عليه وقتلوا من حزبه خلقاً كثيراً وحصل في قبضة الأسر مع نفر من أصحابه»[2]. واقتيدوا مكبّلين بالأصفاد إلى «نكسار» في شمالي الأناضول.

وبدا القضاءُ تباعاً على صانعي الاجتياح الفرنجي الثلاثة الرئيسيين، صنجيل وكندفري وبيمند، لجميع الناس وكأنه منّة من السماء. واستعاد مَنْ لاشاهم الغربيون الذين بدا أنهم لا يُقهرون شجاعتهم وبأسهم. أوليس هذا أوان تسديد الضربة القاضية إليهم؟ هناك على الأقل رجل يرجو ذلك من أعماق قلبه. إنه دُقاق.

لكنْ علينا ألا ننخدع، فليس لملك دمشق الشاب شيء من صفات

---

(۱) و(۲) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ۱۳۸. (المترجم).

المدافع المتفاني عن الإسلام. أفلم يُثْبِتْ بالقلم العريض في أثناء معركة أنطاكية أنه كان مستعدّاً لخيانة أصحابه في سبيل مطامحه المحلّية؟ وعلى كل حال فإن «السلجوقي» لم يكتشف بغتة ضرورة مجاهدة الكفار إلا في ربيع عام ١١٠٠ م، فإذ اشتكى إليه أحد أتباعه، وهو بدوي من هضبة الجولان، من هجمات فرنج القدس المتكررّة على محاصيله وسرقتهم ماشيته، فقد قرر دُقاق أن يُرهِبهم. وبينما كان كندفري وذراعه الأيمن طنكري (طنكريد)، وهو ابن أخت لبيمند، عائدَيْن مع رجالهم من غَزاة فائقة الغُنْم في أحد أيام أيار/ مايو هاجمهما جيش دمشق. ولم يكن في وسع الفرنج الذين أثقلتهم الأسلاب أن يخوضوا المعركة فآثروا الهرب تاركين وراءهم عدّة قتلى. حتى طنكري نفسه لم ينجُ إلا بأعجوبة.

وطلباً للانتقام فقد نظّم غارة ثأرية على نواحي العاصمة الشامية بالذات. ودُمّرت البساتين ونُهبت القرى وأُحرقت. ولم يجرؤ دُقاق، وقد فوجيء بضخامة الردّ وسرعته، على التدخّل. ونظراً لتقلّبه المألوف، وسرعان ما ندم بمرارة على العملية التي قام بها في الجولان، فقد بلغ به الأمر أن عرض على طنكري أن يدفع له مبلغاً من المال إذا هو وافق على الابتعاد. ولم يكن من أمر هذا العرض إلا أن شدّد بالطبع من عزيمة الأمير الفرنجي. وإذ اعتبر تبعاً لكل منطق أن الملك كان في وضع حرج فقد أرسل إليه وفداً من ستة أشخاص لإخطاره بضرورة اعتناق الديانة المسيحية أو تسليم دمشق إليه. لم يكن ينقص إلا هذا! لقد جرح هذا القدرُ من الصفاقة كرامةَ «السلجوقي» فإذا هو يأمر بالقبض على المبعوثين ويلزمهم بدوره وهو يفأفيء من الغضب بأن يعتنقوا الإسلام. وقَبِل واحد منهم بذلك، وقُطعت على الفور رؤوس الخمسة الباقين.

ما إن عُرف الخبر حتى انضمّ كندفري إلى طنكري وقاما ومَنْ معهما من الرجال بعملية تدمير منظّم لجوار العاصمة الشامية دامت عشرة أيام. وغدا سهل الغوطة الخصب الذي يُحدِق بدمشق «إحداق الهالة بالقمر»، حسب تعبير ابن جبير، في حالة يُرثى لها. ولم يحرّك دُقاق ساكناً وظلّ

محتبساً في قصره بانتظار انقضاء الإعصار، مع أن تابعه الذي في الجولان خرج عن طوعه وأخذ يدفع الجزية السنوية مذّاك إلى سادة القدس. وأخطرُ من ذلك أيضاً أنّ سكان العاصمة الشامية بدأوا يشتكون من عجز حكامهم عن حمايتهم، ويتذمّرون من كل أولئك الجنود الأتراك الذين يتبخترون في الأسواق كالطواويس ويختفون تحت الأرض عندما يكون العدوّ على أبواب المدينة. ولم يكن لدُقاق غير هاجس أوحد: الانتقام، وفي أسرع وقت، لا لشيء إلا لاستعادة الاعتبار في نظر رعاياه.

ويمكننا في هذه الظروف أن نتصوّر بسهولة أن يُحدِث موتُ كندفري فرحةً كبرى في نفس «السلجوقي» الذي كان من الممكن ألاّ يبالي بموته لو حصل قبل ذلك بثلاثة أشهر. وإذ تمّ أسر بيمند بعد ذلك بأيام فقد شجّعه على القيام بعمل مشهود.

وسنحت الفرصة في تشرين الأول/أوكتوبر. ويقول ابن القلانسي: «فلما قتل كندفري سار أخوه بغدوين [بودوان] القُمْص [الكونت] صاحب الرُّها إلى بيت المقدس في خمسمئة فارس وراجل فجمع شمس الملوك دُقاق عند معرفة خبر عبوره... [فلقيه] بالقرب من ثغر بيروت»[1]. وبدا أنّ بغدوين كان يسعى لخلافة كندفري. وقد عُرِف هذا الفارس بفظاظته وانعدام الوازع في نفسه كما دلّت حادثة قتله «أبويه بالتبنّي» في الرُّها، ولكنّه أيضاً محارب شجاع واسع الحيلة سوف يشكّل وجوده في القدس تهديداً مستمرّاً لدمشق وسائر بلاد الشام الإسلامية. وقَتْلُه أو أَسْرُه في هذه اللحظة الدقيقة معناه في الواقع قطع رأس الجيش الغازي وإعادة النظر في وجود الفرنج في الشرق. وإذا كان قد أحسِن اختيار الموعد لذلك فإن مكان الهجوم لم يقلّ عنه إحساناً.

كان ينبغي أن يصل بغدوين القادم من الشمال في محاذاة ساحل البحر

---

(1) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ١٣٨. (المترجم).

المتوسط إلى بيروت في الرابع والعشرين من تشرين الأول/أوكتوبر. وكان عليه قبل ذلك أن يجتاز نهر الكلب، وهو الحدّ الفاطمّي القديم. وقرب مصبّ نهر الكلب يضيق الطريق وتكتنفه الصخور الشاهقة والجبال الشديدة الانحدار. والمكان مثالي لنصب كمين. وقد قرّر دُقاق أن ينتظر الفرنج هنا بالضبط مخبّئاً رجاله في المغاور أو على المنحدرات المكسوة بالأحراج. وأخذ كشّافته يخبرونه تباعاً بتقدّم العدّو.

ونهر الكلب منذ أقدم العصور هاجس الفاتحين. فحين يتمكّن أحدهم من اختراق الممر يغدو من الفَخَار بحيث يحفر على الصخرة قصّة صنيعه. وفي عهد دُقاق كان في وسع المرء أن يرى عدداً كبيراً من هذه الآثار، بدءاً من النقوش الهيروغليفية التي تركها الفرعون رمسيس الثاني والخطوط المسمارية التي خلّفها البابليّ نبوخذ نصّر، وانتهاء بالمدائح اللاتينية التي كان الإمبراطور الروماني الشآمي الأصل سبتيموس سفروس قد كالها لمتطوّعية الغاليّين البواسل. ولكنْ في مقابل هذه الحفنة من المنتصرين كم من محارب رأى حلمه يتحطّم على هذه الصخرة من غير أن يترك عليها أثراً! وليس من شكّ في رأي ملك دمشق بأن «بغدوين الملعون» سوف يلحق عمّا قريب بتلك القافلة من المدحورين. وحُقَّ لدُقاق أن يتفاءل، فعسكره سبعة أضعاف عسكر الزعيم الفرنجي أو ثمانية أضعافهم، وهو يملك على الأخصّ عنصر المفاجأة. إنه لن يُصلح الإهانة التي نزلت به وحسب، بل سيستعيد مكانته المرموقة بين أمراء الشام ويمارس من جديد سطوته التي أفسدها عليه ظهور الفرنج.

وإذا كان هناك من رجل لم يفته الرهان على المعركة فهو صاحب طرابلس الجديد القاضي فخر المُلْك الذي خلف قبل عام أخاه جلال المُلْك. وإذ كان صاحب دمشق قد طمع في مدينته قبل وصول الغربيين فإنه لا تنقصه الأسباب لكي يخشى هزيمة بغدوين لأن دُقاق سيرغب عندها في تنصيب نفسه بطل الإسلام ومحرِّر أرض الشام الذي ينبغي الاعتراف بسلطانه المطلق وتحمّل نزواته وأهوائه.

ولكي يتجنّب فخر المُلْك هذا المصير فإنه لا يتحرّج أمام أي وازع. فما إن علم باقتراب بغدوين من طرابلس في طريقه إلى بيروت ثم إلى القدس حتى أرسل إليه خمراً وعسلاً وخبزاً ولحماً وهدايا نفيسة من ذهب وفضّة، وحتى رسولاً يلحّ على لقائه على حدة ويُعلِمه بالكمين الذي نصبه له دُقاق مقدِّماً إليه عدداً من التفاصيل عن وضع عساكر دمشق، مُسْدياً إليه النصائح وأفضل الخطط الواجب اتّباعها. وإذ شكر الزعيم الفرنجي للقاضي تعاونه الثمين غير المتوقّع فقد استأنف طريقه إلى نهر الكلب.

كان دُقاق الذي لم يَرْتَب في أي شيء يستعدّ للهجوم على الفرنج بمجرّد أن يدخلوا الشريط الساحلي الضيّق الذي كان يسدّد إليه نبّالته سهامهم. والواقع أن الفرنج ظهروا من ناحية جونية وهم يتقدّمون مُظهرين لا مبالاة تامّة. وما هي إلا خطوات حتى يسقطوا في الفخّ ولكنْ ها هم يتوقّفون فجأة ثم يأخذون بالتراجع على مهل. ولم يكن قد حدث شيء بعد، ولكنّه سُقط في يد دُقاق الذي رأى العدوّ يُفلت من حبائله. وبناء على إلحاح أمرائه فقد أمر نبّالته بإطلاق بعض رشقات من السهام من غير أن يجرؤ مع ذلك على إطلاق فرسانه على الفرنج. وما إن خيّم الليل حتى كانت معنويات الجنود المسلمين في الحضيض، وتبادل العرب والأتراك التُّهَم بالجبن. واندلعت بعض المناوشات. وفي صباح اليوم التالي، وبعد مواجهة قصيرة، كان جنود دمشق ينسحبون نحو الجبل اللبناني في حين كان الفرنج يتابعون طريقهم إلى فلسطين في دَعَة.

لقد اختار قاضي طرابلس طوعاً أن يخلّص بغدوين مرتئياً أنّ مصدر التهديد الرئيسي المحيق بمدينته هو دُقاق الذي كان قد تصرّف على هذه الشاكلة ضد مصلحة كربوقا قبل عامين. فالوجود الفرنجي بدا لأحدهما كما للآخر أهون الشرّين عند احتدام الأمور. ولكنّ الشرّ لن يلبث أن يعمّ وينتشر. فبعد ثلاثة أسابيع من كمين نهر الكلب الذي لم تتحقّق نتائجه كان بغدوين يعلن نفسه ملكاً على القدس ويقوم بعملية مزدوجة

من التنظيم والغزو لتثبيت مكتسبات الاجتياح. ولسوف ينسب ابن الأثير بعد حوالي قرن من الزمن، في محاولة لفهم دوافع الفرنج للمجيء إلى الشرق، زمامَ المبادرة بالحركة إلى الملك بودوان، «البردويل»، الذي كان يعتبره نوعاً ما زعيم الغرب. وليس هذا خطأً، فإذا كان هذا الفارس واحداً من عدّة مسؤولين عن الغزو فإن مؤرّخ الموصل على حق في القول بأنه صانع الاحتلال الرئيسي. ولسوف تبدو الدويلات الفرنجية للتوّ بإزاء تمزّق العالم العربي غير القابل للعلاج وكأنها، بتصميمها وصفاتها القتالية وتعاضدها النسبيّ، قوّة محلّية حقيقية.

ومع ذلك فإن المسلمين يملكون امتيازاً مهمّاً: ضعف أعدائهم البالغ من الناحية العددية. فغداة سقوط القدس عاد معظم الفرنج إلى بلادهم. ولم يكن في وسع بغدوين عند تسنّمه العرش أن يعتمد على أكثر من بضع مئات من الفرسان. ولكنّ هذا الضعف الظاهر لا يلبث أن يتلاشى عندما يُعلم في ربيع عام ١١٠١ م أن جيوشاً فرنجية جديدة أكثر عدداً بكثير من التي عُرفت حتى الآن قد احتشدت في القسطنطينية.

وبديهيّ أن يكون قلج أرسلان ودنشمند اللذين ما يزالان يذكران آخر مرور للفرنج في آسيا الصغرى أوّلَ المتخوّفين. وقد قررّا من دون تردّد أن يوحّدا قوّاتهما في محاولة لقطع الطريق على الغزو الجديد. ولم يجرؤ التركيّان على المغامرة من جهة نيقية أو دوريله اللتين يقبض عليهما الروم مذّاك بإحكام، وفضّلا القيام بنصب كمين جديد في مكان أبعد بكثير في جنوبي شرق الأناضول. وإذ كانت السنّ قد تقدّمت بقلج أرسلان وازداد خبرة وحنكة فقد سمّم جميع منابع المياه على امتداد الطريق التي كانت الحملة السابقة قد سلكتها.

وفي أيار/مايو ١١٠١ م علم السلطان أنّ زهاء مئة ألف رجل قد اجتازوا البوسفور بقيادة صنجيل الذي كان يقيم منذ عام في بيزنطية. وحاول تتبعّ تحرّكاتهم خطوةً بخطوة لمعرفة الوقت المناسب لمباغتتهم. وكان ينبغي أن تكون محطتهم الأولى نيقية. ولكن الغريب أن الكشافة

المتمركزين بالقرب من عاصمة السلطان السابقة لم يروهم قادمين. وليس يُعلم شيء عنهم من جهة بحر مرمرة ولا حتى في القسطنطينية. ولن يجد قلج أرسلان أثرهم إلا في نهاية شهر حزيران/يونية عندما ظهروا فجأة تحت أسوار مدينة تخصّه هي أنقرة الواقعة في وسط الأناضول، وما كان ليتوقّع لحظة مهاجمتها. وكان الفرنج قد أخذوها حتى قبل أن يجد الوقت اللازم للوصول إليها. وظنّ قلج أرسلان أنّه عاد أربعة أعوام إلى الوراء يوم سقطت نيقية. ولكنْ لات حين نحيبٍ وشكوى لأن الغربيين باتوا يهدّدون قلب مملكته بالذات. وقرّر أن ينصب لهم شَرَكاً بمجرّد خروجهم من أنقرة لمتابعة طريقهم إلى الجنوب. ولكنّه اخطأ مرة أخرى، فقد أدار الغُزاة ظهورهم إلى الشام وأوغلوا بتصميم وعناد في المسير نحو الشمال الشرقي باتجاه «نكسار» الحصن المنيع الذي يحتجز فيه دنشمندُ أسيرَه بيمند. ذاك هو إذن ما يريدون! إن الفرنج يسعون إلى إطلاق سراح صاحب أنطاكية!

وإذّاك فقط بدأ السلطان وحليفه يدركان، وهما لا يكادان يصدِّقان، مسيرةَ الغُزاة العجيبة. وقد اطمأنّا نوعاً ما لأنّ في استطاعتهما الآن اختيار مكان الكمين. إنه قرية مرزفون التي سيبلغها الغربيون في أوائل أيام آب/أغسطس وقد أنهكت قواهم الشمسُ الساطعة. وليس في جيشهم ما يثير، فهم بضع مئات من الفرسان يسيرون بتثاقل رازحين تحت دروعهم المحرقة، وخلفهم حشد خليط فيه من النساء والأولاد أكثر مما فيه من المحاربين الحقيقيين. وما إن انطلقت أول موجة من الأتراك حتى فرّ الفرنج. ولم تكن معركة بل مذبحة استمرت يوماً كاملاً. وعندما أقبل الليل هرب صنجيل ومن كان قريباً منه من غير أن يُنْذِروا معظم الجيش. وفي اليوم التالي قُضي على آخر الذين بقوا على قيد الحياة. وأُسرت آلاف النساء فكان مصيرهن أجنحة الحريم في قصور آسيا.

وما كادت مذبحة مرزفون تنتهي حتى جاء الرُسُل يُنْذِرون قلج أرسلان: إن حملة فرنجية جديدة في طريقها عبر آسيا الصغرى. ولم تكن

المسيرة لتُخفي هذه المرة أيّة مفاجأة. فقد أوغل المحاربون حَمَلَةُ الصلبان في طريق الجنوب ولم يدركوا أن دربهم مفخّخ إلا بعد عدّة أيام من المسير. وعندما وصل السلطان من الشمال الشرقي في نهاية شهر آب/أغسطس كان الفرنج الذين أرهقهم العطش يُحتضرون. ولقد فُتِك بهم من دون مقاومة.

ولكنّ الأمر لم ينتهِ. فقد تبعت حملة ثالثة الحملة الثانية على الطريق نفسه بفارق أسبوع واحد. وها هم الفرسان والمشاة والنساء والأولاد يصِلون إلى قرب مدينة هرقلية وقد نضب الماء من أجسادهم تماماً فيلمحون لمعان نهر فيندفعون إليه جميعاً بغير نظام. ولكنّ قلج أرسلان في انتظارهم على حافة ذلك المجرى بالذات...

لن يتسنّى للفرنج قطّ أن يُفيقوا من هول هذه المجزرة المثلّثة. فممّا لا ريب فيه أن جلب مثل هذا العدد الكبير من الوافدين، مقاتلين كانوا أو غير مقاتلين، كان كفيلاً، إلى جانب الرغبة في التوسّع والانتشار التي تحرّكهم في تلك السنوات الحاسمة، بأن يجعلهم يستعمرون الشرق العربي قبل أن يجد الوقت لتمالُكِ نفسه. ومع ذلك فإنّ هذا النقص في الرجال سوف يكون في أساس أكثر أعمال الفرنج ديمومة وأبهّة في الأرض العربية: بناء القلاع. إذ إنه كان عليهم لكي يعوّضوا عن الضعف الناتج عن قلّة أعدادهم أن يبنوا قلاعاً حصينة في وسع حفنة من المدافعين عنها أن تُحبط مسعى جمهور من المحاصِرين. ولكنّه سيكون في يد الفرنج للتغلب على عائق العدد سلاحٌ أشدُّ فتكاً أيضاً من قلاعهم: خَذَر العالم العربي. وليس أفضلَ من وصف ابن الأثير للمعركة العجيبة التي دارت رحاها عند طرابلس في بداية شهر نيسان/أبريل عام ١١٠٢ م لتصوير مجرى الأمور.

«ومضى صنجيل لعنه الله مهزوماً [هزمه قلج أرسلان] في ثلاثمئة فوصل إلى الشام. فأرسل فخر الملك (...) صاحب طرابلس (...) إلى الملك دُقاق (...) يقول: «من الصواب أن يُعاجل صنجيل إذ هو

في هذه العِدّة القريبة» (. . .)وسيّر دُقاق ألفي مقاتل، وخـرج أمير حمص بنفسه. وأتتهم الأمْداد من طرابلس فاجتمعوا على باب طرابلس وصافّوا صنجيل هناك فأخرج مئة من عسكره إلى أهـل طرابلس ومئـة إلى عسكر دمشق وخمسين إلى عسكر حمص وبقي هو في خمسين. فأما عسكـر حمص فإنهم انكسروا عند المشاهدة وولّوا منهزمـين وتبعهم عسكر دمشق. وأمـا أهل طرابلس فإنهم قاتلوا المئة الذين قتلوهم، فلما شـاهد ذلـك صنجيل حمـل في المئتين البـاقيـة فكسروا أهـل طـرابلس وقتلوا منهم سبعـة آلاف رجل»[1].

ثـلاثمئة فـرنجي ينتصرون على بضعـة آلاف مسلم؟ يبـدو جيّـداً أن رواية المؤرّخ العربي مطابقة للواقـع. والذي يُحتمـل في تفسير هـذا الأمر أكثر ما يُحتمل هو أن يكون دُقاق قد أراد أن يدفـع قاضي طـرابلس ثمن الموقف الذي وقفه يوم كمـين نهر الكلب. فقد حـالت خيانـة فخر الملك دون القضاء على مؤسس مملكة القدس؛ ولسوف يتيح انتقام ملك دمشق إنشاء دويلة فرنجية رابعة: كونتية طرابلس.

وسوف يشهد الناس بعد ستة أسابيع من هذه الهزيمة المخـزية بـرهانـاً جديداً على استحالة شفاء مسؤولي المنطقة الذين سيتضّح أنهم عاجزون، على الرغم من امتياز الكثرة، عن استغلال نصرهـم حينما ينتصرون.

يجـري المشهد في شهـر أيار ١١٠٢ م. فقـد وصـل جيش مصري من زهـاء عشرين ألف رجل بقيـادة شرف ابن الوزيـر الأفضل إلى فلسـطين ونجح في مباغتة عسكر بغدوين في الرملة قرب ثغر يـافا. ولم ينجُ الملك نفسـه من الأسر إلا لأنه اختبـأ منبطحـاً على بـطنه بـين القصب. وقُتِـل معظم رجالـه أو أسروا. وكان الجيش المصري قـادراً في ذلك اليـوم تمام القـدرة على الاستيـلاء على القـدس لأن المدينـة كـانت، كـما يقـول ابن الأثير، خِلواً من المدافعين، وكان الملك الفرنجي فارّاً.

قال بعض رجال شرف له: «لنستولِ على المدينـة المقدّسـة»! وقال لـه

(١) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٨، ص ٢١١. (المترجم).

آخرون: «بل لنستولِ على يافا»! وظلّ شرف متردّداً لا يقرّ له قرار، وبينما هو كذلك تلقّى الفرنج مَدَداً من البحر، واضطر شرف إلى العودة إلى أبيه في مصر.

وإذ رأى صاحب القاهرة أنه كان قاب قوسين من النصر فقد قرّر أن يرسل حملة جديدة في السنة التالية، ثم في السنة التي بعدها. ولكنّ حدثاً غير منتظر كان يحول بينه وبين النصر عند كل محاولة. فمرّة اختلف الأسطول المصري مع جيش البَرّ، وأخرى قُتل قائد الحملة في حادثة وألقى مقتله الذعر في قلوب عسكره. ولقد كان قائداً شجاعاً، ولكنّه كان، كما يقول لنا ابن الأثير، شديد التطيّر: «وكان المنجّمون يقولون إنك تموت متردّياً (...) حتى إنه ولي بيروت وأرضها مفروشة بالبلاط فقلعه خوفاً أن تنزلق به فرسه (...) فلم ينفعه الحذر عند نزول القدر»[1]. وفي أثناء المعركة جمح بالقائد جواده من غير أن يكون قد هوجم فسقط قتيلاً وسط جنوده. وسواء كان السبب سوء الطالع أو عدم كفاية في التصوّر والتدبّر أو نقصاً في الإقدام فإن حملات الأفضل المتتابعة كانت تنتهي نهاية يُرثى لها. وفي تلك الأثناء كان الفرنج يتابعون في دَعَة غزو فلسطين.

فبعد أن استولوا على حيفا ويافا هاجموا في أيار/مايو ١١٠٤ م ثغر عكا، وهو بفضل مرساه الطبيعي المكان الوحيد الذي تستطيع السفن أن ترسو فيه صيفاً شتاءً. ويقول ابن القلانسي إن الوالي به (أي بثغر عكا) «أنفذ يلتمس منهم الأمان له ولأهل الثغر ليأسه من وصول نجدة أو معونة»[2]. ووعدهم بغدوين بألّا يزعجهم أحد. ولكنْ ما إن خرج المسلمون من المدينة حاملين أرزاقهم حتى انقضّ عليهم الفرنج ونهبوهم وقتلوا عدداً كبيراً منهم. وأقسم الأفضل على الانتقام لهذه المذلّة الجديدة. وكان يُرسل في كل عام جيشاً قوياً لمهاجمة الفرنج، ولكنْ كانت

(١) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٨، ص ٢١٨. (المترجم).
(٢) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ١٤٤. (المترجم).

تحلّ في كل مرة نكبة جديدة. فالفرصة التي ضاعت في الرملة في أيار/مايو ١١٠٢ م لن تسنح البتّة.

* * *

وفي الشمال أيضاً نجّى تهاون الأمراء المسلمين الفرنج من الانحدار. فبعد أسر بيمند في آب/أغسطس ١١٠٠ م ظلت الإمارة التي أنشأها في أنطاكية سبعة أشهر بلا زعيم، وبلا جيش عملياً، ولكنّ أحداً من ملوك الجوار، لا رضوان ولا قلج أرسلان ولا دنشمند، فكّر في الاستفادة من ذلك. وأتاحوا للفرنج ما يلزم من الوقت لاختيار وصيّ على أنطاكية، طنكري ابن أخت بيمند حينذاك، فتولّى أمر إقطاعته في آذار/مارس ١١٠٢ م، وانصرف لكي يثبّت وجوده إلى العيث فساداً في جوار حلب مثلما فعل قبل عام في جوار دمشق. واتّسم ردّ فعل رضوان بمقدار من الجبن أكبر من الذي أظهره أخوه دُقاق. فأنفذ إلى طنكري يخبره باستعداده لإشباع كل نزواته إذا هو وافق على الابتعاد. وبلغت الصفاقة بالفرنج مبلغاً لم يُعرف من قبل فطالبوا بوضع صليب ضخم على مئذنة المسجد الجامع في حلب. وانصاع رضوان للأمر. وإنه لإذلال سيكون له ذيوله كما سنرى!

وفي ربيع عام ١١٠٣ م قرّر دنشمند الذي لا تخفى عليه مطامح بيمند أن يطلق مع ذلك سراحه من غير أي مقابل سياسي. «وأخذ منه مئة ألف دينار وشرط عليه إطلاق ابنة ياغي سيان الذي كان صاحب أنطاكية وكانت في أسره»[1]. إن ابن الأثير ينقل إلينا هذا الخبر بكثير من الاستنكار، ويضيف قائلاً:

«ولما خلص بيمند من أسره عاد إلى أنطاكية فقويت نفوس أهلها ولم يستقرّ حتى أرسل إلى أهل العواصم وقنّسرين وما جاورها يطالبهم بالإتاوة، فورد على المسلمين من ذلك ما طمس المعالم التي بناها الدنشمند»[2].

(١) و(٢) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٨، ص ٢١١. (المترجم).

وبعد أن «استعاد» الأمير الفرنجي ما دفعه من مال من كيس السكّان المحليين بدأ بتوسيع أملاكه. ففي ربيع عام ١١٠٤ م قام فرنج أنطاكية وفرنج الرُّها بهجوم مشترك على حصن حرّان المشرف على السهل الفسيح الممتدّ على ضفّة الفرات والضابط في الواقع للاتصالات بين العراق وشمالي بلاد الشام.

وليست المدينة بحدّ ذاتها على قدر من الأهمية. وسوف يصفها ابن جبير الذي زارها بعد ذلك ببضع سنوات بعبارات فيها كثير من التثبيط:

«بلد (. . .) لا يألف البردَ ماؤه، ولا تزال تتّقد بلفح الهجير ساحاته وأرجاؤه. لا تجد فيه مَقِيلاً، ولا تتنفّس منه إلا نَفَساً ثقيلاً. قد نُبِذ بالعراء، ووُضع في وسط الصحراء، فَعَدِم رونق الحضارة، وتعرّت أعطافه من ملابس النضارة»[1].

ولكنّ قيمتها الاستراتيجية كبيرة. فبالاستيلاء على حرّان يصبح في مُكنة الفرنج التقدّم في المستقبل باتجاه الموصل وبغداد نفسها. وسقوطها على الفور يقضي على مملكة حلب بالحصار. وإنها لأهداف كبيرة الطموح ولا ريب، ولكنّ المجتاحين لا تنقصهم الشجاعة، أضف إلى ذلك أن انقسامات العالم العربي كانت تشجّع مساعيهم. وإذ كان الصراع الدموي بين الأخوين بركيارق ومحمد قد استُؤنف كأشدّ ما يكون فإنّ بغداد غدت، تنتقل مجدّداً من يد سلطان سلجوقي إلى يد سلطان سلجوقي آخر. وكان الأتابك كربوقا قد توفّي في الموصل، ولم يكن خلفه الأمير التركي جكرمش قد تمكن بعد من توطيد حكمه.

والوضع في حرّان نفسها مبلبل. فقد قُتل الوالي على يد أحد ضباطه في مجلس شراب، والمدينة غارقة بالنار والدم، «فعند ذلك سار الفرنج إلى حرّان»[2]، كما يشير ابن الأثير. وعندما علم جكرمش صاحب الموصل

---

(١) «رحلة ابن جبير»، بالنص العربي، ص ١٧٤. (المترجم).

(٢) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٨، ص ٢٢١. (المترجم).

الجديد وجاره سُقمان حاكم القدس السابق بالخبر كان كلّ منهما في حرب مع الآخر. فـ «سقمان يطالبه بقتل ابن أخيه [أي يطالب جكرمش بدم ابن أخيه الذي كان هذا قد قتله]، وكل منهما يستعدّ للقاء صاحبه»[1]. ولكنْ أمام هذا الواقع الجديد «أرسل كل منهما إلى صاحبه يدعوه إلى الاجتماع معه لتلافي أمر حرّان ويعلمه أنه قد بذل نفسه لله تعالى وثوابه (. . .) فاجتمعا (. . .) وتحالفا وسارا إلى لقاء الفرنج. وكان مع سُقمان سبعة آلاف فارس من التركمان ومع جكرمش ثلاثة آلاف»[2].

والتقى الحليفان العدوّ على نهر البليخ، وهو رافد من روافد الفرات، في شهر أيار/مايو ١١٠٤ م. وتظاهر المسلمون بالفرار تاركين الفرنج يلحقون بهم مدّة ساعة. ثم ارتدّوا باشارة من أمرائهم على متابعيهم وأحدقوا بهم ومزّقوهم إرباً إرباً. «وكان بيمند (. . .) وطنكري (. . .) قد انفردا وراء جبل ليأتيا المسلمين من وراء ظهورهم (. . .) فلما رأيا الفرنج منهزمين [صمما على عدم الحراك] (. . .) فأقاما إلى الليل وهربا فتبعهم المسلمون فقتلوا من أصحابهما كثيراً وأسروا كذلك. [وأما هما فقد] أفلتا في ستة فرسان»[3].

وكان بين الزعماء الفرنج الذين شاركوا في معركة حرّان بغدوين الثاني [القُمْص بردويل صاحب الرُّها، كما يدعوه ابن الأثير][4]، وهو ابن عم لملك القدس كان قد خلفه في كونتيّة الرُّها. وكان هو أيضاً قد حاول الفرار، ولكنّ حصانه وَحِل وهو يخوض في نهر البليخ فأسره جنود سُقمان واقتادوه إلى خيمة سيّدهم، الأمر الذي أثار الحسد في نفوس حلفائهم حسب رواية ابن الأثير، فقال رجال جكرمش له «أي منزلة تكون لنا عند الناس وعند التركمان إذا انصرفوا بالغنائم دوننا؟ وحسّنوا له أخذ القُمْص (. . .) من خيم سُقمان. فلما عاد سقمان شقّ عليه الأمر، وركب

---

(١) و (٢) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٨، ص ٢٦٦. (المترجم).
(٣) نفسه، ص ٢٢١/٢٢٢. (المترجم).
(٤) نفسه، ص ٢٢٢. (المترجم).

أصحابه للقتال فردّهم وقال لهم لا يقوم فرح المسلمين في هذه الغَزاة بغمّهم باختلافنا، ولا أوثر شفاء غيظي بشماتة الأعداء بالمسلمين. ورحل لوقته وأخذ سلاح الفرنج وراياتهم وألبس أصحابه لبسهم وأركبهم خيلهم، وجعل يأتي [الـ] حصون (. . .) وبها الفرنج فيخرجون ظنّاً منهم أن أصحابهم نصروا فيقتلهم ويأخذ الحصن منهم. فعل ذلك بعدّة حصون»[1].

وكان وقع انتصار حرّان عظيماً كما يشهد ابن القلانسي بنبرة حماسة غير مألوفة لديه:

«وكان نصراً حسناً للمسلمين لم يتهيّأ مثله. وبه ضعفت نفوس الإفرنج وقلّت عدّتهم وفُلّت شوكتُهم وشِكّتُهم، وقويت نفوس المسلمين وأرهنت وأرهِفت عزائمهم في نصرة الدين ومجاهدة الملحدين، وتباشر الناس بالنصر عليهم وأيقنوا بالنكاية بهم والإدالة منهم»[2].

ولسوف تخور بالفعل عزيمة أحد الفرنج، ولم يكن من أقلهم شأناً، نتيجة هزيمته: إنه بيمند. فما هي إلا بضعة أشهر حتى أبحر، ولم يُرَ قطّ على الأرض العربية بعد ذلك.

وهكذا أبعدت معركة حرّان عن المسرح، إلى الأبد هذه المرّة، صانع الاجتياح الرئيسي. وقد صدّت على الأخص إلى الأبد، وهذا أهمّ ما في الأمر، تقدّم الفرنج نحو الشرق. ولكنّ المنتصرين، شأنهم شأن المصريين عام ١١٠٢ م، أظهروا أنهم عاجزون عن قطف ثمار نجاحهم. فبدلاً من أن يتوجّهوا معاً إلى الرُّها، وهي على مسيرة يومين من ساحة القتال، لم يكن منهم إلا أن افترقوا بسبب نزاعاتهم. وإذا كان دهاء سُقمان قد أتاح له الاستيلاء على بعض الحصون غير ذات الشأن، فإن جكرمش ما لبث أن أتاح الفرصة لأن يباغته طنكري الذي أفلح في أسر

---

(١) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٨، ص ٢٢٢. (المترجم).

(٢) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ١٤٣. (المترجم).

عـدد من تابعيـه وبينهم أميرة ذات جمـال نادر كـان صاحب المـوصل قـد شُغف بهـا كثيراً حتى إنـه أرسل إلى بيمنـد وطنكري يخبرهما بـأنـه عـلى استعداد لمبادلتها ببغدوين الثاني (البردويل) أو لافتدائهـا بمبلغ خمسة عشر ألف دينار ذهباً. وتشاور الخال وابن الأخت ثم أخبرا جكرمش بأنهما بعد طول تمحيص يفضّلان أخذ المال وإبقاء صاحبهـما في الأسر، وهو الأمـر الذي سيطول أكثر من ثلاث سنـوات. ولا يُدرى مـا كان شعـور الأمير بعد ذلك الجواب القليل المروءة الصادر عن الـزعيمين الفـرنجيين. وأمـا هو فقد دفع لهما المبلغ المتّفق عليه واستعاد أميرته واحتفظ ببغدوين.

ولكنّ القضيـة لا تقف عنـد هـذا الحـدّ، ولسـوف تفسـح في المجـال لحادثة من أغرب حوادث الحروب الفرنجية.

وقـد جرت الحـادثة بعـد أربعــة أعــوام، في بــدايــة شهــر تشرين الأول/أوكتـوبر ١١٠٨ م، في بستـان خـوخ كـانت فيـه آخـر الثمـرات السوداء قد أنهت نضجها. وحول البستان تلال قليلة الأحـراج متشابكـة إلى ما لا نهاية ترتفع فوق إحداها بجلال أسوار «تلّ بـاشر» التي يتواجـه تحتها الجيشان في منظر غريب بعض الشيء.

في أحد المعسكرين طنكري صاحب أنطاكية يحيط بـه ألف وخمسمئة خيّـال وراجل فرنجي يعتمرون خوذات تغطي رؤوسهم وأنوفهم ويقبضون على سيـوف أو مطارق أو فؤوس مشحـوذة، وإلى جانبهم يقف ستمئـة خيّال تركي بضفائر طويلة أرسلهم رضوان صاحب حلب.

وفي المعسكر الآخر أمـير الموصـل جاولي وقـد ارتدى فـوق درع الزرد جلباباً طويلاً مطرّز الكمين، ويضمّ جيشه ألفي رجل مقسّمين إلى ثلاثـة أفـواج: عرب في الميسرة، وأتـراك في الميمنة، وفي القلب فـرسان فـرنج بينهم (البردويل) صاحب الرُّها وابن خالته جوسلين صاحب تلّ باشر.

هل في وسع الذين شاركوا في معركة أنطاكية الكبرى أن يتصوّروا بعد عشر سنـوات أن يعقد حـاكم الموصـل الذي خَلَفـ الأتـابك كـربوقـا حلفاً

مع قُمْص (كونت) فرنجي من الرُّها وأن يقاتلا جنباً إلى جنب تحالفاً مؤلَّفاً من أمير فرنجي من أنطاكية وملك حلب السلجوقي؟ والحقّ أنه لم يطل الانتظار كثيراً لرؤية الفرنج يصبحون مشاركين مشاركة تامّة في لعبة تذابح صغار ملوك المسلمين! ولا يبدو المؤرّخون منزعجين أبداً للأمر. وكل ما يمكن تبيّنه عند ابن الأثير هو ابتسامة سخرية ضئيلة، ولكنّه يذكر خصومات الفرنج وتحالفاتهم من غير أن يغيّر نبرته، كما يفعل بالضبط على امتداد كتابه «الكامل في التاريخ» وهو يتحدّث عن النزاعات الكثيرة بين الأمراء المسلمين. ويقول المؤرّخ العربي إنه بينما كان البردويل أسيراً في الموصل استولى طنكري على الرُّها، الأمر الذي يُفهم منه أنه لم يكن مستعجلاً قطّ لرؤية صاحبه وقد أُطلق سراحه. بل إنه تآمر لجعل جكرمش يحتجزه أطول مدّة ممكنة.

ولكن لمّا كان هذا الأمير قد قُلب في عام ١١٠٧ م فقد أصبح الكونت في قبضة صاحب الموصل الجديد جاولي ـ وهو أفّاق تركي على درجة كبيرة من الذكاء ـ الذي أدرك على الفور مدى الفائدة الممكن الحصول عليها من وراء نزاع الزعيمين الفرنجيين. وعليه فقد حرّر البردويل وخلع عليه ثياباً فاخرة وعقد معه حلفاً قائلاً له باختصار: «إقطاعتك في الرُّها مهدّدة، ووضعي في الموصل ليس مكيناً أبداً. فلنتعاون فيما بيننا». ويقول ابن الأثير إنه لما أُطلق القُمْص (أي البردويل) ذهب لرؤية طنكري في أنطاكية وطلب إليه أن يردّ عليه الرُّها فأعطاه طنكري ثلاثين ألف دينار وخيلاً وسلاحاً وثياباً وغير ذلك، ولكنّه رفض ردّ المدينة عليه. وعندما غادر بردويل أنطاكية حانقاً حاول طنكري اللحاق به لمنعه من الاتصال بحليفه جاولي، فكانوا يقتتلون فإذا فرغوا من القتال اجتمعوا وأكل بعضهم مع بعض وتحادثوا[1].

لكأنّ مؤرخ الموصل يقول إنهم لمجانين هؤلاء الفرنج قبل أن يضيف إنه لمّا لم يتوصلوا إلى حلّ تلك المسألة توسّط بينهم البطرك، وهو عندهم

(١) انظر تفاصيل ذلك في «الكامل في التاريخ»، ج ٨، ص ٢٥٣/٢٥٤. (المترجم).

كالإمام، وشهد جماعة من المطارنة والقسيسين أنّ بيمند خال طنكري قال لما أراد ركوب البحر والعودة إلى بلاده أن يعيد الرُّها إلى البردويل إذا خلص من الأسر. وقَبِل صاحب أنطاكية بالوساطة وعادت إلى القُمص أملاكه[1].

وإذ اعتبر البردويل أنه يدين بنصره إلى خوف طنكري من جاولي أكثر مما يدين به إلى طيب خاطره فإنه لم يتوانَ في تحرير جميع الأسرى المسلمين على أراضيه، بل ذهب إلى أكثر من ذلك فأعدم أحد موظفيه المسيحيين لأنه سبّ الإسلام علناً.

ولم يكن طنكري المسؤول الوحيد الساخط على الحلف الغريب بين الكونت والأمير. فقد كتب الملك رضوان إلى صاحب أنطاكية يحذّره من مطامح جاولي وخيانته، وقال له إن هذا الأمير يريد الاستيلاء على حلب، وأنه إذا تمكّن من ذلك فإن الفرنج لن يقدروا على البقاء في بلاد الشام. وتعلّق الملك السلجوقي بأمن الفرنج مضحِكٌ إلى حدٍّ ما، ولكنّ الأمراء يتفاهمون من دون حاجة إلى الاستفاضة فيما وراء الحدود الدينية أو الثقافية. وهكذا نشأ حلف إسلامي فرنجي جديد لمواجهة الحلف الأوّل. ومن هنا كان في ذلك الشهر من تشرين الأوّل/أوكتوبر ١١٠٨ م ذانك الجيشان المتواجهان تحت أسوار تلّ باشر.

وسرعان ما كانت الغلبة لرجال أنطاكية وحلب. وانهزم جاولي والتجأ كثير من المسلمين إلى تلّ باشر حيث عاملهم بغدوين (البردويل) وابن خالته جوسلين معاملة حسنة «وداويا الجرحى وكَسَوَا العُراة وسيّراهم إلى بلادهم»[2]. والإجلال الذي يُبديه المؤرّخ العربي لشهامة بغدوين يتناقض مع رأي سكان الرُّها المسيحيين في الكونت. فإذ علم أرمن المدينة أن هذا الأخير قد انهزم، واعتقدوا أنه هلك ولا شكّ، فقد فكّروا

(١) انظر تفاصيل ذلك في «الكامل في التاريخ»، ج ٨، ص ٢٥٣/٢٥٤. (المترجم)
(٢) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٨، ص ٢٥٥. (المترجم).

بالفعل أنه آن أوان التحرّر من السيطرة الفرنجية، حتى إن بغدوين وجد لدى عودته أن نوعاً من عاميّة تدير شؤون عاصمته. ولقد غمّه تذبذب رعاياه ونزوعهم إلى الاستقلال فأمر بالقبض على الوجهاء الرئيسيين ومن بينهم عدّة كهنة وأمر بِسَمْل عيونهم.

وكان حليفة جاولي يودّ أن يفعل مثل ذلك بوجهاء الموصل الذين استغلّوا هم أيضاً غيابه للتمرّد. ومع ذلك فإن عليه أن يعدل عن الأمر لأن هزيمته كانت قد أجهزت على الولاء له. ومذّاك وهو لا يحسد على ما آل إليه: لقد فَقَد إقطاعته وجيشه وأمواله، وعيّن السلطان محمد ثمناً لرأسه. ولكنّ جاولي لا يُقرّ بالهزيمة، وها هوذا يتنكّر في زيّ تاجر ويصل إلى بلاط أصفهان وينحني بخضوع أمام عرش السلطان حاملاً كَفَنَه بيده فيتأثّر محمد ويقبل توبته، ولا يلبث أن يعيّنه حاكماً لإحدى الولايات في فارس.

وأما طنكري فقد رفعه انتصاره في عام ١١٠٨ م إلى قمة المجد فغدت إمارة أنطاكية قوّة محلّية يرهبها جميع جيرانه أتراكاً كانوا أو عرباً أو من الأرمن أو الفرنج. وغدا الملك رضوان مجرّد مُقْطَع مذعور. وفرض ابن أخت بيمند على الناس أن يدعوه «الأمير الكبير»!

وما هي إلا أسابيع على معركة تلّ باشر التي رسّخت وجود الفرنج في شمال الشام حتى جاء دور دمشق في توقيع هدنة مع القدس: تقسم غلال الأراضي الزراعية الواقعة بين العاصمتين إلى ثلاثة أقسام حدّدها ابن القلانسي على الوجه التالي: «للأتراك الثلث وللافرنج والفلاحين الثلثان، فانعقد الأمر على هذه القضية»[1]. وبعد بضعة أشهر اعترفت عاصمة الشام في معاهدة جديدة بفقدان مقاطعة أكثر أهمية أيضاً: اقتسم سهل البقاع الخصب الواقع شرقي جبلٍ لبنان بدوره مع مملكة القدس. والحقّ أنه نزع بذلك من الدمشقيين كلّ حَوْل وكلّ قوة. فمحاصيلهم

(١) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ١٦٤. (المترجم).

تحت رحمة الفرنـج وتجارتهم تمـر بثغر عكـا الذي بـات يتحكّم به مـلّاك التجّار الجَنَويّون. وغدا الاحتلال الفرنجي في جنوب الشام كما في شمالـه حقيقة يومية.

ولكن الفـرنج لا يتـوقّفون عنـد هذا الحدّ. فهم في عام ١١٠٨ م في عشيّة أوسع حركة انتشار إقليمية قـاموا بهـا منذ سقـوط القدس، وجميـع مـدن الساحـل الكبرى مهـدّدة، والسادة المحلّيـون لا يملكون القـوة ولا الإرادة للدفاع عن أنفسهم.

* * *

أوّل فـريسة استُهـدفت كانت طـرابلس. فمنذ عـام ١١٠٣ م استقـرّ صنجيل على أطراف المدينـة وبنى قلعة مـا لبث سكانها أن أطلقـوا عليها اسمـه. وما تـزال «قلعة صنجيـل» الباقيـة على الـدهـر تُـرى في القـرن العشرين وسط مدينة طرابلس الحديثة. ومع ذلك فإن المدينة كـانت عند قدوم الفرنج محصورة في حيّ الميناء عند طـرف شبه جـزيرة تشرف هـذه القلعة الشهيرة على مدخلها. فليس في وسع أيـة قافلة بلوغ طـرابلس أو الخروج منها من غير أن يلحظها رجال صنجيل.

والقاضي فخر المُلْك يـريد بـأي ثمن هدم القلعـة التي تهدّد عـاصمته بالاختناق. ويحاول رجاله في كل ليلة القيام بعمليات جـريئة لـطعن أحد الحراس أو الإضرار بسور في طور التشييد، ولكنّ أروع عمليـة قاموا بها كـانت في شهر أيلول/سبتمبر١١٠٤ م. فقـد خـرجت حـاميـة طـرابلس بأسرها بقيادة القاضي وفتكت بعدد كبير من المحـاربين الفـرنج وأضرمت النار في أحد أجنحـة القلعة. وأخـذ صنجيلُ نفسـه على حـين غرّة فـوق أحد السطوح الملتهبـة. وإذ أصيب بحروق بليغـة فقد مـات بعد خمسـة أشهر ذاق فيها أبشـع ألوان الألم. وقـد طلب في أثناء احتضـاره الاجتماع بمـوفـدين من عنـد فخـر المُلْك وعـرض عليهم عقـد اتفـاق: يتـوقّف الطرابلسيون عن مهاجمة القلعة ويتعهد الزعماء الفـرنج في المقـابل بعـدم

المتعرّض لمسيرة المسافرين والبضائع. وقبِل القاضي.

وإنها لتسوية عجيبة! أفليس هدف الحصار بالذات منع تجوال الناس ونقل البضائع؟ ومع ذلك فإن المرء ليشعر بأن علاقات شبه طبيعية قد نشأت بين المحاصِرين والمحاصَرين. وما هي إلا أن استأنف ميناء طرابلس نشاطه وأخذت القوافل تروح وتجيء بعد دفع المكوس للفرنج، وشرع الوجهاء الطرابلسيون يعبرون خطوط الأعداء مزوّدين بجوازات مرور. والحقّ أن الفريقين المتحاربين كانا في حال انتظار وتوقّع. فالفرنج يرجون حضور أسطول مسيحي من جَنَوى أو القسطنطينية فيُتاح لهم الهجوم على المدينة المحاصَرة. والطرابلسيون الذين لا يجهلون ذلك ينتظرون هم أيضاً وصول جيش مسلم لنجدتهم. وكان ينبغي أن يصل الدعم الأنجع من مصر. فالخلافة الفاطمية قوّة بحرية يكفي تدخلها لتثبيط عزائم الفرنج. ولكن العلاقات بين صاحب طرابلس وصاحب القاهرة تدعو هذه المرة أيضاً للرثاء. فوالد الأفضل كان مولى لأسرة القاضي ويبدو أن صِلاته بسادته كانت سيّئة للغاية. ولم يسبق أن كتم الوزير حقده ورغبته في إذلال فخر الذي كان يُؤْثر من جهته ترك مدينته لصنجيل على تسليم زمام أمره إلى الأفضل. ولم يكن في وسع القاضي كذلك الاعتماد على أي حليف في بلاد الشام، وكان عليه أن يطلب النجدة والإعانة من الخارج.

وعندما بلغته أنباء الانتصار في حرّان في حزيران/يونية ١١٠٤ م أرسل على الفور رسالة إلى الأمير سُقمان سائلاً إياه إكمال نصره بإبعاد فرنج طرابلس. ودعم طلبه بتقديم كمية كبيرة من الذهب إليه ووعده بتغطية جميع نفقات الحملة. وأغرى العرض صاحب النصر في حرّان. ولكنه ما إن وصل إلى مسيرة أقلّ من أربعة أيام من طرابلس حتى عاجله الموت بمرض الخوانيق وتفرّق عسكره فانهارت معنويات القاضي ورعاياه.

بيد أن بارقة أمل لاحت عام ١١٠٥ م، فقد مات السلطان بركيارق بداء السلّ فوضع موته حدّاً لحرب الأخوين الطويلة التي شلّت

الإمبراطورية السلجوقية منذ بداية الاجتياح الفرنجي. وبعد فلن يعرف العراق والشام وغرب فارس غير سيّد واحد هو «السلطان غياث الدنيا والدين محمد بن ملكشاه». ولقد حمل الطرابلسيون اللقب الذي يحمله هذا العاهل السلجوقي ذو الأربعة والعشرين عاماً على محمل الجدّ بحذافيره، فأخذ فخر المُلْك يرسل إلى السلطان الرسالة تلو الرسالة ويتلقّى في المقابل الوعد تلو الوعد. ولكنّ أيّ مَدَد لم يكن ليظهر.

في تلك الأثناء كان الحصار يشتدّ. فقد حلّ محلّ صنجيل أحد أبناء خؤولته «السرداني»، الكونت دو سَرْدانْي، وزاد في الضغط على المحاصَرين، فبات وصول المؤن بطريق البر أصعب فأصعب، وارتفعت أسعار السلع بشكل جنوني فبيع رطل التمر دينار ذهباً، وهذا الدينار يؤمّن القوت في العادة لعائلة بأسرها لمدّة أسابيع. وأخذ كثير من الأهالي يسعون إلى الهجرة باتّجاه صور أو حمص أو دمشق. وتسبّبت المجاعة في حدوث عدد من الخيانات، فذهب بعض الوجهاء الطرابلسيين ذات يوم لمقابلة السرداني وأطلعوه على الطرق التي ما تزال المدينة تؤمّن بها بعض المؤن، وذلك طمعاً في نيل رضاه. وقدّم فخر المُلْك إلى خصمه مبلغاً خيالياً من المال لقاء تسليمه الخونة فرفض الكونت، وفي صباح اليوم التالي وُجد الوجهاء مذبوحين داخل معسكر الأعداء بالذات.

وعلى الرغم من هذه المأثرة فقد استمرّ وضع طرابلس في التدهور، فالناس لا يزالون بانتظار الأمداد، وتسري شائعات متواصلة عن اقتراب أسطول فرنجي. وإذ يئس فخر المُلْك من كل رجاء فقد عزم على الرحيل بنفسه إلى بغداد لشرح حاله والدفاع عن قضيته عند السلطان محمد والخليفة المستظهر بالله. واستناب أحد أبناء عمومته للقيام بأعباء الحكم ودفع لجنوده رواتب ستة أشهر سلفاً.

وكان قد هيّأ لنفسه موكباً مهيباً من خمسمئة فارس وراجل وعدد من الخدم يحملون الهدايا والتحف من كل الأنواع: سيوف مرصّعة وخيول مطهّمة وخلع ثمينة مطرّزة ومصوغات ممّا تشتهر به طرابلس. وعليه فقد

غادر مدينته في موكبه الطويل حوالي منتصف شهر آذار/مارس ١١٠٨ م. وقد «خرج من طرابلس في البر»[1] كما يؤكد لنا بلا موارية ابن القلانسي المؤرخ الوحيد الذي عاصر هذه الأحداث ملمّحاً إلى أن القاضي قد يكون حصل من الفرنج على إذن بالمرور عبر خطوطهم للذهاب للدعوة إلى مجاهدتهم! ونظراً للعلاقات العجيبة القائمة بين المحاصِرين والمحاصَرين فمن غير الممكن استبعادُ الأمر. ولكن يبدو من الأنسب أن يكون القاضي قد سافر بالسفينة إلى بيروت ومنها فقط سار بطريق البر.

ومهما يكن من أمر فقد توقّف فخر المُلْك أولاً في دمشق. ولقد كان صاحب طرابلس يكنّ لدُقاق أشدّ المقت، ولكنّ الملك السلجوقي العاجز كان قد مات، مسموماً ولا ريب، قبل ذلك بقليل، وغدت المدينة مذّاك في يد الذي كان وصيّاً عليه، الأتابك طغتكين، وهو عبد أعرج سوف تتصدّر علاقاته المشبوهة بالفرنج مسرحَ الأحداث في بلاد الشام طوال عشرين سنة. وهذا الجندي التركي الطموح الشديد الدهاء العديم الذمة رجل ناضج وواقعي شأنه في ذلك شأن فخر المُلْك نفسه. وإذ كان قد تخلّى عن التدابير الانتقامية التي كان يلجأ دُقاق إليها فقد استقبل بالترحاب صاحب طرابلس وأولم وليمة فاخرة على شرفه وذهب إلى حدّ دعوته إلى الاستحمام في حمّامه الخاص. وقدّر القاضي هذه الحفاوة، ولكنّه آثر الإقامة خارج الأسوار لأنّ للثقة حدوداً.

وفي بغداد كان الاستقبال أشدّ فخامة. فقد عومل القاضي معاملة عاهل ذي سطوة نظراً لهيبة طرابلس الكبرى في العالم الإسلامي. ولقد أرسل إليه السلطان محمد زورقه الخاص لاجتياز دجلة. وقاد المسؤولون عن التشريفات صاحب طرابلس إلى بهو واسع نُصب في صدره السرير المدبّج الذي يجلس عليه السلطان في العادة. وجلس فخر المُلْك على أحد طرفيه في المكان المخصّص للزوّار، ولكنّ الأعيان هرعوا إليه

(١) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ١٦٠. (المترجم).

وتـأبطوا ذراعيـه : لقد أصرّ العـاهل شخصيـاً على أن يجلس ضيفـه على طنفسته الخاصـة . وطِيف بالقـاضي من قصر إلى قصر، وسألـه السلطان والخليفة وأعوانهما عن حصار المدينة، في حين كانت بغداد بأسرها تُطري شجاعته في مجاهدة الفرنج .

ولكنْ عندما جاء دور الكلام على أمور السياسة وطلب فخر المُلْك من محمد أن يرسل معه جيشاً لفكّ الحصـار عن طرابلس أمـر السلطان ـ كما يقول ابن القلانسي بخبث ـ «جماعة من أكابر الأمراء بالمسـير معه لمعـونته وإنجاده على طـرد محاصري بلده (. . .) وقـرّر مع العسكـر المجرّد معـه الإلمـام بالمـوصل وانـتزاعهـا من يـدي جـاولي ثم المصـير بعـد ذلـك إلى طرابلس»[1] .

وهال الأمرُ فخرَ المُلْك، فالوضع في الموصل من التعقيد بحيث يستلزم سنوات لحلّه، ولا سيّما أن المدينة واقعـة شمالي بغـداد بينما تقـع طرابلس غربيها تماماً . وإذا دار الجيش هذه الدورة فـإنه لن يصـل أبداً في الـوقت الـلازم لإنقاذ عـاصمته . وقـد ألحّ بـأن هذه قـد تسقط بين يـوم وآخر، ولكنّ السلطان لا يريد أن يسمـع، فمصالـح الإمبراطـورية السلجـوقية تقضي بإيلاء الأفضـليـة لمشكلة الموصـل . وبذل القـاضي كل مـا في وسعه من مثل شراء بعض مستشاري العاهل بأغلى الأثمان، ولكن بلا جدوى : يذهب الجيش أوّلاً إلى الموصل . وعندمـا سلك فخر المُلْك طـريق العودة بعد أربعة أشهر لم يُقم لوداعه أيّ احتفال . وقد بات مقتنعاً أنه لن يكون في وسعـه الاحتفاظ بمـدينته . ومـا لم يكن يعلمه بعـدُ هـو أنـه كـان قـد فقدها .

ومـا إن بـلغ دمشـق في آب/أغســطس ١١٠٨ م حـتى أُبلغ الخـبر المشؤوم . فقد قرّر وجهاء طرابلس، وقد فتّ في عضدهم غيابه الطويل، أن يعهدوا بالمدينة إلى صاحب مصر الذي وعد بحمايتها من الفرنج . وقد أرسل الأفضل سفنـاً تحمل المؤن ومعهـا حاكم لتـولّي شؤون البلد مهمته

(١) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ١٦١ . (المترجم) .

الأولى وضع اليد على أسرة فخر المُلْك وأنصاره وأمواله ورياشه وأمتعته الشخصية وإرسال كل ذلك بالبحر إلى مصر!

وفيما كان الوزير ينقضّ بهذا الشكل على القاضي المسكين كان الفرنج يهيّئون للهجوم الأخير على طرابلس. وقد حضر زعماؤهم الواحد تلو الآخر عند أسوار المدينة المحاصَرة، ومن بينهم الملك بغدوين صاحب القدس وسيّدهم جميعاً؛ والبودويل صاحب الرُّها وطنكري صاحب أنطاكية اللذان كانا قد تصالحا لهذه المناسبة. وهناك أيضاً اثنان من أسرة صنجيل هما السرداني وابن القُمْص الراحل الذي يدعوه المؤرخون ابن صنجيل، وكان قد وصل من بلاده برفقة عشرات من السفن الجَنَويّة. وكان كلّ منهما طامعاً في طرابلس، ولكنّ ملك القدس أجبرهما على إسكات خصامهما. ولسوف ينتظر ابن صنجيل نهاية المعركة ليسعى في قتل خصمه.

وفي آذار/مارس ١١٠٩ م كان كل شيء يبدو في مكانه لهجوم منسّق من البر والبحر. وكان الطرابلسيون يرقبون تلك الاستعدادات بذعر، ولكنّهم ما كانوا ليفقدوا الأمل. ألم يَعِدهم الأفضل بإرسال أسطول أقوى من كل الأساطيل التي سبق لهم أن رأوها حتى الآن، ومعه ما يكفي من المؤن والمقاتلين وآلات الحرب للصمود عاماً كاملاً؟

ولم يكن الطرابلسيون يشكّون في أن السفن الجَنَويّة سوف تهرب ما ان يلوح في الأفق الأسطول الفاطمي. ولكنْ عليه أن يصل في الوقت المناسب!

وفي بداية الصيف «نزل الإفرنج بجموعهم وحشدهم على طرابلس ـ كما يقول ابن القلانسي ـ وشرعوا في قتالها (. . .) وأسندوا أبراجهم إلى السور. فلما شاهد الجندَ والمُقاتِلَةَ أهلُ البلد سُقِط في أيديهم وأيقنوا بالهلاك (. . .) وقد كانت غلّة الأسطول أزيحت وسُيِّرَ الريح ترُدُّه لما يريد الله تعالى من نفاذ أمره المقضيّ. فشدّ الإفرنج القتال عليها وهجموها من الأبراج فملكوها بالسيف في يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة

خلت من ذي الحجة من السنة [٥٠٢ هـ]»[1]، الموافق للثاني عشر من تموز/يولية ١١٠٩ م. وبعد ألفي يوم من المقاومة خربت مدينة المصوغات والمكتبات والبّحارة البواسل والقضاة المثقّفين على يد محاربي الغرب. ونُهبت مئة الألف مجلّد التي كانت في «دار العلم»، ثم أُحرقت لكي تُمحى الكتب «الملحدة» من الوجود. وبحسب مؤرخ دمشق فإنه «تقرّر بين الإفرنج والجَنَويّين على أن يكون للجَنَويّين الثلث من البلد وما نُهب منه، والثلثان لابن صنجيل، وأفردوا للملك بغدوين من الوسط ما رضي به»[2]. والواقع أن معظم الأهالي بيعوا عبيداً ونُهبت أملاك الآخرين وطُردوا. وسوف يذهب كثيرون منهم إلى ثغر صور، ويقضي فخر المُلْك بقية أيامه في نواحي دمشق.

والأسطول المصري؟ يقول ابن القلانسي إنه «وصل إلى صور في يوم الثامن من فتح طرابلس وقد فات الأمر فيها للقضاء النازل بأهلها»[3].

واختار الفرنج بيروت لتكون فريستهم الثانية. ولما كانت المدينة مستندة بظهرها إلى الجبل اللبناني فإنها محاطة بأحراج الصنوبر، ولا سيّما في ضاحيتي «مزرعة العرب» و«رأس النبع» حيث سيجد الغزاة الخشب اللازم لبناء ما يحتاجون إليه من آلات الحصار. ولا تداني بيروت في شيء فخامة طرابلس وأبّهتها، وتكاد داراتها المتواضعة تُقارَن بالقصور الرومانية التي ما تزال آثارها الرخامية معثرة يومذاك فوق أرض «بيروتس» القديمة. بيد أنها مدينة مزدهرة نسبياً بفضل مينائها المنحدر على الشاطىء الصخري الذي قتل فوقه الخُضْرُ التنينَ كما في الأخبار. وإذ كان الدمشقيون طامعين فيها والمصريون مهملين في المحافظة عليها فإنه لم يكن أمامها إلا الاعتماد على وسائلها الخاصة لمواجهة الفرنج ابتداء من شباط/فبراير ١١١٠ م. ولسوف يقاتل سكانها الخمسة آلاف قتال اليائس محطّمين أبراج المحاصرين الخشبية الواحد تلو الآخر. ويقول ابن

---

(١) و(٢) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ١٦٣. (المترجم).

(٣) نفسه، ص ١٦٤. (المترجم).

القلانسي مُعْجَباً «ولم يرَ الإفرنج ممّا تقدّم وتأخرّ أشد من حرب هذا»[1]. ولن يغفر الغُزاة هذا أبداً. فعندما مُلكت المدينة في الثالث عشر من أيار/مايو ارتكبوا فيها مجزرة نكراء. لأجل العِبرة.

وحُفِظ الدرس. ففي الصيف التالي وردت الاخبار بوصول «بعض ملوك الإفرنج [هل يؤخذ على مؤرخ ألّا يعرف فيه «سيغورد» ملك النروج البعيدة؟] في البحر ومعه نيّف وستون مركباً مشحونة بالرجال لقصد الحج والغزو في بلاد الإسلام فقصد بيت المقدس وتوجّه إليه بغدوين واجتمع معه (. . .) [و] نزلا على ثغر صيدا (. . .) وضايقوه برّاً وبحراً»[2]. صيدا، صيدون الفينيقية التي لا يزال سورها قائماً إلى اليوم، بعد أن هُدم وبُني غير مرّة عبر التاريخ، يخلب الأبصار بكتله الحجرية الضخمة التي تلسعها أمواج البحر المتوسط بسياطها على الدوام. ولكنّ أهليها الذين برهنوا في بداية الغزو الفرنجي على شجاعة فائقة لم يكونوا راغبين في القتال لأنهم، حسبما يقول ابن القلانسي، «أشفقوا من مثل نوبة بيروت، فأخرج قاضيها وجماعة من شيوخها وطلبوا من بغدوين الأمان، فأجابهم إلى ذلك»[3]. واستسلمت المدينة في الرابع من كانون الأول/ديسمبر ١١١٠ م. ولم تحدث مجزرة هذه المرة وإنما نزوح كثيف إلى صور ودمشق اللتين كانت تغصّان باللاجئين.

وعلى مدى سبعة عشر شهراً مُلكت وخُربت ثلاث من أشهر مدن العالم العربي هي طرابلس وبيروت وصيدا، وذُبح أهلها أو أُجْلُوا عنها، وقُتل قضاتها وفقهاؤها أو أجبروا على المنفى، ودُنّست مساجدها. فأية قوّة بعدُ تمنع الفرنج من أن يكونوا قريباً في صور أو حلب أو دمشق أو القاهرة أو الموصل أو ـ ولم لا ـ في بغداد؟ وهل هناك بعدُ إرادة ورغبة في المقاومة؟ فأما لدى المسؤولين المسلمين فلا، من غير شك. وأما لدى سكّان المدن التي يُحيق بها أشدّ التهديد والخطر فقد بدأت الحرب المقدسة

---

(١) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ١٦٨. (المترجم).

(٢) و(٣) نفسه، ص ١٧١. (المترجم).

التي قـادها بـلا هوادة الحُجّـاج ـ المقاتلون الـوافدون من الغـرب خلال ثلاث عشرة سنة تفعل فعلها: وعـاد إلى الظهـور «الجهاد» الـذي لم يكن منذ أمد طويل إلا شعاراً لتنميق الخطب الرسمية. وهـا هوذا يُـدعى إليه من جـديد عـلى ألسنة بعض زُمـر اللاجئـين، وبعض الشعـراء، وبعض رجال الدين.

والواقع أن أحد هؤلاء (إنه أبو الفضل بن الخشـاب، وهو قـاضٍ من حلب قصير القامة جهوريّ الصـوت) كان قـد قرّر بفضـل قوّة شكيمتـه ومتانة خلقه أن يوقظ العملاق الغارق في سُباته الـذي هو العـالم العربي. وأوّل الأعمال الشعبية التي قام بها كان تجديده بعد انقضاء اثني عشر عاماً الفضيحة التي أثارها الهروي في ذلك الزمـان في شوارع بغـداد. ولسوف يكونُ هذه المرّة غليانٌ شعبيٌّ حقيقيٌّ.

الفصل الخامس

مقاوم بعمامة

في يوم الجمعة السابع عشر من شباط/فبراير ١١١١ م دخل القاضي ابن الخشاب مسجد السلطان في بغداد بصحبة نفر من الحلبيين فيهم رجل هاشمي من سلالة النبي وبعض الزهّاد المتصوّفين وعدد من الفقهاء والتجّار.

ويروي ابن القلانسي أنهم «أنزلوا الخطيب عن المنبر وكسّروه وصاحوا وبكوا لِما لحق الإسلام من الإفرنج وقتل الرجال وسبي النساء والأطفال. ومنعوا الناس من الصلاة، والخدمُ والمقدَّمون يَعِدونهم عن السلطان بما يُسكّنهم من إنفاذ العساكر والانتصار للإسلام من الإفرنج والكفّار»[1].

ولكنّ هذه الأقوال المعسولة ما كانت تكفي لتهدئة الثائرين. وفي يوم الجمعة التالي عاودوا تظاهرتهم، ولكنْ في مسجد الخليفة هذه المرّة. وعندما حاول الحرس اعتراض طريقهم ألقوا بهم أرضاً بعنف وكسروا المنبر الخشبي المزّين بالنقوش والآيات القرآنية وكالوا الشتائم لأمير المؤمنين نفسه. وها هي ذي بغداد تعيش إضراباً لا مزيد عليه ويروي مؤرخ دمشق بنبرة تنمّ عن سذاجة مصطنعة أنه:

«وصلت عقيب ذلك الخاتونُ السيدة أخت السلطان زوجة الخليفة إلى بغداد من أصفهان ومعها من التجمّل والجواهر والأموال والآلات وأصناف المراكب والدوابّ والأثاث وأنواع الملابس الفاخرة والخدم والغلمان والجواري والحواشي ما لا يدركه حزرٌ فيحصر، ولا عدٌّ فيُذكر.

(١) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ١٧٣. (المترجم).

واتّفقت هذه الاستغاثة فتكدّر ما كان صافياً من الحال والسرور بمقدمها. وأنكر الخليفة المستظهر بالله (. . .) ما جرى، وعزم على طلب من كان الأصل والسبب ليوقع به المكروه فمنعه السلطان من ذلك وعذر الناس فيها فعلوه وأوعز إلى الأمراء والمقدّمين بالعود إلى أعمالهم والتأهّب للمسير إلى جهاد أعداء الله الكفّار»[1].

وإذا كان الغضب قد استحوذ بهذا القدر على المستظهر فما ذلك فقط بسبب ما اعترض زوجته الشابة من إزعاج، وإنما بسبب هذا الشعار الذي كان يتعالى في شوارع العاصمة: «ملك الروم أكثر إسلاماً من أمير المؤمنين!»، لأنه يعلم أن القضية ليست قضية اتهام مجّاني وأن المتظاهرين بقيادة ابن الخشاب إنما لّمحوا في هتافاتهم إلى الرسالة التي كان ديوان الخليفة قد تلقّاها قبل بضعة أسابيع من الأمبراطور ألكسي كومنين وفيها يحثّ المسلمين على الاجتماع مع الروم لحرب الفرنج واقتلاعهم من هذه الديار.

وإن كان من المفارقات أن تتمّ مساعي صاحب القسطنطينية الجبّار ومساعي قاضي حلب الضعيف في آن معاً ببغداد فإنما ذلك لإحساسهما بالمهانة اللاحقة بهما من الشخص نفسه، ألا وهو طنكري. وواقع الأمر أن «الأمير الكبير» الفرنجي قد طرد بوقاحة المبعوثين البيزنطيين الذين جاءوا يذكّرونه بأن فرسان الغرب كانوا قد تعهّدوا بإعادة أنطاكية إلى القيصر، وأنه مضت ثلاث عشرة سنة على سقوط المدينة ولم يفوا بوعدهم. وأما الحلبيون فإن طنكري كان قد فرض عليهم مؤخراً معاهدة معيبة جداً: عليهم أن يدفعوا له جزية سنوية مقدارها عشرون ألف دينار ويسلّموه قلعتين مهمّتين واقعتين بحذاء مدينتهم ويقدّموا له أروع عشرة من خيولهم علامة على إخلاصهم. ولّما كان الملك رضوان مقيماً على فزعه فإنه لم يتجرّأ على الرفض. ولكنْ مُذْ عُرفت بنودُ المعاهدة وعاصمته في غليان.

---

(١) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ١٧٣. (المترجم).

لقد تعوّد الحلبيون على الدوام أن يجتمعوا في الساعات الحرجة من تاريخهم زُمَراً صغيرة لمناقشة الأخطار المحيقة بهم بكثير من الحيوية، فيجتمع وجهاؤهم غالباً في المسجد الجامع متربّعين على السجاجيد الحمراء، أو في صحن الجامع في ظل المئذنة المشرفة على بيوت المدينة ذات اللون الأمغر. وأما التجار فيلتقون في أثناء النهار على طول الجادّة القديمة المقنطرة التي بناها الرومان وتخترق حلب من الغرب إلى الشرق، من باب أنطاكية إلى منطقة القلعة المحظور دخولها ويقيم فيها الضالّ رضوان. وقد أُغلق هذا الشريان المركزي مَنذ أمد طويل في وجه العربات والمواكب، وامتلأت قارعته بمئات الحوانيت التي تتكدّس فيها الأقمشة والعنبر وأدوات الزينة الرخيصة والتمر والفستق والتوابل. ولحماية المارّة من الشمس والمطر فقد غُطّيت الجادّة والأزقّة المجاورة بأكملها بسقوف من الخشب ترتفع عند أمكنة التقاطع فيها قباب من الجصّ. وعند زوايا الممرّات، ولا سيّما المؤدية إلى أسواق الحُصَريين والحدّادين وباعة خشب التدفئة، يتجمّع الحلبيون للحديث أمام المطاعم الرخيصة الكثيرة التي تقدّم وسط رائحة الزيت المقلي التي تزكم الأنوف واللحم المشويّ بالتوابل وجبات بأسعار زهيدة: كريّات من لحم الضأن وزلابية وعدس. وتشتري الأسر المتوسّطة الحال أطعمتها جاهزة من السوق؛ والأغنياء وحدهم يطبخون في بيوتهم. وغير بعيد عن المطاعم الشعبية يُسمع الجرْس المألوف الصادر عن باعة «الشراب» تلك الأشربة الباردة المصنوعة من عصير الفاكهة المكثّف التي سيقترض الفرنج اسمها من العرب فيطلقون على السائل منها كلمة «Sirop»، وعلى المثلّج اسم «Sorbets».

وعصراً يلتقي الناس من جميع الطبقات في الحمّامات، وهي أحسن الأمكنة للّقاء حيث يتطهر المرء قبل أداء صلاة المغرب. ثم إنه ما إن يحلّ الظلام حتي يُخلي الأهالي قلب حلب ويتوجّهوا إلى الأحياء تجنباً للجنود السكارى. وهناك أيضاً تسري الأخبار والشائعات على ألسنة النساء

والرجال وتشقّ الخـواطر طـريقها. فـالغضب والحماسـة أوفتور الهمـة تهزّ يومياً هذا القفير الذي يطنّ منذ ثلاثة آلاف عام.

وابن الخشاب أكثر من تُسمع كلمته في الأحياء. فإذا كـان يتحدّر من أسرة غنيـة من تجّار الخشب فـإنـه يقـوم بـدور أسـاسي في إدارة البلد. وبوصفه قاضياً شيعياً فإنه يتمتّع بسلطة دينية ومعنوية كبيرة ويضطلع بأمر تسوية النزاعات المتعلّقة بالناس والأموال في طائفته، وهي أهم الطوائف في حلب. وهـو علاوة عـلى ذلك رئيس المـدينة، الأمـر الذي يجعـل منه شيخ التجّار، وممثّل مصالح الشعب لدى الملك، وقائد الميليشيا البلدية.

ولكنّ نشاط ابن الخشاب يتعدّى إطار وظائفه الرسميّة العـريض. ولمّا كان حواليه عدد كبير من المريدين فإنه يحرّك منذ وصول الفرنج تيـاراً من الآراء السياسية والدينية المطالِبة بموقف أكثر حزماً في مواجهة الغُزاة. وهو لا يخشى أن يقـول للملك رضوان رأيـه في سياستـه الاسـترضـائيـة، بَلْهَ الخضوعية. وعندما فرض طنكري على العاهل السلجوقي تعليق صليب على مئذنة المسجد الجامع نظّم القاضي تظاهرة شعبيـة كبيرة وحصـل على أمـرٍ بنقل الصليب إلى كـاتدرائيـة القدّيسـة هيـلانـة. ومـذّاك ورضـوان يتحـاشى الـدخـول في صراع مـع القـاضي الغضـوب. وإذا كـان الملك التركي قد تـوارى في القلعة بـين حريمـه وحرّاسـه ومسجده وبـركة مـائه ومضمار خيله الأخضر فإنما لأنه يُؤْثر مداراة حساسيّة رعاياه ونـزقهم. وما دام سلطانه بالذات غير ممسوس فإنه يتسامح في تعبير الجمهور عن رأيه.

لكنّ ابن الخشـاب حضر إلى القلعة في عـام ١١١١ م ليعبّر لـرضـوان مـرّة أخرى عن سُخط أهـل المدينـة العارم. وقـد شرح له أن المسلمـين يشعرون بالذلّ والمهانة لأنهم مُكْرَهون على دفع جزية للكفّار المقيمـين في دار الإسلام، وأن التجار يرون تجارتهم تكسد منذ أن بـات أمير أنـطاكية المزعج يسيـطر على كـافّة الـطرق المؤدّيـة من حلب إلى البحـر المتـوسط ويفرض الضرائب على القوافل. ولمّا كانت المدينة عاجزة عن الدفاع عن نفسها بوسائلها الخاصة فـإن القاضي يقـترح إرسال بعثـة تضمّ المقدّمـين

الشيعة والسنّة وتجّاراً ورجال دين لطلب النجدة من السلطان محمد في بغداد. بيد أن رضوان لا يريد قطّ إشراك ابن عمه السلجوقي في شؤون مملكته، وهو لا يزال يفضّل تدبير أمره مع طنكري. ولكنْ نظراً لعدم جدوى الوفود المرسلة إلى العاصمة العباسية فإنه لا يظنّ نفسه معرَّضاً لأيّ خطر إذا وافق على طلب رعاياه.

وإنه لمخدوع في ذلك لأن تظاهرات شباط/فبراير ١١١١ م في بغداد قد حققت، خلافاً للمتوقَّع، ما كان ابن الخشاب يسعى إليه من تأثير. فالسلطان الذي أُنبِيء بسقوط صيدًا وبالمعاهدة المفروضة على الحلبيين بدأت تُقلقه مطامح الفرنج. وها هو ذا يستجيب لتوسّلات ابن الخشاب فيأمر آخر حكّام الموصل في الترتيب الزمني، الأمير مودود، بأن يسير من دون إبطاء على رأس جيش قويّ ويُنجد حلب. وعندما أخبر ابن الخشاب لدى رجوعه الملك رضوان بنجاح مهمته تظاهر هذا بالسرور وهو يدعو الله من كل جوارحه ألّا يتحقّق شيء من الأمر. بل إنه أرسل يُعْلِم ابن عمه بفروغ صبره للمشاركة في الجهاد إلى جانبه. ولكنّه لم يُخفِ انزعاجه عندما أُنبِيء في تموز/يولية بأن جيوش السلطان تقترب حقاً من مدينته، وعمد إلى إرتاج جميع الأبواب وألقى القبض على ابن الخشاب وأنصاره الرئيسيين وأودعهم سجن القلعة. وكلّف الجنود الأتراك تمشيط أحياء المدينة ليلَ نهارَ لمنع أيّ اتصال بين الأهالي و«العدو». ولسوف يسوّغ تتابع الأحداث تسويغاً جزئياً تغيّر موقفه الفجائي. فإذا وجد عساكر السلطان أنفسهم محرومين من التموين الذي كان ينبغي أن يؤمّنه الملك لهم فقد انتقموا بنهب جوار حلب بشكل وحشي. ثم إن أوصال الجيش تمزّقت على أثر خلافات بين مودود وسائر الأمراء من غير أن تُخاض أيّة معركة.

وسوف يعود مودود إلى الشام بعد عامين مكلَّفاً من السلطان جَمْعَ كلّ الأمراء المسلمين، باستثناء رضوان، لمواجهة الفرنج، ولمّا كانت حلب محظورة عليه فقد كان من الطبيعي جداً أن يقيم قيادته العامّة في دمشق

للتحضير لهجوم واسع على مملكة القدس. وقد تظاهر مضيفه الأتابك طغتكين بالامتنان للشرف الذي أولاه إيّاه مندوب السلطان ولكنه كان فزعاً بالمقدار الذي كان عليه رضوان. فهو يخشى أن يسعى مودود إلى الاستيلاء على عاصمته، ويشعر بأنّ كل حركة صادرة عن الأمير تهديدٌ له في المستقبل.

ويقول لنا مؤرّخ دمشق إنه في الثاني من تشرين الأول/أوكتوبر ١١١٣ م غادر مودود معسكره القائم عند باب الحديد، وهو أحد مداخل المدينة الثمانية، للذهاب ككلّ يوم إلى المسجد الأموي بصحبة الأتابك الأعرج:

فلما قُضيت الصلاة وتنفّل بعضها مودود وعادا جميعاً وأتابك أمامه على سبيل الإكرام له وحولهما من الديلم والأتراك والخرسانية والأحداث والسِلاحية بأنواع السلاح من الصوارم المرهفة والصمصامات الماضية والنواصل المختلفة والخناجر المجرّدة ما شاكل الأجمة المشتبكة (. . .) والناس حولهما لمشاهدة زيّهما وكبر شأنهما. فلما حصلا في صحن الجامع وثب رجل من بين الناس (. . .) فقرب من الأمير مودود كأنه يدعو له ويتصدّق منه فقبض ببند قِبائه (. . .) وضربه بخنجره أسفل سُرّته ضربتين (. . .) وعدا أتابك خطوات وقت الكائنة وأحاط به أصحابه ومودود متماسك يمشي إلى أن قَرُبَ من الباب الشمالي من الجامع ووقع (. . .) وأُحضر الجرائحي فخاط البعض، وتوفي رحمه الله بعد ساعات يسيرة»[1].

تُرى من قتل حاكم الموصل عشيّة الاستعداد للهجوم على الفرنج؟ لم يتمهّل طغتكين في اتّهام رضوان وأصدقائه من جماعة الحشّاشين. ولكنّ صاحب دمشق هو وحده في نظر معظم معاصري تلك الأحداث القادر على تزويد ذراع القاتل بالسلاح. وبحسب رأي ابن الأثير فإن بغدوين

(١) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ١٨٧. (المترجم).

كتب إلى طغتكين بعد قتل مودود كتاباً من فصوله «إن أمّة قتلت عميدها (. . .) في بيت معبودها لحقيق على الله أن يُبيدها»(١). وأما السلطان محمد فإنه عندما علم بمقتل صاحب عسكره أرغى وأزبد واعتبر أن هذا الحدث إهانة شخصية لحقت به وقرّر أن يعيد مرّة واحدة وأخيرة إلى جادّة الصواب جميع القادة الشاميين، سواء في ذلك أصحاب حلب وأصحاب دمشق، وحشد جيشاً من بضع عشرات من الآلاف بقيادة أمهر ضباط العشيرة السلجوقية، وأمر بحزم جمع الأمراء المسلمين بالانضمام إليه لإتمام الواجب المقدّس بمجاهدة الفرنج.

وعندما وصلت الحملة القوية التي بعثها السلطان إلى أواسط بلاد الشام في ربيع عام ١١١٥ م كانت تنتظرها مفاجأة ضخمة. فقد كان بغدوين صاحب القدس وطغتكين صاحب دمشق جنباً إلى جنب هناك محاطينْ بعساكرهما وعساكر أنطاكية وحلب وطرابلس. فإذ كان أمراء الشام، مسلمين وفرنجاً على السواء، قد أحسوا بأنهم مهدّدون من قِبَل السلطان فقد قرّروا أن يتحالفوا، واضطر الجيش السلجوقي إلى الانسحاب بشكل مخجل بعد عدّة أشهر. وعندها أقسم محمد بألاّ يهتم بالمشكلة الفرنجية. ولسوف يبّر بقسمه.

وفيما كان الأمراء المسلمون يبرهنون عن لا مسؤولية تامّة أثبتت مدينتان عربيّتان بفارق زمني مقداره بضعة أشهر أنه لا يزال هناك إمكان لمقاومة الاحتلال الغريب. فبعد استسلام صيدا أصبح الفرنج أسياد الساحل برمته والسهل من سيناء إلى «بلد ابن الأرمني» شمالي أنطاكية، ولكنْ باستثناء حبيستين ساحليتين هما عسقلان وصور. وأخذ بغدوين على عاتقه وقد تشجّع بانتصاراته المتلاحقة أن يسوّي أمرهما بلا إبطاء. ومنطقة عسقلان مشهورة بزراعة بصلها ذي القشرة المُشرَبة بالحمرة المعروف بـ «العسقلاني» وهي الكلمة التي سيحرّفها الفرنج إلى

---

(١) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٨، ص ٢٦٦. (المترجم).

«échalote» [للدلالة على نوع من الثوم أو الكرّاث]. بيد أنّ أهميتها هي عسكرية بصورة خاصّة لأنها تؤلفّ نقطة احتشاد للجيوش المصرية في كل مرّة تخطط فيها لحملة على مملكة القدس.

ومنذ عام ١١١١ م وبغدوين يأتي لعرض نفسه وعساكره تحت أسوار المدينة فلا يلبث أن يُراع من عرض قوة الغربيين والي عسقلان الفاطمي شمس الخلافة الذي يقول فيه ابن القلانسي إنه كان «أرغب في التجارة من المحاربة»[1]، ويقبل من غير أن يبدي أيّة حركة للمقاومة بدفع جزية مقدارها سبعة آلاف دينار. وقد أرسل أهل المدينة الفلسطينيون الذين شعروا بالمهانة من جراء هذا الخضوع غير المنتظر مبعوثين إلى القاهرة يطالبون بعزل الوالي. وإذ علم شمس الخلافة بالأمر وخشي أن يعاقبه الوزير الأفضل على جُبنه فقد حاول تجنّب كل ذلك بطرد الموظفين المصريين ووضع نفسه نهائياً بحماية الفرنج. وقد أرسل إليه بغدوين ثلاثمئة رجل لتولّي أمر قلعة عسقلان.

ولكنّ السكّان الذين هالهم الأمر لا يستسلمون. وأخذت تنعقد اجتماعات سرّية في المساجد وتوضع الخطط إلى أن كان أحد أيام شهر تموز/يولية ١١١١ م فأحاطت جماعة من المتآمرين بشمس الخلافة لدى خروجه على حصانه من مقرّه وأشبعوه طعناً بالخناجر. إنها الإشارة بالثورة. فقد اندفع مدنيّون مسلّحون انضمّ إليهم جنود من البربر ينتمون إلى حرس الوالي لمهاجمة القلعة. وطورد المحاربون الفرنج في الأبراج وعلى طول الأسوار ولم يتمكّن رجل من رجال بغدوين الثلاثمئة من النجاة. ولسوف تنجو المدينة من هيمنة الفرنج طوال أربعين عاماً أخرى.

ولكي يثأر بغدوين للخزي الذي ألحقه به مقاومو عسقلان فقد توجّه إلى صور المدينة الفينيقية القديمة التي انطلق منها لنشر الأبجدية عبر

---

(١) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ١٧٢. (المترجم).

البحر المتوسط الأمير قدموس شقيق أوروبا التي ستعطي اسمها لقارّة الفرنج. ولا يزال سور مدينة صور المهيب يذكّر بتاريخها المجيد. فهي محاطة من جهاتٍ ثلاثٍ ولا يصلها باليابسة سوى طريق ساحلي ضيّق كان قد بناه الإسكندر الكبير. وإذ كانت مشهورة باستعصائها على الغُزاة فقد كانت عام ١١١١ م ملاذاً لعدد كبير من اللاجئين إليها من الأراضي التي احتُلّت حديثاً. وسوف يكون دورهم في الدفاع عنها رئيسياً كما ينقل ابن القلانسي الذي تستند روايته بشكل واضح إلى معلومات موثوقة فقد نصب الفرنج برجاً متنقّلاً أثبتوا فيه كِباشاً شديدة الفعالية «وقرّبوه من سور البلد وصدموا بالكباش التي فيه السور فزعزعوه ووقع منه شيء من الحجارة، وأشرف أهل البلد على الهلاك. فعمد رجل من مقدَّمي البحرية عارف بالصنعة من أهل طرابلس له فهم ومعرفة بأحوال الحرب إلى عمل كلاليب حديد لمسك الكبش إذا نُطِح به السور من رأسه ومن جانبه بحبال يجذبها الرجال حتى يكاد البرج الخشب يميل من شدّة جذبهم بها، فتارة تكسره الإفرنج خوفاً من [سقوط] البرج (...)»[1].

ويجدّد المهاجمون محاولاتهم فيتمكّنون من دفع برجهم المتنقّل إلى محاذاة السور والتحصينات ويعاودون دكّها بكبشٍ جديد طوله ستون ذراعاً ورأسه من حديد يزن أكثر من عشرين رطلاً. ولكن البحّار الطرابلسي لا يستسلم. وها هوذا ابن القلانسي يضيف أنه رفع بواسطة عوارض خشبية أقامها بمهارة «جرار الكَدَر والنجاسة ليشغلهم بطرح ذلك عليهم في البرج عن الكباش. وضاق الأمر بالناس وشغلهم ذلك عن أمورهم وأشغالهم. وعمد البحريّ المذكور إلى سلال العنب والقفاف فيجعل فيها الزيت والقير والسراقة والقلفونية وقشر القصب ويطلق فيها النار (...) فتقع النار في أعلى البرج فيبادرون بإطفائها بالخلّ والماء فيبادر برفع أخرى، ومع هذا يرمي أيضاً بالزيت المغلي في قدور صغار على البرج

---

(١) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ١٧٩/ ١٨٠. (المترجم).

فيعظم الوقيد فلمّا كثرت النار (. . .) تمكّنت من رأسه ونزلت إلى الطبقة الثانية (. . .) ثم إلى الوسطى وعملت في الخشب»[1].

وإذ عجز المحاصرون عن إخماد الحريق فقد أخلوا البرج وهربوا. وانتهز المدافِعون فرصة هربهم فخرجوا واستولوا على كمية كبيرة من السلاح الذي خلّفوه وراءهم. ويختم ابن القلانسي كلامه بنبرة انتصار قائلاً: «فعند ذلك وقع يأس الإفرنج منه وشرعوا في الرحيل عنه وأحرقوا البيوت التي كانوا قد عمروها في المنزل لسُكناهم»[2].

ها نحن أولاء في العاشر من نيسان/أبريل ١١١٢ م. فبعد مئة وثلاثة وثلاثين يوماً من الحصار أنزل أهالي صور بالفرنج هزيمة نكراء.

وبعد الهياج الشعبي في بغداد والعصيان المسلح في عسقلان والمقاومة في صور بدأت ثورة تهبّ. وأخذ الناس يحصون عدداً متزايداً من العرب يشملون بالحقد نفسه المجتاحين ومعظم الحكّام المسلمين المتَّهَمين بالخمول، بَلْهَ الخيانة. وسرعان ما تعدّى هذا الموقف في حلب على الأخصّ كونه مجرّد حركة ناجمة عن حالة غضب. فقد قرّر سكان المدينة بقيادة القاضي ابن الخشاب أن يقبضوا على زمام مصيرهم بأيديهم. فهم الذين سيختارون حكّامهم ويفرضون عليهم السياسة الواجب اتّباعها.

ولسوف يكون هناك بالطبع كثير من الهزائم، وكثير من خيبات الأمل. فانتشار الفرنج لم ينتهِ، وصلفهم لا حدود له. ولكنْ ستشهَد من الآن فصاعداً مُنطلقةً من شوارع حلب ولادةٌ بطيئةٌ لموجة جوفية سوف تُغرِق شيئاً فشيئاً الشرق العربي وتحمل ذات يوم إلى سدّة الحكم رجالاً عادلين شجعاناً مخلصين قادرين على استعادة المُلْك المفقود.

* * *

سوف تخوض حلب قبل الوصول إلى هذه النتيجة أشدَّ عهود تاريخها

---

(١) و(٢) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ١٨٠. (المترجم)

الطويل تقلّباً وتيهاً. فقد علم ابن الخشاب في نهاية تشرين الثاني/نوفمبر ١١١٣ م أن رضوان يعاني مرضاً عُضالاً في قصره بالقلعة، فجمع أصدقاءه وطلب منهم أن يكونوا جاهزين للتّدخل. وفي العاشر من كانون الأول/ديسمبر مات الملك. وما إن عُلِم الخبر حتى انتشرت جماعات من الميليشيات المسلّحة في أحياء المدينة واحتلّت الأبنية الرئيسية ووضعت يدها على عدد كبير من أنصار رضوان، ولا سيّما مريدي فرقة الحشاشين، فأعدمتهم على الفور لتعاونهم مع العدو الفرنجي.

ولم تكن غاية القاضي الاستيلاء بنفسه على مقاليد السلطة، وإنما التأثير في الملك الجديد ألب أرسلان بن رضوان لكي يتبنّى سياسة تختلف عن سياسة أبيه. وبدا في الأيام الأولى أن هذا الشاب، وهو ابن ست عشرة سنة وفي لسانه حُبسة وفأفأة أدّتا إلى تلقيبه بـ«الأخرس»، موافقٌ على مبادىء ابن الخشاب النضالية. فقد قبض على خواصّ رضوان وقطع رؤوسهم في الحال من غير أن يُخفي سروره بذلك. وقلق القاضي وأوصى العاهل الشاب بألاّ يُغرق المدينة في حمّام دم وأن يكتفي بمعاقبة الخونة للعبرة. ولكنّ ألب أرسلان لا يريد أن يسمع النصح ويقتل اثنين من إخوته وعدداً من العسكر وبعض الخدم، وبالإجمال كل الذين لا يروقونه. وشيئاً فشيئاً اكتشف أهل المدينة الحقيقة: الملكُ مجنون! وخير مصدر نملكه لفهم ما يجري في تلك الحقبة هو ما كتبه المؤرخ - الدبلوماسي الحلبي كمال الدين بعد قَرْنٍ من تلك الأحداث بناء على شهادات تركها المعاصرون. فهو يروي أنّ «ألب أرسلان جمع ذات يوم عدداً من الأمراء والمقدَّمين وطاف بهم في سرداب محفور تحت الأرض في القلعة. وعندما دخلوا فيه سألهم «ماذا تقولون لو قطعت أعناقكم جميعاً هنا؟» فقالوا وهم يتظاهرون بأنهم يحملون وعيده على محمل الهزل والدعابة: «نحن عبيدك ورهن أمرك». وهكذا نجوا من الموت[1].

---

(١) لمّا تعذّر عليّ الوصول إلى كتاب «تاريخ حلب» لكمال الدين بن العديم فقد ترجمت النصّ الفرنسي محاولاً قدر الإمكان تقريبه من النصّ العربي. وهذا ما =

ولم يلبث الناس أن انفضّوا من حول الشاب المختلّ. رجل واحد كان لا يزال يجرؤ على الاقتراب منه، انه خصيّه «لولو». ولكنّ هذا أيضاً بدأ يخشى على حياته. وفي أيلول/سبتمبر ١١١٤ م اغتنم فرصة نوم سيّده فقتله ونصّب على العرش ابناً آخر من أبناء رضوان عمره ست سنوات.

وإزداد غرق حلب في الفوضى يوماً بعد يوم. وبينما كانت جماعات من العبيد والجنود لا رقيب عليها ولا حسيب تتقاتل فيما بينها كان أهل المدينة المسلّحون يقدمون بنوبات الحراسة في الشوارع للحماية من النهابين. ولم يَسْعَ فرنج أنطاكية في ذلك العهد الأول إلى الإفادة من الفوضى التي تشلّ حلب. فطنكري كان قد مات قبل رضوان بعام، ولم يكن خلفه «سِير روجيه» الذي يدعوه كمال الدين في تاريخه «سرجال» يملك ما يكفي من الثقة لخوض عملية ذات شأن. ولكنّ هذه المهلة كانت قصيرة الأجل. فإذ أمّن روجيه صاحب أنطاكية منذ عام ١١١٦ م الإشراف على جميع الطرق المؤدية إلى حلب فقد احتلّ القلاع الرئيسية التي تحيط بالمدينة واحدة بعد أخرى وذهب بدافع من انعدام المقاومة إلى حدّ فرض ضريبة على كل شخص ذاهب إلى مكة للحج.

وفي نيسان/أبريل ١١١٧م قُتل الخصي لولو. وبحسب كمال الدين فإن «الجنود الذين يواكبونه للحراسة كانوا قد حاكوا مؤامرة عليه. فإذ كان يتمشى في الجهة الشرقية من حلب فقد وتّروا أقواسهم بغتةً وصاحوا: «الأرنبَ الأرنبَ!» ليوهموه أنهم يريدون صيد هذا الحيوان. والحقّ أنهم رشقوا لولو نفسه بوابل من سهامهم».

وبموته انتقل الحكم إلى عبد جديد ما لبث لعجزه عن فرض نفسه أن طلب من روجيه أن يأتي لمساعدته. وعندها أصبحت الفوضى في حال تعزّ على الوصف. فبينما كان الفرنج يستعدّون لحصار المدينة كان

= سوف أفعله بالنصوص الأخرى التي لم اتمكن من العودة إليها إما لندرتها وإما نظراً للظروف الصعبة التي تمت فيها ترجمة هذا الكتاب. (المترجم).

العساكر سادرين في التقاتل على من يحكم القلعة. وعليه فقد قرّر ابن الخشاب أن يتصرّف من غير إبطاء فجمع وجهاء المدينة الرئيسيين وعرض عليهم مشروعاً سوف يتضّح أنه مثقل بالنتائج. ولقد شرح لهم أنه لّما كانت حلب مدينة حدودية فإن عليها أن تكون في طليعة مجاهدة الفرنج وأن عليها لذلك أن تمنح حكمها أميراً قوياً، ربما كان السلطان بالذات، كيلا تترك نفسها تُحكم إلى الأبد من ملك محلّي عديم الشأن يُؤْثر مصالحه الشخصية على مصالح الإسلام. وصُدِّق على الاقتراح، ولكن لم يخلُ الأمر من معارضات لأن الحلبين متمسكون بخصائصهم الذاتية. وعليه فقد استُعرض أهمُّ المرشحين المُحتَمَلين. السلطان؟ إنه لا يريد أن يسمع بحديث بلاد الشام. طغتكين؟ إنه الأمير الشاميّ الوحيد الذي له بعض الشأن، ولكنّ الحلبيين لا يقبلون قطّ بدمشقي. وعندها قدّم ابن الخشاب اسم إيلغازي والي ماردين في بلاد ما بين النهرين. إن سلوكه لم يكن مثالياً على الدوام. فقد ساند قبل عامين الحلف الإسلامي الفرنجي ضد السلطان، وهو معروف بمعاقرة الخمر. ويقول لنا ابن القلانسي عنه إنه كان «إذا شرب الخمر وتمكّن منه أقام منه عدّة أيام مخموراً لايُفيق لتدبير ولا يُستأمر في أمر ولا تقرير»[1]. ولكنْ ينبغي البحث طويلاً لإيجاد رجل عسكري زاهد في الملذات. ثم إن إيلغازي كما يؤكد ابن الخشاب محارب مِقدام، فقد حكمت أسرته القدس زمناً طويلاً وأحرز أخوه سُقمان النصر على الفرنج في حرّان. وإذا انتهت الأكثرية إلى تبنّي هذا الرأي فقد دُعي إيلغازي للمجيء، وكان القاضي هو الذي فتح له بنفسه أبواب حلب خلال صيف ١١١٨ م. وكان أول ما قام به الأمير أن تزوّج ابنة الملك رضوان دليلاً على الاتحاد بين المدينة وسيّدها الجديد، وتوكيداً لشرعيّة هذا الأخير في الوقت عينه. وأصدر إيلغازي أمره باستدعاء عساكره.

(١) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ١٩١. (المترجم).

ولأول مرّة بعد عشرين عاماً من بدء الغزو الفرنجي تخطى عاصمة شمال الشام بزعيم راغب في القتال، والنتيجة مذهلة صاعقة. ففي يوم السبت ٢٨ حزيران/يونية ١١١٩ م واجه جيش صاحب حلب جيش صاحب أنطاكية في سهل «سرمدا» في منتصف الطريق بين المدينتين. وهبّت رياح الخمسين المحمّلة بالرمل في عيون المتقاتلين. ويروي لنا كمال الدين المشهد على الشكل التالي:

«ألزم أيلغازي أمراءه أن يُقسِموا على القتال بصبر وعلى أن يصابروا ولا يُحجموا وعلى أن يجودوا بأنفسهم للجهاد. ثم انتشر المسلمون زُمراً صغيرة وصافّوا ليلاً عساكر سرجال. وبغتة رأى الفرنج عند طلوع النهار رايات المسلمين تتقدّم نحوهم والمسلمين يحيطون بهم من كل صوب. وكرّ القاضي ابن الخشاب على فرسه ورمحه بيده دافعاً برجالنا إلى المعركة. وإذ رآه أحد الجنود فقد صاح باحتقار قائلاً: «هل جئنا من بلدنا لنسير وراء عمامة»؟ ولكنّ القاضي تقدّم من العساكر واستعرض صفوفهم وألقى فيهم شاحذاً هِممهم وملهباً حميتهم خطبة بليغة بَكَوْا لها من التأثّر وأجلّوه أيّما إجلال. ثم حملوا من كل صوب حملة رجل واحد. وأخذت السهام تتطاير وكأنها سرب من الجراد».

وأبيد جيش أنطاكية، ووجد «سِير روجيه» نفسه ممّدداً بين الجثث وقد انفلق وجهه عند الأنف.

«ووصل البشير بالنصر إلى حلب والمسلمون صفوف مرصوصة في المسجد الجامع يختمون بالسلام صلاة الظهر. وسُمع عندها جَلَبَة كبيرة من جهة الغرب، ولكنْ لم يُعد أيّ مقاتل إلى المدينة قبل صلاة العصر».

واحتفلت حلب بنصرها عدّة أيام، وغنى الناس وذبحوا الخراف وتدافعوا لرؤية الرايات الصليبية والخوذات ودروع الزرد التي غنمها الجنود، أو لرؤية أسير فقير يُقطع رأسه لأن سراح الأسرى الأغنياء كان يُطلق لقاء فدية. وأنشدت في الساحات العامّة قصائد المديح في

إيلغازي: «(. . .) وعليك بعدَ الخالقِ التعويلُ»[1]. لقد عاش الحلبيون منذ سنتين في رعب من بيمند وطنكري ثم من روجيه صاحب أنطاكية، وانتظر كثير منهم ـ وكأنّ ما ينتظرون قَدَرٌ محتوم ـ اليومَ الذي يصبحون فيه على غرار إخوتهم في طرابلس مُرغمين على الاختيار بين الموت أو المنفى. وها هم أولاء يشعرون بعد نصر «سرمدا» بأنهم يُبعثون من جديد. وأثارت مأثرة ايلغازي العزّة والحماسة في جميع أرجاء العالم العربي. وقد كتب ابن القلانسي يقول: «وكان هذا الفتح من أحسن الفتوح والنصر الممنوح لم يتّفق مثله للإسلام في سالف الأعوام»[2].

وتفضح هذه الأحاديثُ المفرطةُ الانهيارَ المعنوي البالغ الذي كان سائداً عشيّة انتصار إيلغازي. فقد بلغ صَلَف الفرنج في الواقع حدود اللامعقول: ففي بداية آذار/مارس ١١١٨ م باشر الملك بغدوين باجتياح مصر بمئتين وستة عشر فارساً وأربعمئة راجل لا غير! وقد اجتاز سيناء على رأس جيشه الهزيل واحتلّ بلا مقاومة مدينة فرامة بالغاً ضفاف النيل «وسبح» فيه، كما يؤكد ابن الأثير ساخراً. وكان من الممكن أن يذهب إلى أبعد من ذلك لو لم يمرض. وقد أعيد بأسرع ما يمكن باتجاه فلسطين، ولكنّه مات في أثناء الطريق في العريش شمالي شرقي سيناء. وعلى الرغم من موت بغدوين فإن الأفضل لن يتمالك نفسه أبداً من هذه المهانة الجديدة التي لحقت به. وإذ فقد سريعاً زمام الأمور فإنه سوف يُذبح بعد ثلاث سنوات في أحد شوارع القاهرة. وأما مِلك الفرنج فسوف يحلّ محله ابن خالته بغدوين الثاني (البردويل) صاحب الرُّها.

ولّما كان نصر «سرمدا» قد جاء بعد هذه الغارة المثيرة عبر سيناء فإنه

---

(١) أورد ابن الأثير في مدح إيلغازي قول العظيمي:

قُلْ ما تشاءُ فقولُك المقبولُ   وعليكَ بعدَ الخالقِ التعويلُ
واستبشر القرآنُ حينَ نصرْتَهُ   وبكى لِفَقْدِ رجالِه الإنجيلُ

«الكامل في التاريخ»، ج ٨، ص ٢٨٩. (المترجم).

(٢) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ٢٠١. (المترجم).

بدا وكأنّه انتقام، وفي نظر بعض المتفائلين وكأنه بداية استعادة ما ضاع. وكان الناس يتوقّعون أن يسير إيلغازي دونما إبطاء إلى أنطاكية التي لم يعد لها أمير ولا جيش. ومن جهة ثانية فإن الفرنج يستعدّون لتحمّل حصار. وأوّل قرار لهم هو تجريد النصارى الشاميين والأرمن والروم المقيمين في المدينة من سلاحهم ومنعهم من مغادرة منازلهم خوفاً من تحالفهم مع الحلبيين. والحق أن التوتر على أشدّه بين الغربيين وإخوتهم في الدين الشرقيين الذين يتّهمونهم باحتقار شعائرهم والاقتصار على إسناد الأعمال الثانوية إليهم في مدينتهم وعقر دارهم. ولكنّ احتياطات الفرنج تبدو غير ذات جدوى، فإيلغازي لا يفكّر أبداً في دفع تقدّمه. بل هو مسترخٍ وقد تعتعه السكر فلا يغادر مقرّ رضوان السابق حيث لا ينتهي من الاحتفال بنصره. ولكثرة ما عبّ من أشربة مخمّرة فإنه لم يلبث أن أصيب بنوبة حمى قاسية لن يُقدَّر له أن يُبِلّ منها إلا بعد عشرين يوماً، أي الوقت اللازم تماماً للعلم بأنّ جيش القدس بقيادة بغدوين الثاني قد وصل إلى أنطاكية.

ولّما كانت الخمرة قد هدّت كيانه فقد خمدت أنفاسه بعد ثلاث سنوات من غير أن يُحسن استغلال نجاحه. ولسوف يعترف الحلبيّون بفضله في إبعاد خطر الفرنج عن مدينتهم ولكنّهم لم يُفجعوا في حالٍ لفقده، إذ كان قد سبق لهم أن أشاحوا عنه إلى خلفه، وهو رجل ممتاز يدور اسمه على كل لسان: بَلَك. إنه ابن أخي إيلغازي بالذات، ولكنّه رجل من طينة أخرى. ولن يلبث أن يغدو بعد بضعة أشهر بطل العالم العربي الذي تهفو إليه القلوب ويُحتفل بمآثره في المساجد والساحات العامّة.

لقد استطاع بضربة معلم باهرة أن يأسر في أيلول/سبتمبر ١١٢٢م جوسلين الذي خلف بغدوين الثاني بصفة قُمْص (كونت) الرُّها. وبحسب رواية ابن الأثير فإنه «أسر وجُعل في جلد جمل وخيط عليه وطُلب منه أن يسلّم الرُّها فلم يفعل وبذل في فداء نفسه أموالاً جزيلة وأسرى كثيرة. فلم يُجِبْه [أي بَلَك] إلى ذلك وحمله إلى قلعة (...)

فسجنه بها»[1]. وها إن دويلة فرنجية ثانية تُحرم من زعيمها بعد اختفاء روجيه صاحب أنطاكية. وإذ قلق ملك القدس فقد قرّر المجيء بنفسه إلى الشمال. وقاده فرسان من الرُّها لتفقّد المكان الذي أُسر فيه جوسلين، وهو منطقة مستنقَعة على ضفّة الفرات. وجال بغدوين الثاني جولة استطلاعية قصيرة ثم أمر بنصب الخيام للمبيت. ونهض في ساعة مبكرة من الصباح لممارسة رياضته المفضّلة التي استعارها من الأمراء الشرقيين، وهي الصيد بالصقر، فإذا بَلَك ورجاله الذين كانوا قد اقتربوا من غير جلبة يُحاصِرون المعسكر. وألقى ملك القدس أسلحته واقتيد بدوره إلى الأسر.

وفي حزيران/يونية ١١٢٣م دخل بَلَك حلب دخول الفاتحين تُكلّل رأسه روعة مآثره. وقد كرّر ما كان إيلغازي قد فعله فتزوّج ابنة رضوان ثم باشر من غير أن يضيع لحظة أو يثنيه شيء عملية استعادة منظمة للأملاك الفرنجية حول المدينة. وتتباين مهارة هذا الأمير التركي الأربعيني العسكرية وحبه لحسم أمره ورفضه كل تسوية مع الفرنج ورزانته ولائحة انتصاراته المتتابعة مع تفاهة الأمراء المسلمين الآخرين المخيّبة للآمال.

وهناك مدينة ترى فيه بصورة خاصة مخلّصاً مُرْسَلاً من العناية الإلهية: إنها صور التي حاصرها الفرنج مجدّداً على الرغم من أسر ملكهم. ويبدو وضع المدافِعين أكثر دقّة بما لا يُقاس عمّا كان عليه لدى صمودهم المظفّر قبل اثني عشر عاماً لأن الغربيين يؤمّنون هذه المرة السيطرة على البحر. فقد ظهر بالفعل أسطول ضخم من أساطيل البندقية يضمّ أكثر من مئة وعشرين سفينة في عُرْض البحر قبالة الشواطي الفلسطينية في ربيع عام ١١٢٣م. وقد تمكّن منذ وصوله من مباغتة الأسطول المصريّ الذي كان راسياً أمام عسقلان وتدميره. وفي شباط/ فبراير ١١٢٤م بدأ البندقيّون بحصار ثغر صور بعد أن وقّعوا اتّفاقاً مع القدس ينصّ على اقتسام

(١) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٨، ص ٣٠٤. (المترجم).

الغنائم، فيما كان الجيش الفرنجي يقيم معسكره شرقيّ المدينة. وهكذا فإن احتمالات المستقبل ليست في مصلحة المحاصَرين. ومما لا ريب فيه أن الصوريّين يقاتلون بشراسة. فذات ليلة مثلاً اتجهت جماعة من خيار السبّاحين إلى سفينة من سفن البندقية كانت تتولى الحراسة عند مدخل الميناء وتمكّنت من جرّها نحو المدينة حيث جرّدت من السلاح ودمرت. ولكنْ على الرغم من هذه الأعمال الباهرة فإن فرص النجاح ضئيلة. فالهزيمة البحرية الفاطمية جعلت كلّ نجدة من البحر مستحيلة. ومن جهة أخرى فإن التزوّد بماء الشرب يبدو صعباً. فليس داخل أسوار صور - وهذه هي نقطة الضعف فيها - ينابيع ماء. وفي وقت السلم يصل الماء العذب في أقنية من الخارج. وفي زمن الحرب تعتمد المدينة على صهاريجها وعلى ما تتموّن به بكثافة بواسطة المراكب الصغيرة. وصرامة الحصار البندقيّ تمنع مثل هذه الوسيلة. وإذا لم يُفَكّ الطوق فلا مفرّ من الاستسلام بعد بضعة أشهر.

وإذ لم يكن المدافِعون يتوقّعون شيئاً من المصريين حُماتِهم المألوفين فقد توجّهوا إلى بطل الساعة، بَلَك. وكان الأمير في حينها يحاصر إحدى قلاع حلب، منبج، حيث أعلن أحد أتباعه العصيان. ويروي كمال الدين أنه حين بلغته استغاثة الصوريّين قرّر على الفور أن يعهد بمتابعة الحصار إلى أحد قوّاده وأن يذهب بنفسه لنجدة صور. وفي السادس من أيار/مايو ١١٢٤م قام بجولة تفتيشية أخيرة قبل أن يسلك طريق الذهاب. ويتابع مؤرّخ حلب قائلاً:

«تقدّم بَلَك وعلى رأسه خوذته وفي ذراعه مجنّة من قلعة منبج لاختيار المكان المناسب لنصب المجانيق. وبينما هو يُصدِر أوامره أصابه سهم من فوق الأسوار فاخترق ترقوته اليسرى. ونزع السهم بنفسه وقال وهو يبصق عليه بازدراء: «سوف تصيب هذه الضربة من المسلمين جميعاً مقتلاً»، ثم فاضت روحه».

ولقد نطق بالحقيقة. فما إن وصل نبأ موته إلى صور حتى كان أهلها

قـد خاروا ولم يعـودوا يفكّرون في غـير المفـاوضـة عـلى شروط التسليم. ويـروي ابن القـلانسي أنّـه سُمـح للنـاس بـالخـروج في اليـوم الثـالث والعشرين من جمادي الأول سنـة ٥١٨ (السابع من تموز/يولية ١١٢٤ م) وأنهم كانوا «يخرجون بين الصفّين وليس أحد من الإفرنـج يعرض لأحـد منهم بحيث خـرج كافّـة العسكريـة والرعيّـة ولم يبقَ منهم إلا ضعيف لا يطيق الخروج، فوصل بعضهم إلى دمشق وتفرّقوا في البلاد»[1].

وإذا كـان قد أمكن تجنّب حمّام الدم فقـد انتهى صمـودُ الصـوريّـين الرائعُ مع ذلك بصورة مخزية.

ولن يكونوا وحدهم في حمل ما كان من نتائج مـوت بَلَك. ففي حلب انتقلت السلطة إلى تمرتاش بن إيلغازي وهو شاب في التاسعة عشر يقول فيه ابن الأثير إنـه «كان رجـلاً يحبّ الدَعَـة والرفـاهة»[2]، وأنـه «عاد إلى ماردين لأنه رأى الشام كثيرة الحرب مع الفرنج»[3]. وإذ لم يَرُق لتمرتاش الضعيف أن يترك عاصمته فقد بادر إلى إطلاق سراح ملك القـدس لقاء عشرين ألف دينار، وأعطاه خُلَعـاً وقلنسوة ذهب ونعلَين مـزخرفَـين، بل إنه أعاد إليه جواده الذي كان بَلَك قد أخذه منه يوم أسره. وإنه لتصرّف يليق ولا شكّ بأمير، ولكنّه خلو تماماً من المسؤولية لأن بغدوين الثـاني ما لبث أن وصل بعد بضعة أسابيع من تحريره إلى أسوار حلب عـاقداً النيّـة على الاستيلاء عليها.

ووقعت مسؤولية الدفـاع عن المدينـة بأسرهـا على عـاتق ابن الخشاب الـذي لم يكن يملك سوى بضع مئات من الـرجـال المسلّحـين. وإذ رأى القاضي آلاف المحاربين حول مدينته فقد أرسل رسولاً إلى ابن إيلغازي. وعـبر الرسـول ليلاً خـطوط الأعداء مخـاطراً بحيـاته. ومـا إن وصـل إلى مـاردين حتى مَثَلَ في ديـوان الأمير متـوسّـلاً إليـه بـإلحـاح ألا يتخـلّى عن

---

(١) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ٢١١. (المترجم).

(٢) و(٣) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٨، ص ٣١٥. (المترجم).

حلب. ولكنّ تمرتاش الذي لا يقلّ سَفَهُهُ عن جبنه أمر بحبس الرسول الذي أزعجته شكواه وتوسّلاته.

وعندها توجّه ابن الخشاب إلى مغيث آخر، البرسُقي، وهو عسكريّ تركيّ عجوز كان قد عُيِّنَ لتوّه والياً على الموصل. وإذ كان معروفاً بالاستقامة والوَرَع، وكذلك بالحذق في السياسة والطموح، فقد أسرع في قبول الدعوة التي وجّهها إليه القاضي وتهيّأ على الفور للمسير. وباغت وصوله في كانون الثاني/يناير ١١٢٥ م إلى أسوار المدينة المحاصَرة الفرنج الذين هربوا تاركين وراءهم خيامهم. وأسرع ابن الخشاب في الخروج لملاقاة البرسُقي وحثّه على اللحاق بهم، ولكنّ الأمير كان متعباً من طول رحلته على صهوة جواده، ومتلهفاً بالأخص على زيارة ملكه الجديد. وكما فعل إيلغازي قبله بخمس سنوات فإنه لم يجرؤ على التمادي في نجاحه وَتَركَ للعدو فرصة التقاط أنفاسه. ولكنْ كان لتدخّله أهمية كبرى لأن الاتحاد الذي تحقّق عام ١١٢٥ م بين حلب والموصل سيكون نواة لدولة قويّة لن تلبث أن تردّ بنجاح على صَلَف الفرنج وعجرفتهم.

وانا لنعلم أن ابن الخشاب بعناده وثقوب فكره لم ينقذ مدينته من الاحتلال وحسب، بل أسهم أيضاً أكثر من أيّ كان في تمهيد السبيل أمام كبار القادة في مجاهدة الغُزاة. ومع ذلك فإن القاضي لن يشهد وصولهم. فذات يوم من أيام الصيف في عام ١١٢٥ م، وكان خارجاً من مسجد حلب بعد صلاة الظهر، انقضّ عليه رجل متنكّر في زيّ متصوّف وطعنه بخنجر في صدره. إنه انتقام الحشاشين. فقد كان ابن الخشاب ألدّ أخصام هذه الفرقة، وقد أراق دماء مُريديها غزيرة من غير أن يُعلن يوماً ندمه على ما فعل. ولم يكن ليجهل أنه سوف يدفع حياته ثمناً لذلك في يوم من الأيام، فمنذ ثلث قرن لم يُفلح أيّ عدوّ من أعداء الحشّاشين في الإفلات منهم.

* * *

والرجل الذي أنشأ في عام ١٠٩٠ م هذه الفرقة التي طالما كانت

مرهوبة الجانب أكثر من كل الفِرق في جميع الأزمنة واسع الثقافة محبّ للشعر طُلَعَةٌ يتابع أنباء آخر المكتشفات في ميدان العلوم. إنه حسن الصبّاح المولود حوالي عام ١٠٤٨ م في مدينة الرَّي القريبة جداً من المكان الذي ستنشأ فيه بعد بضعة عقود بلدة طهران. فهل كان كما تريد له الأسطورة التِرْبَ الذي لا ينفصل عن الشاعر عمر الخيام المولع هو الآخر بالرياضيات والفلك؟ ليس يُدرى على وجه الدقّة. وتُعلم بدقّةٍ في المقابل الظروفُ التي قادت هذا الرجل الألمعي إلى نذر حياته لتنظيم فرقته.

فعند ولادة حسن كانت العقيدة الشيعية التي اعتنقها فيما بعد هي السائدة في آسيا المسلمة. فبلاد الشام كانت تخصّ فاطميي مصر، وكانت سلالة شيعية أخرى، هي سلالة البويهيين، تحكم فارس وتُملي نفوذها على الخليفة العباسي في قلب بغداد. وأمّا عندما كان حسن صبياً فقد كان الوضع مقلوباً رأساً على عقب. فلقد استحوذ السلاجقة حُماةُ السنّة على المنطقة برمّتها. وعندها لم يعد المذهب الشيعي الذي كان مهيمناً من قبلُ سوى عقيدة يكاد يُتسامح في اعتناقها، وغالباً ما تُضطهد.

وقد ثار حسن الذي ترعرع في كنف متدينين من الفُرس على هذا الوضع وقرّر حوالي عام ١٠٧١ م الذهاب للإقامة في مصر آخرِ معاقل المذهب الشيعي. ولكنّ ما اكتشفه في بلاد النيل لم يكن سارّاً على الإطلاق. فالخليفة الفاطميُّ العجوزُ المستنصرُ دُمْيَةٌ أكثر ممّا هو منافسة العباسيّ. إنه لا يجرؤ على الخروج من قصره إلا بإذن من وزيره بدر الجمالي والد الأفضل وسَلَفُه. وقد وجد حسن في القاهرة كثيراً من المتديّنين الأصوليين الذين يشاركونه تصوّراته ويتمنّون مثله إصلاح الخلافة الشيعية والانتقام من السلاجقة.

وسرعان ما تشكّلت حركة حقيقية بزعامة نزار ابن الخليفة البكر. وإذ كان الوريث الفاطميّ ورعاً بقدر ما كان شجاعاً فإنه لم يكن راغباً في

الانصراف إلى ملذّات البلاط ولا في أن يؤدّي دور الدُّمية في يد أحد الوزراء. وكان عليه عند موت أبيه الذي لن يتأخّر أجَلُهُ كثيراً أن يليَ الخلافة وأن يؤمّن للشيعيين بمعونة حسن وأصدقائه عصراً ذهبياً جديداً. ووضعت خطّة محكمة كان حسن صانعها الرئيسي: يذهب المناضل الفارسي فيقيم في قلب الإمبراطورية السلجوقية لتهيئة التربة الصالحة لاستعادة السلطة التي لن يتوانى نزار في الشروع فيها عند تسنّمه سدّة الخلافة.

ونجح حسن نجاحاً فاق حدود المأمول، ولكنْ بطرق مختلفة جداً عن الطرق التي تصوّرها الصالح نزار. ففي عام ١٠٩٠ م استولى فُجاءةً على قلعة «ألـمَوت»، وهي أشبه بوكر النسر، في سلسلة جبال ألبروز قرب بحر الخزر في منطقة يصعب عملياً الوصول إليها. وإذ حصل حسن على ملاذ لا يُمكن هَتْكُه فقد بدأ يؤسّس تنظيماً سياسياً دينياً لن يكون لفعاليته وروح الانضباط فيه مثيل في التاريخ.

وصنف المريدون حسب مستوى تعليمهم والركون إليهم وشجاعتهم من المبتدئين إلى المعلّم الكبير. وأخذوا يتابعون دروساً مكثّفة في ترسيخ العقيدة إلى جانب تدريبهم تدريباً بدنياً. وأمّا السلاح المفضّل لدى حسن لإرهاب أعدائه فكان القتل. وكان أعضاء الفرقة يُرسلون بشكل فردي أو ـ وهذا أندر ـ في فِرق صغيرة من شخصين أو ثلاثة، ومهمّتهم قتل شخصية مختارة. وكانوا يتنكّرون بشكل عام في زيّ تجّار أو زهّاد ويتجوّلون في المدينة التي ينبغي ارتكاب الجريمة فيها متآلفين مع الأمكنة ومع عادات ضحيّتهم، ثم إنهم ما إن يُحكمون خطّتهم حتى يضربوا ضربتهم. بيد أنه إذا كان ينبغي أن تسير التحضيرات في سريّة تامّة فإن التنفيذ كان يجب أن يتمّ في العلن أمام أكبر حشد ممكن من الناس. ولهذا فإن المكان هو المسجد واليوم المفضّل هو الجمعة ظهراً. ولم يكن القتل في نظر حسن مجرّد وسيلة للتخلّص من خصم، بل هو قبل كل شيء درس مزدوج يُلقى أمام الناس: عقاب الشخص المقتول والتضحية

البطولية التي يُبديها المريد القاتل، وكان يُدعى «الفدائي» لأنه كان يُقتل على الأثر بشكل دائم تقريباً. ولقد توهّم معاصرو الحشّاشين وهم يعاينون الطريقة الوادعة التي كان أعضاء الفرقة يتيحون بها لمهاجميهم فرصة قتلهم أنهم كانوا مخدّرين بالحشيش، فكان أن لقّبوا بـ «الحشّاشيّين» أو «الحشّاشين»، وهي كلمة حرّفت إلى (Assassin) [ومعناها قاتل] ولم تلبث أن أصبحت في لغات عدّة مجرّد اسم لمسمّى عادي. والفرضيّة محتملة، ولكنّه من الصعب من جميع ما يتعلق بالفرقة تمييز الحقيقة من الخرافة. فهل كان حسن يدفع بمريديه إلى تخدير أنفسهم لجعلهم يحسّون أنهم في الجنّة لبعض الوقت، ولتشجيعهم بذلك على الاستشهاد؟ هل كان يحاول بشكل أكثر ابتذالاً تعويدهم على مخدّر من المخدّرات لابقائهم تحت رحمته على الدوام؟ هل كان يُقدّم إليهم ببساطة منشّطاً كيلا يضعفوا لحظة القتل؟ هل كان يعتمد بالحري على إيمانهم الأعمى؟ مهما يكن الجواب فإن مجرّد التذكير بهذه الافتراضات هو ثناء على المنظّم الممتاز الذي كانه حسن.

وعلى كل حال فإن نجاحه كان باهراً للغاية. فعملية القتل الأولى التي نُفّذت عام ١٠٩٢ م، أي بعد سنتين من إنشاء الفرقة، هي بحدّ ذاتها ملحمة. لقد كان السلجوقيون يومها في أوج قوّتهم. ومن ناحية أخرى كان عماد إمبراطوريتهم، أي الرجل الذي نظّم مدّة ثلاثين سنة ما فتحه المحاربون الأتراك من أراض فجعله دولة حقيقية، والذي أعاد بعث السلطة السُنّية وقاوم المذهب الشيعي، وزيراً عجوزاً يوحي اسمه بحدّ ذاته، «نظامُ المُلْك»، بما كان من عمله. وفي الرابع عشر من تشرين الأول/أوكتوبر ١٠٩٢ م طعنه أحد مريدي حسن بخنجر. ويرى ابن الأثير أنه حين قُتل نظام الملك «انحلّت الدولة»[1]. والواقع أن الإمبراطورية السلجوقية لن تستعيد وحدتها بعد ذلك أبداً، ولن يتخلّل تاريخها الفتوحُ وإنما حروبٌ لا نهاية لها من أجل سدّة الحكم. وقد كان في

---

(١) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٨، ص ١٦٢. (المترجم).

وسع حسن أن يقول لرفاقه في مصر إنه أدى المهمة على أكمل وجه؛ وأن السبيل مهّدت لاستعادة الفاطميين سلطانهم؛ وأن على نزار أن يتصرّف. بيد أن التمرّد كان على قدم وساق في القاهرة. فقد سحق الأفضل الذي ورث الوزارة عن أبيه عام ١٠٩٤م أصدقاء نزار بلا رحمة، وأمّا نزار فقد هُدم عليه السجنُ حيّاً.

ووجد حسن نفسه إزاء هذا الواقع في وضع غير منتظر. فهو لم يعدل عن فكرة بعث الخلافة الشيعية في قالب جديد، ولكنّه يعلم أن الأمر يحتاج إلى وقت. وبالتالي فإنّه غيّر تخطيطه: إنهِ يجهد إلى جانب استمراره في عمله التخريبي حيال السلطة الرسمية الإسلامية وممثّليها من رجال الدين والسياسيين في أن يجد لنفسه من الآن وصاعداً مكاناً يُثبت فيه أقدامه لإقامة إقطاعته الخاصّة. فأي منطقة يمكن والحالة هذه أن تُقدِّم آفاقاً خيراً مْن التي تقدّمها بلاد الشام المقسّمة إلى هذا العدد الكبير من الدويلات المتنافسة؟ وإنه ليكفي أن تندس الفرقة فيها وتحرّض مدينة على أخرى، وأميراً على أخيه، لتستطيع البقاء إلى اليوم الذي تتخلّص فيه الخلافة الفاطمية من خَدَرها.

وقد أرسل حسن إلى الشام داعية فارسياً، «طبيباً منّجماً» غريب الأطوار، فأقام في حلب وتمكّن من كسب ثقة رضوان. وبدأ المريدون يتقاطرون على المدينة ويبّشرون بمذهبهم ويؤلّفون الخلايا. وما كانوا ليستنكفوا كي يكسبوا صداقة الملك السلجوقي عن تقديم خدمات كثيرة إليه. ولا سيّما قتل عدد من أخصامه السياسيين. وعلى أثر موت «الطبيب المنجّم» في عام ١١٠٣ م أرسلت الفرقة إلى رضوان مستشاراً فارسياً جديداً هو الصائغ أبو طاهر، فما لبث تأثيره أن أصبح أشد وقعاً من تأثير سَلَفه. وعاش رضوان تحت سيطرته التامّة، ولم يكن في وسع أي حلبيّ حسب رواية كمال الدين، أن يفوز بأدنى خطوة لدى العاهل، أو يسوّي أية مشكلة إدارية من غير أن يمرّ بواحد من أتباع الفرقة الكُثْر المنبثّين في محيط الملك.

بيد أن الحشّاشين كانوا مكروهين بسبب نفوذهم بالذات. وقد طالب ابن الخشاب بصورة خاصة بوضع حدّ لنشاطاتهم. ولم يكن يأخذ عليهم تأثيرهم المشبوه وحسب، بل كان يأخذ عليهم أيضاً، وبشكل خاصّ، المودّة التي يبدونها حيال الغزاة الغربيّين. وعلى الرغم من أن هذا الاتهام قابل للجدل فإنه يبدو سائغاً على كل حال. ولدى وصول الفرنج كان يُطلق على الحشّاشين الذين لمّا تَكد، قدمهم ترسخ في بلاد الشام اسم «الباطنيين»، أي «الذين يعتنقون عقيدة مختلفة عن التي يجاهرون بها». وهي تسمية يُستفاد منها أن المريدين لم يكونوا مسلمين إلا في الظاهر. ولم يكن الشيعة أمثال ابن الخشاب يتعاطفون مع مريدي حسن لمقاطعته الخلافة الفاطمية التي تظلّ على الرغم من ضعفها المتزايد حامية الشيعة في العالم العربي ومحطّ أنظارهم.

وإذ كان الحشّاشون مكروهين ومضطهدين من جميع المسلمين فإنهم لم يكونوا غاضبين لوصول جيش مسيحي يُنزِل الهزيمة تلو الهزيمة بالسلجوقيين وبالأفضل قاتلِ نزار على حدٍّ سواء. ممّا لا ريب فيه أن موقف رضوان المفرط في مصالحة الغربيّين ومهادنتهم يعود القسم الأكبر منه إلى نصائح «الباطنيين».

وتواطؤ الحشّاشين مع الفرنج مساوٍ للخيانة في نظر ابن الخشاب، وهو يتصرّف على هذا الأساس. فقد طورد الباطنيون غداة المذابح التي تبعت موت رضوان في نهاية عام ١١١٣ م من شارع إلى شارع، ومن بيت إلى بيت، وسحل جمهورُ الناس بعضَهم، ودُفع بعضُهم الآخر من فوق الأسوار، فمات زهاء مئتين من أفراد الفرقة من بينهم أبو طاهر الصائغ. ومع ذلك فإنه، حسبما يشير ابن القلانسي، «هرب جماعة أفلتوا إلى الإفرنجي وتفرّقوا في البلاد»[1].

عبثاً انتزع ابن الخشاب من الحشّاشين معقلهم الرئيسي في الشام، فما

(١) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ١٩٠. (المترجم).

كانت حِرفتهم العجيبة إلا في بداياتها. فقد غيّرت الفرقة خططها مستفيدة من هزيمتها، وقرّر مبعوث حسن الجديد، وهو داعية فارسي اسمه بهرام، أن يوقف مؤقتاً كل عمل مثير ويعود إلى عمل دقيق وسرّي من التنظيم والانسراب.

ويروي مؤرّخ دمشق أنّه «استفحل أمر بهرام (. . .) وهو على غاية من الاستتار والاختفاء وتغيير الزيّ واللباس بحيث يطوف البلاد والمعاقل ولا يعرفُ أحدٌ شخصَه»[1].

وبعد بضع سنوات كانت له شبكة فيها من القوّة ما يكفي للتفكير في الخروج من السرّية. وقد وجد لذلك حامياً ممتازاً يحلّ محلّ رضوان. ويقول ابن القلانسي إن بهرام وصل ذات يوم إلى دمشق فاستقبله فيها طغتكين وأكرمه «لاتّقاء شرّه وشرّ جماعته، وحُملت له الرعاية وتأكدت به العناية (. . .) ووافقه الوزير (. . .) طاهر (. . .) المزدقاني، وإن لم يكن على مذهبه (. . .) وساعده على بثّ حِبال شرّه»[2].

والحق أنه على الرغم من وفاة حسن الصبّاح في ملاذه بـ«ألـمَوت» عام ١١٢٤ م فقد عرف نشاط الحشّاشين نموّاً كبيراً. ولم يكن مقتل ابن الخشاب عملاً لا ثاني له. فقبل عام سقط تحت ضرباتهم «مقاوم مُعَمَّم» آخر من رجال الطليعة. وجميع المؤرخين يروون مقتله بإجلال لأن الرجل الذي قاد في آب/أغسطس ١٠٩٩ م أول تظاهرة غضب على الغزو الفرنجي كان قد أصبح أحد أرفع المراجع الدينية في العالم الإسلامي. وقد أُعلِن من العراق أن قاضي قضاة بغداد فخر الإسلام أبا سعد الهروي قد صرعه الباطنيون في المسجد الجامع بهمذان. ولقد قتلوه طعناً بالخناجر وفرّوا على الفور من غير أن يتركوا علامة أو أثراً، ومن غير أن يلحق بهم أحدٌ لشدّة ما كان الناس يخافونهم. وأثارت الجريمة نقمة عارمة في دمشق التي عاش فيها الهروي سنوات طويلة.

---

(١) و(٢) نفسه، ص ٢١٥. (المترجم).

وأحـدث نشاط الحشّاشين عِـداء متزايـداً في الأوسـاط الـدينيـة بشكـل خاصّ. وكان الألم يعصر قلوب خـير المؤمنين، ولكنهم كـانوا يستنكفـون عن الكلام لأن الباطنيين كانـوا قد شرعـوا في قتل من ينـاهضونهم ودعم الذين يوافقـونهم على ضـلالهم. ولم يكن أحد ليجـرؤ على لـومهم جهاراً سواء كان أميراً أو وزيراً أو سلطاناً!

ولهـذا الـرعب مـا يسـوّغـه. ففي السـادس والعشرين من تشرين الثاني/نوفمـبر ١١٢٦ م حلّ بـالبرسُقي صـاحب حلب والموصـل القويّ بدوره انتقام الحشّاشين الـرهيب. ويُبدي ابن القـلانسي عجبه للحـدث فيقول:

«وقـد كـان عـلى غـايـة من التيقّظ لهم والتحفّظ منهم (. . .) لكنّ القضاء النازل لا يُدافع والقدر النافذ لا يُمانع، وعليه مع هذا من لبـاس الحديد ما لا تعمل فيه مواضي السيوف ومرهفـات الخناجـر، وحولـه من الغلمان الأتـراك والديلم والخـراسانيـة بأنـواع السلاح عـدد. فلما حصل بالجامع على عادته لقضاء فريضـة الجمعة (. . .) وصـادف هذه الجماعة الخبيثـة في زيّ الصوفيـة يصلون في جنب المشهـد لم يؤبـه لهم ولا ارتيب بهم. فلما بدأ بالصلاة وثبوا عليه بسكاكينهم فضربوه عدة ضربات لم تؤثّر في لبس الحـديـد الـذي عليـه (. . .) وصـاح واحـد منهم حـين رأوا السكاكين لا تعمـل فيه شيئـاً: «ويلكم اطلبوا رأسـه وأعلاه». وقصـدوا حلقه بضرباتهم فأثخنوه (. . .) فقُضي عليه شهيداً وقُتِـل جميع من كـان وثب عليه»[1].

ولم يسبق لتهديد الحشّاشين قطُّ أن كان أكثر جدّية. فليس الأمـر مجرد عمـل من أعمال التنكيـد والإزعاج، وإنمـا هو بـاءُ جُذام يَقـرِض العـالم العربي في الوقت الذي هو بحاجة فيه إلى كامـل طاقتـه للوقوف في وجـه الاحتـلال الفرنجي. وقـد استمـرّ من نـاحيـة ثـانيـة مسلسـل الإجـرام

(١) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ٢١٤. (المترجم).

الأسود. فبعد بضعة أشهر من مقتل البرسُقي قُتل أيضاً ابنه الذي كان قد خلفه. وعندها كان أربعة أمراء يتنازعون على الحكم في حلب، ولم يكن ابن الخشاب موجوداً لتأمين حدٍّ أدنى من التماسك. وفي خريف عام ١١٢٧ م، وبينما كانت المدينة غارقة في الفوضى كان الفرنج قد ظهروا تحت أسوارها. وقد أصبح لأنطاكية أمير جديد هو ابن بيمند الشهير الشابُّ العملاق ذو الثمانية عشر عاماً الذي وصل من بلاده حديثاً للحصول على الإرث العائلي. وكان له نفس اسم ابيه، ونفس طبعه الحادّ على الأخصّ. وأسرعَ الحلبيون يدفعون له الجزية، وكان أكثرهم انهزامية قد أصبحوا يَلْمَحون فيه غازي مدينتهم في المستقبل.

ولم يكن الوضع في دمشق أقل مأساوية. فالأتابك طغتكين الذي بدأ يهرم ويُنهكه المرض لا يمارس أية رقابة على الحشّاشين. فلهم ميليشياهم المسلّحة، والإدارة في قبضتهم، والوزير المزدقاني المخلص لهم قلباً وقالباً يُقيم علاقات وثيقة مع القدس. ولم يكن بغدوين الثاني يُخفي من جهته نيّته بتتويج عمله السياسي بالاستيلاء على عاصمة الشام. ويبدو أن وجود طغتكين العجوز وحده هو الذي كان يمنع الحشّاشين من تسليم المدينة إلى الفرنج. بيد أن وقف تنفيذه سيكون قصير الأجل. ففي بداية عام ١١٢٨ م بدا للعيان نحول الأتابك وعجزه عن الوقوف على قدميه. وبجانب سرير مرضه كانت المؤامرات تُحاك على قدم وساق. وقد قضى في الثاني عشر من شباط/فبراير بعد أن أوصى بخلافته لابنه بوري. ومذّاك بات الدمشقيون مقتنعين بأن سقوط مدينتهم ليس سوى مسألة وقت.

وقد كتب ابن الأثير بحقّ مذكّراً بهذه الحقبة الدقيقة من التاريخ العربي بعد قرن من الزمن يقول إنه بموت طغتكين خلا للفرنج «الشام من جميع جهاته من رجل يقوم بنصرة أهله [ولكن] لَطَفَ الله بالمسلمين»(١).

---

(١) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٨، ص ٣٢٧. (المترجم).

القسم الثالث

الهجوم المضادّ (١١٢٨ - ١١٤٦ م)

«فكبَّرتُ ووقفتُ في الصلاة فهجم عليّ واحد من الإفرنج مَسَكَني وردّ وجهي إلى الشرق وقال: «كذا صلِّ»[١]!

المؤرّخ أسامة بن منقذ
(١٠٩٥ - ١١٨٨ م)

(١) «كتاب الاعتبار»، بالنص العربي، ص ١٣٥. (المترجم).

مؤامرات دمشق

يروي ابن القلانسي أن الوزير المزدقاني «حضر مع جماعة الأمراء والمقدَّمين على الرسم في قُبّة الورد من دار القلعة بدمشق، وجرى في المجلس أمور ومخاطبات مع تاج الملوك [البوري بن طغتكين] والحضور انتهى الأمرُ فيها إلى الانصراف إلى منازلهم والعود إلى دورهم. ونهض الوزير المذكور منصرفاً بعدهم على رسمه فأشار تاج الملوك إلى خصمه فضرب رأسه بالسيف ضربات أتت عليه، وقُطع رأسه وحُمل مع جثّته إلى رمادة باب الحديد فألقيت عليها لِيَنْظُرَ الكافّة إلى صُنع الله تعالى بمن مكر»[1].

لقد عُرف نبأ موت حامي الحشّاشين خلال بضع دقائق في أسواق دمشق، وتبع ذلك على الفور عملية مطاردة للناس، فانتشر حشد كبير في الشوارع شاهرين السيوف والخناجر. ولوحق جميع الباطنيين وأقرباؤهم وأصدقاؤهم وكلّ من يُرتاب بالتعاطف معهم خلال المدينة إلى بيوتهم وذُبحوا بلا رحمة ولا شفقة. وصُلب زعماؤهم على متاريس الأسوار. وقد شارك عدّة أفراد من أسرة ابن القلانسي في المذبحة. ويمكن الاعتقاد بأن المؤرّخ نفسه، وقد كان في شهر أيلول/سبتمبر من ذلك العام، ١١٢٩ م، موظّفاً كبيراً في السابعة والخمسين من العمر، لم يختلط بسواد الناس. ولكنّ نبرته تشي طويلاً بحالته الذهنية في تلك الساعات الدموية، إذ يقول: «وأصبحتِ النواحي والشوارعُ منهم خاليةً، والكلاب على أشلائهم وجيفهم متهارشةً متعاوية»[2].

---

(١) و(٢) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ٢٢٣. (المترجم).

ومن الواضح أن الدمشقيين كانوا مرهقين من تسلّط الحشّاشين على مدينتهم، وكان أشدّهم إرهاقاً ابن طغتكين الذي كان يرفض تمثيل دور الدُمية بين أيدي الفِرقة والوزير المزدقاني. وفي رأي ابن الأثير أن القضية لم تكن مجرّد صراع على الحكم، وإنما كانت لإنقاذ العاصمة من كارثة محقّقة فاسمعه يقول: «ثم إن المزدقاني راسل الفرنج ليسلّم إليهم مدينة دمشق ويسلّموا إليه مدينة صور. واستقرّ الأمر بينهم على ذلك وتقرّر بينهم الميعاد يومَ جُمُعَةٍ ذكروه»[1]. وكان مفروضاً بالفعل أن تصل عساكر بغدوين الثاني على حين غرّة إلى أسوار المدينة فتفتح لهم جماعات مسلّحة من الحشّاشين الأبواب، بينما كُلّفت جماعات أخرى من الفدائيين حراسة مداخل المسجد الجامع لمنع المقدَّمين والجنود من الخروج ريثما يكون الفرنج قد احتلوا المدينة. وقبل تنفيذ هذه الخطّة بأيام بادر بوري الذي كان قد علم بأمرها إلى إزالة وزيره من الوجود مشيراً بذلك إلى سواد الشعب أن يثور على الحشّاشين.

هل كان لتلك المؤامرة وجودٌ حقاً؟ قد يميل المرء إلى الارتياب بأمرها حين يعلم أنّ ابن القلانسي نفسه لا يتّهم الباطنيين في أيّ لحظة، على الرغم من ثورته الكلامية عليهم، بأن يكونوا قد أرادوا تسليم مدينته إلى الفرنج. وبعدُ فإن رواية ابن الأثير ليست مُباينة لواقع الأمور. فقد كان الحشّاشون وحليفهم المزدقاني يشعرون بأنهم مهدّدون في دمشق بعِداء شعبي متعاظم وبمؤامرات بوري وحاشيته على السواء. ثم إنهم كانوا يعرفون فوق هذا أن الفرنج عازمون على أخذ المدينة مهما كلّف الأمر. وبدلاً من مقاتلة عدد كبير من الأعداء دفعة واحدة فإنه كان بإمكان الفِرقة أن تقرّر تأمين ملاذ مثل صور التي يمكنها أن تبعث منها دعاتها وقَتَلَتَها إلى مصر الفاطمية هدف تلامذة حسن الصباح الرئيسي.

ويبدو أنّ ما جدّ من أحداث يؤكدّ مصداقية طرح المؤامرة. فالأقلية القليلة من الناجين من الباطنيّين من المذبحة سوف يقيمون في فلسطين

(١) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٨، ص ٣٢٩. (المترجم).

بحماية بغدوين الثاني الذي سيسلّمون إليه بانياس، وهي قلعة حصينة في سفح جبل الشيخ تشرف على الطريق بين القدس ودمشق. وعلاوة على ذلك فإن جيشاً فرنجياً قوياً ظهر بعد بضعة أسابيع في جوار العاصمة الشامية، وهو يضمّ زهاء عشرة آلاف فارس وراجل لم يكن قدومهم من فلسطين وحدها، وإنما من أنطاكية والرُّها وطرابلس أيضاً، وكذلك بضع مئات من المحاربين الذين وصلوا لتوّهم من بلاد الفرنج وهم يجاهرون بنيّتهم في الاستيلاء على دمشق. وكان أكثرهم تعصّباً ينتمون إلى جماعة فرسان الهيكل [الداويّة]، وهي جماعة دينية وعسكرية كانت قد تأسّست قبل عشر سنوات في فلسطين.

وإذ لم يكن بوري يملك ما يكفي من العساكر لمواجهة الغُزاة فقد استنجد على عجل ببعض الجماعات البدوية التركية وببعض العشائر العربية التي في المنطقة واعداً إياهم بمكافأة مجزية إذا هم ساعدوه في صدّ الهجوم. وكان ابن طغتكين يعلم أنه لا يستطيع الاعتماد طويلاً على هؤلاء المرتزقة الذين لن يلبثوا أن يفرّوا منصرفين إلى النهب. وعليه فقد كان همّه الأول أن يخوض المعركة في أسرع وقت ممكن. وذات يوم من أيام تشرين الثاني/نوفمبر أخبره كشّافته أن بضعة آلاف من الفرنج ذهبوا يعيثون فساداً في سهل الغوطة الغنيّ. ومن غير أن يتردّد أرسل جيشه كلّه لملاحقتهم. وإذ أُخذ الفرنج على حين غرّة فسرعان ما حوصروا. حتى إن بعض فرسانهم لم يجدوا الوقت الكافي لاستعادة دوابّهم. ويقول ابن القلانسي:

«وعاد الأتراك والعرب إلى دمشق ظافرين غانمين منصورين مسرورين آخر نهار ذلك اليوم المذكور. فابتهج الناس بهذا اليوم السعيد والنصر الحميد وقويت به النفوس وانشرحت به الصدور، وعزم العسكر على مباكرتهم بالزحف إلى مخيّمهم (...) وتسرّع اليهم جماعة من الخيل وافرةً وهم ينظرون إلى كثرة النار وارتفاع الدخان وهم يظنّون أنهم مقيمون. فلما دنوا من المنزل صادفوهم وقد رحلوا تلك الليلة عندما

جاءهم الخبر وقد أحرقوا أثقالهم وآلاتهم وعُدَدَهم وسلاحهم إذ لم يبقَ لهم ظهر يحملون عليه»[1].

وعلى الرغم من تلك الهزيمة فإن بغدوين الثاني كان قد حشد عسكره من أجل هجوم جديد على دمشق عندما نزل فجأة مطرٌ غزيرٌ على المنطقة في بداية شهر أيلول/سبتمبر. وتحوّلت الأرض التي عسكر فوقها الفرنج إلى بحيرة شاسعة من الوحل غاص فيها الرجال والخيول بشكل لا ينفع معه تدبير. وأمر ملك القدس بالانسحاب وفي نفسه غصّة.

لقد تمكّن بوري الذي نُظر إليه عندما تولّى الحكم على أنه طائش ووجل من إنقاذ دمشق من الخطرين اللذين كانا يتهدّدانها، الفرنج والحشّاشين. وإذ استفاد بغدوين الثاني العِبَر من هزيمته فقد عدل نهائياً عن كل عمل ضدّ المدينة المطموعِ فيها.

لكنّ بوري لم يكن قد أخرس جميع أعدائه. فقد وصل إلى دمشق ذات يوم شخصان في زيّ تركيين بالقباء والشربوش، وقالا إنهما يبحثان عن عمل براتب ثابت فأدخلهما ابن طغتكين في حرسه الخاص. وصباح يوم من أيام شهر أيار/مايو ١١٣١ م بينما كان الأمير راجعاً من حمّامه في القصر انقض عليه الرجلان وجرحاه في بطنه. وقد اعترفا قبل أن يُعدما بأن زعيم الحشّاشين قد أرسلهما من قلعة «ألَموت» للانتقام لإخوانهم الذين أبادهم ابن طغتكين.

واستُدعي إلى سرير الضحيّة عدد من الأطباء من بينهم، كما يؤكد ابن القلانسي، «أهل الخبرة بمداواة الجراح من الأطباء والجرائحيين»[2]. وكانت الخدمات الطبية التي تقدّمها دمشق آنذاك من خيرة الخدمات في العالم. فقد انشأ فيها دُقاق مارستاناً وبُني آخر في عام ١١٥٤ م. وها

---

(١) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ٢٢٦. (المترجم).

(٢) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ٢٣٠. (المترجم).

هوذا الرحالة ابن جبير الذي زارهما بعد بضع سنوات يصف سير العمل فيهما فيقول:

«وله [أي المارستان] قَوَمَةٌ بأيديهم الأزمّة المحتوية أسماء المرضى، وعلى النفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية والأغذية وغير ذلك. والأطباء يبكّرون إليه في كل يوم ويتفقّدون المرضى ويأمرون بإعداد ما يُصلحهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل إنسان منهم»[1].

وبعد زيارة أولئك الأطباء ألحّ بوري الذي شعر بتحسّن حاله على ركوب جواده واستقبال أصدقائه، كما في كل يوم، للحديث والشراب. ولكنّ هذا الإفراط كان وبالاً على المريض فلم يندمل جرحه، وقضى في حزيران/يونية ١١٣٢م بعد ثلاثة عشر شهراً من الآلام المبرّحة. وهكذا انتقم الحشّاشون مرّة جديدة.

ولقد كان بوري أول صانع للهجوم المضادّ المظفّر على الاحتلال الفرنجي في العالم العربي على الرغم من أن قِصَر مدّة حكمه لم يسمح بترك ذكرى دائمة عنه. والحقّ أنّه تطابق مع صعود نجم شخصية من عيار آخر: الأتابك عماد الدين زنكي صاحب حلب والموصل الجديد، وهو رجل لا يتردّد ابن الأثير في القول فيه إنه «لولا أن الله تعالى مَنَّ على المسلمين بمُلْكِ أتابك بلاد الشام لملكها الفرنج»[2].

ولا يختلف هذا الضابط الداكن السمرة ذو اللحية المشعّثة للوهلة الأولى أبداً عن الكثيرين من الزعماء العسكريين الذين سبقوه في هذه الحرب التي لا تنتهي مع الفرنج. ولّما كان في أغلب الأحيان متعتعاً من السكر ومستعدّاً مثل سابقيه لاستخدام كلّ قسوة وكلّ خيانة للوصول إلى غاياته فإنه كثيراً ما كان يقاتل هو الآخر المسلمين بأشدّ مما يقاتل به الفرنج. وعندما دخل حلب دخوله المشهود في الثامن عشر من

(١) «رحلة ابن جبير»، بالنص العربي، ص ١٩٨. (المترجم).

(٢) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي»، ج ٨، ص ٢٢٦/٢٢٧. (المترجم).

حزيران/يونية عام ١١٢٨ م كان ما يُعرف عنه غيرَ مشجّع على الإطلاق. فالعنوان الرئيسي لمجده استحقّه عندما أخمد في العام السابق ثورة قام بها خليفة بغداد على حُماته السلجوقيين. فقد توفي المستظهر الطيّب القلب عام ١١١٨ م تاركاً العرش لابنه المسترشد بالله، وهو شاب في الخامسة والعشرين ذو عينين زرقاوين وشعر أصهب ووجه منّمش كان يتطلّع إلى استعادة سيرة أجداده العباسيين الأوائل المجيدة. وكان الوقت يبدو مؤاتياً إذ كان السلطان محمد قد قضى وبدأ الخصام على الخلافة كالعادة. وهكذا استغلّ الخليفة الشاب الفرصة لامتلاك زمام جيوشه بنفسه، الأمر الذي لم يسبق حدوثه منذ أكثر من قرنين. وإذ كان المسترشد خطيباً مفوّهاً فقد جمع إليه كل سكّان عاصمته.

ومن المفارقات أنه بينما كان أمير المؤمنين يتحرّر من تقليدِ خمولٍ طويل آلت السلطنة إلى فتى في الرابعة عشرة لا همَّ له سوى أعمال الصيد وملذّات الحريم. وكان المسترشد يعامل محمود بن محمد بتسامح متعالٍ، وكثيراً ما كان ينصحه بالعودة إلى فارس. إنها بالتأكيد ثورة العرب على الأتراك، هؤلاء العسكر الغرباء الذين كانوا يهيمنون عليهم منذ زمن طويل. وإذ كان السلطان عاجزاً عن مواجهة هذه الهيزعة فقد استنجد بزنكي الذي كان والياً على ثغر البصرة الغنيّ الواقع على طرف الخليج. وكان تدخّله حاسماً: هزمت عساكر الخليفة قرب بغداد وسلّمت أسلحتها واحتبس أمير المؤمنين في قصره بانتظار أيام أفضل. ولكي يكافىء السلطان الوالي زنكي على معونته الغالية فقد عهد إليه بعد بضعة أشهر بولاية الموصل وحلب.

ولقد كان بالإمكان بالطبع تصوُّر أعمال حربيّة أروع يقوم بها بطل الإسلام المقبل هذا. ولكنْ لم يكن من الخطأ أن يشتهر زنكي يوماً بأنّه أوّل مقاتل عظيم في مجاهدة الفرنج. فَقَبْلَهُ كان القادة الأتراك يصلون إلى بلاد الشام بجيوشهم المتعطّشة إلى النهب والعودة بالأموال والغنائم. وما أسرع ما كانت هزائمهم التالية تُلغي انتصاراتهم السابقة. وكانت

العساكر تُسرَّح ليُعاد حشدها في السنة التي تلي. وبمجيء زنكي تغيّرت الأمور. فلسوف يجوس هذا المحارب الذي لا يتعب في أرجاء الشام والعراق خلال ثمانية عشر عاماً مفترشاً القشّ احتماءً من الطين، مقاتلاً البعض، معاهداً البعض الآخر، متآمراً على الجميع. ولم يفكّر يوماً في الإقامة بدعة في قصر من القصور الكثيرة القائمة في ملكه الشاسع.

ولم تكن حاشيته تتألف من محظيّات البلاطات والمتملّقين، بل من مستشارين سياسيين محنّكين كان يُحسن الإصغاء إليهم. وكان يملك شبكة من المخبرين يُطلعونه باستمرار على ما يُحاك في بغداد وأصفهان ودمشق وأنطاكية والقدس، وفي عقر داره في حلب والموصل على السواء. ولم يكن جيشه، بخلاف الجيوش الأخرى التي كان عليها أن تقاتل الفرنج، بإمرة عددٍ من الأمراء المستقلّين المستعدّين على الدوام للخيانة أو للتنازع فيما بينهم. وكان الانضباط فيه صارماً، وكان العقاب على أدنى حماقة لا هوادة فيه. وبحسب كمال الدين فإنّ «جنود الأتابك كانوا يسيرون وكأنهم يمشون بين حَبْلين» لئلا تطأ أقدامهم بستاناً مفلوحاً. وأما ابن الأثير فيروي أن أحد أمراء زنكي كان قد أُقطع فيها أقطع مدينة صغيرة فـ «نزل في دار إنسان يهودي فاستغاث اليهودي إلى أتابك وأنهى حاله إليه. فنظر [زنكي إلى الأمير] فتأخرّ ودخل البلد وأخرج بَرْكه وخيامه»[1]. ومن جهة ثانية فإن صاحب حلب كان متشدّداً مع نفسه تَشَدُّدَه مع الآخرين. وعندما كان يصل إلى مدينة كان ينام خارج الأسوار في خيمته مزدرياً جميع القصور الموضوعة في تصرّفه. وحسب رواية مؤرّخ الموصل فإن زنكي «كان أيضاً شديد الغيرة ولا سيّما على نساء الأجناد. وكان يقول إن لم تُحفظ نساء الأجناد وإلا فَسَدْنَ لكثرة غيبة أزواجهن في الأسفار»[2].

الدقة والصرامة، والمواظبة والثبات في الرأي، وحسن سياسة الدولة،

(١) و(٢) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٩، ص ١٣. (المترجم).

خصال كثيرة كان يتحلّى بها زنكي وكانت تنقص قادة العالم العربي بشكل يدعو إلى الرِّثاء. وكان فيه أيضاً ما هو أهم في نظر المستقبل: كانت الشرعية شاغله الشاغل. فمنذ وصوله إلى حلب قام بثلاثِ مبادراتٍ، ثلاثة أعمال رمزية. الأول كان قد أصبح كلاسيكياً مألوفاً: زواجه من بنت ملك حلب رضوان أرملة إيلغازي ثم بَلَك؛ والثاني: نقله رفات والده إلى المدينة للتدليل على ترسّخ عائلته في منطقة نفوذه هذه؛ والثالث: حصوله من السلطان محمود على وثيقة رسمية تثبت للأتابك سلطة لا جدال فيها على بلاد الشام بأسرها وعلى شمال العراق. ويشير زنكي بهذا إشارة واضحة إلى أنه ليس مجرّد أفّاق عابر وإنما هو بالتأكيد مؤسس دولة مدعوّة للدوام بعد موته. ومع ذلك لم يُقدّر لهذا العنصر التلاحمي الذي أدخله إلى العالم العربي أن يُؤتي أُكُلَه إلا بعد سنوات طويلة. فلسوف يطول شلل الأمراء المسلمين بفعل الخصومات الداخلة، والأتابك منهم.

ومع ذلك فإن اللحظة تبدو مؤاتية لتنظيم هجوم مضادّ واسع لأن التعاضد الرائع الذي أمّن حتى الآن القوّة للغربيين أصبح على ما يظهر موضع شكّ بشكل جدّي. ويقول ابن القلانسي وهو لا يكاد يصدّق إنه «وردت الأخبار من ناحية الإفرنج بوقوع الخُلف بينهم من غير عادةٍ جارية لهم بذلك، ونشبت المحاربة بينهم وقُتل منهم جماعة»[1]. ولكن دهشة المؤرّخ ليست شيئاً بالقياس إلى دهشة زنكي يوم تلقّى من «اليكس» ابنة بغدوين الثاني ملك القدس رسالة تعرض عليه فيها حلفاً ضدّ أبيها بالذات!

بدأ هذا الأمرُ الغريبُ في شباط/فبراير ١١٣٠ م عندما وقع الأمير بيمند الثاني صاحب أنطاكية، وكان قد ذهب للمناوشة في الشمال، في شَرَك نصبه له غازي ابن الأمير دنشمند الذي كان قد أسر بيمند الأول

(١) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ٢٣٦. (المترجم).

قبل ذلك بثلاثين عاماً. وإذ كان بيمند الثاني أشأم طالعاً من أبيه فقد قُتل في المعركة وأرسل رأسه الأشقر محنّطاً بعناية وموضوعاً في علبة من الفضة هديّة إلى الخليفة. وعندما وصل نبأ موته إلى أنطاكية نظّمت أرملته «أَلِيكس» انقلاباً حقيقياً، فأمّنت بدعم من سكّان أنطاكية الأرمن والروم والشآميين على ما يبدو السيطرة على المدينة واتّصلت بزنكي. وإنه لموقف غريب يعلن عن ولادة جيل جديد من الفرنج، الجيل الثاني، ليس بينه وبين روّاد الغزو أي شيء مشترك. فإذ كانت الأميرة الشابة من أمّ أرمنية، ولم تكن قد عرفت أوروبا أبداً، فإنها تشعر بأنها شرقية وتتصرّف على هذا الأساس.

لمّا علم ملك القدس بتمرّد ابنته سار على الفور إلى الشمال على رأس جيشه. وقبل أن يبلغ أنطاكية بقليل صادف فارساً بهيّ المظهر كان جواده الضامر الخالص البياض مُنْعَلاً بالفضة ومكسوّاً من عُرفه إلى صدره لأُمة مرصّعة رائعة. إنه هديّة من «أَلِيكس» إلى زنكي مع رسالة تطلب الأميرة فيها من الأتابك أن يهرع لنجدتها وتَعِده بالاعتراف بسلطانه المطلق. وبعد أن شنق بغدوين الرسول تابع مسيرته إلى أنطاكية التي ما لبث أن قبض على زمام الأمور فيها. واستسلمت «أَلِيكس» بعد مقاومة رمزية في القلعة، ونفاها أبوها إلى ثغر اللاذقية.

بيد أن ملك القدس قضى بعد ذلك بقليل في شهر آب/أغسطس ١١٣١م. ومن خصائص العصر أنه استحقّ رثاء طبقاً للأصول من قِبَل مؤرخ دمشق. فالفرنج لم يعودوا كما كانوا في أزمنة الغزو الأولى كتلة بلا شكل يكاد يُميَّز منها بعض الزعماء. ولقد أصبح تاريخ ابن القلانسي يهتمّ بعد ذلك بالتفاصيل، بل يطلّ بنوع من التحليل. فقد كتب يقول:

«وكان [أي بغدوين] شيخاً قد عركه الزمان بحوادثه وعانى الشدائد من نوائبه وكوارثه ووقع في أيدي المسلمين عدّة دفعات أسيراً (...) وهو يتخلّص منهم بحِيَله المشهورة (...) ولم يخلف بعده فيهم [أي الإفرنج] صاحب رأي صائب ولا تدبير صالح. وقام فيهم بعده الملك

القومص الجديد الكند انجور [Le Comte d'Anjou] الواصل إليهم في البحر من بلادهم فلم يتسدّد في رأيه ولا أصاب في تدبيره، فاضطربوا لفقده [أي بغدوين] واختلفوا من بعده»[1].

وملك القدس الثالث، «فولْك دانجو»، وهو خمسيني أصهب الشعر قصير سمين كان قد تزوج «ميليزند» أخت «أليكس» الكبرى، قادم جديد بالفعل، لأنه لم يكن لبغدوين، شأن أكثرية الأمراء الفرنج، من وريث ذكر. وبسبب عادات الغربيين الصحيّة التي كانت أكثر من بدائية، وقلّة تكيّفهم مع ظروف الحياة في الشرق، فقد عرفوا نسبة مرتفعة من ميتات الأطفال التي تصيب الصبيان بالدرجة الأولى حسب قانون طبيعي معروف جيّداً. وقد مرّ عليهم زمن طويل قبل أن يتعلّموا تحسين وضعهم باستعمال الحمّام بانتظام والاستزادة من خدمات الأطباء العرب.

ولم يكن ابن القلانسي مخطئاً في الإزراء بالصفات السياسية التي يتّصف بها الوريث القادم من الغرب لأن «الخلاف بين الفرنج» سوف يكون على أشدّه في عهد «فولك» هذا. فمنذ تسلّمه الحكم كان عليه أن يواجه عصياناً جديداً قادته «أليكس» ولم يُقمع إلا بصعوبة. ثم أخذت الثورة تعتمل في فلسطين نفسها. وهناك شائعة مستمرّة بأن زوجته الملكة «ميليزند» على علاقة غرامية بفارس شاب هو «هوغ دي بويزيه». وقد عملت هذه القضية بين أنصار الزوج وأنصار العشيق على إحداث انقسام حقيقي في طبقة النبلاء الفرنجيين التي لا تحيا بغير المشادّة والمبارزة والشائعات عن القتل. وإذ أحسّ «هوغ» بأن حياته في خطر فقد هرب إلى عسقلان لائذاً بالمصريين الذين تلقّوه بالترحاب. بل إنهم عهدوا إليه بعساكر من الفاطميين استولى بهم على ثغر يافا، ولكنّه ما لبث أن طُرد منه بعد بضعة أسابيع.

---

(١) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ٢٣٣. (المترجم).

وفي كانون الأول/ديسمبر ١١٣٢ م، بينما كان «فولك» يحشد قوّاته لإعادة احتلال يافا كان ابن بوري الأتابك الشاب إسماعيل صاحب دمشق الجديد يستولي على حين غرّة على قلعة بانياس التي كان الحشّاشون قد سلّموها قبل ثلاث سنوات إلى الفرنج. ولكنّ حادثة الاستعادة هذه كانت عملاً يتيماً لأن الأمراء المسلمين الغارقين في خصوماتهم الشخصية كانوا عاجزين عن الإفادة من الخلافات التي تقضّ مضجع الغربيين. وزنكي نفسه لا يُرى عملياً في بلاد الشام. فقد ترك حكومة حلب لأحد قوّاده وانخرط في معركة لا هوادة فيها مع الخليفة. ولكنْ كانت الغلبة هذه المرّة للمسترشد على ما يبدو.

وكان السلطان محمود حليف زنكي قد قضى نحبه حديثاً وهو في السادسة والعشرين من العمر، ونشبت في كنف العشيرة السلجوقية حرب جديدة لأجل تسنّم سدّة الحكم. واستغلّ أمير المؤمنين هذه الفرصة لرفع رأسه مجدّداً. وإذ وعد كلاً من الطامحين بالدُّعاء له في المساجد فقد أصبح حَكَم الموقف وفيْصَله. وقلق زنكي فحشد عسكره وسار إلى بغداد مؤمّلاً أن يُنزِل بالمسترشد هزيمة أشد نكراً من التي أنزلها في مواجهتهما الأولى قبل خمسة أعوام. بيد أن الخليفة هرع للقائه على رأس عدّة آلاف من الجنود قرب مدينة تكريت على الفرات شمالي العاصمة العباسية. ومُزّقت عساكر زنكي إرباً وأوشك هو نفسه أن يقع في قبضة أعدائه لولا أن أنقذ أحد الرجال حياته في اللحظة الحرجة. وكان ذلك الرجل والي تكريت، وهو ضابط كردي شاب لم يكن اسمه، أيّوب، شيئاً مذكوراً يومذاك. وبدلاً من أن يحوز رضى الخليفة بتسليمه خصمه فإنّه ساعد الأتابك على قطع النهر والخلاص من ملاحقيه والعودة على عجل إلى الموصل. وما كان زنكي لينسى هذا التصرّف الشهم، فقد نَذَر له ولأسرته صداقة خالدة سوف تحدِّد بعد سنوات طويلة معالم درب ابن أيّوب، يوسف الذي يُعرف أكثر ما يُعرف بلقبه «صلاح الدين».

وغدا المسترشد في قمة المجد بعد انتصاره على زنكي. وإذ أحسّ

الأتراك بالخطر فقد اتّحدوا حول طامح سلجوقي واحد هو مسعود أخو محمود. وفي كانون الثاني/يناير ١١٣٣ م حضر السلطان الجديد إلى بغداد ليتسلّم تاجه من يد أمير المؤمنين. وكان هذا الأمر في العادة مجرّد عملية شكلية، ولكنّ المسترشد حوّلها على طريقته إلى احتفال. ويصف ابن القلانسي، «صحافينا» في تلك الحقبة، هذا المشهد قائلاً:

«وقد جلس الإمام (. . .) أمير المؤمنين فحضر [أي السلطان محمود] بين يديه وخدم كما جرت العادة لمثله (. . .) وكان هذا التشريف سبع دراريع مختلفات الأجناس، والسابعة منها سوداء، وتاجاً مرصّعاً وسوارير وطوق ذهب [وقال له]: «تلقَّ هذه النعمة بشكرك واتّقِ الله في سرّك وجهرك». ولمّا جلس على الكرسي المعدّ له وقبّل الأرض قال له أمير المؤمنين: «من لم يُحسن سياسة نفسه لم يصلح لسياسة غيره». (. . .) فأعاد الوزير عليه ذلك بالفارسية فأكثر من الدُّعاء له والثناء عليه. واستدعى أمير المؤمنين السيفين المعدّين له فقلّده بهما واللواءين فعقدهما له بيده (. . .) وقال له أمير المؤمنين: «انهض وخذ ما آتيتك وكنْ من الشاكرين»[1].

لقد أظهر العاهل العباسي ثقة رائعة بالنفس، حتى وإن كان علينا بالطبع أن نحسب حساب المظاهر. فقد وعظ التركيَّ بوقاحة واثقاً من أن الوحدة السلجوقية المستعادة لا يمكن إلا أن تهدّد عند ذلك قوّته الناشئة، ولكنّه لم يكن في وسعه إلا أن يعترف به صاحباً شرعياً للسلطنة. ومع ذلك فإنه استمرّ خلال عام ١١٣٣ م بالتفكير في الفتح. وانطلق في حزيران/يونية على رأس عساكره باتجاه الموصل عازماً كلّ العزم على أخذها والخلاص بذلك من زنكي. ولم يسعَ السلطان محمود إلى ثنيه، بل أوحى إليه بتوحيد الشام والعراق في دولة واحدة بإمرته، وهي فكرة سوف تخطر كثيراً في المستقبل. ولكنْ، في الوقت الذي كان

(١) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ٢٣٨. (المترجم).

فيه السلجوقي يعرض هذه المقترحات، كان يساعد زنكي على مقاومة هجمات الخليفة الذي حاصر الموصل عبثاً طوال ثلاثة أشهر.

ولسوف يسجّل هذا الفشل مُنعطفاً مميتاً في طالع المسترشد. فقد انفضّ أكثر الأمراء من حوله وغُلب على أمره وأُسِرَه مسعود في حزيران/يونية ١١٣٥ م وقتله شرُّ قتلة بعد ذلك بشهرين. فقد وُجد أمير المؤمنين عارياً في خيمته وقد قُطع أنفه وأذناه وطُعن جسده بعشرين طعنة خنجر.

ولم يكن زنكي الغارق في هذا النزاع قادراً بالطبع على الاهتمام اهتماماً مباشراً بشؤون بلاد الشام. بل إنه كان من الممكن أن يبقى في العراق إلى أن تُسحق نهائياً محاولة إصلاح الأوضاع العباسية لو لم يتلقَّ في كانون الثاني/يناير ١١٣٥ م نداء قانطاً من إسماعيل ولد بوري وصاحب دمشق يطلب إليه فيه الحضور لامتلاك مدينته في أسرع وقت ممكن. «وإذا حصل تأخير فإني سأكون مُرغماً على دعوة الفرنج وتسليم المدينة بكل ما فيها إليهم، وسيتحمّل عماد الدين زنكي وزر دماء أهليها».

لقد قرّر إسماعيل الذي يخشى على حياته ويُخيَّل إليه أنه يرى في كل ركن من قصره قاتلاً متحفّزاً للانقضاض عليه أن يترك عاصمته ويذهب للالتجاء في حمى زنكي في قلعة صرخد الواقعة جنوبي المدينة حيث كان قد نقل أمواله وثيابه.

وكان حكم ابن بوري قد عرف مع ذلك بدايات واعدة. فقد وصل إلى سدّة الحكم وهو في التاسعة عشرة وأثبت حيوية رائعة كانت استعادة بانياس خيرَ شاهدٍ عليها. ومّما لا ريب فيه أنه صلِف ولا يسمع قطّ نصائح مستشاري أبيه ولا مستشاري جدّه طغتكين. ولكنّ الناس مستعدّون لأن ينسبوا هذا إلى صِغَر سنّه. وبالمقابل فإنّ ما لا يحتمله الدمشقيون إلاّ كَرْهاً هو جشع سيّدهم المتعاظم وفرضه ضرائب جديدة بصورة منتظمة.

ومع ذلك فإنّ الحالة لم تبدأ بالتدهور إلاّ عام ١١٣٤ م عندما حاول خادم عجوز اسمه «ايلبا» كان قبلُ في خدمة طغتكين اغتيال سيّده. وأصرّ إسماعيل الذي نجا من الموت بأعجوبة على أن يسمع اعترافات الجاني بنفسه. وأجابه الخادم: «لم أفعل ذلك إلاّ تقرّباً إلى الله تعالى بقتلك وراحة الناس منك لأنك قد ظلمت المساكين والضعفاء من الناس والصناع والمتعيّشين والفلاحين وامتهنت العسكرية والرعية»[1]. وذكر «ايلبا» أسماء جميع الذين يتمنّون مثلَه موت إسماعيل، مؤكّداً له ذلك. وإذ صُدم ابن بوري إلى درجة الجنون فقد أخذ يقبض على كلّ الأشخاص المذكورين ويقتلهم من غير أدنى محاكمة. ويقول مؤرخ دمشق: «ولم يكفه قَتْلُ من قَتَلَ ظلماً حتى اتهم أخاه سَوَنْج (. . .) فقتله أشنع قِتلة بالجوع في بيت وبالغ في هذه الأفعال القبيحة والظلم ولم يقف عند حدّ»[2].

وعندها دخل إسماعيل في دائرة جهنّمية، فكان كل إعدام يزيده خوفاً من انتقام جديد فيأمر محاولةً منه لحماية نفسه بإعدامات جديدة. وإذ أدرك أنه ليس في إمكانه إطالة هذا الوضع فقد عزم على تسليم مدينته إلى زنكي والانسحاب إلى قلعة صرخد. بيد أن صاحب حلب كان مكروهاً من الدمشقيين بالإجماع منذ سنوات، أي منذ نهاية عام ١١٢٩ م يوم كتب إلى بوري يدعوه لمشاركته في حملة على الفرنج. فقد قبل صاحب دمشق الأمر بلا إمهال وأرسل إليه خمسمئة فارس يقودهم خيرة قوّاده بصحبة ابنه سَوَنج المسكين. وبعد أن احتفى زنكي بهم جرّدهم جميعاً من أسلحتهم وسجنهم وأرسل يقول لبوري إنه إذا تجرّأ ساعة على معاندته فإن خطر الموت سينزل بالرهائن. ولم يُطلق سراح سَوَنج إلا بعد سنتين.

ولا تزال ذكرى هذه الخيانة ماثلة في أذهان الدمشقيين في عام

---

(١) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ٢٤١/٢٤٢. (المترجم).
(٢) نفسه، ص ٢٤٢. (المترجم).

١١٣٥ م، وعندما علم مقدَّمو المدينة بمشاريع إسماعيل عزموا على مناهضتها بجميع الوسائل. وعُقدت اجتماعات بين الأمراء والوجهاء والخدم الرئيسيين، وكانوا جميعاً يريدون إنقاذ أنفسهم ومدينتهم في آن معاً. وقرّر جماعة من المتآمرين شرح الوضع للأميرة زمرّد أم إسماعيل. ويقول مؤرّخ دمشق إنها «قلقت لذاك وامتعضت منه، واستدعته وأنكرته (. . .) وحملها فعلها الجميل ودينها القويم وعقلها الرصين على النظر في هذا الأمر بما يحسم داءه ويعود بصلاح دمشق ومَنْ حوته. وتأمّلت الأمر في ذلك تأمّل الحازم الأريب والمرتئي المصيب فلم تجد لدائه دواء (. . .) إلا بالراحة منه وحسم أسباب الفساد المتزايد عنه»[١].

ولم يُستمهل التنفيذ.

«فصرفت الهمّة إلى مناجزته وارتقبت الفرصة في خلوة [ابنها] من غلمانه وسلاحيّته فأمرت غلمانها بقتله بلا إمهال له غير راحمة له ولا متألمة لفقده (. . .) وأوعزت بإخراجه حين قُتل وإلقائه في موضع من الدار ليشاهده غلمانه. وكلٌّ (. .) بالغَ في شكر الله (. . .) وأكثرَ الدُّعاء لها والثناء عليها»[٢].

هل قتلت زمرّد ابنها لمنعه من تسليم دمشق إلى زنكي؟ يمكن الشكّ عندما يُعلم أن الأميرة تزوجت بعد ثلاث سنوات زنكي هذا ورجته أن يحتلّ مدينتها. وهي لم تقتل ابنها كذلك للانتقام لسَوَنج الذي كان ابن زوجة أخرى لبوري. ولا بدّ عندئذٍ، ولا شك، من الاطمئنان إلى التفسير الذي يقدّمه لنا ابن الأثير: كانت زمرّد عشيقة مستشار إسماعيل الرئيسي، فلما علمت أن ابنها ينوي قتل عشيقها، وربما عقابها هي أيضاً، قرّرت التصرّف بما تصرّفت به[٣].

ومهما يكن من أمر دوافع الأميرة الحقيقية فإنها حرمت بفعلتها زوجها

---

(١) و(٢) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ٢٤٦. (المترجم).
(٣) انظر «الكامل في التاريخ»، ج ٨، ص ٣٤٦. (المترجم).

المقبل من فتح سَهْلٍ. فقد كان زنكي في الثلاثين من كانون الثاني/يناير ١١٣٥ م، أي اليوم الذي قُتل فيه إسماعيل، قد سار في طريقه إلى دمشق. وحينما كان جيشه يجتاز نهر الفرات بعد أسبوع كانت زمرّد قد أجلست على العرش إبناً آخر من أبنائها هو محمود، وكان السكّان ناشطين في الاستعداد للمقاومة. وإذ كان الأتابك يجهل مقتل إسماعيل فقد أرسل ممثّلين عنه إلى دمشق ليدرسوا مع هذا الأخير بنود التسليم. وقد استُقبلوا بلطف طبعاً ولكنْ من غير أن يُطلِعهم أحد على تطورات الوضع الأخيرة. وغضب زنكي ورفض مُحْنَقاً أن يعود من حيث أتى. وأقام مخيّمه شمال شرق المدينة وكلّف كشّافته أن يعلموه أين ومتى يمكنه الهجوم. ولكنه سرعان ما أدرك أن الحُماة مصمّمون على القتال إلى النهاية. وعلى رأسهم رفيق قديم لطغتكين، معين الدين أُنر، وهو عسكريّ تركي واسع الحيلة وعنيد سوف يلقاه زنكي غير مرّة في طريقه. وبعد بضع مناوشات قرّر الأتابك أن يبحث عن تسوية. ولكي يحفظ له قادة المدينة المحاصَرة ماءَ وجهه فقد بلّغوه احترامهم واعترفوا اعترافاً اسمياً بسلطانه المطلق وحسب

وهكذا ابتعد الأتابك عن دمشق في منتصف شهر آذار/مارس. ولكي يرفع معنويات عساكره التي عانت من هذه الحملة غير المجدية فقد قادها مباشرة باتجاه الشمال واستولى بسرعة مُذهلة على أربع قلاع فرنجية من بينهاالمعرّة التي كان قد ذاع صيتها لما لاقت من آلام وأحزان. وعلى الرغم من هذه المآثر فإن هيبته قد خُدشت. ولن يتوصّل إلى محو إخفاقه أمام دمشق من الأذهان إلّا بعمل مشهود سيقوم به بعد سنتين. ومن المفارقات أن معين الدين أُنر هو الذي سيتيح له عندئذٍ فرصة استعادة اعتباره من غير أن يسعى إلى ذلك.

أمير عند البرابرة

في حزيران/يونية ١١٣٧ م وصل زنكي مصطحباً آلة حِصار مدهشة وأقام مخيّمه في الكروم المحيطة بحمص، المدينة الرئيسية في أواسط الشام، هذه المدينة التي يتنازع عليها في العادة الحلبيّون والدمشقيّون. وفي تلك الساعة كان هؤلاء الأخيرون هم الذين يُشرفون على إدارتها، ولم يكن واليها سوى أُنر العجوز. وإذ رأى معين الدين أُنر العرّادات والمنجنيقات التي نصبها خصمه فقد أيقن أنه لن يستطيع المقاومة طويلاً، وتدبّر أمره لإبلاغ الفرنج أن في نيّته التسليم. وبدأ فرسان طرابلس الذين لم تكن بهم أية رغبة في رؤية زنكي مقيماً على مسيرة يومين من مدينتهم بالمسير. ونجحت خطّة أُنر تمام النجاح: لقد سارع الأتابك الذي خشي أن يقع بين نارين إلى عقد هدنة مع عدوّه العجوز واستدار نحو الفرنج عازماً على الذهاب لمحاصرة أمنع حصونهم في المنطقة، حصن بعرين. وإذ قلق فرسان طرابلس لهذا الأمر فقد استدعوا لنجدتهم الملك فولْك الذي هُرع بصحبة جيشه. وجرت تحت أسوار بعرين، في وادٍ مزروع على شكل جلول، أوّلُ معركة مهمّة بن زنكي والفرنج، الأمر الذي يثير الدهشة حين يُعْلَمُ أنه سبق للأتابك أنْ كان صاحب حلب منذ أكثر من تسع سنوات!

وسوف تكون المعركة قصيرة ولكنْ حاسمة. ففي بضع ساعات سُحق الغربيّون، وكان قد أنهكهم طول السير المفروض بلا توقّف، تحت وطأة

كثرة العدد ومُزِّقوا شرَّ مُمزَّق، وتمكّن الملك وبضعة من رجاله فقط من اللجوء إلى الحصن. وبالكدّ وجد فولْك الوقت لإرسال رسول إلى القدس يطلب حضور قومه لتخليصه، ثم إن زنكي - كما يروي ابن الأثير - «منع عنهم كل شيء حتى الأخبار، فكان من به [أي الحصن] منهم لا يعلم شيئاً من أخبار بلادهم لشدّة ضبط الطرق»[1].

وكان من الممكن ألّا يكون لمثل هذا الحصار تأثيرٌ لو وقع على العرب. فهم يستعملون منذ قرون فنّ حَمَام الزاجل للاتّصال بين مدينة وأخرى. وكان كلّ جيش في حملة يحمل معه حماماً ينتمي إلى عدّة مدن وحصون إسلامية. وكان هذا الحمام يُروّض بحيث يرجع دائماً إلى مساكنه الأصلية. وكان يكفي لفّ رسالة حول إحدى قائمتي الحمامة وإطلاقها فتذهب بأسرع من أسرع جواد من جياد السباق لتبليغ نصرٍ أو هزيمةٍ أو موتِ أميرٍ أو طلبِ نجدةٍ أو لتشجيع حاميةٍ محاصَرةٍ على الصمود. وما إن ازداد التحشّد العربي لصدّ الفرنج حيث قامت خدمات منتظمة قوامها حمام الزاجل بالعمل بين دمشق والقاهرة وحلب وغيرها من المدن، وخصّصت الدولة بالذات رواتب للأشخاص المكلّفين تربية هذه الطيور وترويضها.

وغنيّ عن البيان أن الفرنج تعلّموا خلال مُقامهم في الشرق فنّ استخدام الحمام الذي سيروج رواجاً شديداً في بلادهم فيما بعد. ولكنّهم في زمن حصار بعرين كانوا يجهلون كلّ شيء عن هذه الوسيلة، الأمر الذي أتاح لزنكي استغلال ذلك الجهل. وبعد مفاوضات مريرة عرض الأتابك بالفعل على المحاصَرين، وكان قد شرع في تضييق الخناق عليهم، شروطاً للتسليم كانت في مصلحتهم: تسليم القلعة ودفع خمسين ألف دينار، ويتركهم في مقابل ذلك يمضون بسلام. واستسلم فولْك ورجاله وأطلقوا العِنان لخيلهم سعداء بالخلاص بمثل هذا الثمن. «فلمّا فارقوه بلغهم اجتماع من اجتمع بسببهم فندموا على التسليم حيث

(١) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٨، ص ٣٥٨. (المترجم).

لا ينفعهم النــدم، وكــان لا يصلهم شيء من الأخبــار البتّــة فلهــذا سلّموه»[1].

وما إن فرح زنكي بـالانتهاء من عمليـة بعـرين لمصلحتـه حتى تلقّى أخباراً مقلقة للغاية: الإمبراطور البيزنـطي حنّا كـومنين الـذي كان قـد خلف أباه الكزايكس في عـام ١١١٨ م في طريقـه إلى شمال الشـام ومعه عشرات الآلاف من الـرجال. ومـا ابتعد فـولْك حتى وثب الأتابك عـلى صهوة جواده وطار إلى حلب. وإذ كانت المدينة قديماً غرض الروم الممتاز فقد كانت في غليان. وتحسّباً للهجوم أخذ الناس يُفرِغون الخندق المحيط بأسوار المدينة من الأقذار الناجمة عن عادة سيئة كانـوا قد ألفـوها في أيـام السلم. وهي رميهـا فيـه. ولكنْ سرعـان مـا وصــل رُسُـل من القيصر لطمأنة زنكي: ليست حلب هدفهم على الإطلاق، وإنما هدفهم أنطاكية المـدينة الفـرنجية التي لم يتـوقّف الروم قطّ عن المـطالبـة بهـا. والحقّ أن الأتابك لم يلبث أن علم بفـرح بالـغ أنها محاصَرة وتُقصف بـالعرّادات. وترك زنكي النصارى في خصامهم ورجع لمحـاصرة حمص التي ما انفـكّ فيها أُنر يُعانده.

في هذه الأثناء تصالح الروم والفرنج بأسرع ممّا كان متوقَّعاً. فقد وعد الغربيّون القيصر حنّا تطييباً لخاطره بإعـادة أنطاكيـة إليه إذا هـو وعد في المقـابل بتسليمهم عـدّة مدن إسـلامية في الشـام، الأمر الـذي أشعل في آذار/مارس ١١٣٨ م حرب فتوح جديدة. وكان يقـوم مقام الإمـبراطور في قيادة جيشه زعيمان فرنجيان هما قُمص الرُّها الجـديد جـوسلين الثاني، وفارس اسمه ريمون كان قد تسلّم حديثاً زمام إمارة أنطاكيـة بزواجـه من «كونستانس» ابنة بيمند الثاني وأُليكس، وهي طفلة في الثامنة من العمر.

وفي نيسان/أبريل شرع الحلفاء في حصـار شيزر بعـد أن صفّوا ثـمانية عشر منجنيقـاً ودرّاعة. ولم يكن الأمير سلطان بن منقذ الـذي كان واليـاً

---

(١) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٨، ص ٣٥٨. (المترجم).

على المدينة مِنْ قَبلِ الغزو الفرنجي قادراً على ما يبدو على مواجهة القوات الرومية والفرنجية المتحالفة. وحسب رواية ابن الأثير فإن الفرنج إنما اختاروا شيزر هدفاً لهم «لأنها لم تكن لزنكي فلا يكون له في حفظها اهتمام»(١). وإنّه لعمري لجهلٌ به. فها إنّ التركي ينظم بنفسه المقاومة ويُديرها، ولسوف تكون معركة شيزر فرصته أكثر من أي وقت لإثبات مؤهّلاته الرائعة كرجل دولة.

لقد قَلَبَ الشرقَ كلَّه في بضعة أسابيع. فبعد أن بعث إلى الأناضول رُسُلاً تمكّنوا من إقناع خلفاء دنشمند بمهاجمة الأملاك البيزنطية، أرسل إلى بغداد محرِّضين نظّموا فيها غَلَياناً شبيهاً بالذي أحدثه ابن الخشاب عام ١١١١ م، مُكرِهين بذلك السلطانَ مسعوداً على إرسال عساكر إلى شيزر. وكتب إلى جميع أمراء الشام والجزيرة يحثّهم، مؤيداً ذلك بالتهديد، على تجنيد كلّ قواهم لصدّ الغزو الفرنجي الجديد. وإذ كان جيش الأتابك نفسه أقلّ عدداً من جيش الخصم بكثير فقد عدل عن المجابهة ولجأ إلى خطّة الإزعاج فيما كان زنكي يراسل القيصر والزعماء الفرنج بشكل كثيف. و«أخبر» الإمبراطور ـ وذاك صحيح على أيّ حال ـ بأنّ حلفاءه يخشونه وينتظرون رحيله عن الشام بفارغ الصبر. وأرسل رُسُلاً إلى الفرنج، ولا سيّما إلى جوسلين صاحب الرُّها وريمون صاحب أنطاكية، يقول لهم «إنْ مَلَكَ [أي مَلِك الروم] بالشام حصناً واحداً مَلَكَ بلادكم جميعاً»(٢). وأوفد إلى المقاتلين البيزنطيين والفرنجيين العاديين عيوناً معظمهم من نصارى الشام ومهمّتهم نشر الشائعات المثبّطة عن قرب وصول جحافل المَدَد من فارس والعراق والأناضول.

وقد أتت هذه الدعايات ثمارها، ولا سيّما في صفوف الفرنج. وبينما كان القيصر وقد اعتمر خوذته الذهبية يوجّه بنفسه طلقات العرّادات، كان صاحبا الرُّها وأنطاكية منصرفيْن في إحدى الخِيَم إلى عدد غير محدّد

(١) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٨، ص ٣٦٠. (المترجم).
(٢) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٨، ص ٣٦٠. (المترجم).

من جـولات المقامـرة بالنـرد. وقد كـانت هذه اللعبـة المعـروفـة في مصر الفرعونية قد انتشرت في القرن الثاني عشر (الميلادي) في الشرق والغرب على السواء. ويُـطلق عليها العـرب اسـم «الزهـر»، وهي كلمة سيتبنّـاها الفـرنـج لا للدلالـة عـلى اللعبـة بحـدّ ذاتهـا، وإنما عــلى الحظّ، «Le hasard».

وأحنقت ألعاب الأميرين الفـرنجيين هـذه القيصر حنا كـومنين الـذي كـانت قد ثبـطت عزيمَتـه إرادة حليفيه الضعيفـة وأقلقته تلك الشـائعات الملحاحة عن وصول مَدَد إسـلامي قويّ ـ لم يكن هـذا المَدَد قـد غادر في الواقع بغـداد ـ فرفـع الحِصار عن شيـزر وعاد في الحـادي والعشرين من أيار/مايو ١١٣٨ م إلى أنطاكية فدخلها على صهوة جواده جاعلاً جوسلين وريمون يتبعانه على أقدامهما وكأنهما سائسا حصانه.

وكان ذلك نصراً كبيراً لزنكي. فقد غدا الأتابـك منذ الآن مخلِّصاً في نظر العالم العربي الذي أقضّ مضجعَه تحالفُ الروم والفرنج. وبديهيٌّ أن يقـرّر استخدام هيبتـه ليسوّي بـلا إبطاء بعض المشكـلات التي تنغّصه، وأوّلها مشكلة حمص. ففي نهاية أيار/مايو وكانت معركة شـيزر قد انتهت لتوّها، عقد زنكي اتفاقاً عجيباً مع دمشق: يتزوّج الأمـيرة زمرّد ويحصـل على حمص بشكل بائنة. ووصل موكب الأم التي قتلت ولـدها إلى أسـوار حمص بعـد ثلاثـة أشهر لتُـزفّ بأبّهـة إلى زوجها الجـديد. وحضر الحفـل ممثّلون عن السلطان وخليفة بغداد وخليفـة القاهـرة، بل حضرهـا سفراء من قبل إمبراطور الروم الذي عزم، وقد تعلّم درساً من خيباته ومراراته، على أن يُقيم بعد اليوم أحسن روابط الصداقة مع زنكي.

وإذ أصبح الأتابك صاحبَ الموصل وحلب وأواسط الشـام كلّها فقـد حصر همّه في الاستيلاء على دمشق بمعونة زوجه الجديد. وإنـه ليرجـو أن تتوصّل هذه إلى إقناع ابنها محمود بتسليمـه عاصمتـه بلا قتـال. وتردّدت الأميرة وراوغت. ولما لم يَعُد في وسع زنكي الاعتماد عليها فقـد انتهى به الأمر إلى هجرها. بيد أنه وصله وهو في حـرّان رسالـة مستعجلة في شهر

تموز/يولية ١١٣٩ م تخبره فيها بأنّ محموداً قُتل، وأن ثلاثة من الخدم قد طعنوه بالخناجر وهو نائم في سريره. وتضرّعت الأميرة إلى زوجها أن يسير بلا إبطاء إلى دمشق للاستيلاء عليها والاقتصاص من قتلة ابنها. وسار الأتابك من فوره، ولم يكن الدافعُ دموعَ زوجته، وإنما لأنّه كان يقدّر أنّ بالإمكان استغلال ذهاب محمود إلى غير رجعة لتحقيق وحدة بلاد الشام أخيراً في ظلّ رايته.

وكان ذلك الحساب بمعزل عن أُنر المعهود الذي كان قد عاد بعد التنازل عن حمص إلى دمشق ولم يلبث أن قبض على زمام الأمور في المدينة عقب موت محمود مباشرة. وإذ كان معين الدين يتوقع هجوماً من زنكي فإنه لم يتلكأ في وضع خطّة سرّية يواجهه بها، حتى وإن كان يتجنّب في الوقت الحاضر اللجوء إليها ويصرف جهده لتنظيم الدفاع.

ومن جهة ثانية فإن زنكي لم يَسِرْ مباشرة إلى المدينة المطموع فيها، بل شرع في الهجوم على مدينة بعلبك الرومانية القديمة، وهي الربض الوحيد الذي كان لا يزال في يد الدمشقيين وله بعض الأهمية. وكان في نيته أن يحاصر العاصمة الشامية ويفت في عضد حُماتها في آن معاً. وأقام في شهر آب/أغسطس أربعة عشر منجنيقاً حول بعلبك وأخذ يقصفها دون توقّف على أمل الاستيلاء عليها في بضعة أيام فيبدأ بحصار دمشق قبل نهاية الصيف. واستسلمت بعلبك من غير صعوبة، ولكنّ قلعتها المبنية بأحجار معبد قديم للإله الفينيقي بَعْل صمدت طوال شهرين. وكان زنكي ساخطاً إلى درجة أنه أمر عندما استسلمت الحامية في نهاية شهر تشرين الأول/أوكتوبر بناءً على عهد بالأمان بِصَلْب سبعة وثلاثين مقاتلاً وسلخ جلد قائد الموقع حيّاً. وكان تأثيرُ هذا العمل الوحشي المنذور لإقناع الدمشقيين بأنّ كلّ مقاومة أقرب ما تكون الى الانتحار عَكْسَ ما كان مؤمّلاً. فقد اتّحد سكان العاصمة الشامية بقوة حول أُنر وقرّروا أكثر من أي يوم مضى أن يقاتلوا حتى النهاية. وعلى كل حال فإن الشتاء قريب وليس في وسع زنكي أن يفكّر في الهجوم قبل الربيع.

وسوف ينتهز أُنر هدنة هذه الأشهر المعدودة لوضع خطّته السرّية موضع التنفيذ.

وعندما شدّد الأتابك من ضغطه في نيسان/أبريل ١١٤٠ م وتهيّأ للهجوم العام اهتبل أُنر الفرصة لتنفيذ خطّته: الطلب إلى جيش الفرنج بقيادة الملك فولْك أن يهرع لنجدة دمشق. وما كان الأمر مجرّد عملية مرسومة بدقّة، بل تعداه إلى تطبيق معاهدة تحالف وفق الأصول سوف يمتدّ العمل بها إلى ما بعد موت زنكي.

وكان أُنر قد أرسل في الواقع منذ عام ١١٣٨ م صديقه المؤرّخ أسامة بن منقذ إلى القدس لدرس إمكان تعاون فرنجي دمشقي على صاحب حلب. وقد حصل أسامة الذي استُقبل بالترحاب على اتفاق مبدئي. وإذ تضاعف عدد السفراء فقد ذهب المؤرّخ إلى المدينة المقدّسة في بداية عام ١١٤٠ م حاملاً مقترحات محدّدة تحديداً دقيقاً: يُرْغِم الجيشُ الفرنجي زنكي على الابتعاد عن دمشق؛ يتّحد جيشا الدولتين في حال نشوب خطر جديد؛ يدفع معين الدين عشرين ألف دينار لتغطية نفقات العمليات العسكرية؛ يتولّى أُنر أخيراً مسؤولية قيادة حملة مشتركة لاحتلال قلعة بانياس التي يحكمها منذ بعض الوقت أحد أتباع زنكي وتُسلَّم إلى ملك القدس. ولكي يُثْبِتَ الدمشقيون حُسْنَ نيّتهم فقد عهدوا إلى الفرنج برهائن اختاروهم من عائلات وجهاء المدينة المرموقين.

وقد كان على الناس في العاصمة الشامية أن يعيشوا عملياً تحت حماية فرنجية، ولكنّهم خضعوا للأمر ووافقوا بالإجماع، لخوفهم من طُرُقِ الأتابك الفظّة، على المعاهدة التي عقدها أُنر بعد أن تبيّن لهم على كل حال أنّ سياسته ناجعة ولا شكّ. وإذ خشي زنكي أن يقع في فكّ كمّاشة فقد انسحب إلى بعلبك التي أقطعها لرجل موثوق فيه، هو أيّوب، قبل أن يبتعد هو بجيشه إلى الشمال واعداً والد صلاح الدين بالعودة قريباً للانتقام لهزيمته. وبعد رحيل الأتابك احتلّ أُنر بانياس وسلّمها إلى

الفرنج وفقاً لمعاهدة التحالف، ثم مضى في زيارة رسمية إلى مملكة القدس.

وقد رافقه في رحلته أسامة الذي غدا نوعاً ما الاختصاصي الكبير في القضايا الفرنجية بدمشق. ومن حُسْن حظنا جدّاً أن المؤرّخ الأمير لم يقصر عمله على المفاوضات الدبلوماسية. فهو قبل كل شيء فكرٌ ثاقبٌ ومراقبٌ نافذ البصيرة سوف يترك لنا شهادة لا تُنسى في عادات الفرنج وحياتهم اليومية.

«كنت إذا زرت البيت المقدّس دخلت إلى المسجد الأقصى وفي جانبه مسجد صغير قد جعله الإفرنج كنيسة. فكنت إذ دخلت المسجد الأقصى وفيه الداويّة [فرسان الهيكل]، وهم أصدقائي، يُخلون لي ذلك المسجد الصغير أصلّي فيه. فدخلته يوماً فكبّرت ووقفت في الصلاة. فهجم عليّ واحد من الإفرنج مَسَكَني وردّ وجهي إلى المشرق وقال «كذا صلِّ!» فتبادر إليه قوم من الداويّة أخذوه وأخرجوه عنّي. وعدت أنا إلى الصلاة. فاغتفلهم وعاد هجم عليّ (. . .) وردّ وجهي إلى الشرق وقال «كذا صلِّ!» فعاد الداويّة ودخلوا إليه وأخرجوه واعتذروا إليّ وقالوا «هذا غريب وَصَلَ من بلاد الإفرنج في هذه الأيام وما رأى من يصلّي إلى غير الشرق». فقلت «حسبي من الصلاة!» فخرجت فكنت أعجب من ذلك الشيطان وتغيير وجهه ورعدته وما لحقه من نظر الصلاة إلى القبلة»[1].

وإن لم يتردّد الأمير أسامة في تسمية الداويّة «أصدقائي» فلأنه يقدّر أن عاداتهم البربرية قد تهذّبت باحتكاكهم بالشرق. ويشرح لنا ذلك فيقول: «ومن الإفرنج قوم قد تبلّدوا وعاشروا المسلمين فهم أصلح من القريبي العهد ببلادهم»[2]. وفي نظره أنّ حادثة المسجد الأقصى «مثال على جفاء أخلاق الفرنج». وهو يروي لنا حوادث أخرى جمعها خلال زياراته إلى مملكة القدس.

(١) «كتاب الاعتبار»، بالنص العربي، ص ١٣٤/١٣٥. (المترجم).
(٢) نفسه، ص ١٤٠. (المترجم).

«حضرت بطبريّة في عيد من أعيادهم، وقد خرج الفرسان يلعبون بالرماح. وقد خرج معهما عجوزان فانيتان أوقفوهما في رأس الميدان وتركوا في رأسه الآخر خنزيراً سمطوه وطرحوه على صخرة، وسابقوا بين العجوزين ومع كل واحدة منهما سَرِيَّة من الخيّالة يشدّون منها، والعجوزان تقومان وتقعان على كل خطوة، وهم يضحكون، حتى سبقت واحدة منهما فأخذت ذلك الخنزير في سبقها»(1).

ولا يسع أميراً مثقّفاً ومرهفاً كأسامة أن يقدّر مثل هذه الدعابات. ولكنّ اشمئزازه الحادّ لا يلبث أن ينقلب إلى تكشيرة قرف عندما يُعاين عدالة الفرنج. قال:

«وشهدت يوماً بنابلس وقد أحضروا اثنين للمبارزة. وكان سبب ذلك أن حراميّة من المسلمين كبسوا ضيعة من ضياع نابلس فاتّهموا بها رجلاً من الفلاحين وقالوا «هو دلّ الحراميّة على الضيعة»، فهرب. فنفّذ المَلِك فقبض أولاده. فعاد إليه وقال «أنصفني، أنا أبارز الذي قال عنّي إني دللت الحراميّة على القرية». فقال الملك لصاحب القرية المُقطَع «أحضر من يبارزه». فمضى إلى قريته وفيها رجل حدّاد فأخذه وقال له «تَبَارَزْ» إشفاقاً من المُقطَع على فلاحيه فلا يُقتل منهم واحد فتخربَ فلاحته. فشاهدت هذا الحدّاد، وهو شاب قويّ إلا أنه قد انقطع يمشي ويجلس يطلب ما يشربه، وذلك الآخر الذي طلب البراز شيخ إلا أنه قويّ النفس يزجر وهو غير محتفل بالمبارزة. فجاء البسكند [الفيكونت]، وهو شحنة البلد [حاكمه]، فأعطى كل واحد منهما العصا والترس، وجعل الناس حولهم حلقة.

«والتقيا فكان الشيخ يلزّ ذلك الحداد وهو يتأخر حتى يلجئه إلى الحلقة ثم يعود إلى الوسط. وقد تضاربا حتى بقيا كعمود الدم، فطال الأمر بينهما والبسكند يستعجلهما وهو يقول بالعجلة. ونفع الحدّادَ إدمانُه بضرب المطرقة، وأعيى ذلك الشيخ فضربه الحدّاد فوقع ووقعت عصاه

(1) «كتاب الاعتبار»، بالنص العربي، ص ١٣٨. (المترجم).

تحت ظهره. فبرك عليه الحدّاد يداخل أصابعه في عينيه ولا يتمكّن من كثرة الدم من عينيه. ثم قام عنه وضرب رأسه بالعصا حتى قتله. فطرحوا في رقبته في الوقت حبلاً وجرّوه وشنقوه (. . .) وهذا من جملة فقههم وحُكمهم»[1].

وليس ما هو طبيعي أكثر من هذا الاستنكار الصادر عن الأمير لأن العدالة أمر خطير في نظر العرب الذين كانوا يعيشون في القرن الثاني عشر (الميلادي). فالقضاة أشخاص محترمون أسمى الاحترام، وهم مضطرون قبل إصدار حكمهم أن يتّبعوا إجراءً محدّداً ينصّ عليه القرآن: تحقيق ودفاع وبيّنات. ويبدو لهم «حكم الله» الذي غالباً ما يلجأ إليه الغربيّون وكأنه مهزلة جنائزية. وليست تلك المبارزة التي وصفها المؤرّخ سوى شكل من أشكال المحاكمة بالتعذيب. ومحنة النار شكل آخر من الأشكال. وهناك أيضاً التعذيب بالماء الذي اكتشفه أسامه فأثار استفظاعه:

«جلّسوا بتّية عظيمة وملأوها ماء (. .) وكتّفوا ذلك المتّهم وربطوا في كتافه حبلاً ورموه في البتّية. فإن كان بَرِيّاً [بريئاً] غاص في الماء فرفعوه بذلك الحبل لا يموت في الماء، وإن كان له الذنب ما يغوص في الماء. فحرص ذلك لّما رموه في الماء أن يغوص فما قدر فوجب عليه حكمهم لعنهم الله، فكحلوه [أي أطفأوا نور عينيه بقضيب من فضة محمّى بالنار]»[2].

ولا يتبدّل رأي الأمير قطّ في «البرابرة» عندما يتحدّث عن معارفهم. فالفرنج في القرن الثاني عشر (الميلادي) متأخّرون جدّاً عن العرب في جميع الميادين العلمية والتقنية. ولكنّ البَوْنَ أوسعُ ما يكون بين الشرق المتقدّم والغرب البدائي في ميدان الطب. ويلاحظ أسامة الفرق فيقول:

(١) نفسه، ص ١٣٨/ ١٣٩. (المترجم).
(٢) «كتاب الاعتبار»، بالنص العربي، ص ١٣٩/ ١٤٠. (المترجم).

«ومن عجيب طبّهم أن صاحب المنيطرة [في جبل لبنان] كتب إلى عمي [سلطان أمير شيزر] يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه. فأرسل إليه طبيباً نصرانياً يقال له ثابت. فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له «ما أسرع ما داويت المرضى!» قال «أحضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دمّلة وامرأة قد لحقها نشاف. فعملت للفارس لُبَيْخَةً ففتحت الدمّلة وصلحت. وحَمَّيْتُ المرأةَ ورطّبتُ مزاجها. فجاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم «هذا ما يعرف شيئاً يداويهم»، وقال للفارس «أيّما أحبُّ إليك، تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟» قال «أعيش برجل واحدة» قال «أحضروا لي فارساً قويّاً وفأساً قاطعة»، فحضر الفارس والفأس وأنا حاضر، فحطّ ساقه على قرمة خشب وقال للفارس «اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة واقطعها»، فضربه وأنا أراه ضربة واحدة ما انقطعت. ضربه ضربة ثانية فسال مخّ الساق ومات من ساعته. وأبصر المرأة فقال «هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها، احلقوا شعرها» فحلقوه، وعادت تأكل من مآكلهم الثوم والخردل فزاد بها النشاف. فقال «الشيطان قد دخل في رأسها»، فأخذ الموسى وشقّ رأسها صليباً وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكّه بالملح، فماتت في وقتها. فقلت لهم «بقي لكم إليّ حاجة»؟ قالوا «لا»، فجئت وقد تعلّمت من طبّهم ما لم أكن أعرفه»[1].

وإذا كان أسامة يستنكر جهل الغربيين فإن استنكاره أخلاقَهم وعاداتهم أشدُّ وأقطع، فاسمعه يقول:

«وليس عندهم شيء من النخوة والغَيْرة. يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدّث معها والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث. فإذا طوّلت عليه خلّاها مع المتحدّث ومضى»[2]. والأمير منزعج: «فانظروا إلى هذا الاختلاف

(١) «كتاب الاعتبار»، بالنص العربي، ص ١٣٣

(٢) نفسه، ص ١٣٥. (المترجم)،

العظيم: ما فيهم غَـيْرة ولا نخوة وفيهم الشجـاعة العـظيمة. ومـا تكون الشجاعة إلا من النخوة والأنفة من سوء الأُحْدُوثة»(١).

وبقدر ما يزداد أسامة معرفة بالغربيين تزداد فكرتـه عنهم سوءاً. فهـو لا يقدّر فيهم سوى الصفات الحربية. وعندها نفهم أنّه حين عَرّض عليه واحـدٌ اصطفـاه «صديقـاً» من بينهم، وهـو فـارس كـان في عسكـر المَلِك فُلْك، أن يُنْفِذ معه ابنَه الفتيَّ إلى أوروبا ليتعلّم الفروسية كـان ما دار في خلده أنه لو أُسر ابنه «ما بلغ به الأسر أكثر من رواحه إلى بلاد الفرنج»(٢) وللأخوّة مع هؤلاء الغربـاء حدود. ومن جهـة أخرى فـإنّ هذا التعـاون الرائع بين دمشق والقدس الذي أتاح لأسامة فرصةً غـيرَ متوقعـةٍ للتعرّف إلى الغربيين عن كَثَب لن تلبث أن تبدو وكأنها فاصل قصير. فسرعان ما سيُطلِق حادثٌ جللٌ نـارَ الحرب الكـاويـة عـلى المحتلّ: في يـوم السبت الثالث والعشرين من أيلول/سبتمبر ١١٤٤ م وقعت مدينة الرُّها عاصمة أقدم الدويلات الفرنجية الأربع في الشرق في قبضة الأتابـك عماد الـدين زنكي.

وإذا كـان سقوط القـدس في تموز/يـولية ١٠٩٩ م قـد حـدّد وصـول الغزو الفرنجي إلى هدفه، وسقوط صور في تموز/يولية ١١٢٤ م قد أنهى مرحلة الاحتلال، فـإنّ استعادة الـرُّها ستبقى عـلى مدى التـاريخ بمثـابة تتويج للهجوم العربي المضادّ على الغُزاة وبداية مسيرة طويلة إلى النصر.

لم يكن أحد يتوقّـع أن يُعاد النـظر في الاحتلال بهـذا الشكل البـاهر. وإذا كان صحيحاً أن الرُّها لم تكن سوى موقع أمامي للوجود الفـرنجي فـإن قـامصتهـا كانـوا قد نجحـوا في الاندمـاج كلّياً في اللعبـة السياسيـة المحليـة، وآخر صـاحـب غربي لهـذه المدينـة ذات الغالبيـة الأرمنيـة كـان جـوسلين الثاني، وهـو رجل مُلْتَح، قصـير القـامـة، عـظيم الأنـف، جاحظ العينين، غير متناسق الجسـدِ ما بـرز يومـاً لشجاعتـه أو لحكمته.

(١) نفسه، ص ١٣٧. (المترجم).
(٢) نفسه، ص ١٣٢. (المترجم).

ولكنّ رعاياه، لم يكونوا يكرهونه، ولا سيّما أنّه من أمّ أرمنية، وأن ملكيته لم تكن قط لتبدو ذات أهمّية. وكان يتبادل مع جيرانه غارات تقليدية كانت تنتهي عادة بهدنات.

بيد أن الحال تبدّلت فجأة في ذلك الربيع من عام ١١٤٤ م. فقد وضع زنكي بمناورة عسكرية ماهرة حدّاً لنصف قرن من الهيمنة االفرنجية في هذا القسم من الشرق منتصراً نصراً سوف يهزّ النافِذين وعامّة الناس من فارس إلى بلاد الـ «ألمان» البعيدة، ممهّداً السبيل لغزو جديد بقيادة أكبر ملوك الفرنج.

وأكثر الروايات تحريكاً للمشاعر عن فتح الرُّها هي التي تركها لنا شاهد عيان هو الكاهن الشامي أبو الفرج باسيل الذي شاءت الظروف أن يكون على اتصال مباشر بالأحداث. ويصوّر موقفه في أثناء المعركة تصويراً صادقاً مأساة الطوائف المسيحية الشرقية التي ينتمي إليها. فإذ هوجمت مدينة أبي الفرج فقد شارك بقوّة في الدفاع عنها، ولكنّ عواطفه كانت في الوقت نفسه مع الجيش الإسلامي أكثر ممّا كانت مع «حُماته» الغربيّين الذين لا يكنّ لهم كبير تقدير. قال أبو الفرج:

«خرج القُمْص جوسلين للنهب على ضفاف الفرات فعلم زنكي ذلك، وفي ٣٠ تشرين الثاني/نوفمبر كان عند أسوار الرُّها. وكان معه عساكر كثيرة بعدد النجوم ملأوا الأرض المحيطة بالمدينة. ونُصبت الخيام في كلّ مكان، وأقام الأتابك خيمته شمالي المدينة مقابل باب الساعات على تلّة مشرفة على كنيسة المرشدين».

وعلى الرّغم من أنّ الرُّها كانت قائمة في وادٍ فإنّها كانت منيعة لأنّ سورها المثلّث الشكل كان متداخلاً في التلال المجاورة. ولكنّ جوسلين لم يكن قد ترك فيها ـ كما يقول أبو الفرج ـ أي عسكر. فلم يكن فيها سوى الإسكافيين والحائكين وتجّار المنسوجات الحريرية والخيّاطين والكهنة. وهكذا كان على الكاهن الفرنجي أن يؤمّن الدفاع يساعده

أسقف أرمني والمؤرّخُ نفسه، مع أنّه كان يحبّذ إجراء تسوية مع الأتابك، فهو يقول:

كان زنكي يوجّه على الدوام إلى المحاصَرين عروض سلام قائلاً لهم: «الويل لكم، ترون أنّه لا أمل يُرجى. ماذا تريدون؟ ماذا تنتظرون؟ ارحموا أنفسكم وأولادكم ونساءكم ومنازلكم! اعملوا على ألّا تخرب مدينتكم وتفرغ من أهلها!» ولكنْ لم يكن في المدينة رئيس قادر على فرض إرادته، فكان يُرَدُّ على زنكي بالمفاخرات والشتائم».

وإذ رأى أبو الفرج النقّابين وقد بدأوا ينقبون في الأسوار فقد اقترح أن تُكتب رسالةٌ إلى زنكي تُعَرض عليه فيها هدنةٌ فوافق الكاهن الفرنجي على ذلك. «وكُتبت الرسالةُ وتُليت على الناس، ولكنّ رجلاً قصير النظر، تاجر منسوجات حريرية، مدّ يده وانتزع الرسالة ومزّقها». مع أن زنكي لم يفتأ يردّد: «إذا رغبتم في هدنة مدُّتها بضعةُ أيام منحناكم إياها لنرى ما إذا كنتم تحصلون على معونة. فإن لم تحصلوا عليها استسلموا وأبقوا على حياتكم!».

ولكنّ أيّة نجدة لم تصل. فعلى الرغم من إنذار جوسلين في وقت مبكر بالهجوم على عاصمته فإنّه لم يكن ليجرؤ على قياس نفسه إلى قوّات الأتابك. وقد آثر البقاء في تلّ باشر بانتظار أن تأتي لمساعدته عساكر من أنطاكية أو من القدس.

«كان الأتراك قد انتزعوا في هذا الوقت أسس السور الشمالي ووضعوا مكانها حطباً وعوارض خشبية وجذوع أشجار بكمّيات كبيرة. وكانوا قد ملأوا الفَجَوات بالنفط والدهن والكبريت لتسهيل اشتعال الحريق فينهار السور. وعندها أضرموا النار بأمر من زنكي. ونادى منادو معسكره بالاستعداد للمعركة، داعين الجنود إلى الدخول من الفرجة ما إن يسقط السور واعدين إيّاهم بإسلام المدينة للنهب مدّة ثلاثة أيام. وشبّت النار في النفط والكبريت وأشعلت الخشب والدهن الذائب. وهبّت الريح من

الشمال حاملة الدخان نحو المدافعين. وعلى الرغم من متانة السور فإنه ترنّح ثم انهار. وبعد أن فقد الأتراك عدداً كبيراً من مقاتليهم على الهدم دخلوا المدينة وشرعوا يذبحون الناس من دون تمييز. ومات في ذلك اليوم زُهاء ستة آلاف نسمة. واندفعت النساء والأولاد والفتيان والفتيات إلى القلعة العليا هرباً من المجزرة فوجدوا بابها مغلقاً نتيجة خطأ الكاهن الفرنجي الذي كان قد قال للحرس: «إن لم تروا وجهي فلا تفتحوا الباب!» وهكذا توالى صعود الجماعات واحدة تلو الأخرى وهم يتدافعون ويدوس بعضهم بعضاً. وإنه لمشهد يدعو للرثاء والرعب: مات موتاً فظيعاً حوالي خمسة آلاف شخص، وربما أكثر، وقد ديسوا أو اختنقوا بعد أن غَدَوْا وكأنّهم كتلة واحدة متراصّة.

بيد أن زنكي هو الذي سيتدخّل شخصياً لوقف المذبحة قبل أن يوفد نائبه الرئيسي إلى أبي الفرج ليقول له: «أيها الجليل نريدك أن تُقسم لنا بالصليب والإنجيل على أن تبقى وطائفتك مخلصين لنا. فأنت تعلم جيّداً أن هذه المدينة ظلّت مزدهرة وكأنها إحدى العواصم خلال مئتي السنة التي كان العرب يحكمونها فيها. واليوم وقد مضت خمسون سنة على حكم الفرنجة لها فإنها خراب. إن سيّدنا عماد الدين زنكي مستعدّ كلّ الاستعداد لأن يُحسن معاملتكم، فعيشوا بسلام وكونوا مطمئنين في ظل سلطانه وادعوا له بطول العمر».

ويتابع أبو الفرج قائلاً:

«وأُخْرِج الشاميّون والأرمن من القلعة بالفعل وذهب كلّ منهم إلى بيته من غير أن يتعرّض له أحد بسوء - وبالمقابل صودر من الفرنج كلّ ما كانوا يحملون من ذهب وفضّة وآنية مقدّسة وكؤوس وأطباق وصلبان مزخرفة ومعها كمية من الحُلى. وفُرز الكهنة والنبلاء والوجهاء على حدة وجُرّدوا من ملابسهم قبل إرسالهم مكبّلين إلى حلب. وأُخِذ من الباقين الحِرَفيّون الذين احتفظ بهم زنكي أسرى لتشغيل كلّ واحد منهم في حرفته. وأمّا سائر الفرنج، وهم زهاء مئة رجل، فقد أُعدموا».

ما إن عُلم خبر استعادة الرُّها حتى عمّت العزّة العالم العربي. وأخذ الناس ينسبون إلى زنكي أكثر المشاريع طموحاً. وبدأ اللاجئون من فلسطين والمدن الساحلية، وكانوا كُثُراً في محيط الأتابك، يتحدّثون عن استعادة القدس، وهو هدف سرعان ما سيُصبح رمزاً لمناهضة الفرنج.

وسارع الخليفة في إغداق الألقاب الطنّانة على بطل الساعة: الملك المنصور، زين الإسلام، ناصر أمير المؤمنين. ورصّ زنكي بافتخار، شأنه شأن قادة تلك الحقبة، جميع هذه الالقاب التي ترمز إلى قوته. ويعتذر ابن القلانسي في ملاحظة هجائية ذكيّة إلى قرّائه عن أنّه كتب في تاريخه «السلطان فلان» أو «الأمير» أو «الاتابك» من غير أن يضيف ألقابهم الكاملة، لأن هناك منذ القرن العاشر (الميلادي) - كما يقول - تضخّماً في الألقاب الفخرية يجعل نصّه مستحيل القراءة لو أنه شاء ذكرها جميعاً. وإذ يأسف مؤرّخ دمشق بشكل خفيّ على عهد الخلفاء الأوائل الذين كانوا يكتفون باللقب الرائع ببساطته، «أمير المؤمنين»، فإنّه يذكر كثيراً من الأمثلة لإثبات أقواله، ومنها بالتحديد مَثَلُ زنكي. ففي كل مرة يَذْكُر فيها ابن القلانسي الأتابك يُذَكِّر بأنه كان عليه أن يكتب حرفياً:

«الأمير، الاسفهسلار، الكبير، العادل، المؤيَّد، المظفَّر، المنصور، الأوحد، عماد الدين، ركن الإسلام، ظهير الأنام، قسيم الدولة، مُعين المِلَّة، جلال الأمّة، شرف الملوك، عُمدة السلاطين، قاهر الكَفَرةِ والمتمّردين، قامع المُلحدين والمُشركين، زعيم جيوش المسلمين، مَلِك الأمراء، شمس المعالي، أمير العراقَيْن والشام، بهلوان جهان ألب غازي إيران، إينانج قتلغ طغرلبك أتابك أبو سعيد زنكي بن آق سُنقر نصير أمير المؤمنين»[1].

وعلاوة على طابع الأبّهة الذي تتّسم به هذه الألقاب التي يضحك منها

---

(١) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ٢٨٤. (المترجم).

مؤرّخ دمشق بلا توقير فإنّها تعكس مع ذلك المكانة المرموقة التي غدا زنكي يتمتّع بها بعد اليوم في العالم العربي. فالفرنج يرتجفون لمجرد ذكر اسمه. وقد تعاظم ذعرهم بموت الملك فُلْك قبل سقوط الرُّها بقليل تاركاً ولدين قاصرين. ولقد بادرت امرأته التي تقوم بولاية العهد إلى إرسال مبعوثين إلى بلاد الفرنج ينقلون إليهم أخبار الكارثة التي حلّت بشعبها. ويقول ابن القلانسي إنّ الفرنج ظهروا «لِقَصْدِ بلاد الإسلام بعد أن نادوا في سائر بلادهم ومعقلهم بالنفير إليها والإسراع نحوها»(٢).

وعاد زنكي بعد انتصاره إلى الشام مُعلِناً أنّه يستعدّ لهجوم واسع النطاق على المدن الرئيسية التي يقبض عليها الفرنج، وكأنّما أراد بذلك توكيد مخاوف الغربيين. واستقبلت مشاريعه بحماسة من قِبَل المدن الشاميّة في البداية. ولكنْ شيئاً فشيئاً أخذ الدمشقيّون يتساءلون عن نيّات الأتابك الحقيقية بعد أن استقرّ في بعلبك، كما كان قد فعل في عام ١١٣٩ م، ليبني فيها عدداً كبيراً من آلات الحِصار. أفلا يكون في نيّته الهجوم على الدمشقيين أنفسهم تحت غطاء الجهاد؟

لن يُعرف ذلك أبداً لأنّ زنكي اضطر في كانون الثاني/يناير ١١٤٦ م، أي في الوقت الذي كانت فيه استعداداته لحملة الربيع قد انتهت على ما يبدو، إلى العودة نحو الشمال. فقد أخبره جواسيسه بمؤامرة حاكها جوسلين في الرُّها مع بعض أصدقائه من الأرمن الذين بقوا في المدينة لقتل الحامية التركية. وقبض الأتابك منذ عودته إلى المدينة المفتوحة على زمام الأمور وأعدم أنصار القُمّص السابق وأسكن في الرُّها ثلاثمئة عائلة يهودية ضُمِن له دعمها الأكيد، وذلك بقصد تقوية الحزب المناهض للفرنج في صفوف الشعب.

وأقنع هذا الانذار زنكي بأنّه من الخير له العدولُ، مؤقتاً على الأقلّ، عن توسيع رقعة ملكه والعمل من جهة أخرى على توطيده. وهناك بصورة

---

(٢) نفسه، ص ٢٩٧. (المترجم).

خاصّة على طريق حلب ـ الموصل الرئيسي أمير عربي يتولّى أمر قلعة جعبر الحصينة على الفرات ويرفض الاعتراف بسلطان الأتابك. وإذ كان من الممكن أن يهدّد عدمُ خضوعِه الاتصالات بين العاصمتين بشكل مسيء فقد جاء زنكي يحاصر جعبر في حزيران/يونية ١١٤٦ م. وكان يأمل في الاستيلاء عليها في بضعة أيام، ولكنْ تكشّف أن العملية أصعب مّما كان متوقّعاً. فقد مضت ثلاثة أشهر من غير أن تضعف مقاومة المحاصَرين.

وذات ليلة من أيلول/سبتمبر نام الأتابك بعد أن جرع كميّة كبيرة من الكحول. وفجأة استيقظ على صوت حركة في خيمته. وإذ فتح عينيه فقد رأى أحد أخصيائه، واسمه يرنكاش، وهو من أصل فرنجي، يشربُ الخمر في قدحه الخاص، الأمر الذي أثار حفيظة الأتابك وجعله يُقسم أنّه سيعاقبه عقاباً صارماً في اليوم التالي. وإذ خشي يرنكاش صواعق سيّده فقد انتظر أن يعاوده النوم فأثخنه بطعنات من خنجره وفرّ إلى جعبر حيث انهالت عليه الهدايا.

ولم يمت زنكي على الفور. وبينما كان مسجّى في شبه غيبوبة دخل خيمته أحد خواصّه. وسوف ينقل ابن الأثير شهادته فيقول:

«فحين رآني ظنّ أني أريد قتله فأشار إليّ بإصبعه السبّابة يستعطفني. فوقعت من هيبته فقلت «يا مولاي من فعل هذا؟» فلم يقدر على الكلام وفاضت نفسه رحمه الله»[1].

ولسوف يهزّ المعاصرين مقتلُ زنكي المُفْجِع الذي تمّ بعد زمن يسير من انتصاره. وينقل إلينا ابن القلانسي تعليقاً شعرياً على الحدث هو:

«وأضحى على ظهرِ الفراشِ مُجدَّلاً صريعاً تولّى ذَبْحَهُ فيه خادِمُهْ
«وقد كان في الجيشِ اللُّهام مَبيتُهُ ومِنْ حولِهِ أبطالُه وصوارِمُهْ
«فأودى ولم ينفعْهُ مالٌ وقُدرةٌ ولا عَنْهُ رامتْ للقضاءِ مَخاذِمُهْ

---

(١) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٩، ص ١٣. (المترجم).

«وأضحتْ بيوتُ المالِ نُهْبى لغيرِهِ يُمزّقها أبناؤه ومظالِمُهْ
«فلمّا تولّى قامَ كلُّ مُخالِفٍ وشامَ حُساماً لم يُجُدْ وهو شائِمُهْ»[1]

والحق أنه منذ اللحظة التي مات فيها دبّ الفساد والتناهش. فقد تحوّل جنوده الذين كانوا من قبلُ في غاية الانضباط إلى عصابة من النهّابين الذين لا سبيل إلى كبح جماحهم. واختفت أمواله وأسلحته وحتى أشياؤه الخاصة في طرفة عين. ثم أخذ جيشه في التشتّت. فقد جمع الأمراءُ واحداً بعدَ واحدٍ رجالَهم ومضوا مسرعين يحتلّون بعض الحصون أو ينتظرون في دعة تتمّة الأحداث.

وعندما بلغ معينَ الدين أُنر موتُ خصمه غادر دمشق فوراً على رأس عساكره واستولى على بعلبك مستعيداً في بضعة أسابيع سلطانه على أواسط الشام بأسرها. وعاد ريمون صاحب أنطاكية إلى تقليدٍ كان قد بدا أنه نُسي فأغار غارة وصل بها إلى أسوار حلب. وشرع جوسلين يناور جهده لاستعادة الرُّها.

وبدا أن ملحمة الدولة القويّة التي أسّسها زنكي قد بلغت نهايتها. والواقع أنّها كانت قد بدأت لساعتها.

---

(1) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ٢٨٧. (المترجم).

القسم الرابع

النصر (١١٤٦ ـ ١١٨٧ م)

«اللهم آتِ النصر للإسلام لا لمحمود، فَمَنِ الكلب محمود ليستحقّ النصر؟»

نور الدين محمود

موحِّد الشرق العربي

(١١١٧ ـ ١١٧٤ م)

الفصل الثامن

نور الدين الملك الورع

بينما كانت البلبلة تسود معسكر زنكي ظلّ رجل واحد رابط الجأش. إنه في التاسعة والعشرين من العمر طويل القامة، أسمر اللون، حليق الوجه ما عدا عند الذقن، عريض الجبين، عذب النظرات وادِعُها. وقد اقترب من جثمان الأتابك الذي كان لا يزال فاتراً وأمسك بيده وهو يرتجف وسحب منه خاتمه رمز السلطة ووضعه في إصبعه هو. إنّه نور الدين، وهو ابن زنكي الثاني. ولسوف يذكر ابن الأثير بحقّ من صفات هذا الأمير ما يُشعِر بأنه يُضمِر له إجلالاً يقارب التقديس فيقول: «وقد طالعت سِيَر الملوك المتقدِّمين فلم أرَ فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسَن من سيرته ولا أكثرَ تحرّياً منه للعدل»[1]. وإذا كان الابن قد ورث خصالاً حميدة من أبيه ـ التقشّف والشجاعة وروح الدولة ـ فإنّه لم يحتفظ بأيّ من العيوب التي جعلت الأتابك مَقيتاً في نظر بعض معاصريه. ففيما كان زنكي مخيفاً بشراسته وانعدام الروادع في نفسه استطاع نور الدين منذ وصوله إلى مسرح الأحداث أن يقدِّم عن نفسه صورة رجل ورع محتشم عادل محترم لما يقطع من عهود منصرف بكلّيته إلى مجاهدة أعداء الإسلام.

والأهمّ من ذلك، وهنا مَكْمن عبقريته، أنّه شهر فضائله سلاحاً

(١) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٩، ص ١٢٥. (المترجم).

سياسياً مرهوباً. وإذ أدرك في هذا النصف من القرن الثاني عشر (الميلادي) الدور الذي لا بديل عنه للتجييش النفساني فقد أنزل إلى الساحة جهازاً دِعائياً حقيقياً. وستكون مهمّة مئات من المستنيرين، أغلبهم من رجال الدين، أن يُكسِبوه تعاطف الشعب الفاعل وأن يُرغموا بذلك قادة العالم العربي على الانضواء تحت لوائه. وينقل ابن الأثير تذمّر أحد أمراء الجزيرة، وكان قد «دُعي» يوماً من قِبَل ابن زنكي للاشتراك في حملة على الفرنج، فيروي على لسانه قوله:

«إن نور الدين قد سلك معي طريقاً إن لم أُنْجده خرج أهلُ بلادي عن طاعتي وأخرجوا البلاد عن يدي، فإنّه قد كاتب زهّادها وعبّادها والمنقطعين عن الدنيا (. . .) يستمدّ منهم الدعاء ويطلب أن يحثّوا المسلمين على الغَزاة، فقد قعد كلّ واحد من أولئك ومعه أصحابه وأتباعه وهم يقرأون كتب نور الدين ويبكون ويلعنونني ويَدْعون عليّ فلا بدّ من المسير إليه»[1].

ومن جهة أخرى فإنّ نور الدين كان يُشرِف بنفسه على جهازه الدِعائي. فكان يوصي بكتابة قصائد ورسائل وكتب ويحرص على نشرها في الوقت المناسب لتُحدِث الأثر المطلوب. والمبادىء التي كان يبشّر بها بسيطة: دين واحد، الإسلام السنّيّ، الأمر الذي يستتبع صراعاً محتدماً مع كل «الهرطقات»؛ دولة واحدة لمحاصرة الفرنج من كل صوب؛ هدف واحد، الجهاد لاستعادة الأراضي المحتلّة، ولا سيما لتحرير القدس. وقد حضّ نور الدين في أثناء الأعوام الثمانية والعشرين التي حكم فيها عدّة علماء على كتابة مقالات في محاسن المدينة المقدّسة، القدس، وكانت تعقد في المساجد والمدارس حلقاتٌ عامّة لقراءتها.

ولا يَغْفَلُ أحدٌ في هذه المناسبات عن الثناء على المجاهد الأعظم والمسلم المترفّع عن الدنايا والمآخذ الذي هو نور الدين. ولكنّ هذا

(١) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٩، ص ٨٦. (المترجم).

التبجيل يغدو أكثر مهارة وتأثيراً عندما يستند بشكل مُباين إلى تواضع ابن زنكي وتقشّفه. وبحسب رواية ابن الأثير:

«ولقد شكت إليه زوجته من الضائقة فأعطاها ثلاث دكاكين في حمص كانت له يحصل له منها في السنة نحو العشرين ديناراً. فلما استقلّتها قال: «ليس لي إلا هذا، وجميع ما بيدي أنا فيه خازن للمسلمين لا أخونُهم فيه ولا أخوض نار جهنّم لأجلك»[1].

وإذ كانت مثل هذه الأحاديث تُبَثُّ بشكل واسع فقد تبيّن أنّها تزعج أمراء المنطقة الذين كانوا يعيشون في البذخ ويستنزفون رعاياهم فينتزعون منهم أدنى ما يقتصدون من أموال. والحقّ أنّ دعاية نور الدين كانت تلحّ باستمرار على عمليّات إلغاء الضرائب التي كان يقوم بها بصورة عامة في البلاد الخاضعة لسلطانه.

وكثيراً ما كان أمراء ابن زنكي أنفسهم ينزعجون منه بمثل ما كان ينزعج منه خصومه. ولسوف يصبح مع الزمن أكثر صرامة فيما يتعلق بتعاليم الدين. فلم يكتفِ بتحريم الخمر على نفسه بل حرّمه تمام التحريم على عساكره، «وحرّم الطبل والزمر وأشياء أخرى يكرهها الله»، كما يؤكد كمال الدين مؤرّخ حلب الذي يضيف قائلاً: «وترك نور الدين كل لباس فخم وارتدى أكسية جافية». وكان طبيعياً ألا يشعر الضباط الأتراك الذين ألغوا الشراب ومظاهر الأبّهة بالراحة مع هذا السيد الذي نادراً ما يبتسم ويفضّل صحبة العلماء المعمّمين على كل صحبة.

وكان يقلّل من أنس الأمراء إلى ابن زنكي أيضاً تلك النزعة فيه إلى الاستنكاف عن لقبه «نور الدين» والاكتفاء باسمه الشخصي «محمود». وكان يدعو الله قبل المعارك فيقول: «اللهم آتِ النصر للإسلام لا لمحمود، فَمَنِ الكلب محمود ليستحقّ النصر»؟ وكانت تلك التدليلات

(١) نفسه، ص ١٢٥. (المترجم).

على التواضع تجذب إليه قلوب المستضعفين والأتقياء، وأمّا الأقوياء فما كانوا ليترددوا في وصمها بالنفاق. ويبدو مع ذلك أنّ قناعاته كانت صادقة، حتى وإنْ كانت صورته الخارجية مركّبة جزئياً. وعلى كل حال فإنّ النتيجة هي التالية: إنّ نور الدين هو الذي سيجعل من العالم العربي قوّة قادرة على سحق الفرنج، ونائبه صلاح الدين هو الذي سيجني ثمار النصر.

* * *

لقد نجح نور الدين عند موت أبيه في فرض نفسه على حلب التي ليست سوى قليل إذا قيست بالمُلْك الشاسع الذي فتحه الأتابك، ولكنّ تواضع ذلك المُلْك الأصلي بالذات هو الذي سيؤمّن له مجد الحكم. وكان زنكي قد أمضى معظم حياته في مقارعة الخلفاء والسلاطين ومختلف الإمارات في العراق والجزيرة. وهي مهمّة منهكة وجاحدة لن يقوم بها ابنه. فقد ترك الموصل وأرباضها لأخيه البكر سيف الدين واطمأنّ بذلك إلى إمكان الاعتماد عند حدوده الشرقية على قوّة صديقة، فانصرف بكلّيته إلى الشؤون الشاميّة.

ولم يكن وَضْعُهُ مع ذلك مريحاً عندما وصل إلى حلب في أيلول/سبتمبر ١١٤٦ م برفقة الرجل الذي يثق به، الأمير الكردي شيركوه عمّ صلاح الدين. فلم يكن الناس يعيشون فقط في ظلّ الخوف من فرسان أنطاكية، بل إنّ نور الدين لم يكن قد وجد الوقت الكافي لبسط سلطانه خارج أسوار عاصمته عندما بلغه في نهاية شهر تشرين الأول/أوكتوبر أنّ جوسلَين قد تمكّن من استعادة الرُّها بمعونة قسم من السكّان الأرمن. ولم يكن الأمر يتعلق بمدينة من المدن شبيهة بكل التي فُقدت منذ موت زنكي: كانت الرُّها رمزَ مَجْدِ الأتابك بالذات، وسوف يُعيد سقوطها النظر في مستقبل الأسرة المالكة. وسرعان ما هبّ نور الدين ضارباً أكباد الخيل تاركاً على جنبات الطرق المطايا التي خارت قواها فوصل إلى الرُّها قبل أن يجد جوسلين الوقت لتنظيم الدفاع عنها.

وعزم القُمْص الذي لم تجعله التجارب السابقة أكثر شجاعة على الفرار عند هبوط الظلام. وقبض على أنصاره الذين حاولوا اللحاق به فمزّق فرسان حلب أوصالهم.

لقد أضفت السرعة التي سُحق بها العصيانُ على ابن زنكي هيبةً كان سلطانه الناشيء بحاجة كبرى إليها. وإذ اتّعظ ريمون صاحب أنطاكية من العِبرة فقد أصبح أقلّ تطلّعاً. وأمّا أُنر فقد بادر إلى عرض يد ابنته على صاحب حلب. ويقول ابن القلانسي:

«وكُتب كتاب العقد في دمشق بمحضر من رُسُل نور الدين (. . .) وشُرع في تحصيل الجهاز، وعند الفراغ منه توجهت الرُسُل عائدةً إلى حلب»[1].

وغدا وضع نور الدين في الشام بعد هذا وطيداً. ولكنّ مؤامرات جوسلين وغارات ريمون المخصّصة للنهب ومكائد الثعلب الدمشقي العجوز سوف تبدو عمّا قريب تافهة إذا قيست بالخطر المرتسم في الأفق.

«تواصلت الأخبار من ناحية القسطنطينية وبلاد الإفرنج والروم وما والاها بظهور ملوك الإفرنج من بلادهم (. . .) لِقَصْدِ بلاد الإسلام بعد (. . .) تخلية بلادهم وأعمالهم خاليةً سافرة من حُماتها (. . .) واستصحبوا من أموالهم وذخائرهم وعُدَدَهم الشيء الكثير الذي لا يُحصى بحيث يُقال إن عِدَّتهم ألف ألف عِنانٍ من الرجّالة والفرسان، وقيل أكثر من ذلك»[2].

كان عُمْر ابن القلانسي عندما كتب هذا خمسة وسبعين عاماً، وهو يذكر ولا ريب أنه كان عليه قبل نصف قرن أن ينقل بعبارات مختلفة قليلاً حَدَثاً من النوع نفسه.

---

(١) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ٢٨٩. (المترجم).
(٢) نفسه، ص ٢٩٧. (المترجم).

والحقّ أنّ الغزو الفرنجي الثاني الذي أثاره سقوط الرُّها يبدو في بداياته وكأنه نسخة جديدة عن الغزو الأوّل. فقد انهال على آسيا الصغرى في خريف عام ١١٤٧ م عددٌ لا يُحصى من الفرسان مخيطٍ على ظهورهم مرّة أخرى قطعٌ من القماش على شكل صلبان. وإذ اجتازوا «دوريله» حيث وقعت الهزيمة التاريخية بقلج أرسلان فقد انتظرهم ابنه مسعود للانتقام بعد خمسين سنة. ولقد نصب لهم عدداً من الكمائن مُوقعاً بهم ضربات فريدة في إصابتها المقاتِل. ويقول ابن القلانسي: «ولم تزل أخبارهم تتواصل بهلاكهم وفَنَاء أعدادهم (. . .) بحيث سكنت النفوس بعض السكون»[1]. ويضيف أنّه مع ذلك يقال إنه بقي «بعدما فني منهم بالقتل والمرض والجوع تقديرُ مئة ألف عِنان»[2]. وبديهيٌّ أنه ينبغي عدم أخذ هذه الأرقام هنا أيضاً على علاّتها. فمؤرّخ دمشق، شأنه شأن معاصريه، لا يملك التفاني في الدّقة، ولا يملك على كل حال أيّة وسيلة للتأكّد من تقديراته. ومع ذلك فإن علينا أنْ نحيّي على الماشي تحفظات ابن القلانسي الكلاميّة حين يضيف «يُقال» في كل مرّة يبدو له فيها العدد عُرضَةً للظنّ. ومع أن ابن الأثير لا يُظهر مثل هذا الهاجس في كلّ مرّة يُقدِّم فيها تفسيره الشخصي لحدث من الأحداث فإنّه يحرص على اختتام أقواله بـ «الله أعلم».

ومهما يكن العدد الصحيح للغزاة الفرنج الجدد فمن المؤكد أنّ قوّاتهم مضافةً إلى قوّات القدس وأنطاكية وطرابلس فيها ما يبعث على القلق في العالم العربي الذي كان يراقب الأحداث بخوف. ويتكرّر سؤال من دون كَلال: أيّة مدينة سيهاجمونها أوّلاً؟ عليهم تبعاً لكل منطق أن يبدأوا بالرُّها. ألم يكن مجيئهم بسبب الانتقام لها؟ ولكنْ في وسعهم أيضاً أن يهاجموا حلب فيوجّهوا ضربة إلى رأس قوّة نور الدين الناشئة فتسقط الرُّها بعد ذلك من تلقاء ذاتها. والحقّ أنّ الأمر لن يكون هذا ولا ذاك. فابن القلانسي يقول إنّه «اختلفت الآراء بينهم (. . .) إلى أن استقرّت الحال

(١) و(٢) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ٢٩٧. (المترجم).

بينهم على منازلة مدينة دمشق وحدّثتهم نفوسهم بملَكتها وتبايعوا ضياعها وجهاتها»[1].

مهاجمة دمشق؟ مهاجمة مدينة معين الدين أُنر المسؤول المسلم الوحيد الذي يملك معاهدة تحالف مع القدس؟ إنه ليس في وسع الفرنج أن يُقدِّموا خيراً من هذه الخدمة إلى المقاومة العربية! وبالعودة إلى الوراء يبدو مع ذلك أن الملوك الأقوياء الذين كانوا يقودون تلك الجيوش الفرنجية كانوا قد رأوا أن غزو مدينة ذات أهمية مثل دمشق يسوّغ وحده انتقالهم إلى الشرق. ويتحدّث المؤرخون العرب بصورة أساسية عن «كونراد» ملك الألمان، ولا يشيرون أدنى إشارة إلى ملك فرنسا لويس السابع، وهو شخص ليس له كبير شأن في الواقع. ويقول ابن القلانسي إنه ما إن علم الأمير معين الدين بمخططات الفرنج حتى «شرع في التأهّب والاستعداد لحربهم ودَفْعِ شرّهم وتحصين ما يُخشى من الجهات وترتيب الرجال في المسالك والمنافذ (. . .) وطَمِّ الآبار وعفّى المناهل»[2].

وفي الرابع والعشرين من تموز/يولية ١١٤٨ م وصلت جيوش الفرنج إلى دمشق تتبعها أرتال حقيقية من الجمال المحمّلة بأمتعتهم. وخرج الدمشقيّون من مدينتهم بالمئات لمواجهة المجتاحين. وكان بينهم فقيه هَرِم من أصل مغربي الفندلاوي. ويقول ابن الأثير:

«فلما رآه معين الدين وهو راجل قصده وسلّم عليه وقال له: «يا شيخ أنت معذور لكبر سنّك ونحن نقوم بالذّبّ عن المسلمين» وسأله أن يعود فلم يفعل وقال له «قد بعتُ [أي نفسي] واشترى [أي الله] منّي» يعني قول الله تعالى «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالهم بين لهم الجنّة» وتقدّم فقاتل الفرنج حتى قُتل»[3].

وتبع هذا الشهيدَ شهيدٌ آخر من الزّهاد، وهو لاجىء فلسطيني يُدعى

---

(١) نفسه، ص ٢٩٨. (المترجم).

(٢) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ٢٩٨. (المترجم).

(٣) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٩، ص ٢٠. (المترجم).

الحلحولي. بيد أنّه على الرغم من هذه الأعمال البطولية ما كان ليمكن وقف تقدّم الفرنج. وقد انتشروا في سهل الغوطة ونصبوا فيه خيامهم، بل إنهم اقتربوا في عدّة أماكن من الأسوار. وفي مساء ذلك اليوم الأوّل من القتال شرع الدمشقيون، وقد خافوا وقوع أسوأ الأمور، يُقيمون المتاريس في الشوارع.

وفي اليوم التالي الواقع في الخامس والعشرين من تموز/يولية، وكان يوم أحد كما يقول ابن القلانسي: «باكروا [أي أهالي دمشق] إليهم [أي الفرنج] ووقع الطراد بينهم (. . .) إلى أن مالت الشمس إلى الغروب وأقبل الليل وطلبت النفوس الراحة وعاد كلّ إلى مكانه. وبات الجند بإزائهم وأهل البلد على أسوارهم للحرس والاحتياط وهم يشاهدون أعداءهم بالقرب منهم»[1].

وصباح يوم الاثنين انتعشت آمال الدمشقيّين وهم يرون قدوم موجات متلاحقة من الخيّالة الأتراك والأكراد والعرب قادمة من الشمال. وإذ كان أُنر قد كاتب جميع أمراء المنطقة طالباً إليهم الأمْداد فقد أخذ هؤلاء يصلون إلى المدينة المحاصَرة. وأُعلن في اليوم التالي عن وصول نور الدين على رأس عسكر حلب وأخيه سيف الدين على رأس عسكر الموصل. ولدى اقترابهم أرسل معين الدين، حسبما يقول ابن الأثير، رسالة إلى الفرنج الغرباء وأخرى إلى فرنج الشام. وقد استخدم مع الأوّلين لغة مبسّطة: «إن ملك المشرق قد حضر فإن رحلتم وإلاّ سلّمت البلد إليه وحينئذٍ تندمون»[2]. واستخدم مع الآخرين، «المُستعمِرين»، لغة مختلفة: «بأيّ عقل تساعدون هؤلاء علينا وأنتم تعلمون أنّهم إنْ ملكوا دمشق أخذوا ما بأيديكم من البلاد الساحلية؟ وأمّا أنا فإنْ رأيت الضعف عن حفظ البلد سلّمته إلى سيف الدين وأنتم تعلمون أنه إن مَلَك دمشق لا يبقى لكم معه مُقام في الشام»[3].

---

(١) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ٢٩٩. (المترجم).

(٢) و(٣) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٩، ص ٢١. (المترجم).

وتمّ نجاح مناورة أُنر على الفور. وإذ توصّل إلى اتفاق سرّي مع الفرنج المحلّيين الذين باشروا بإقناع مَلِك الألمان بالابتعاد عن دمشق قبل وصول الأَمْداد فقد وزّع رشاوى قيّمة لضمان فعالية مكائده الدبلوماسية، وزرع في الوقت نفسه في البساتين المحيطة بعاصمته مئات من القنّاصة فكمنوا وطوّقوا الفرنج. ومنذ مساء الاثنين بدأت الخلافات التي أثارها «التركي» العجوز تفعل فعلها. فما إن عزم الفرنج الذين انهارت معنوياتهم على القيام بتقهقر مخطّط لإعادة تجميع قواهم حتى وجدوا أنفسهم مطوّقين من الدمشقيّين في سهل مكشوف من جميع الجهات ومن دون أيّ مَنْهَلٍ للماء في مُتناوَل أيديهم. وما هي إلا ساعات حتى كان الموقف من الحَرج بحيث لم يَعُدْ ملوكهم يفكرون قطّ في الاستيلاء على العاصمة الشامية، وإنما في إنقاذ عساكرهم وأنفسهم من الفناء. وفي صباح يوم الثلاثاء كانت الجيوش الفرنجية قد تقهقرت باتجاه القدس يلاحقها رجال معين الدين.

ولم يكن الفرنج بالتأكيد كما كانوا من قبل. ولم يَعُدْ تهاون المسؤولين وانقسام القادة العسكريين امتيازَ العرب البائس على ما يبدو. واعترت الدهشة الدمشقيّين: هل يُعقل أن تتشتّت الحملة الفرنجية القويّة التي ارتعد لها الشرق منذ بضعة أشهر في أقلّ من أربعة أيام من القتال وتتفكّك أوصالها؟ يقول ابن القلانسي: «وظَنّ بهم أنهم يعملون مكيدة ويدبّرون حيلة»[1]. ولكنّ شيئاً من ذلك لم يكن. فقد انتهى الغزو الفرنجي الجديد إلى غير رجعة. ويقول ابن الأثير: «وعاد الفرنج الألمانية إلى بلادهم وهي بزوراء القسطنطينية وكفى الله المؤمنين شرّهم»[2].

ولسوف يُعلي انتصار أُنر المدهش من هيبته ويُنسي شُبُهاته مع الغُزاة. بيد أنّ معين الدين كان يعيش الأيام الأخيرة من حكمه، فقد مات بعد سنة من المعركة. ذلك أنه في يوم من الأيام «أمعن في الأكل لعادة جرت

(١) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ٢٩٩. (المرجم).
(٢) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٩، ص ٢١. (المترجم).

لـه فلحقه عقيب ذلـك انـطلاقٌ تمـادى بـه (. . .) وتـولّـد معـه المـرض المعروف بجوسنطاريا [dysentérie] وهـو مخوف لا يكـاد يسلم صاحبـه منه»[1]. وعند موته تـولّى السلطة عاهـل المدينـة بالاسم، وهـو أبَق أحد أحفـاد طغتكين، فتى في الـسادسـة عشرة من العمـر محـدود الـذكـاء لن يتمكّن من الطيران بجناحيه أبداً.

ورابـح معـركـة دمشق الحقيقيّ هــو ولا مِـراء نــور الــدين. ففي حزيران/يونية ١١٤٩ م تمكّن من سحق جيش ريمون أمير أنطاكية، وقـد قتله شيركوه عمّ صلاح الدين بيـديه وقـطع رأسه وحمله إلى سيّـده الذي أرسله كما جرت العـادة إلى خليفة بغـداد في علبة من الفضّـة. وإذ أبعد ابن زنكي بذلك كلَّ تهديـد فرنجي عن شمال الشام فقـد أصبح بعـدئذٍ طليقـاً في تخصيص كل جهـوده لتحقيق حلم أبيه القـديم: غزو دمشق. فلقد فضّلت المدينة في عام ١١٤٠ م أن تُحالِف الفرنج على أن تخضع لنير زنكي الفظّ. ولكنّ الأمـور تغـيّرت، فمعـين الـدين لم يَعُـدْ مـوجـوداً، وسلوك الغربيين قد زعزع أشدَّ أنصارهم تحمّساً، وسمعة نور الدين على الأخصّ لا تشبـه سمعة والـده في شيء. وهو لا يـريد اغتصـاب مـدينـة الأمويين الغرّاء بل إغواءها.

ولدى وصوله على رأس عسـاكره إلى البسـاتين المحيـطة بالمـدينة كـان حرصه عـلى كسب تعاطف النـاس أكثر من اهتـمامه بـالتحضير لهجـوم. ويقـوْل ابن القلانسي إنّ نـور الـدين كـان يجهـد في «إحسـان الـرأي في الفـلاحين والتخفيـف، والـدعاءُ لـه مع ذلـك متواصـلٌ من أهـل دمشق وأعمالها وسائر البلاد وأطرافهـا»[2]. وعندمـا نزلت بعـد قليل من وصـوله أمطار غزيرة إثْرَ انحباس طويل عزا الناس فضل نزولها إليه وقالوا: «هذا ببركته وحُسْنِ مَعْدَلته وسيرته»[3].

---

(١) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي ، ص ٣٠٦. (المترجم).

(٢) نفسه، ص ٣٠٨. (المترجم).

(٣) نفسه، ص ٣٠٩. (المترجم).

وعلى الرغم من أن طبيعة تطلّعات صاحب حلب كانت بديهيّة فإنه رفض الظهور بمظهر الفاتح، وكتب إلى المسؤولين في دمشق يقول:

«إنني ما قصدتُ بنزولي هذا المنزل طالباً لمحاربتكم ولا منازلتكم، وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرةُ شِكاية المسلمين (. . .) بأنّ الفلاحين الذين أُخذتْ أموالُهم وشُتّت نساؤهم وأطفالهم بيد الإفرنج وعدم الناصر لهم لا يَسَعني مع ما أعطاني الله وله الحمد من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال ولا يحلّ لي القعود عنهم والانتصار لهم مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذَّبِّ عنها والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالإفرنج على محاربتي، وبَذْلِكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعيّة ظلماً لهم (. . .) وهذا ما لا يُرضي الله تعالى ولا أحداً من المسلمين»[1].

وتكشف هذه الرسالة عن جماع الذكاء الكامن في استراتيجية صاحب حلب الجديد الذي يُقدّم نفسه مُحامياً عن الدمشقيين، وعن أكثرهم حرماناً وفقراً بصورة خاصّة، ويحاول بوضوح إثارتهم على سادتهم. ولم يكن من أمر الجواب الذي أرسله هؤلاء إلاّ أن قرّب، بسبب فظاظته، أهل البلد من ابن زنكي: «ليس بيننا وبينك إلا السيف، وسيوافينا من الإفرنج ما يُعيننا على دفعك»[2].

وعلى الرغم من التقارب والتعاطف اللذين ضَمِنَهما نورِ الدين لنفسه في صفوف الأهالي فإنه قَبِل بالانسحاب نحو الشمال مفضّلاً عدم مواجهة قوى القدس ودمشق مجتمعة؛ لكنّه لم يفعل إلاّ بعد أن حصل على أن يُذكر اسمه في الخطب في المساجد بعد اسمي الخليفة والسلطان مباشرة، وأن تُسكّ النقود باسمه، وهذه ظاهرةُ تبعيّةٍ كثيراً ما لجأت إليها المدن الإسلامية لتهدئة الفاتحين.

واعتبر نور الدين أن نصف النجاح هذا مشجّع، فعاد بعد سنة

---

(١) و(٢) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنص العربي، ص ٣٠٩. (المترجم).

بعساكره إلى نواحي دمشق مبلّغاً رسالةً جديدة إلى أَبَق وقادة المدينة الآخرين: «أنا ما أوثِر إلاّ صلاحَ المسلمين وجهادَ المشركين وخلاصَ من في أيديهم من الأسارى. فإن ظهرتم معي في عسكر دمشق وتعاضدنا على الجهاد (...) فذلك غاية الإيثار والمراد»[1]. وكان جواب أَبَق الوحيد أن استنجد من جديد بالفرنج الذين حضروا بقيادة المَلِك الشاب بغدوين الثالث ابن فُلْك وأقاموا على أبواب دمشق عدّة أسابيع. حتى إنّه أبيح لفرسانهم أن يتجوّلوا في الأسواق، الأمر الذي لم يلبث أن خلق بعضاً من التوتّر مع أهل المدينة الذين لم يكونوا قد نَسُوا أولادهم الهالكين قبل ثلاثة أعوام.

واستمرّ نور الدين بحذر في تجنّب كل مواجهة مع المتحالفين، وأبعد عساكره عن دمشق منتظراً عودة الفرنج إلى القدس. فالمعركة عنده سياسية قبل أيّ شيء. وتمكنّ، مستغلاً إلى أقصى الدرجات مرارة أهل البلد، من إبلاغ عدّة رسائل إلى المقدَّمين الدمشقيّين ورجال الدين لكي يفضحوا خيانة أَبَق. حتى إنّه اتّصل بكثير من العسكر الذين أغاظهم التعاون الصريح مع الفرنج. لم يكن الأمر يقتصر في نظر ابن زنكي على إثارة الاحتجاجات التي تزعج أَبَق، بل يتعدّاه إلى تنظيم شبكة تواطؤ في المدينة المطموع فيها تسهّل انقياد دمشق إلى التسليم. وقد أسند هذه المهمّة الدقيقة إلى والد صلاح الدين. وفي عام ١١٥٣ م توصّل أيّوب بالفعل بعد عمل تنظيمي بارع إلى ضمان حيادٍ خيِّرٍ تُبديه الميليشيا البلدية التي يقودها شابٌ من إخوة ابن القلانسي. وتبنّى عدّة أشخاص من الجيش الموقف نفسه، الأمر الذي زاد يوماً فيوماً من عُزلة أَبَق. ولم يبق لهذا إلاّ جماعة صغيرة من الأمراء كانوا لا يزالون يشجّعونه على المعاندة. وإذ كان نور الدين قد عزم على التخلّص من هؤلاء المعارضين المقيمين على معارضتهم فقد أبلغ صاحب دمشق أخباراً كاذبة عن مؤامرة تحوكها حاشيته. ومن غير أن يسعى أَبَق إلى التحقّق بعناية من صحّة تلك

(١) نفسه، ص ٣١٣. (المترجم).

الأخبار بادر إلى إعدام كثير من معاونيه وسجن آخرين. وغدت عُزلتُه مذّاك عزلةً تامّة.

وكانت العمليةُ الأخيرةُ اعتراضَ نور الدين المباغت جميعَ قوافل التموين المتوجِّهة إلى دمشق. وارتفع سعر كيس القمح في يومين من نصف دينار إلى خمسة وعشرين ديناراً وبدأ الأهالي يتخوّفون من المجاعة. وبقي على أعوان صاحب حلب إقناع الرأي العام بأنّه ما كانت لتكون أيّة مجاعة لو لم يُؤْثر أَبَق التحالف مع الفرنج على أبناء دينه أهلِ حلب.

وفي الثامن عشر من نيسان/أبريل ١١٥٤ م رجع نور الدين بعساكره إلى دمشق. وأرسل أَبَق مرّة أخرى رسالة عاجلة إلى بغدوين. ولكنّه لن يتسنّى لمِلك القدس أن يصل.

ففي الخامس والعشرين من نيسان/أبريل شُنّ الهجوم الأخير من شرقي المدينة. ويروي مؤرّخ دمشق أن الهجوم حصل «وليس على السور نافخ ضرمة من العسكرية والبلديّة (. . .) غير نفر يسير من الأتراك المستحفَظين لا يُؤْبَهُ لهم (. . .) على أحد الأبراج. وتسرّع بعض الرجّالة إلى السور وعليه امرأة يهودية فأرسلت إليه حبلاً فصعد فيه وحصل على السور ولم يشعر به أحد، وتبعه من تبعه وأطلعوا عَلَماً نصبوه على السور وصاحوا «يا منصور». وامتنع الأجناد والرعيّة من الممانعة لِما هم عليه من المحبّة لنور الدين وعدله وحسن ذكره. وبادر بعض قطّاعي الخشب بفأسه إلى الباب الشرقي فكسر أغلاقه فدخلِ منه العسكر (. . .) وسعوا في الطرقات ولم يقف أحد بين أيديهم. وفُتح باب توما أيضاً ودخل الناس منه. ثم دخل المِلك نور الدين وخواصّه، وسُرَّ كافة الناس من الأجناد والعسكرية لِما هم عليه من الجوع (. . .) والخوف من منازلة الإفرنج الكفّار»[1].

وإذ كان نور الدين كريماً في انتصاره فقد منح أَبَق وخواصّه إقطاعات

(١) «ذيل تاريخ دمشق»، بالنّص العربي، ص ٣٢٧. (المترجم).

في منطقة حمص وتركهم يفرّون بكل ما يملكون من أموال.

ولقد فتح نور الدين دمشق بلا قتال ولا سفك دماء، وبالاقناع أكثر مما بالسلاح. وما كان من المدينة التي وقفت ربع قرن بعناد في وجه جميع الذين حاولوا إخضاعها، سواء في ذلك الحشّاشون والفرنج وزنكي، إلّا أن استكانت إلى الصلابة الناعمة التي أبداها أميرٌ واعدٌ بتأمين سلامتها واحترام استقلالها في آن معاً. ولن تندم على ذلك أبداً، وسوف تعيش بفضله وفضل خلفائه حِقْبَةً من أعظم حِقَب تاريخها.

وجمع نور الدين غداة انتصاره العلماء والقضاة والتّجار وأجرى معهم أحاديث مُطَمْئنة من غير أن يُغْفِل جَلْبَ ذخيرة كبيرة من المؤن، وإلغاء بعض الضرائب اللاحقة بحسبة الفاكهة وسوق الخُضَر وخدمات توزيع الماء. وكُتب منشور بهذا الشأن وقرىء يوم الجمعة التالي على المنبر بعد الصلاة. وكان ابن القلانسي البالغ من العمر يومذاك واحداً وثمانين عاماً حاضراً، وقد ضمّ فرحته إلى فرحة مواطنيه. فاسمعه يقول: «وأَعلنَ الناسُ من الثُّناء [أي المقيمين الأصليّين] والفلاّحين والحرم والمتعيّشين برفع الدعاء إلى الله تعالى بدوام أيّامه ونصره وأعلامه»(١).

ولأول مرّة منذ بدء الحروب الفرنجية تتّحد الحاضرتان الشاميّتان الكبيرتان حلب ودمشق في كنف دولة واحدة بإمرة أمير في السابعة والثلاثين من عمره ثابت العزم على صرف حياته لمجاهدة المتحل.. والحقّ أن جميع بلاد الشام الإسلامية غدت مذّاك موحّدة باستثناء إمارة شيزر الصغيرة التي تمكّنتْ أسرة آل منقذ الحاكمة من الاحتفاظ فيها باستقلال ذاتيّ. بيد أن ذلك لم يدم طويلاً لأن تاريخ هذه الدويلة منذور للانقطاع بأكثر الطرق فجاءةً وأقلّها توقّعاً.

ففي شهر آب/أغسطس ١١٥٧ م، وبينما كانت تسري شائعات في دمشق تبشّر بحملة قريبة لنور الدين على القدس خرّبت زلزلة نادراً ما

---

(١) نفسه، ص ٣٢٩. (المترجم).

عُرف مثلها بلاد الشام بأسرها زارعة الموت في صفوف العرب والفرنج على السواء. ففي حلب سقطت من السور عدّة أبراج وتشتّت أهلها المذعورون في الأرياف المجاورة. وفي حرّان انشقّت الأرض وظهرت من الفرجة إلى السطح آثار مدينة قديمة. وتعذّر إحصاء القتلى والمباني المدمَّرة في طرابلس وبيروت وصور وحمص والمعرّة.

بيد أن ضرر الهزّة كان أكبر في مدينتي حماة وشيرز ممّا كان في المدن الأخرى. ويُقال إن معلّماً من حماة خرج لقضاء حاجة في أرض خلاء فوجد عند رجوعه مدرسته مدمَّرة وجميع تلاميذه موتى. وجلس على الأنقاض مضعضعاً متسائلاً كيف سينقل الخبر إلى ذويهم، ولكنّ أحداً من هؤلاء لم ينجُ فيأتي للمطالبة بولده.

وفي اليوم نفسه كان عاهل شيرز الأمير محمد بن سلطان ابن عم اسامة يحتفل في القلعة بختان ابنه. وكان وجهاء المدينة وأفراد الأسرة الحاكمة كلهم مجتمعين فيها عندما زلزلت الأرض زلزالها وانهارت الأسوار فقضت على جميع الحاضرين. وهكذا لم يَعُدْ لإمارة آل منقذ وجود. وأسامة الذي كان يومها في دمشق هو من النادرين الذين بقوا على قيد الحياة من أفراد أسرته. ولقد كتب تحت وطأة التأثّر يقول: «لم يتقدّم الموت رويداً رويداً فيغتال أفراد أسرتي ثُناء ثُناء أو واحداً واحداً بل ماتوا جميعاً في طرفة عين وأصبحت قصورهم قبورهم». ثم إنه قال بعد أن ثاب إلى رشده: «لم تضرب الزلازل هذا البلد المأهول باللامبالين إلا لايقاظه من خموله»[1].

ولسوف توحي مأساة آل منقذ في الواقع إلى المعاصرين بكثير من

(١) يبدو أن أسامة قال هذا شعراً في قصيدة طويلة لم اعثر على نصها الكامل، وقد أورد بعض أبياتها محقق «كتاب الاعتبار» الدكتور فيليب حتي (مقدمة المحرر ص «ض»)، ومنها قوله:

بادوا جميعاً وما شادوا فواعجبا ... للخطب أهلَكَ عُمّاراً وعُمرانا
هذي قصورُهمُ امستْ قبورَهمُ ... كذاكَ كانوا بها من قَبْلُ سُكّانا

(المترجم)

التأمّلات في تفاهة الأشياء الخاصّة بالبشر، ولكنْ سيكون الزلزال بشكل أشد تفاهة فرصةً في نظر بعضهم لكي يغزوا أو ينهبوا، بلا جهد، مدينة منكوبة أو قلعة سقطت أسوارها. وما لبثت شيزر بصورة خاصّة أن هاجمها الحشّاشون والفرنج على حدٍّ سواء قبل أن يستولي عليها جيش حلب.

وبينما كان نور الدين في شهر تشرين الأول/أكتوبر ١١٥٧م ينتقّل من مدينة إلى أخرى مُشْرِفاً على إصلاح الأسوار انتابه المرض. وبدا الطبيب الدمشقي ابن الوَقّار الذي كان يرافقه في تنقلّاته متشائماً. وظلّ الأمير سنة ونصف السنة بين الحياة والموت، الأمر الذي استغلّه الفرنج لاحتلال بعض القلاع ونهب نواحي دمشق. بيد أن نور الدين استفاد من هذا الوقت الذي لم يكن يمارس فيه أيَّ عمل للتفكير في مصيره. فلقد استطاع خلال الجزء الأول من حكمه أن يوحّد بلاد الشام الإسلامية تحت رايته، وأن يضع حدّاً للصراعات التي كانت تضعفها. وينبغي الجهاد من الآن فصاعداً لاستعادة المدن الكبيرة التي يحتلّها الفرنج. وقد أشار عليه بعض خواصّه، ولا سيّما الحلبيين، أن يبدأ بأنطاكية، ولكنّه ـ وبالشدّة دهشتهم ـ لم يوافق. وشرح لهم أن هذه المدينة تخصّ تاريخياً الروم. وكل محاولة للاستيلاء عليها سوف تحرّض الإمبراطورية على المجيء للتدخّل في الشؤون الشاميّة، الأمر الذي يَضطرّ جيوشَ المسلمين إلى القتال على جبهتين. وأصرّ أن لا، فينبغي عدمُ استفزاز الروم، ومحاولة استعادة إحدى مدن الساحل، أو حتى القدس إذا شاء الله.

ومن سوء طالع نور الدين أن الأحداث ستبرّر مخاوفه بشكل سريع جدّاً. فما كاد يتماثل للشفاء في عام ١١٥٩ م حتى علم أن جيشاً بيزنطياً قوّياً بقيادة الإمبراطور مانويل، خليفةُ جان كومنين وابنُه، قد احتشد شمال الشام. وبادر نور الدين إلى إرسال بعض السفراء إلى الأمبراطور للترحيب بقدومه بشكل لائق. ولمّا استقبلهم القيصر، وهو رجل جليل

حكيم مولَع بالطبّ، أعلن عن نيّته في أن يُقيم مع سيّدهم ما أمكن من علاقات الصداقة المتينة. وأكّد لهم أنه إذا كان قد جاء إلى الشام فإنّما لأمر واحد هو تلقين أصحاب أنطاكية درساً. ويُذكر أن والد مانويل قد جاء قبل اثنتين وعشرين سنة مقدِّماً نفس الأسباب، وأنّ ذلك لم يمنعه من التحالف مع الغربيّين على المسلمين. ومع ذلك لم يشكّ سفراء نور الدين في كلمة القيصر. فهم يعرفون مدى سُخط الروم في كلّ مرّة يُذكر فيها اسم رينو دو شاتيّون، هذا الفارس الذي يتحكّم منذ عام ١١٥٣ م بمصير إمارة أنطاكية، وهو رجل فظّ متغطرس وقح متعالٍ سوف يكون في نظر العرب يوماً رمزَ كلّ شرور الفرنج، وسيُقسم صلاح الدين أن يقتله بيديه بالذات!

لقد وصل الأمير رينو ـ وهو عند المؤرّخين العرب «البرنس أرناط» ـ إلى الشرق في عام ١١٤٧ م بعقلية الغُزاة الأوائل التي كان قد عفّى عليها الزمن: متعطّش إلى الذهب والدم والفتح. وبعد موت ريمون صاحب أنطاكية بقليل تمكن من إغواء أرملته ثم الزواج منها ليصبح بذلك سيّد المدينة. وسرعان ما جعلته ابتزازاته مَقيتاً، لا في نظر الحلبيّين وحدهم، بل في نظر الروم ورعاياه أنفسهم أيضاً. وفي عام ١١٥٦ م قرّر محتجّاً برفض مانويل أن يدفع له مبلغاً موعوداً من المال أن ينتقم بغارة تأديبية على جزيرة قبرص البيزنطية، وطلب من بطرك أنطاكية تمويل الحملة. وإذ تمنّع الحَبْر عن الاستجابة فقد ألقاه في السجن وعذّبه ثم طلى جراحه بالعسل وقيّده وتركه في الشمس يوماً كاملاً عُرضةً لهجوم آلاف الحشرات.

وانتهى الأمر بالبطرك إلى فتح صناديقه طبعاً وأبحر الأمير الذي كان قد جمع أسطولاً صغيراً من السفن إلى سواحل الجزيرة المتوسطيّة فسحق حاميتها البيزنطية الصغيرة بلا صعوبة، وترك رجاله عليها؛ ولن يقدّر لقبرص أبداً أن تقوم لها قائمة بعد ما أصابها في ذلك الربيع من عام ١١٥٦ م. فقد أُتلفت من الشمال إلى الجنوب جميع الحقول المزروعة

إتلافاً منظّماً، وذُبحت جميع القُطعان، ونُهبت القصورُ والكنائس والأديرةُ، وهُدِم أو أُحرق كلّ ما لم يكن بالإمكان حَمْلُه. وهُتكت النساء وحُزّت أعناق الشيوخ والأطفال، وأُخذ الأغنياء من الرجال رهائن، وقُطعت رؤوس الفقراء. وقبل أن يذهب رينو مُثقلاً بالأسلاب لم ينس أن يأمر بجمع كل الرهبان والقسس الروم وبجدع أنوفهم قبل إرسالهم مشوّهين إلى القسطنطينية.

وكان على مانويل أن يردّ. ولكنّه بوصفه وريث الأباطرة الرومان لم يكن في وسعه أن يفعل ذلك بضربة عادّية جداً. وإنّ ما يسعى إليه هو إعادة اعتباره بإذلال فارسِ أنطاكية، قاطعِ الطرقِ، عَلَناً. وقرّر رينو الذي يعرف أن أيّة مقاومة عبثٌ في عبث أن يطلب الغُفران منذ علم بمسير الجيش الإمبراطوري إلى بلاد الشام. وإذ كان موهوباً في العبودية بقدر موهبته في الغطرسة فقد مَثَلَ في معسكر مانويل حافي القدمين لابساً ملابس المتسوّلين وانبطح أمام العرش الإمبراطوري.

وكان رُسُل نور الدين حاضرين فرأوا المشهد. وقد رأوا «البرنس أرناط» ممدّداً في الغبار عند قدمي القيصر الذي تابع حديثه مع ضيوفه بِدَعَةٍ وكأنّه لم يلاحظه، وانتظر بضع دقائق قبل أن يتكرّم بنظرة إلى خصمه مُشيراً إليه بترفّعٍ أن ينهض.

وحصل رينو على العفو واستطاع بذلك أن يحتفظ بإمارته، ولكنّ هيبته في شمال الشام سوف تخبو إلى الأبد. وعلى كل حال فقد أسره في العام التالي عسكر حلب خلال عملية نهب كان يقوم بها شمالي المدينة، الأمر الذي كلّفه ست عشرة سنة من الأسر قبل أن يعود إلى الظهور على مسرح الأحداث حيث اختاره القدر لكي يؤدي أكثر الأدوار حقارة.

وأمّا مانويل فإنّ سلطته لن تكفّ عن التزايد منذ اليوم التالي لتلك الحملة. فقد استطاع أن يفرض سلطانه المطلق على إمارة أنطاكية الفرنجية والدول التركية في آسيا الصغرى على حدٍّ سواء مُعيداً بذلك إلى الإمبراطورية دوراً حاسماً في قضايا بلاد الشام. وقد قلب انبعاث القوّة

العسكرية البيزنطية هذا ـ وسيكون آخر انبعاث في التاريخ ـ في إبّانه مُعطياتِ الصراع القائم بين العرب والفرنج. فالخطر المستمرّ الذي يمثّله وجود الروم على حدود نور الدين يمنعه من الانطلاق في عمليّة استعادة الأراضي الشاملة التي كان يرجو القيام بها. وإذ كانت قوّة ابن زنكي تمنع الفرنج في الوقت نفسه من إرادة التوسّع فقد أصبح الوضع في الشام شبه مجمد.

ومع ذلك فإنه لمّا كانت الطاقات العربية والفرنجية المحصورة تسعى إلى الانطلاق دفعة واحدة فقد انتقل ثقل الحرب إلى مسرح عمليات جديد: مصر.

الفصل التاسع

الهجمة على النيل

«التفت عمّي [شيركوه] إليّ فقال لي: تجهّز يا يوسف، فقلت: والله لو أُعطيتُ مُلْك مصر ما سِرْتُ إليها»(1).

إن الرجل الذي يتحدّث هكذا ليس سوى صلاح الدين، وهو يقصّ البدايات التي أقلّ ما يقال فيها إنها خجولة لمغامرة سوف تجعل منه واحداً من أكثر الملوك شهرة وهيبة في التاريخ. ويحترز يوسف بالصدق الرائع الذي يتّسم به حديثه من أن ينسب إلى نفسه فضل الملحمة المصرية. فاسمعه يضيف قائلاً: «فسرتُ معه [أي مع عمّه] ومَلَكَها [أي مصر]، ثم توفّي فملّكني الله تعالى ما لا كنت أطمع في بعضه»(2). والحقّ أنّه وإنْ كان صلاح الدين سرعان ما برز على أنّه المستفيد الأكبر من الحملة على مصر فإنّه لن يؤدّي فيها، ولا حتّى نور الدين الذي فُتحت بلاد النيل باسمه، الدور الرئيسيّ.

وسيكون الأبطال الرئيسيون في هذه الحملة التي دامت من عام ١١٦٣ م إلى عام ١١٦٩ م ثلاثة أشخاص مُذهلين: وزير مصريّ هو شاور الذي ستُغرق مكائده الشيطانية المنطقة بالدم والنار، وملك فرنجيّ هو أموري [مُري كما يعرفه العرب] الذي كانت تسيطر عليه فكرة غزو مصر إلى درجة اجتاح معها تلك البلاد خمس مرّات في ست سنوات، وقائد كرديّ هو شيركوه «الأسد» [لقبه أسد الدين] الذي سيفرض نفسه كواحدٍ من العباقرة العسكريين في زمانه.

---

(1) و(2) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٩، ص ١٠٢. (المترجم).

عندما استولى شاور على الحكم في القاهرة في كانون الأول/ديسمبر ١١٦٢ م فإنّه بلغ شرفاً ومنصباً أمّنا له الأمجاد والأموال، ولكنّه لم يكن ليجهل وجه المِدالية الآخر: واحد فقط من الحكّام الخمسة عشر الذين سبقوه إلى رئاسة مصر خرج حيّاً. وأمّا الآخرون فإنّهم شُنقوا أو قُطعت رؤوسهم أو طُعنوا بالخناجر أو صُلبوا أو سُمّموا أو سحلتهم الجماهير، حسب الظروف. وقد قُتل أحدهم بيد ابنه بالتبنّي، والآخر بيد أبيه نفسه. وكلّ ذلك للقول بأنّه ينبغي ألاّ يُبحث عند هذا الأمير الأسمر الأشيب الفودين عن أيّ أثرٍ من ذمّة. فما إن اعتلى سُدّة الحكم حتى أسرع في قتل سَلَفه وجميع أفراد أسرته واستصفى أموالهم وحليّهم وقصورهم.

ولكنّ عجلة الحظ لا تتوقف عن الدوران: فبعد أقلّ من تسعة أشهر من الحكم قَلَبَ الوزيرَ الجديدَ نفسه أحدُ نوّابه، واسمه ضرغام. وإذ أُنبيء شاور بالخبر قبل فوات الأوان فقد تمكّن من مغادرة مصر سليماً معافى واللجوء إلى الشام حيث سعى إلى كسب دعم نور الدين لاستعادة السلطة. وعلى الرغم من ذكاء ضيف ابن زنكي وحلاوة حديثه فإنّه لم يُعِرْه في البداية إلا أُذناً لاهية. ولكنْ سرعان ما أرغمته الأحداث على تغيير موقفه.

والسبب أن القدس كانت تراقب عن كَثَب على ما يبدو الانقلاب الذي كانت القاهرة مسرحاً له. فمنذ شباط/فبراير ١١٦٢ م أصبح للفرنج مَلِكٌ جديد جامح الطموح: «مري» ابن فُلْك الثاني. وإذ كان واضحاً تأثّر هذا العاهل ذي الأعوام الستة والعشرين بالدعاية التي نشرها نور الدين من حوله فقد حاول أن يُضفي على نفسه صورة الرجل الزاهد الورع المنكبّ على قراءة الكتب الدينية الحريص على العدل. بيد أنّ الشبه ليس إلا ظاهرياً، فالملِك الفرنجي يملك من الإقدام أكثر مما يملك من الحكمة، وعلى الرغم من طول قامته وغزارة شَعْره فإنّه ينقصه الجلال بشكل فريد. وعلاوة على ضيق كتفيه غير الطبيعيّ وطغيان

نوبات من الضحك الطويل الصاخب في كثير من الأحيان إلى درجة إزعاج من حوله فإنّه كان مصاباً بفأفأة لم تكن لتسهل أمر تواصله مع الآخرين. وكانت الفكرة الثابتة التي تحرّك مري - غزو مصر - وملاحقتها بلا كلَلٍ الأمريْن الوحيديْن اللذين يُسبغان عليه شأناً مؤكداً.

والحقّ أن الأمر يبدو مُغرياً. فمنذ استولى الفرسان الغربيّون في عام ١١٥٣ م على عسقلان آخرِ معقل فاطمي في فلسطين، وطريقُ بلاد النيل مفتوحةٌ أمامهم. ومن جهة ثانية فإن الوزراء المتعاقبين المنهمكين في مقاتلة خصومهم أَلِفوا منذ عام ١١٦٠ م دفع جزية سنوية إلى ملوك الفرنج لكي يستنكفوا عن التدخّل في شؤونهم. واستغلّ أموري البلبلة التي سادت بلاد النيل غداة سقوط شاور لاجتياحها مُتذرعاً ببساطة بأنّ المبلغ المتّفق عليه، وهو ستون ألف دينار، لم يُدفع في حينه. وقطع سيناء بمحاذاة ساحل المتوسط وألقى الحصار على مدينة بلبيس الواقعة على أحد فروع النهر، وهو فرع قُدّر له أن يجفّ في العصور التالية. ودهش المدافِعون عن المدينة وضحكوا في الوقت نفسه لرؤية الفرنج يُقيمون آلات حصارهم حول أسوارهم، إذ إنهم كانوا في شهر أيلول/سبتمبر، وقد بدأ النهر بالفيضان. ويكفي أن تكسر السلطات بعض السدود ليجد محاربو الغرب أنفسهم محاطين شيئاً فشيئاً بالمياه: لن يملكوا عندها من الوقت ما يمضونه في غير الهرب والعودة إلى فلسطين. وباءت غزوتهم الأولى بالفشل، بيد أنّه كان لها الفضل في أن تكشف لحلب ودمشق عن نيّات أموري.

وتردّد نور الدين. فإذا لم يكن قطّ راغباً في الانجراف إلى أرض المكائد القاهرية الزلقة، علاوة على أنه، وهو السني المتّقد، يشعر بحذر ظاهر إزاء كل ما يتعلق بالخلافة الفاطمية الشيعية، فإنّه لا يريد كذلك أن تجنح مصر بخيراتها ناحية الفرنج الذين سيصبحون عندها أكبر قوّة في الشرق. ومعلوم أنّ القاهرة لن تثْبت طويلاً في وجه تصميم أموري نظراً للفوضى السائدة فيها. وممّا لا ريب فيه أنْ يروق لشاور تزيينُ الحسنات

الناتجة عن حملة إلى بلاد النيل في نظر مضيفه. وقد وعد لإغرائه إذا تمّت مساعدته على استعادة السلطة بأن يدفع جميع نفقات الحملة ويعترف بالسلطان المطلق عليه لصاحب حلب ودمشق ويرسل إليه كل عام ثلث مداخيل الدولة. ولكنْ على نور الدين أن يعتمد بصورة خاصة على الرجل الذي هو موضع ثقته، شيركوه بالذات، وقد كان هذا مقتنعاً كلّ الاقتناع بفكرة التدخّل المسلّح. بل إنه أظهر من الحماسة إزاء هذا المشروع ما جعل ابن زنكي يأذن له بتنظيم الفِرقة اللازمة للحملة.

ولعلّه من الصعب تصوّرُ شخصين بمثل هذه المتانة من العلاقة، وعلى تلك الدرجة من الاختلاف في الوقت نفسه، كما كان نور الدين وشيركوه. فبينما ازداد ابن زنكي بتقدّم الزمن جلالاً ومهابة وزهداً وحشمة كان عمّ صلاح الدين ضابطاً قصير القامة بديناً أعور محتقن الوجه على الدوام بفعل الشراب والإفراط في الطعام. وكان إذا غضب صاح كالمجنون، وقد يحدث أن يفقد صوابه إلى درجة قتل خصمه. ولكنّ طبعه الجافي لم يكن ليزعج كلّ الناس. فالجنود يعبدون هذا الرجل الذي يعيش بينهم باستمرار ويشاطرهم حساءهم ونكاتهم. وقد أظهر شيركوه في المعارك الكثيرة التي خاضها في بلاد الشام أنه مثال الرجل المعدّ لقيادة الناس، المتحلّي بشجاعة بدنية هائلة، وسوف تكشف حملة مصر عن صفاته الرائعة كمخطِّط حربي، لأن العملية ستكون من أوّلها إلى آخرها مراهنة حقيقية. فلقد كان من السهل نسبياً على الفرنج الوصول إلى بلاد النيل، ولم يكن في طريقهم سوى عقبة واحدة: منبسط سيناء نصف الصحراوي. بيد أنه إذا حمل الفرسان على ظهور الجمال بضع مئات من القرب المملوءة ماء فسوف يجدون أنفسهم بعد ثلاثة أيام على أبواب بلبيس. وأمّا بالنسبة إلى شيركوه فالأمور أقلّ بساطة. فللذهاب من الشام إلى مصر ينبغي المرور بفلسطين والتعرّض لهجمات الفرنج.

وعليه فإن انطلاق الحملة الشاميّة إلى القاهرة في نيسان/أبريل ١١٦٤ م يستلزم إخراجاً حقيقياً. فبينما يقوم جيش نور الدين بعملية

إلهاء لاجتذاب أموري وخيّالته إلى شمالي فلسطين يتّجه شيركوه بصحبة شاور وزهاء ألفي فارس إلى الشرق ويتبع مجرى نهر الاردن على ضفّته الشرقية، عَبْرَ ما سيكون المملكة الاردنية في مستقبل الأيام، ثم ينعطف جنوب البحر الميت نحو الغرب فيقطع النهر ويجري بخيله بأقصى سرعتها باتجاه سيناء. وهناك يتابع ركضه مبتعداً عن الطريق الساحلي لتحاشي لفت الأنظار. وفي الرابع والعشرين من نيسان/أبريل استولى على بلبيس، وهي باب مصر الشرقي، وفي الأوّل من أيّار/مايو عسكر تحت أسوار القاهرة. وإذ بوغت الوزير ضرغام فإنه لم يجد الوقت اللازم لتنظيم المقاومة. وقد تخلّى عنه جميع الناس وقُتل وهو يحاول الفرار وأُلقيت جثته إلى الكلاب الهائمة في الشوارع. وأعيد شاور إلى منصبه رسمياً على يد الخليفة الفاطمي العاضد، وهو فتى في الثالثة عشرة من العمر.

وتمثّل حملة شيركوه الصاعقة نموذجاً للفعالية العسكرية. ولم يكن زهو عمّ صلاح الدين بالقليل أمام فتحه مصرَ بهذه المدّة القصيرة من الزمن، بلا خسائر على الصعيد العمليّ، وتمكّنِه بذلك من تسجيل انتصار على «مري». ولكنْ ما كاد شاور يستعيد الحكم حتى انقلب بشكل مفاجيء عجيب فأنذر شيركوه بترك مصر في أقرب وقت ناسياً الوعود التي قطعها لنور الدين. وإذ ذهل عمّ صلاح الدين لهذا القدر من الجحود فقد جنّ من الغضب وأفهم حليفه القديم أنه عازم على البقاء مهما حدث.

ولّما رأى شاور تصميمه، وكان لا يثق ثقة صادقة بجيشه الخاص، أرسل وفداً إلى القدس طالباً معونة أموري على عسكر الحملة الشاميّة. ولم يَدَعِ الملك الفرنجي فرصة للرجاء، إذ ماذا كان في وسعه أن يرجو، هو الذي كان يبحث عن ذريعة للتدخّل في مصر، خيراً من دعوة إلى الإنجاد صادرةٍ عن صاحب القاهرة بالذات؟ وابتداء من شهر تموز/يولية ١١٦٤ م توغّل الجيش الفرنجي للمرّة الثانية في سيناء. وما هي حتى قرّر شيركوه أن يترك نواحي القاهرة حيث كان يعسكر منذ شهر أيار/مايو

وأن يـذهب فيمترس في بلبيس، وفيهـا أخذ يـدفع أسبوعاً بعـد أسبـوع هجمات أعدائه، ولكنّ وضعه بدا ميئوسـاً منه. ولم يكن في وسـع القائـد الكـردي البعيد جـدّاً عن قواعـده، المحاط بـالفرنـج وحليفهـم الجـديـد شاور، أن يأمل في الصمود طويلاً. ويروي ابن الأثير بعـد عدّة سنـوات أنّ نور الدين عندما رأى سَيْرَ الأحداث في بلبيس عزم على القيـام بهجوم كبـير عـلى الفـرنـج لإرغـامهم عـلى تـرك مصر، وكتب إلى جميـع أمـراء المسلمين يطلب منهم المشاركة في الجهاد، وذهب إلى قلعة حارم الحصينة بالقرب من أنـطاكية فحصرهـا. واجتمع مَنْ بقي من الفـرنج في الشـام لمـواجهته، وبينهم الـبرنس بيمنـد صـاحب أنـطاكيـة والقُمص صـاحب طرابلس. ودارت الدائرة طوال المعـركة عـلى الفرنـج، وقُتل منهم عشرة آلاف، وأُسر جميع قادتهم وبينهم البرنس والقُمْص[1].

وما إن حاز نور الدين النصر حتى أحضر رايات صليبية وبعض شعور شقراء لفرنـج أُبيدوا في المعـركة، ثم وضعهـا جميعاً في كيس عهـد به إلى واحد من أحكم رجاله وقال له: «تذهب من فورك إلى بلبيس وتتدبّر أمر دخولها فتعطي هذه الغنائم إلى شيركوه وتخبره بأن الله منّ علينا بـالنصر؛ ولسـوف يَعرِضهـا عـلى الأسـوار فيلقي منـظرهـا الـرعب في قلوب الكافرين».

والحقّ أن أخبـار الانتصار في حـارم قـد قلبت معـطيـات المعـركـة في مصر. فقد رفعت من معنويات المحاصَرين وفرضت على الفرنج بخاصّة العودة إلى فلسطين. وكـان أن أرغم أَسْرُ بيمند الثـالث الشابّ ـ خليفـة رينو على رأس إمارة أنطاكيـة والمكلّف من أموري الاهتـمام بشؤون مملكة القـدس في غيابـه ـ ومقتلُ رجـاله، مَلِكَ القـدس على إيجـاد تسويـة مع شيركوه. وبعـد بضعة اتصـالات اتّفق الرجـلان على تـرك مصر في وقت واحـد. وفي نهاية تشرين الأول/أوكتـوبر ١١٦٤ م عـاد «مـري» بـاتجـاه فلسطين سالكاً طريق السـاحل، فيما عاد القائد الكرديّ إلى دمشق في أقلّ

(١) انظر تفاصيل ذلك في «الكامل في التاريخ»، ج ٩، ص ٩٩. (المترجم).

من أسبوعين سالكاً الطريق الذي اختاره للمجيء.

لم يكن شيركوه مبتئساً من أنّه استطاع الخروج من بلبيس سليماً مرفوع الرأس، بيد أن المنتصر الأكبر في تلك الأشهر الستة من القتال كان بلا مِراء شاور. فقد استخدم شيركوه للعودة إلى الحكم، ثم أموري لكسر شوكة القائد الكرديّ. وبعدُ فإنهما فرّا كلاهما تاركيْن له السيادة الكاملة على مصر. ولسوف ينصرف خلال سنتين إلى تثبيت حُكمه.

ومع ذلك فإنّ الأمر ما كان ليتمّ بلا قلق على ما سيجدّ من أحداث، لأنه يعرف أن شيركوه لا يمكن أن يغفر له خيانته. ومن جهة أخرى فقد كانت تصله معلومات منتظمة من الشام تقول إن القائد الكرديّ سوف يلحّ على نور الدين للقيام بحملة جديدة على مصر، بيد أن ابن زنكي متحفّظ على ذلك. فالوضع القائم لا يزعجه، والمهمّ إبقاءُ الفرنج بعيدين عن النيل. بيد أن الخروج من الدوّامة كان ولا يزال غير سهل: فإذا كان شاور يخشى أن يقوم شيركوه بحملة جديدة خاطفة فقد عقد مع اموري معاهدة تعاون متبادل، الأمر الذي قاد نور الدين إلى الترخيص لنائبه بتنظيم قوّة تدخّل جديدة إذا تدخّل الفرنج في مصر. واختار شيركوه لحملته أفضل عناصر الجيش، ومن بينهم ابن أخيه يوسف. وأخافت هذه الاستعدادات بدورها الوزير الذي ألحّ على أموري أن يرسل إليه العساكر. وفي أوائل أيام عام ١١٦٧ م استؤنف السبق إلى النيل. وقد وصل المَلِك الفرنجيّ والقائد الكرديّ في وقت واحد تقريباً إلى البلد المطموع فيه، بعد أن سلك كلّ منهما طريقه المعتاد.

وكان شاور والفرنج قد حشدوا قواتهما الحليفة أمام القاهرة في انتظار شيركوه، ولكنّ هذا كان يفضّل أن يعيّن بنفسه كيفيّات اللقاء. وإذ كان يواصل مسيرته الطويلة التي بدأها من حلب فقد دار حول العاصمة المصرية من ناحية الجنوب واجتاز بجيوشه النيل بقوارب صغيرة، ثم اتّجه من غير أن يتوقّف جهة الشمال. ورآه شاور وأموري اللذان كانا ينتظرانه من الشرق يطلع عليهما من الجهة المقابلة. بل فعل أسوأ من ذلك فأقام

غربي القاهرة قرب أهرام الجيزة يفصله عن أعدائه الحاجز الطبيعي الرائع الذي هو النهر. ومن ذلك المعسكر الحصين أرسل رسالة إلى الوزير يقول فيها: العدو الفرنجي في متناول يدنا، وهو منقطع عن قواعده. فلنضمّ قوانا ونستأصل شأفته، فالفرصة سانحة وقد لا تسنح بعدُ أبداً. بيد أن شاور لم يكتفِ بالرفض بل أعدم الرسول وحمل رسالة شيركوه إلى أموري ليثبت له إخلاصه.

وعلى الرغم من هذا العمل فإن الفرنج ما انفكّوا يحذرون حليفهم الذي ما إن تنتفي حاجته إليهم - وهم يعلمون ذلك حق العلم - حتى يخونهم. وقدّروا أن الوقت قد حان لاستغلال وجود شيركوه المهدِّد في الجوار لتوطيد سلطتهم في مصر: لقد طالب أموري أن يُعقد تحالف رسمي موقّع من الخليفة الفاطمي نفسه بين القاهرة والقدس.

وهكذا قصد فارسان يعرفان العربية - ولم يكن هذا الأمر نادراً في صفوف فرنج الشرق - مقرّ الفتى العاضد. وقادهم شاور الذي كان يسعى بوضوح إلى إدهاشهم نحو قصر فخم وافر الزخرف فاجتازوه جرياً محفوفين بثلّة من الحرّاس المسلّحين. ثم اجتاز الموكب ممرّاً طويلاً مقبّباً لا يخترقه ضوء النهار قبل أن يصل إلى عتبة باب ضخم منقوش يُفضي إلى دهليز ثم إلى باب جديد. وبعد أن قطع شاور ومدعوّاه عدّة حُجرات مزينة انتهوا إلى فناء مفروش بالرخام ومحاط بالأعمدة المذهّبة وفي وسطه بركة تبهر الأنظار بأنابيبها الذهبية والفضّية وتحوم حولها طيور من كل الألوان وقد جيء بها من جميع أرجاء أفريقيا. وفي هذا المكان أسلمهم الحرّاس الذين كانوا يرافقونهم إلى الخِصيان الذين يعيشون بقرب الخليفة. وكان عليهم أن يجتازوا من جديد سلسلة من قاعات الاستقبال ثم حديقة ملأى بالوحوش المدجّنة من أسود ودببة وفهود قبل أن يصلوا في نهاية المطاف إلى قصر العاضد.

وما كادوا يُدخَلون إلى حجرة واسعة في صدرها قبّة من الحرير الموشى بالذهب والياقوت والزمرّد حتى سجد شاور ثلاث مرّات وألقى بسيفه إلى

الأرض. وعندها ارتفعت القبّة وظهر الخليفة ملتفّاً بالديباج مغطّى الوجه. واقترب الوزير فجلس عند قدميه وعرض عليه مشروع الحلف مع الفرنج. وبعد أن استمع العاضد - ولم يكن عمره آنذاك سوى ست عشرة سنة - بهدوءٍ إلى مشروع شاور أثنى عليه وعلى سياسته. وما كاد هذا يتهيأ للوقوف حتى طلب الفرنجيان من أمير المؤمنين أن يُقسم على الإخلاص للحلف. وبدا أن مثل هذا الطلب قد أثار استنكار المقدَّمين المحيطين بالعاضد، وحتى الخليفة بدا ممتعضاً فبادر الوزير إلى التدخّل شارحاً لسيّده أن الاتفاق قضيّة حياة أو موت لمصر، مستحلِفاً إياه ألّا يرى في طلب الفرنجيين مظهراً من مظاهر عدم الاحترام وإنما علامة على جهلهم بالتقاليد الشرقية.

وابتسم العاضد على مضض ومد يده المقفّزة بالحرير وأقسم على احترام الحلف. بيد أن أحد المبعوثين استوقفه قائلاً: «ينبغي أن يتمّ القسم واليد عارية لأن القفّاز قد يكون آية على الخيانة في المستقبل». ومن جديد أثار المطلب السُخط والاستنكار. وتهامس المقدَّمون بأن الخليفة أُهين، ودار الحديث عن معاقبة الوقحيْن. ومع ذلك فقد خلع الخليفة قفّازه من غير أن يتخلّى عن هدوئه بناء على تدخّل جديد من شاور، ومدّ يده مكرّراً كلمةً القَسَمَ الذي أملاه عليه ممثّلا «مري».

وما إن انتهت هذه المقابلة الفريدة حتى كان المصريون والفرنج المتحالفون يشرعون في خطّة لاجتياز النيل وإبادة جيش شيركوه الذي كان قد جدّ في السير نحو الجنوب. واندفع فوج من الأعداء بقيادة أموري في أثره. وأراد عمّ صلاح الدين أن يُوهم بأنّه في ضيق شديد. وإذ كان يعلم أن ضعفه الأساسي يكمن في انقطاعه عن قواعده فقد سعى إلى وضع ملاحقيه في الموقف نفسه. وما إن بلغ مسيرة أكثر من أسبوع عن القاهرة حتى أمر عساكره بالتوقّف وأخبرهم في خطاب حماسي أن يوم النصر قد حان.

والحقّ أن المواجهة حدثت في الثامن عشر من آذار/مارس ١١٦٧ م بالقرب من محلّة البابين على الضفة الغربية من النيل. فقد ألقى الجيشان

المنهوكان بسباقهما الذي لا ينتهي بأنفسهما في الغِمار مع التصميم على الانتهاء من الأمر مرةً واحدةً وأخيرة. وعهد شيركوه بقيادة القلب إلى صلاح الدين آمراً إيّاه بالتقهقر ما إن يحمل عليه العدو. وبالفعل فإن أموري وخيّالته اندفعوا نحوه وقد شرعوا جميع راياتهم، وعندما تظاهر صلاح الدين بالفرار جدّوا في اللحاق به من غير أن يفطنوا إلى أن ميمنة الجيش الشامي وميسرته كانا قد قطعا عليهم كل سبيل إلى الانسحاب. وكانت خسائر الفرنج فادحة، ولكنّ أموري تمكّن من النجاة. وعاد باتجاه القاهرة حيث كان معظم جيشه قد صمّموا تصميماً أكيداً على الانتقام بأسرع وقت. وكان يتجهّز بمعاونة شاور للعودة إلى مصر العليا على رأس حملة قوّية عندما بلغه نبأ لا يكاد يصدّق: لقد استولى شيركوه على الإسكندرية أكبر مدن مصر، وهي واقعة في أقصى شمالي البلاد على ساحل المتوسّط!

والواقع أن القائد الكرديّ غير المتوقَّع اجتاز بسرعة فائقة غداة انتصاره في البابين من غير أن ينتظر يوماً واحداً، وقبل أن يجد أعداؤه الوقت لاستعادة أنفاسهم، الأراضي المصرية برّمتها من الجنوب إلى الشمال ودخل الاسكندرية دخول الفاتحين. وقد استقبل أهل الثغر المتوسطيّ الكبير المناهضون للحلف مع الفرنج جماعة الشام استقبال المحرِّرين.

ولما كان شاور وأموري مُجبَرَيْن على اتّباع التوقيع الجهنّمي الذي فرضه شيركوه على هذه الحرب فسوف يذهبان لحصار الاسكندرية. وكانت المؤن في المدينة من القلّة بحيث إنه لم يمرّ شهر واحد حتى بدأ السكان المهدَّدون بالجوع يندمون معها على فتح أبوابهم لعسكر الحملة الشامية. حتى إن الوضع بدا ميئوساً منه يوم جاء أسطول فرنجي ورسا في عُرض الثغر. ومع ذلك لم يسلّم شيركوه بالهزيمة. فقد عهد بقيادة الموقع إلى صلاح الدين وجمع بضع مئات من خيرة فرسانه وقام بخرجة ليلية جريئة. ثم إنه اجتاز وقد أرخى العنان لخيله خطوط الأعداء وواصل

ركضـه ليلَ نهارَ حتى وصل إلى مصر العليا.

وتزايد اشتداد الحصار عـلى الإسكندريـة، وما لبثت أن انضـافت إلى المجـاعة الأوبئـة وقصف يومي بـالمنجنيقات. وكـانت المسؤوليـة فـادحـة للشـابّ ذي التسعة والعشرين عـاماً الـذي كـان صـلاح الـدين. ولكنّ عمليـة الإلهـاء التي قـام بهـا عمّـه لن تلبث أن تؤتي ثـمارهــا. فلم يكن شـيركوه يجهـل أن «مري» عـلى عَجَلَة من أمـر الانتهـاء من هـذه الحملة والعودة إلى مملكته التي يزعجها نور الدين على الدوام. وقـد هدّد القـائد الكرديّ بفتحه جبهةً جديـدةً في الجنوب بـإطالـة عمر الصراع إلى مـا لا نهاية. حتى إنه نظّم في مصر العليا انقلاباً حقيقياً على شاور حامـلاً عدداً كبيراً من الفلاحين المسلّحين على الانضمام إليه هو وشيركوه. وعندما آنس الكفاية اللازمة في عسكره اقترب من القـاهرة وأرسـل إلى أموري رسـالة بارعة التدبيج قـال له فيهـا مواربـة إننا نُضيـع أنا وأنت وقتنـا هنا. وإذا تفضّل الملك بالنظر إلى الأمور نظرة هادئة فسوف يتّضح له أنه بطردي من هذه البلاد يكون قد خدم مصلحة شاور واقتنع أموري بهذا، وسرعان ما توصّل الفريقان إلى اتفاق: رُفع الحصـار عن الإسكندريـة وغادر صـلاح الـدين المـدينـة وسط تحيـة أدّتهـا لـه فـرقـة من حـرس الشرف. وفي آب/أغسـطس ١١٦٧ م عاد كـلّ من الجيشين إلى بـلاده، كما فعـلا قبل ثلاثة أعوام. وإذ سَعِدَ نور الدين باستعادة خيرة أفراد جيشه فقد رجـا ألا ينجّر بعدُ أبداً إلى مثل هذه المغامرات المصرية.

ومع ذلك عاد التسابق بـاتجاه النيـل في العام التـالي وكأنـه مكتوب في لوح القدر. فأموري كـان قد رأى من الخـير وهو يـترك القاهـرة أن يترك فيهـا مفرزة من الفـرسان للسهـر على حسن تـطبيق معاهـدة التحـالف. وكانت إحدى مهامّها تتمثّل بشكل خاصّ في مراقبة أبواب المدينة وحماية الموظفين الفرنج المكلّفين جباية الجزية السنوية التي وعد شاور بدفعها إلى مملكة القدس، ومقدارها مئة ألف دينار. وما كان من شأن هذه الضريبة الباهظة مضافةً إلى وجود تلك القوّة الغريبة الطويل إلا أن يثير حـقـد أهل البلد.

وهاج الرأي العام شيئاً فشيئاً على المحتلّين. وتهامس الناس، حتى في محيط الخليفة، بأن حلفاً مع نور الدين قد يكون أهونَ الشرّين. وأخذت الرسائل بين القاهرة وحلب تروح وتجيء خِفية عن شاور. وإذ لم يكن ابن زنكي على عَجَلَةٍ من أمره فقد اكتفى بمراقبة ردود فعل مِلك القدس.

ولما لم يكن في وسع الفرسان والموظفين الفرنج المقيمين في العاصمة المصرية تجاهل تلك السرعة في تفشّي النقمة عليهم فقد خافوا على أنفسهم وأرسلوا إلى أموري أن يخفّ لنجدتهم. وبدأ الملك يتردّد، فالحكمة تقضي بأن يسحب حاميته من القاهرة ويكتفي بالبقاء في جوار مصر محايدة لا تفكرّ في مهاجمته. بيد أن مزاجه كان يدفعه إلى الهرب إلى أمام. وإذ شجّعه أنه وصل حديثاً إلى الشرق عدد كبير من الفرسان الغربيّين التائقين إلى «تحطيم العرب» فقد قرّر في تشرين الأول/أوكتوبر ١١٦٨ م أن يدفع للمرّة الرابعة بجيشه لمهاجمة مصر.

وبدأت هذه الحملة الجديدة بمذبحة تعادل بشاعتُها عدمَ جدواها. فقد استولى الغربيّون في الواقع على مدينة بلبيس التي ذبحوا بلا سبب سكّانها من الرجال والنساء والاطفال مسلمين ومسيحيين أقباطاً على السواء. وكما سيقول ابن الأثير بحقّ فإنّه لو أحسن الفرنج السيرة في بلبيس لملكوا القاهرة بأيسر ما يمكن لأن أعيان المدينة كانوا مستعدين لتسليمها. ولكنّ الناس لـمّا رأوا المجازر التي ارتُكبت في بلبيس قرّروا الصمود إلى النهاية[1]. وبالفعل فإنّ شاور أمَرَ لدى اقتراب المجتاحين بإحراق مدينة القاهرة القديمة. وصُبّت عشرون ألف جرّة نفط على المخازن والمنازل والقصور والمساجد. وأُجْلي السكّان إلى المدينة الجديدة التي أنشأها الفاطميون في القرن العاشر (الميلادي) وكانت تضمّ بشكل أساسي القصور والإدارات والثكنات وجامعة الأزهر الدينية. وظلت الحرائق مشبوبة مدّة أربعة وخمسين يوماً.

(١) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٩، ص ٩٩. (المترجم).

وفي تلك الأثناء حاول الوزير أن يبقى على اتّصال بأموري لإقناعه بالعدول عن مشروعه الجنوني راجياً أن يتمكّن من ذلك من غير تدخّل جديد من شيركوه. ولكنّ جانبه أخذ يضعف في القاهرة. فقد بادر العاضد بصورة خاصة إلى إرسال كتاب إلى نور الدين يطلب إليه فيه أن يخفّ لإنجاد مصر. ولكي يحرّك العاهل الفاطمي عواطف ابن زنكي فقد أرفق بكتابه خُصَلاً من الشعر قائلاً: «هذه شعور نسائي (...) يستغثن بك لتنقذهنّ من الفرنج»[1].

وقد وصل إلينا ردّ نور الدين على هذه الرسالة المفعمة بالأسى بفضل شهادة نفيسة جدّاً ليست غير شهادة صلاح الدين التي سجّلها ابن الأثير كما يلي:

«لما وردت كتب العاضد على نور الدين (...) أحضرني وأعلمني الحال وقال: «تمضي إلى عمّك أسد الدين بحمص (...) وتحثّه (...) على الإسراع فما يحتمل الأمر التأخير». ففعلت وخرجنا من حلب. فما كنّا على ميل من حلب حتى لقيناه قادماً في هذا المعنى، فَأَمَرَهُ نور الدين بالمسير»[2].

وطلب القائد الكردي عندئذٍ من ابن أخيه أن يرافقه، بيد أن صلاح الدين رفض واسمعه يقول: «لقد قاسيت بالاسكندرية وغيرها ما لا أنساه أبداً. فقال [عمّي] لنور الدين: «لا بدّ من مسيره معي فتأمر به»، فأمرني نور الدين (...) فشكوت إليه الضائقة وعدم البرك، فأعطاني ما تجهّزت به، فكأنما أُساق إلى الموت»[3].

لن يكون بين شيركوه وأموري مواجهات هذه المرّة. فإذ دهش الملِك الفرنجي لعزم القاهريين على تدمير مدينتهم على أن يسلّموها إليه وخاف أن يباغته جيش الشام من خلف فقد عاد إلى فلسطين في الثاني من

---

(١) و(٢) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٩، ص ٩٩. (المترجم).

(٣) نفسه، ص ١٠٢. (المترجم).

كانون الثاني/يناير ١١٦٩ م. وبعد ستة أيام وصل القائد الكرديّ إلى القاهرة حيث استقبله الشعب والوجهاء الفاطميون بوصفه مخلِّصاً. وحتى شاور نفسه بدا مسروراً للأمر. بيد أن أحداً ما كان لينخدع بذلك، فعلى الرغم من أنّه قاتل الفرنج في الأسابيع الأخيرة فإنه يُعتبر صديقهم وعليه أن يدفع الثمن. وقد استدرج منذ الثامن عشر من كانون الثاني/يناير ١١٦٩ م إلى كمين واحتُجز في خيمة ثم قُتل بيد صلاح الدين بالذات بناء على موافقة خطيّة من الخليفة. وفي ذلك اليوم حلّ محلّه شيركوه في منصب الوزارة. وعندما ذهب مرتدياً الحرير الموشّى للإقامة في مقرّ سَلَفه لم يجد حتى طنفسة يجلس عليها، فلقد نُهب كل شيء منذ إعلان موت شاور.

لقد كان على القائد الكرديّ أن يقوم بثلاث حملات ليصبح سيّد مصر الحقيقي. ولكنّها كانت سعادة محسوبة عليه. ففي الثالث والعشرين من آذار/مارس، أي بعد شهرين من انتصاره، انتابه توعّك أليم، إحساس فظيع بالاختناق، بعد وجبة طعام دسمة أقبل عليها بكل جوارحه. وما هي إلا لحظات حتى مات فانتهت بموته ملحمةٌ لتبدأ أخرى سوف يكون صداها أشدّ وأكبر بما لا يُقاس. ويقول ابن الأثير إنه لما مات شيركوه أوحى مستشارو الخليفة العاضد إليه أن يختار يوسف للوزارة لأنه ليس في الجماعة أضعف ولا أصغر سناً منه[1].

وبالفعل استُدعي صلاح الدين إلى قصر الخليفة حيث كان بانتظاره لقبُ «الملِك الناصر» وخُلَعُ الوزارة الفاخرة: عمامة بيضاء موشّاة بالذهب وقباء وثوب مبطّن باللون القرمزي وسيف مرصّع بالأحجار الكريمة وفرس شقراء بسرج ولجام مزخرفين بالذهب ومرصّعين باللآليء وأشياء نفيسة أخرى. ولدى خروجه من القصر توجّه في موكب كبير إلى مقرّ الوزارة.

وما هي إلا أسابيع حتى تمكّن يوسف من فرض نفسه فأقال الموظّفين

(١) انظر تفاصيل ذلك في «الكامل في التاريخ»، ج ٩، ص ١٠٢. (المترجم).

الفاطميين الذين بدا له إخلاصهم مُريباً واستبدل بهم أناساً من أعوانه، وسحق بشدّة تمرّداً في قلب العساكر المصريّة، وصدّ أخيراً في تشرين الأول/أوكتوبر ١١٦٩ م غزوةً فرنجية يُرثى لها، وهي التي قادها أموري الذي كان قد وصل للمرّة الخامسة والأخيرة على أمل الاستيلاء على ميناء دمياط الواقع على دلتا النيل. وكان مانويل كومنين الذي أقلقه أن يرى أحد نوّاب نور الدين على رأس الدولة الفاطمية قد وافق على دعم الفرنج بالأسطول البيزنطي. ولكنْ دون جدوى، فالروم لا يملكون ما يكفي من المؤن، ويرفض حلفاؤهم إعطاءهم شيئاً منها. واستطاع صلاح الدين بعد بضعة أسابيع أن يُجري معهم محادثات لإقناعهم بلا مشقّة بوضع حدّ لعملية كان الإعداد لها في غاية السوء.

ولم يكن من الضروري انتظار نهاية عام ١١٦٩ م ليصبح يوسف سيّد مصر غيرَ مُنازَع. وفي القدس كان «مري» يمنّي نفسه بالتحالف مع ابن أخي شيركوه على عدوّ الفرنج الرئيسي نور الدين. وإذا كان من الممكن أن يبدو تفاؤل الملك مفرطاً فإنه لم يكن بلا أساس. فسرعان ما بدأ صلاح الدين في الواقع يباعد الشُقّة بينه وبين سيّده. ولقد كان يؤكّد له دائماً بالطبع إخلاصه وخضوعه، ولكنّ السلطة الفعلية في مصر ما كان يمكن أن تُمارَس من دمشق أو من حلب.

ولسوف تتّسم العلاقات بين الرجلين في النهاية بحِدَّة مأسوية حقيقية، فعلى الرغم من متانة سلطان يوسف في القاهرة فإنه لم يتجرّأ بالفعل أبداً على مواجهة الرجل الأكبر بشكل مباشر. وحين سيدعوه ابن زنكي للقائه فإنه سوف يتملّص على الدوام، لا خوفاً من السقوط في شَرَك، بل خشية أن يضعف شخصياً إذا وجد نفسه في حضرة سيّده.

وانفجرت أول أزمة خطيرة خلال صيف ١١٧١ م عندما طلب نور الدين من الوزير الشاب إلغاء الخلافة الفاطمية. فما كان في وسع صاحب بلاد الشام وهو المسلم السنّي، أن يقبل باستمرار سلطة روحية لأسرة «هرطوقية» تُمارَس في أرض تابعة له. وعليه فقد أرسل عدّة رسائل بهذا

الشأن إلى صلاح الدين، ولكنّ هذا ظلّ رافضاً لأنه يخشى إيذاء مشاعر الشعب، وجزء كبير منه شيعي، واستعداء الأعيان الفاطميّين. وهو لا يجهل من جهة أخرى أنه يستمدّ سلطته الشرعية كوزير من الخليفة العاضد، ويخشى إذا أسقطة عن العرش أن يفقد هو ما يضمن رسمياً سلطانه في مصر، وأن يعود في هذه الحال مجرّد ممثّل لنور الدين. وعلى كلّ فإنه يرى في إلحاح ابن زنكي عودة إلى نِصاب سياسي أكثر ممّا يرى فيه إخلاصاً دينياً. وفي شهر آب/أغسطس أصبحت مطالبة سيّد الشام بإلغاء الخلافة الشيعية أمراً تهديدياً.

وبدأ صلاح الدين الـمُحْرَج يتّخذ التدابير الكفيلة بمواجهة ردود فعل الشعب العدائية، بل ذهب إلى حدّ تجهيز منشور عام يُعلِن فيه سقوط الخليفة، بيد أنه كان لا يزال متردّداً في إذاعته. فالعاضد على الرغم من سنيه العشرين مريض مرضاً عُضالاً، وصلاح الدين الذي ارتبط بعلاقة صداقة به لا يمكن أن يفكرّ في أن يخون ثقته. وفجأة حدث يوم الجمعة الواقع في العاشر من أيلول/سبتمبر ١١٧١ م أن دخل واحد من أهل الموصل كان في زيارة إلى القاهرة أحدَ المساجد واعتلى المنبر قبل الخطيب ودعا باسم الخليفة العباسي. والغريب أن أحداً لم يَثُرْ، لا على الفور ولا في الأيام التالية. أيكون عميلاً أرسله نور الدين لإحراج صلاح الدين؟ من الممكن أن يكون، بيد أنّه لم يَعُدْ في وسع الوزير على كل حال، ومهما تكن هواجسه، تأجيل قراره. وصدر الأمر بعدم الدعاء للفاطميّين ابتداء من يوم الجمعة الذي يلي. وكان العاضد حينذاك على فراش الموت شبه فاقد الوعي، وقد منع يوسف أيّاً كان من إخباره بالأمر قائلاً لهم: «إن عوفيّ فإنه سيعلم، وإن توفّي فلا ينبغي أن نفجعه». والحقّ أن العاضد لم يلبث أن مات بعدها بقليل من غير أن يعلم النهاية المحزنة التي آلت إليها أسرته.

وكما يمكن التوقّع فإن سقوط الخلافة الشيعيّة بعد حكم دام قرنين وكان مجيداً أحياناً سوف يضع على المحكّ فوراً فرقة الحشّاشين التي

كانت لا تزال تنتظر، كما في أيام حسن الصبّاح، أن يُفيق الفاطميون من سُباتهم لتدشين عصر ذهبي جديد للمذهب الشيعي. وإذ رأى أتباعها حُلمهم وقد ضاع إلى الأبد فإنه سُقط في أيديهم، حتى إن زعيمهم في بلاد الشام رشيد الدين سنان، «شيخ الجبل»، أرسل كتاباً إلى أموري ينبئه فيه بأنه مستعدّ وجميع أنصاره لاعتناق المسيحية. وكان الحشّاشون يومئذٍ يملكون عدة قلاع وقرى في أواسط بلاد الشام وينعمون بحياة وادعة نسبياً. والظاهر أنهم كانوا قد عدلوا منذ سنوات عن العمليات المُذْهِلَة. وكان رشيد الدين لا يزال يملك بالطبع فريقاً سن القَتَلة المدرَّبين تدريباً مُتْقَناً وعدداً من الدُعاة المخلصين، ولكنّ كثيراً من أتباع الفرقة كانوا قد أصبحوا فلاّحين طيّبين مرغَمين غالباً على دفع جزية دورية لفرسان الهيكل.

كان «الشيخ» وهو يَعدِ باعتناق المسيحية يرجو فيما يرجو إعفاء تابعيه من الجزية التي على غير المسيحيين وحدهم دفعها. وكان فرسان الهيكل الذين لا يستخفّون بمصالحهم المالية يراقبون بقلقٍ تلك الاتصالات بين أموري والحشّاشين. وما إن لاح الاتفاق حتى قرروا إحباطه. وذات يوم من عام ١١٧٣م كان مبعوثون من رشيد الدين عائدين من مقابلة مع الملك فنصب لهم فرسان الهيكل شرَكاً وقتلوهم. ومن ذلك اليوم لم يسمع كلامٌ قطرٌ عن إعتناق الحشاشين ديانة المسيحية.

وبِمعزْل عن هذه الحادثة فإنّ لإلغاء الخلافة الفاطمية نتيجةً مهمّة بقدر ما هي غير منتظرة: إضفاء مجْدٍ سياسي على صلاح الدين لم يكن قد حصل عليه حتى ذلك الحين. فنور الدين لم يكن ينتظر بالطبع مثل هذه النتيجة، إذ إنه بدلاً من أن تحوِّل وفاةُ الخليفة صلاحَ الدين إلى مجرّد ممثّل لسيّد الشام فقد جعلت منه العاهل الفعليّ لمصر والحارسَ الشرعيَّ للكنوز الخرافيّة التي كدّستها الأسرة البائدة. ومذّاك فإن سوء العلاقات بين الرجلين لن يتوقّف عن التفاقم.

وغداة هذه الأحداث، وبينما كان صلاح الدين يُدير شرقي القدس

حملة جريئة على حصن الشوبك الفرنجيّ، وكانت حاميته تبدو على وشك التسليم، علم صلاح الدين أن نور الدين في طريقه للانضمام إليه على رأس عساكره والاشتراك في العمليّات. وأمر يوسف رجاله من غير أن ينتظر لحظة برفع المعسكر والعودة بخطى حثيثة إلى القاهرة. وقد تذرّع في رسالة إلى ابن زنكي بأن اضطرابات قد حدثت في مصر وأرغمته على هذا الرحيل السريع.

بيد أن نور الدين لا يَدَع صلاح الدين يتمادى، فقد اتّهمه بالغدر والخيانة وأقسم على الذهاب بنفسه إلى بلاد النيل لاستعادة زمام الأمور. وإذ قلق الوزير الشاب فقد جمع معاونيه الخلّص، ومن بينهم أبوه أيّوب، وشاورهم في الموقف الواجب اتّخاذه إذا نفّذ نور الدين وعيده. وفيما كان بعض الأمراء يصرّحون باستعدادهم لحمل السلاح على ابن زنكي، وكان يبدو أن صلاح الدين نفسه يشاطرهم الرأي، تدخّل أيوب مُزبداً من شدّة الغضب ونادى يوسف وكأنه مجرّد صبي وقح وقال له: «أنا أبوك وأكثر محبة لك من جميع من ترى، ومع ذلك فلو أني رأيت نور الدين فلن يمنعني شيء من السجود وتقبيل الأرض عند قدميه. ولو أمرني أن أضرب عنقك بالسيف لفعلت. وهذه البلاد له، والرأي أن تكتب له قائلاً: بلغني أنك تريد قيادة حملة إلى مصر، ولكنّك لست بحاجة إلى ذلك؛ هذه البلاد لك ويكفي أن ترسل إليّ جواداً أو نجيباً فأذهب إليك طائعاً صاغراً»[1].

ولدى الانتهاء من الاجتماع أخذ أيّوب يعظ ابنه من جديد بينه وبينه قائلاً: «والله لو أراد نور الدين أن يأخذ فتراً من أرضك لقاتلته أنا عليه حتى الموت. ولكنْ لماذا تبدو طموحاً بشكل مكشوف؟ الوقت في جانبك فدَعِ الأقدار تعمل عملها»[2]! واقتنع يوسف فأرسل إلى الشام الكتاب الذي اقترحه عليه أبوه، وإذ اطمأن نور الدين فقد عدل في النهاية عن حملته التأديبية. بيد أنّ صلاح الدين الذي تعلّم درساً من هذا الإنذار

(١) و(٢) انظر ذلك في «الكامل في التاريخ»، ج ٩، ص ١١٣. (المترجم)

أرسل أحد إخوته، تورانشاه، إلى اليمن لفتح تلك الأرض الجبليّة في جنوب غربي الجزيرة العربية وإقامة ملاذ فيها لآل أيّوب إذا فكّر ابن زنكي من جديد في القبض على زمام الأمور في مصر. ولسوف يحتلّ اليمن بالفعل من دون كبير عناء. . . «باسم الملِك نور الدين».

وفي تموز/يولية ١١٧٣ م، أي بعد أقلّ من عامين على موعد اللقاء الذي لم يتمّ في حصن الشوبك، حدث حادث مماثل. فإذ كان صلاح الدين قد ذهب لأعمال حربيّة في شرق نهر الأردن فقد جمع نور الدين عسكره وحضر للقائه. ولكنّ الوزير الذي هالته فكرة وجوده وجهاً لوجه مع سيّده أسرع في العودة إلى مصر مؤكّداً أن أباه على فراش الموت. وبالفعل فإن أيّوب كان في غيبوبة على أثر سقطة عن حصانه. ولكنّ نور الدين ليس مستعدّاً للاكتفاء بهذا العذر الجديد. وعندما مات أيّوب في شهر آب/أغسطس أدرك أنه ليس في القاهرة رجل واحد يمكن أن يثق فيه ثقة مطلقة. وهكذا اعتبر أنّ الوقت قد حان لكي يقبض بنفسه على زمام الشؤون المصريّة.

«وكان [نور الدين] قد شرع يتجهّز للدخول إلى مصر لأخذها من صلاح الدين يوسف (. . .) فإنه رأى منه فتوراً في غزو الفرنج من ناحيته. وكان يعلم أنّه إنما كان يمنع صلاح الدين من الغزو الخوف منه والاجتماع به»(١). وواضح أن مؤرّخنا ابن الأثير الذي كان في الرابعة عشرة في أثناء تلك الحوادث يقف إلى جانب ابن زنكي. فيوسف «يُؤْثر كون الفرنج في الطريق ليمتنع بهم على نور الدين. فأرسل إلى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر للغَزاة (. . .) فبينما هو يتجهّز لذلك أتاه أمر الله الذي لا مردّ له»(٢). فقد مرض سيّد الشام بالفعل مرضاً شديداً بالخوانيق. وكان رأي أطبائه أن يُفصد، ولكنّه رفض قائلاً: «ابن ستين لا يفتصد». وجُرّبت علاجات أخرى ولكنّها لم تنجع. وفي الخامس عشر من أيار/مايو ١١٧٤ م أعلن في دمشق نبأ وفاة نور

(١) و(٢) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٩، ص ١٢٤. (المترجم).

الدين محمود الملِك الورِع والمجاهد الذي وحّد بلادِ الشام الإسلامية وأتاح للعالم العربي التهيّؤ للمعركة الفاصلة مع المحتلّ. واجتمع الناس مساءً في جميع المساجد لتلاوة آيات من القرآن عن روحه. وعلى الرغم من نزاعه في السنوات الأخيرة مع صلاح الدين فإنه سيظهر جلياً مع الزمن أن هذا الأخير كان متمِّماً له أكثر ممّا كان مُنافِساً.

ومع ذلك فإنّ الضغينة هي التي كانت سائدة على الأثر في صفوف أقرباء الفقيد ومعاونيه الذين كانوا يخشَوْن أن يستغلّ يوسف جوّ البلبلة العامّة لمهاجمة بلاد الشام. ولذلك فإنهم تجنّبوا الإشارة إلى النبأ في القاهرة كسباً للوقت. بيد أن صلاح الدين الذي له أصدقاء في كل مكان أرسل إلى دمشق بحَمام الزاجل رسالة ذكيّة التدبيج: بلغنا نبأ من عند العدوّ لعنه الله بشأن مولانا نور الدين. وإذا صحّ الأمر لا سمح الله فينبغي على الأخصّ تحاشي قيام الفُرقة في القلوب وسيطرة الغباء على العقول لأنّ المستفيد الوحيد من ذلك سيكون العدو.

وعلى الرغم من هذه الكلمات الاسترضائية فإن النقمة ستكون عارمة بسبب صعود نجم صلاح الدين.

الفصل العاشر

دموع صلاح الدين

لقد ذهبت بعيداً جدّاً يا يوسف وجاوزت الحدود. فلست سوى خادم لنور الدين وتريد الآن أن تستحوذ على الحكم لنفسك وحدك؟ لا يغرنك الغرور، فنحن أخرجناك من العدم ونعرف كيف نردّك إليه!

لو أُرسل هذا الانذار الذي وجّهه أعيان حلب إلى صلاح الدين بعد إرساله ببضع سنوات لبدا غير معقول. وأمّا في عام ١١٧٤ م، أي في حين كان سيد القاهرة قد بدأ يبرز بوصفه أهمّ وجوه الشرق العربي، فما كانت أفضاله بادية بعدُ لكل الناس. فلم يكن اسم صلاح الدين يُلفظ قطّ في أوساط نور الدين، سواء في حياته أو غداة وفاته. وكانت تُستخدم للإشارة إليه كلمات مثل «وصولي» أو «جاحد» أو «غادر» أو، في أكثر الأحيان، «وقح».

فأمّا أن يكون صلاح الدين وقحاً فقد تحاشى ذلك بصورة عامة؛ وأمّا أن يكون حظّه وقحاً فقد كان بالتأكيد. وهذا ما كان يثير حفيظة أخصامه لأنّ هذا الضابط الكرديّ ابن الأعوام الستة والثلاثين لم يكن يوماً رجلاً طموحاً، والذين راقبوا بداياته يعرفون جيّداً أنّه كان من الممكن جدّاً أن يكتفي بألّا يكون سوى أمير بين كثير غيره من الأمراء لو لم يدفع به القدر على الرغم منه إلى واجهة المسرح.

فرغماً عنه ذهب إلى مصر حيث كان دوره في الفتح ضئيلاً؛ ومع ذلك فإنّه بسبب عزلته بالذات ارتفع إلى ذروة الحكم. ولم يكن قد تجرّأ على إعلان سقوط الفاطميين، بيد أنّه حينما أُرغم على اتخاذ قرار بهذا الصدد

وجد نفسه وريث أغنى أسرة حاكمة مسلمة. وعندما صمّم نور الدين على إعادته إلى منزلته لم يكن يوسف بحاجة إلى المقاومة: لقد غاب السيد فجأة تاركاً خليفة أوحد فتى في الحادية عشرة هو «الصالح».

وبعد أقلّ من شهرين، أي في الحادي عشر من تموز ١١٧٤ م، غاب أموري بدوره ضحيّة زُحار في الوقت الذي كان يتجهّز فيه لحملة جديدة على مصر بمعونة أسطول صقلّي قويّ. وقد ترك مملكة القدس لابنه بغدوين الرابع، وهو فتى في الثالثة عشرة مصاب بأبشع اللعنات: الجُذام. ولم يَعُدْ في الشرق برمّته سوى عاهل واحد قادر على الوقوف حجر عثرة في سبيل ارتفاع صلاح الدين الذي لا يقاوم، ألَا وهو مانويل إمبراطور الروم الذي يحلم بالفعل بأن يصبح ذات يوم حاكم الشام المطلق ويرغب في اجتياح مصر بالتعاون مع الفرنج. ولكنْ، ولكي يكمل القَدَرُ سلسلته، فإن الجيش البيزنطي القويّ الذي شلّ حركة نور الدين طوال خمسة عشر عاماً سوف يُسحق على يد قلج أرسلان الثاني، حفيد الأول، في معركة «ميريوسيفالوم». ومات مانويل بعد ذلك بقليل حاكماً على إمبراطورية الشرق المسيحية بالغرق في الفوضى.

هل يمكن مؤاخذة مادحي صلاح الدين على أنهم رأوا تدخّلاً من العناية الإلهية في هذه السلسلة من الأحداث غير المتوقّعة؟ إن يوسف نفسه لم يَسْعَ يوماً إلى نسبة الفضل في قَدَره إلى نفسه. وطالما حرص على أن يشكر بعد الله «عمّي شيركوه» و«مولاي نور الدين». والحقّ أنّ عظمة صلاح الدين تكمن أيضاً في تواضعه.

«كان صلاح الدين يستريح بعد تعب يوم شديد حين دخل عليه مملوك وفي يده رقعة للتوقيع. فقال السلطان: «أشعر بتعب عظيم فارجع بعد ساعة»! ولكنّ الرجل ألحّ وقرّب الرقعة من وجه صلاح الدين قائلاً: «ليوقّع مولاي»! وأجاب السلطان: «ولكنْ ليس عندي دواة! وكان جالساً عند مدخل الخيمة، وقد لاحظ المملوك وجود دواة داخلها فهتف: «تلك دواة داخل الخيمة»، الأمر الذي كان يعني أنه يأمر صلاح

الدين بإحضارها بنفسه. والتفت السلطان فرأى الـدواة وقال: «صحيـح والله!» واستلقى إلى الخلف واعتمد عـلى ذراعه اليسرى وتنـاول الـدواة بيده اليمنى ثم وقّع على الرقعة».

هـذه الحادثـة التي يسردها بهـاء الدين كـاتب صلاح الـدين الخـاص ومؤرّخ سيرته تصوّر بشكل صارخ ما كان يميّز هذا الملك عن سائر ملوك عصره وكل العصور: إحسان التواضع مع الضعفاء حتى حين يكون المرء قد أصبح أقوى الأقوياء. وقد نوّه مَنْ أرّخوا له ولا ريب بشجاعته وعدله وتفانيه في الجهاد، ولكنْ تشفّ عبر نصوصهم باستمرار صورةٌ أكـثرُ إثارة للمشاعر وأكثرُ إنسانية. يقول بهاء الدين:

«بينما كنا في إبّان القتال مع الفرنـج ذات يوم استـدعى صلاح الـدين خواصّه إليه وفي يده كتاب كان قد فرغ من قـراءتـه. وحـين أراد الكلام اغرورقت عيناه بـالدمـوع. وعندمـا رأيناه عـلى هذه الحـال لم نتمالـك أن بكينـا نحن أيضاً مـع أنّنا كنّـا نجهل مـا الأمر. وأخيـراً قال وهـو يَشْرَقُ بـدمعه: «مـات تقيّ الدين ابن أخي!» وعـاد إلى البكاء بـدمـع سخـين ونحن كذلك. وثُبْت إلى رشدي وقلت له: «لا ننسين في أية معركـة نحن ولنـطلبن أن يغفر الله لنـا ما ذرفنـا من دموع». ووافقني صـلاح الـدين الـرأي وقال: «أجـل، ليغفر الله لي! ليغفـر الله لي!» وكرّر ذلـك مرّات وأضـاف: «لا يعلمن أحـد بمـا حـدث!» ثم أحضر مـاء الـورد ليغسـل عينيه.

ودموع صلاح الدين لا تسيل فقط لموت أقربائه. ويتـذكّر بهـاء الدين هذه الحادثة فيقول:

«كنت أسير بجوادي إلى جانب السلطان قبالـة الفرنـج فأقبـل نحونـا أحد كشّافة الجيش ومعه امرأة كانت تنتحب وتقرع صدرهـا، فقال لنـا: «لقد خرجت من عند الفرنج وتريد مقابلة رئيسنـا فأحضرنـاها». وطلب صلاح الدين من تـرجمانـه أن يسألهـا فقالت: «دخـل أمس لصوصٌ من المسلمين خيمتي وسرقوا ابنتي الصغـيرة. وقد قضيت الليـل بطولـه أبكي

فقال لي رؤساؤنا: إن ملك المسلمين رحيم. سوف نتركك تذهبين إليه، وفي وسعك أن تطلبي منه ابنتك. وها أنا ذي قد أتيت عاقدة عليك كل الآمال». تأثّر صلاح الدين وفاض الدمع من عينيه. وأرسل أحدهم للبحث عن البنت في سوق العبيد، وبعد أقلّ من ساعة أقبل فارس يحمل الطفلة على كتفيه. وما إن رأتها الأم حتى ارتمت على الأرض ومرّغت وجهها بالتراب فبكى جميع الحاضرين. ورفعت عينيها إلى السماء وأخذت تقول أشياء غير مفهومة. وقد أرجعوا إليها ابنتها وأعادوها إلى معسكر الفرنج».

لا يهتمّ الذين عرفوا صلاح الدين كثيراً بوصف خِلقته، فهو قصير القامة نحيل قصير اللحية منتظمها. وهم يفضّلون الحديث عن وجهه، هذا الوجه الذي يوحي بالتفكّر وبشيء من الحزن ويُشْرِق بغتة بابتسامة مُطمئنة تُدْخِل الأمان على نفس المخاطب. وكان حَفيّاً دائماً بزائريه يُلحّ في دعوتهم إلى الطعام ويعاملهم بكل ما يليق من الإكرام ولو كانوا من الكَفَرَة، ويستجيب لجميع طلباتهم. وما كان ليرضى أن يقصده أحد ويعود خائباً، وكان بعضهم يستغلّ ذلك. وفي ذات يوم من أيام الهدنة مع الفرنج جاء «البرنس» صاحب أنطاكية إلى خيمة صلاح الدين على حين غرّة وطلب منه أن يُعِيد إليه ناحية كان السلطان قد أخذها منه قبل أربعة أعوام فأعطاه إيّاها!

لقد بلغ كرم صلاح الدين كما نرى حدّ اللاوعي. وهذا بهاء الدين يقول:

«كان خازنوه يُخفون على الدوام بعضاً من المال للطوارىء لأنهم كانوا يعلمون أنه لو عرف السيّد بذلك المخزون لأنفقه في الحال. وعلى الرغم من هذه الحيطة فإنه لم يكن في بيت المال عند موت السلطان غير سبيكة من الذهب مسكوكة في صور وسبعة وأربعين درهماً من الفضة».

وعندما كان بعض معاوني صلاح الدين يأخذون عليه سخاءه كان يجيبهم بابتسامة مرحة: «مِن الناس مَنْ لا يساوي المال عنده أكثر ممّا

يساوي التراب». والحقّ أنه كان يحتقر الغنى والبذخ، وعندما أصبحت قصور الفاطميين الأسطورية في حوزته أسكن فيها أمراءه مفضّلاً السكنى في المقرّ المخصّص للوزراء، وهو أشدّ تواضعاً.

وإنه لواحد من الملامح التي تسمح بتقريب صورة صلاح الدين من صورة نور الدين. ولن يكون من أمر خصومه على كل حال إلا أن يروا فيه مقلّداً باهتاً لسيّده. والواقع أنّه يُحسِنُ في علاقته بالآخرين، ولا سيما الجنود، أن يبدو أكثر ودّاً من سَلَفه. وإذا كان يتمسّك بحرفيّة تعاليم الدين فإنه يخلو من التزمّت السطحي الذي كان يطبع بطابعه بعض تصرّفات ابن زنكي. وفي الوسع القول إن صلاح الدين كان يأخذ نفسه بصورة عامّة بمثل الشدّة التي كان سَلَفه يأخذ نفسه بها، ولكنّه كان أقلّ تشدّداً مع الآخرين، ومع ذلك فإنه سيكون أقلّ رحمة منه أيضاً بالذين يشتمون الإسلام، سواء أكانوا «هراطقة» أم بعض الفرنج.

وبعيداً عن هذه الفوارق بين الشخصيّتين يظلّ صلاح الدين متأثراً تأثراً شديداً، ولا سيّما في بداياته، بمقام نور الدين المذهل الذي يسعى إلى الظهور بمظهر الجدير بخلافته فيه ساعياً بلا هوادة إلى الاهداف نفسها: توحيد العالم العربي وحفز المسلمين، سواء من الناحية المعنوية بفضل جهاز دعائي قويّ أو من الناحية العسكرية باستشراف استعادة الأراضي المحتلّة ولا سيّما القدس.

فمنذ صيف ١١٧٤ م، وبينما كان الأمراء المجتمعون حول الفتى «الصالح» يناقشون أفضل السبل للوقوف في وجه صلاح الدين متطلّعين حتّى إلى التحالف مع الفرنج، كان صاحب القاهرة يوجّه إليهم رسالة تحدٍّ حقيقي يصوّر نفسه فيها بلا تردّد ـ متستّراً كل التستّر على نزاعه مع نور الدين .. كمتمّم لعمل سيّده وحارس أمين لميراثه. فقد كتب يقول:

«لو كان ملكنا رحمه الله قد آنس فيكم من هو جدير مثلي بالثقة، أفما كان أسند إليه مصر التي هي أهم ولاياته؟ تأكّدوا أنه لو لم يعاجل القضاء نور الدين لعهد إليّ بتأديب ابنه ورعايته. وإني لأرى أنكم

تتصرّفون وكأنكم وحدكم كنتم في خدمة مولاي وابنه، وأنكم تحاولون إبعادي. ولكني آتٍ قريباً، وسأنجز لإحياء ذكرى مولاي أعمالاً يكون لها من الأثر ما لها، وسوف يعاقب كلّ منكم على إساءته».

من الصعب التعرّف هنا على الرجل الحذِر الذي كان في السنين السابقة، وكأنّ اختفاء السيّد كان قد حرّر في نفسه عدائية طالما كُبِتَتْ. وغنيّ عن القول إن الظروف كانت استثنائية لأنّ لهذا الكتاب وظيفة محدّدة: إعلان الحرب التي بها بدأ صلاح الدين غزو بلاد الشام الإسلامية. وعندما أرسل صاحب القاهرة رسالته في تشرين الأول/أوكتوبر ١١٧٤ م كان قد أصبح في طريقه إلى دمشق على رأس سبعمئة فارس. وإنّ هذا العدد لقليلٌ لحصار العاصمة الشاميّة، ولكنّ يوسف كان قد أحسن حسابه. فإذ خاف «الصالح» وأعوانه من النبرة العنيفة غير المعهودة في رسائله فقد آثروا التوجّه إلى حلب. وإذ اجتاز صلاح الدين بلاد الفرنج بلا مصاعب تُذكر سالكاً ما يمكن أن نسمّيه من الآن فصاعداً «طريق شيركوه» فقد وصل في آخر تشرين الأول/أوكتوبر إلى دمشق حيث بادر نفر ممّن تربطهم علاقات مودّة بأسرته إلى فتح الأبواب لاستقباله.

وشجّعه هذا النصر المُحْرَز من دون ضربة سيف واحدة على إكمال انطلاقته، فترك في دمشق حامية بإمرة أحد إخوته وتوجّه إلى وسط الشام حيث استولى على حمص وحماة. ويقول لنا ابن الأثير إن صلاح الدين كان «في جميع أحواله لا يُظهر إلاّ طاعة الملك الصالح بن نور الدين، وأنه إنّما خرج لحفظ بلاده عليه من الفرنج»[1]. وإذا كان مؤرّخ الموصل أميناً لأسرة زنكي فإنه يبدو متحرّزاً بعض الشيء تجاه صلاح الدين الذي يتّهمه بالتدليس. ولم يكن مخطئاً في ذلك كلّ الخطأ. فيوسف الذي لا يريد لعب دور المغتصب يقدّم بالفعل نفسه على أنه حامي «الصالح». وكان يقول: «على أيّ حال فإن هذا الفتى لا يستطيع أن يحكم وحده.

---

(١) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٩، ص ١٣٢. (المترجم).

إنه بحاجة إلى مُرشد، إلى وصيّ، وليس خيراً مني للقيام بهذا الدور».
ومن جهة ثانية فإنه كان يرسل إليه الكتاب تلو الكتاب مؤكداً له إخلاصه، ويأمر بالدعاء له في مساجد القاهرة ودمشق، ويسكّ النقود باسمه.

ولكنّ العاهل الفتيّ لم يكن ليتأثّر قط بهذه الأعمال. فحين جاء صلاح الدين يحاصر حلب نفسها في كانون الأول/ديسمبر ١١٧٤ م «لحماية الملك الصالح من شؤم تأثير مستشاريه عليه» جمع ابن نور الدين أهل المدينة وخاطبهم خطاباً مؤثّراً: «قد عرفتم إحسان أبي إليكم ومحبّته لكم وسيرته فيكم، وأنا يتيمكم، وقد جاء هذا الظالم الجاحد إحسان والدي إليه يأخذ بلدي ولا يراقب الله تعالى ولا الخلق»[1]. وقد تأثّر الحلبيون أشدّ التأثّر وعزموا على مقاومة «الخائن» حتى النهاية. ورفع يوسف الذي كان يسعى إلى تجنب صراع مباشر مع «الصالح» حصاره، وقرر في المقابل أن يُعلن نفسه «ملكاً على مصر والشام» ليتخلّص من التبعية لأيّ حاكم مطلق السلطة. وقد أضاف إليه المؤرخون لقب السلطان، ولكنّه هو نفسه لم يستعمله قط. وسوف يعود صلاح الدين غير مرة إلى أسوار حلب، ولكنْ من غير أن يعزم على مبارزة ابن نور الدين.

ولكي يُبعد مستشارو «الصالح» ذلك التهديد الدائم فقد قرّروا الاستنجاد بخدمات الحشّاشين واتصلوا برشيد الدين سنان الذي وعدهم بتخليصهم من يوسف. ولم يكن «شيخ الجبل» يطمع في أكثر من تصفية حسابه مع حافر قبر الأسرة الفاطميّة الحاكمة. وكانت محاولة الاغتيال الأولى في بداية عام ١١٧٥ م: دخل بعض الحشاشين مخيّم صلاح الدين ووصلوا إلى خيمته فعرفهم أحد الأمراء واعترض طريقهم. وقد اثخنوه بالجراح ولكن كان نفير الإنذار كان قد دقّ وهرع الحراس، وبعد عراك ضارٍ مُزّق الباطنيون شرّ تمزيق. ولم تكن تلك إلّا جولةً مؤجّلة. فبينما كان صلاح الدين في الثاني والعشرين من أيار/مايو ١١٧٦ م يقوم بحملة

---

(١) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٩، ص ١٣٢. (المترجم).

جديدة في نواحي حلب دخل أحد الحشّاشين خيمته وطعنه بخنجره في رأسه. ولحسن حظ السلطان، وكان شديد الحذر منذ محاولة الاغتيال الأخيرة، أنّه كان يعتمر من باب الاحتراس مِغْفَرَ زَرَدٍ تحت القلنسوة. وعندها انهال القاتل ضرباً على رقبة ضحيّته. وهنا كانت السكين ترتدّ لأن صلاح الدين كان يرتدي تُبّاناً من القماش السميك ذي ياقة مُقوّاة بالزَرَد. وجاء أمير من أمرائه فأمسك السكين بيد وضرب الباطني باليد الثانية فسقط. ولم يكن صلاح الدين قد تمكّن من النهوض عندما وثب عليه قاتل ثانٍ ثم ثالث. ولكنّ الحراس كانوا قد حضروا وقُتل المهاجمون. وخرج صلاح الدين من الخيمة مذعوراً مترنّحاً غير مصدِّق بالنجاة.

وما إن تمالك نفسه حتى عزم على مهاجمة الحشّاشين في عُقر دارهم في أواسط بلاد الشام حيث كان سنان يملك عشرة حصون، فحصر قلعة مصياف وهي أعظم حصونهم وأحصن قلاعهم. ولكنّ الذي حدث في شهر آب/أغسطس من ذلك العام، ١١٧٦ م، في بلاد الحشّاشين سوف يبقى سرّاً إلى الأبد. فهناك رواية أولى هي رواية ابن الأثير التي تقول بأن سنان أرسل إلى خال صلاح الدين يهدّده وجميع أفراد الأسرة الحاكمة بالقتل. وإذ كان ذلك التهديد صادراً عن الفرقة، ولا سيّما بعد محاولتين لاغتيال السلطان، فإنّه لم يكن بالإمكان الاستهانة به. وهكذا رُفع الحصار عن مصياف.

ولكنْ هناك رواية ثانية عن الأحداث، وصلت إلينا من الحشّاشين أنفسهم، وهي محفوظة في واحد من النصوص النادرة الباقية عن الفرقة حكاية عن أحد أتباعها، ويُعرف بأبي فراس. وهو يذكر أنّ سنان الذي كان غائباً عن مصياف عندما حوصرت حضر وأقام مع اثنين من رفاقه على تلّة مجاورة لمراقبة العمليّات، وأن صلاح الدين أمر رجاله بالذهاب لأَسْره. وذهبت مفرزة كبيرة لتطويق سنان، ولكنْ عندما حاول الجنود الاقتراب منه شلّت أطرافهم بقوّة خارقة. ويقال إن «شيخ الجبل» طلب

منهم عندها إبلاغ السلطان رغبته في الاجتماع به شخصياً في خلوة، وأنهم هرعوا مذعورين يقصّون على سيّدهم ما حدث، وأنّ صلاح الدين الذي لم يرَ في الأمر ما يُحمَدُ نثر الكلس والرماد حول خيمته لرصد أثر أي قَدَم، وأقام عند هبوط الليل حرّاساً مزودين بالمشاعل لحمياته. وفجأة استيقظ ليلاً مُجْفِلاً ورأى للحظة شخصاً مجهولاً ينساب خارج خيمته فظنّ أنه سنان بعينه. وقد ترك الزائر الغامض على السرير كعكة مسمومة ورقعة قرأ صلاح الدين فيها: إنك تحت رحمتنا. وعندها صرخ صلاح الدين فهرع إليه حرّاسه يُقسمون أنهم لم يروا شيئاً. وبادر صلاح الدين في صباح اليوم التالي إلى رفع الحصار والعودة بأقصى سرعة إلى دمشق.

ومّما لا ريب فيه أن هذه الحكاية محبوكة حبكاً روائياً شديداً، ولكنّ ما هو واقع بالفعل أن صلاح الدين كان قد نوى بشكل مباغت جداً أن يغيّر سياسته تغييراً تامّاً تجاه الحشّاشين. فعلى الرغم من مقته الشديد للهراطقة من كل نوع فإنّه لن يحاول التعرُّض أبداً لبلاد الباطنيين، بل سيسعى على العكس من ذلك إلى مصالحتهم حارماً بذلك أعداءه، سواء منهم المسلمون والفرنج، نصيراً يعزّ مثيله. وذلك لأنّ السلطان كان قد قرّر في القتال من أجل السيطرة على بلاد الشام أن يضع كل الأوراق الرابحة في صفّه. والحقّ أنه مُفْتَرَضٌ فيه أن يكون رابحاً منذ استيلائه على دمشق، ولكنّ الصراع كان لا يزال قائماً. وهذه الحملات التي ينبغي شنّها على الدويلات الفرنجية وعلى حلب والموصل، وكلّها يحكمها أيضاً أحد أحفاد زنكي، وعلى مختلف أمراء الجزيرة وآسيا الصغرى، تَفُلُّ العزائم وتهدّ القوى. بالإضافة إلى أن عليه الذهاب بانتظام إلى القاهرة لدحر الكائدين والمتآمرين.

ولم يأخذ الوضع بالانجلاء إلا في نهاية عام ١١٨١ م عندما مات «الصالح» فجأة، وربّما مسموماً، وهو في الثامنة عشرة من عمره. ويروي ابن الأثير لحظاته الأخيرة بتأثّر فيقول:

«ولما اشتدّ مرضه وصف له الأطباء شرب الخمر للتداوي، فقال: «لا أفعل حتى استفتي الفقهاء». فاستفتى فأفتاه فقيه من مدرّسي الحنفية بجواز ذلك، فقال له: «أرأيت إن قدّر الله تعالى بقرب الأجل أيؤخّره شرب الخمر؟» فقال له الفقيه: «لا» فقال: «والله لا لقيت الله سبحانه وقد استعملت ما حرّمه عليّ»[1].

وبعد سنة ونصف السنة، أي في الثامن عشر من حزيران/يونية ١١٨٣ م، شهدت حلب دخول صلاح الدين الاحتفالي المهيب. ومذّاك غدت بلاد الشام ومصر جسماً واحداً، لا بصورة إسمية كما في أيام نور الدين، وإنما بصورة فعلية تحت سلطان العاهل الأيوبي غير منازَع. والغريب أن بروز هذه الدولة العربيّة القويّة التي تشدّد الخناق على الفرنج يوماً عن يوم لم يحفزهم على إظهار مزيد من التضامن، بل كان عكس ذلك. فبينما كان ملك القدس الذي شوّهه الجذام بشكل شنيع غارقاً في عجزه كانت عشيرتان متنافستان تتنازعان على السلطة. وكان يقود الأولى المحبِّذة لتسوية مع صلاح الدين ريمون قُمْص طرابلس، وكان الناطق باسم الأخرى المتطرّفة رينو دو شاتيّون أمير أنطاكية السابق.

وإذ كان ريمون شديد السمرة معقوف الأنف يتكلّم العربية بطلاقة ويديم قراءة النصوص الإسلامية فقد كان من الممكن أن يحسبه المرء أميراً عربياً كغيره من الأمراء لو لم يكن طول قامته يفضح أصوله الغربية. ويقول ابن الأثير إنّه لم يكن للفرنج في ذلك الوقت أشجع ولا أحكم من صاحب طرابلس ريمند بن ريمند الصنجيلي، أي حفيد سان جيل. ولكنه كان شديد الطموح والرغبة في أن يصبح ملكاً. وقد قام بمهامّ الوصاية لبعض الوقت، ولكنّه ما لبث أن أُقصي عنها، فامتلأت نفسه حقداً، حتى إنه كتب إلى صلاح الدين ووقف إلى جانبه وطلب إليه أن يساعده ليصبح ملك الفرنج. وسُرّ صلاح الدين للأمر وبادر إلى

(١) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٩، ص ١٥٣. (المترجم).

تحرير عدد من فرسان طرابلس كانوا أسرى عند المسلمين[1].

وكان صلاح الدين متنبّهاً لهذه الخلافات. وعندما بدا أن التيار «الشرقي» الذي يقوده ريمون قد انتصر في القدس مال إلى المصالحة. وفي عام ١١٨٤ م دخل بغدوين الرابع المرحلة الأخيرة من الجذام فتراخت يداه ورجلاه وغامت عيناه. ولكنّه لم تكن تنقصه الشجاعة ولا حُسْنُ الإدراك فوثق بقُمْص طرابلس الذي كان يجهد في إقامة علاقات حسن جوار مع صلاح الدين. وقد دهش الرّحالة الأندلسي ابن جبير الذي كان يزور دمشق في تلك السنة لرؤية القوافل تذهب وتجيء بيسر بين مصر ودمشق عبر بلاد الفرنج. وقد لاحظ أن «للنصارى على المسلمين ضريبة يؤدّونها في بلادهم، وهي من الأَمَنَة على غاية. وتجّار النصارى أيضاً يؤدّون في بلاد المسلمين على سلعهم. والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال. وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية»[2].

وإذ كان صلاح الدين بعيداً عن استعجال نهاية هذا التعايش فقد بدا مستعدّاً للذهاب إلى أبعد من ذلك أيضاً على درب السلام. وبالفعل فقد مات الملك المجذوم في آذار/مارس ١١٨٥م عن أربعة وعشرون عاماً تاركاً العرش لابن أخيه بغدوين الخامس وهو طفل في السادسة من العمر والوصاية لقُمْص طرابلس الذي كان يعلم أنه بحاجة إلى وقت لتوطيد سلطانه فبادر إلى إرسال مبعوثين إلى دمشق لطلب هدنة. وقد وافق صلاح الدين الذي كان واثقاً من قدرته على شنّ معركة حاسمة على الغربيين على عقد هدنة معهم مدّتها أربع سنين، فأثبت بذلك أنه لا يسعى بأيّ ثمن إلى المواجهة.

ولكن عندما مات الملك الطفل بعد عام، في آب/أغسطس ١١٨٦ م، وُضع دور الوصيّ على بساط البحث من جديد. ويفسّر ابن الأثير ذلك فيقول إن أم الملك «هويت رجلاً من الفرنج الذين قدموا

(١) انظر ذلك في «الكامل في التاريخ»، ج ٩، ص ١٧٤. (المترجم).

(٢) «رحلة ابن جبير»، بالنص العربي، ص ٢٠١. (المترجم)

الشام اسمه «كي» [Guy] فتزوجته ونقلتِ المُلْك إليه وجُعل التاج على رأسه، وأحضرت البطرك والقسوس والرهبان والاستبارية [Les Hospitaliers] والداويّة [Les Templiers] والبارونية [Les Barons] وأعلمتهم أنها قد ردّتِ المُلْك إليه وأشهدتهم عليها بذلك فأطاعوه. وجاهر [ريمون] بالمشاقة والمباينة وراسل صلاح الدين وانتمى إليه»[1].
و«كي» هذا هو الملِك غي دولوزينيان، وهو رجل جميل الطلعة. ضعيف الشخصية، مجرّد من كل أهليّة سياسية، مستعد على الدوام لمشاطرة آخر محاوريه الرأي. والحقّ أنه لم يكن غيرَ دُمية في يد «الصقور» الذين على رأسهم «البرنس أرناط»، أي ريمون دوشاتيّون.

ولقد أمضى هذا بعد مغامرته القبرصية وتحرّشاته في بلاد الشام خمسة عشر عاماً في سجون حلب قبل أن يُطلِق سراحَه ابن نور الدين في عام ١١٧٥ م. وما كان من شأن أسره إلّا أن زاد في معايبه. وإذ لم يكن لأرناط هذا مثيل في تعصّبه وجشعه وتعطّشه لسفك الدماء فإنه سيثير لوحده من البغضاء بين العرب والفرنج ما لم تُثِره عقود من الحروب والمذابح. ولم يتمكّن بعد تحريره من استرجاع أنطاكية التي كان يحكم فيها ابن زوجته بيمند الثالث. وعليه فقد أقام في مملكة القدس حيث سارع إلى الزواج بأرملة شابّة أعطته كبائنة الأراضي الواقعة شرقي نهر الأردن، ولا سيّما قلعتي كرك وشوبك الحصينتين. وإذ تحالف مع فرسان الهيكل وعدد كبير من الفرسان القادمين حديثاً فقد أخذ يمارس على بلاط القدس تأثيراً متعاظماً استطاع ريمون وحده الحدَّ منه زمناً ما. وكانت السياسة التي سعى إلى فرضها هي سياسة الاجتياح الفرنجي الأول: مقاتلة العرب بلا هوادة، والنهب والقتل بلا حساب، والاستيلاء على أراضٍ جديدة. وكانت كل مصالحة وكل تسوية خيانة في نظره. ولم يكن يشعر بإمكان الارتباط بأيّة هدنة ولا بأيّ وعد. وكان يوضح بوقاحة قائلاً: ماذا يفيد على كل حال عهدٌ يُقطع للكَفَرَة؟

---

(١) «الكامل في التاريخ، بالنص العربي، ج ٩، ص ١٧٤ (المترجم).

وكـان قد وُقِّـع في عـام ١١٨٠ م اتفـاق بـين دمشق والقـدس تُضْمَنُ بموجبه حرّية انتقال الناس والأرزاق في المنطقة. ومـا هي إلاّ أشهر حتى هاجم رينو قافلة من التجّار العرب الأغنياء كانت تجتاز صحراء الشام في طريقها إلى مكّة وصادر ما فيها من بضـاعة. وشكـا صلاح الـدين الأمر إلى بغدوين الرابع، ولكنّ هذا لم يجـرؤ على معـاقبة تـابعه. وفي خـريف عام ١١٨٢ م حدث ما هو أخطر: قرّر أرنـاط غزو مكّـة نفسها ونهبهـا. وسارت الحملة إلى إيلات وكانت يومئذٍ ميناءً عـربياً صغيـراً للصيد عـلى خليج العقبة وهناك اتّخذوا لهم أدلاّء بعض قراصنة البحر الأحمر فسـاروا بمحاذاة الساحل إلى ينبُع، وهو ميناء المـدينة، ثم إلى رابـغ غير بعيـد من مكّة. وقد أغرق رجال رينو في طريقهم مـركباً لبعض الحجّـاج المسلمين كان متّجهاً إلى جدّة. ويقول ابن الأثير إن جميع النـاس أُخِذوا عـلى حين غِـرّة لأنهم لم يكونـوا قد رأوا قطّ فـرنجياً تـاجراً ولا محـاربـاً. وإذ انتشى المهاجمون بفوزهم فقد تباطئوا وأخـذوا يملأون مـراكبهم بالغنـائم. وبينما كان رينو نفسه يعود نحـو أراضيه كـان رجالـه يقضون شهـوراً طويلة في الذهاب والمجيء في البحر الأحمر. ولقد سلّح العادل أخو صلاح الدين، وكـان يحكم مصر في أثناء غيـابه، أسـطولاً وأرسله لمـلاحقـة اللصـوص الذين ما لبثوا أن سُحقوا. وأرسل بعضُهم إلى مكّة لتُقطع رؤوسهم أمام الملأ، وهو، في نـظر مؤرّخ الموصـل، عقاب أمثـل لمن يسعى إلى تدنيس الأمكنة المقدّسـة. وقد طـاف نبأ هـذه المغامـرة المجنونـة بالـطبع بـالعالم الإسـلامي حيث سيكون «أرنـاط» بعدهـا رمـزاً لأبشـع مـا عنـد العـدوّ الفرنجي.

وردّ صلاح الدين بشنّ عدّة غارات على أراضي رينو. ولكنّ السلطان كـان يعرف رغم حنقـه كيف يكون شهـماً. ففي تشرين الثـاني/نـوفمـبر ١١٨٣ م مثلاً، بينما كان قد طوّق حصن الكرك بالدرّاعات وبدأ يقصفـه بكتل من الصخور أبلغه المدافعـون أن حفلة زواج أميريـة تُقام في ذلـك الـوقت داخل الأسـوار. وعلى الـرغم من أن العروس كـانت ابنة زوجـة

رينو فقد طلب صلاح الدين من المحاصَرين أن يعيّنوا له الجناح الذي سيقيم فيه الزوجان الشابّان وأمر رجاله بعدم التعرّض لذلك القطاع.

ولكنّ مثل هذه التصرّفات لا تُجدي ويا للأسف مع «أرناط». فعلى الرغم من نجاح الحكيم ريمون في كبح جماحه بعض الوقت، إلا انه استطاع عند مجيء الملك «غي» في أيلول/سبتمبر ١١٨٦ م أن يُملي قانونه من جديد. فما مرّت بضعة أسابيع حتى انقضّ الأمير كالطائر الكاسر على قافلة مهمّة تضمّ حجّاجاً وتجّاراً عرباً كانوا يسلكون في دَعَة طريق مكّة، متجاهلاً هدنة كان ينبغي أن يطول أمدها بعدُ سنتين ونصف السنة. وقد ذبح الرجال المسلّحين وقاد سائر الموكب أسرى إلى الكرك. وعندما تجرّأ بعضهم فذكّروا رينو بالهدنة قال لهم متحدّياً: «ليأتِ محمّدكم إذن لتخليصكم! وإذ نُقلت هذه الكلمات إلى صلاح الدين بعد بضعة أسابيع فقد أقسم أن يقتل «أرناط» بيديه.

بيد أن السلطان جهد على الأثر في تأخير البّر بقسمه وأرسل إلى رينو مبعوثين يسألونه تحرير الأسرى وإعادة أموالهم إليهم وفقاً للاتفاقيّات المعقودة. وإذ رفض الأمير استقبالهم فقد توجّهوا إلى القدس حيث استقبلهم الملك «غي» وأبدى اشمئزازه لتصرّفات تابعه، ولكنه لم يكن ليجرؤ على الدخول في نزاع معه. وألحّ المبعوثون: أيستمر رهائن «البرنس أرناط» على ذلك في التعفّن داخل زنزانات الكرك بالرغم من جميع الاتفاقات والعهود؟ ما كان من «غي الذي لا حَوْلَ له ولا طَوْل إلا أن نفض يديه من الأمر».

وقطعت الهدنة، ولم يقلق صلاح الدين الذي كان سيحترمها إلى النهاية من عودة المنازعات. وقد أرسل الرُسُل إلى أمراء مصر والشام والجزيرة وغيرها يُخبرهم بأنّ الفرنج نكثوا بعهودهم ومواثيقهم ويدعوهم، حلفاء وأتباعاً، إلى حشد كلّ ما يملكون من قوى للمشاركة في مجاهدة المحتلّ. وتقاطر ألوف الخيّالة والرجّالة على دمشق من جميع المناطق الإسلامية. وبدت المدينة وكأنها سفينة غارقة في بحر من القماش

المتماوج، والخيام الصغيرة المصنوعة من وبر الجمال يتّقي بها الجنود حرّ الشمس وماء المطر، والسرادقات الأميرية الواسعة المصنوعة من نسيج غنيّ التلوين ومزيّن بالآيات القرآنية أو القصائد المرقومة.

وفيما كان الحشد يتواصل كان الفرنج غارقين في نزاعاتهم الداخلية. وإذ كان الملك «غي» قد قدّر أنّ اللحظة مؤاتية للخلاص من منافسه ريمون الذي يتّهمه بالتعاطف مع المسلمين، كان جيش القدس يتجهّز للهجوم على طبريّة، وهي مدينة صغيرة في الجليل تخصّ امرأة قُمْص طرابلس. وما إن علم هذا بالأمر حتى ذهب للقاء صلاح الدين وعرض عليه تحالفاً ما لبث السلطان أن قَبِله وأرسل مفرزة من عسكره لدعم حامية طبريّة. وتراجع جيش القدس.

وفي الثلاثين من نيسان/أبريل ١١٨٧ م، وفيما كان المقاتلون العرب والأتراك والأكراد مستمرّين في التدفّق على دمشق موجة بعد أخرى، أرسل صلاح الدين رسولاً إلى طبريّة يسأل ريمون وفقاً للحلف المعقود بينهما أن يسمح لكشّافته بالقيام بجولة استطلاع ناحية بحيرة الجليل. وانزعج الكونت ولكنّه لم يستطع أن يرفض. وكان مطلبه الوحيد أن يغادر الجنود المسلمون أرضه قبل المساء وأن يعِدوا بعدم التعرّض لرعاياه ولا لأملاكهم. ولتلافي أيّ حادث فقد أُطْلَع النواحيَ والدساكرَ على نبأ مرور العساكر المسلمين وطلب إلى السكّان عدم مغادرة منازلهم.

وفي فجر اليوم التالي، وكان يوم الجمعة الواقع في أول أيار/مايو، مرّ سبعة آلاف فارس بقيادة أحد نوّاب صلاح الدين تحت أسوار طبريّة. وعندما سلكوا في المساء الطريق نفسه بالاتجاه المعاكس احترموا مطالب الكونت بحذافيرها فلم يتعرّضوا لا للقرى ولا للقصور، ولم يأخذوا لا أموالاً ولا ماشية، ومع ذلك لم يتمكّنوا من تلافي الحادث. والحقّ أن رؤساء الداويّة والاسبتاريّة كانوا بمحض الصدفة في إحدى قلاع الجوار عندما حضر رسول ريمون في العشية لإبلاغ نبأ حضور المفرزة الإسلامية. فاغتاظ الجنود ـ الرهبان على الأثر لأنّه ما من حلف مع

العرب في نظرهم! وإذ جمعوا على عجل بضع مئات من الخيّالة والرجّالة فقد عزموا على اللحاق بفرسان المسلمين قرب قرية صفّورية شمال الناصرة. وما هي إلا دقائق حتى قُضي على الفرنج، ولم يتمكّن من النجاة سوى رئيس الداويّة. وإذ ذُعر الفرنج لهذه الهزيمة فإنهم، حسب رواية ابن الأثير، «أرسلوا إلى القُمّص البطركَ والقسوسَ والرهبانَ وكثيراً من الفرسان فأنكروا عليه انتماءه إلى صلاح الدين، وقالوا له: «لا شكّ أسلمتَ وإلا لم تصبر على فعل المسلمين أمسِ بالفرنج يقتلون الداويّة والاسبتاريّة ويأسرونهم ويجتازون بهم عليك وأنت لا تُنْكِر ذلك ولا تمتنع عنه». ووافقه على ذلك مَنْ عنده من عسكر طبريّة وطرابلس، وتهدّده البطرك أنه يحرمه ويفسخ عليه نكاح زوجته (. . .) فلما رأى القُمّص شدّة الأمر عليه خاف واعتذر وتنصل وتاب، فقبلوا عذره وغفروا زلّته وطلبوا منه الموافقة على المسلمين (. . .) فأجابهم إلى المصالحة والانضمام إليهم (. . .) وسار معهم (. . .) وجمعوا فارسهم وراجلهم ثم ساروا من عكا إلى صفّورية وهم يقدّمون رجلاً ويؤخّرون أخرى (. . .)»[1].

وفي معسكر المسلمين كانت الهزيمة النكراء التي نزلت بالتنظيمين الدينيين ـ العسكريين المرهوبين والمكروهين من جميع الناس قد فتحت القابلية للنصر. فقد أصبح الأمراء والجنود توّاقين إلى مقارعة الفرنج. وعليه فإن صلاح الدين حشد في حزيران/يونية جميع عساكره في منتصف الطريق بين دمشق وطبريّة: اثنا عشر ألف فارس يمرّون أمام ناظريه، ناهيك بالمشاة والمتطوّعين. وزمجر السلطان من فوق صهوة فرسه بالأمر اليوميّ الذي ما لبث أن ردّدت صداه آلاف الاصوات الملتهبة: «النصر على عدوّ الله!».

* * *

وكان صلاح الدين قد حلّل الموقف بهدوء لأركان حربه: «إن الفرصة المتاحة لنا لن تتكرر بعدُ أبداً والرأي عندي أنّ على جيش المسلمين أن يواجه

(١) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٩، ص ١٧٦. (المترجم).

جميع الكَفَرَة في معركة حسنة التخطيط. وعلينا الاندفاع بعزم وتصميم في الجهاد قبل أن يتشتّت شمل عساكرنا». والأمر الذي يريد السلطان تلافيه هو ألّا يعود أتباعه وحلفاؤه مع عساكرهم إلى ديارهم وقد انتهى موسم القتال في الخريف قبل أن يكون قد أحرز النصر المُبين. ولكنّ الفرنج محاربون يتمتّعون بأقصى الحذر. أفلا يمكن أن يسعوا إلى تجنّب العراك وهم يرون القوّات المسلمة بمثل هذا الحشد؟

وعزم صلاح الدين على أن ينصب لهم شَرَكاً وهو يسأل الله أن يقعوا فيه. وتوجّه إلى طبرية فاحتلّها في يوم واحد، وأمر بإشعال عدّة حرائق فيها، وأقام حصاراً أمام القلعة التي تشغلها الكونتيسة زوجة ريمون وحفنة من المدافعين. وكان الجيش المسلم قادراً تماماً على دحر مقاومتهم ولكنّ السلطان حال بين رجاله وبين ذلك. فلا بدّ من مضاعفة الضغط على مهل والتظاهر بالاستعداد للهجوم الأخير وانتظار ردود الفعل. ويقول ابن الأثير:

«فلما سمع الفرنج بنزول صلاح الدين إلى طبريّة ومَلْكِه المدينة وأخذِه ما فيها وإحراقها (. . .) اجتمعوا للمشورة، فأشار بعضهم بالتقدّم إلى المسلمين وقتالهم ومنعهم عن طبريّة، فقال القُمْص: «إن طبريّة لي ولزوجتي، وقد فعل صلاح الدين بالمدينة ما فعل وبقي القلعة وفيها زوجتي. وقد رضيت أن يأخذ القلعة وزوجتي وما لنا بها ويعود. فوالله لقد رأيت عساكر الإسلام قديماً وحديثاً فما رأيت مثل هذا العسكر الذي مع صلاح الدين كثرة وقوة، وإذا أخذ طبريّة لا يمكنه المُقام بها، فمتى فارقها وعاد عنها أخذناها (. .) ونفتكّ مَنْ أُسر منها». فقال له برنس أرناط صاحب الكرك: «قد أطلت في التخويف من المسلمين، ولا شكّ أنك تريدهم وتميل إليهم وإلا ما كنت تقول هذا. وأما قولك إنهم كثيرون فإن النار لا يضرّها كثرة الحطب». فقال: «أنا واحد منكم إن تقدّمتم تقدّمتُ وإن تأخّرتم تأخّرتُ وسترون ما يكون»[1].

(١) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٩، ص ١٧٧. (المترجم).

ومرّة جديدة انتصر عند الغربيين رأيُ أكثرهم تطرُّفاً.

والآن أصبح كل شيء في موضعه للمعركة. وكان جيش صلاح الدين قد انتشر في سهل خصب مزروع بالاشجار المثمرة. وخلفهم كانت تمتدّ مياه بحيرة طبرية العذبة التي يخترقها نهر الأردن، بينما يرتسم في البُعد نحو الشمال الشرقي شبح مرتفعات الجولان المهيب. وقريباً من معسكر المسلمين ترتفع تلّة تعلوها ذروتان يُطلق عليهما «قَرْنا حطّين» باسم القرية الواقعة عند سفحهما.

وفي الثالث من تموز/يولية تحرّك الجيش الفرنجي المؤلف من نحو اثني عشر ألف رجل. ولم يكن الطريق الذي عليهم سلوكه بين صفّورية وطبريّة طويلاً، فهو يحتاج إلى أربع ساعات من السير على الأكثر في الأحوال العادية. ومع ذلك فإن هذه الفسحة من الأرض الفلسطينية جافّة تماماً في فصل الصيف، فليس فيها نبع ولا بئر، ومجاري مياهها ناضبة. ولكنّ الفرنج كانوا واثقين وهم يغادرون صفّورية في الصباح الباكر من أن في وسعهم ريّ ظمأهم على ضفاف البحيرة عند العصر. لقد أحسن صلاح الدين كل الإحسان نصب شرَكه، فرجاله كانوا طوال النهار يزعجون العدو من أمام ومن خلف وعلى الجُنُوب موجّهين نحوه بلا انقطاع سُحُباً من السهام. وهكذا فإنهم أنزلوا بالغربيين بعض الخسائر، وأرغموهم بالأخصّ على التخفيف من سرعتهم.

وقبل المساء بقليل كان الفرنج قد بلغوا ربوة بالإمكان الإشراف منها على المشهد برمّته. فتحتهم مباشرة كانت تمتدّ قرية حطّين الصغيرة ذات البيوت التي بلون التراب، بينما كانت تتلألأ في قعر الوادي مياه بحيرة طبريّة. وأقرب منها قليلاً في السهل المخضرّ المنبسط على طول الضفّة كان جيش صلاح الدين. وكان عليهم لكي يشربوا أن يحصلوا على إذْنٍ من السلطان!

وصلاح الدين يبتسم. فهو يعلم أن الفرنج منهوكون يقتلهم الظمأ،

وأنهم لا يملكون القوّة ولا الوقت لفتح ممرّ إلى البحيرة قبل المساء، وأنهم محكوم عليهم أن يبقوا حتى الصباح من دون قطرة ماء واحدة. فهل في وسعهم حقاً أن يقاتلوا في مثل هذه الظروف؟ وقد أمضى صلاح الدين تلك الليلة بين الصلاة وعقد الاجتماعات مع أركان حربه. وكان يتأكد وهو يكلّف عدداً من أمرائه الذهابَ إلى خطوط العدو الخلفية لسدّ طريق الانسحاب عليه من أن كلاً منهم قد عرف موقعه جيداً وردّد توجيهاته بحذافيرها.

وعند بزوغ خيوط الفجر الأولى من اليوم التالي، الرابع من تموز/يولية ١١٨٧ م، حاول الفرنج المحاصَرون من كل صوب وقد أفقدهم العطش صوابهم وأيأسهم أن ينحدروا عن التلّة ويبلغوا البحيرة. وإذ كان مُشاتهم قد بَلَوْا من المشقّة أكثر مما بلا فرسانهم بفعل المشي المنهك في البارحة فقد ركضوا على غير هدى حاملين فؤوسهم ومطارقهم التي تُنْقِضُ ظهورهم لينسحقوا موجةً تلو أخرى على جدار صلب من السيوف والرماح. ودُفع الناجون كيفما اتّفق إلى التلّة حيث اختلطوا بالفرسان وقد باتوا موقنين بهزيمتهم. ولم يكن في وسع أيّ خط من خطوط الدفاع أن يصمد، ومع ذلك فقد استمرّوا يقاتلون بشجاعة اليائس. وحاول ريمون أن يشقّ طريقاً عبر صفوف المسلمين على رأس حفنة من خواصّه. وسمح له نوّاب صلاح الدين الذين عرفوه بالهرب فواصل طريقه راكضاً على حصانه حتى طرابلس. ويقول ابن الأثير:

«فلما انهزم القُمْص سُقط في أيديهم [أي الفرنج] وكادوا يستسلمون. وكان بعض المتطوّعة قد ألقى في تلك الأرض ناراً وكان الحشيش كثيراً فاحترق، وكانت الريح فحملت حرَّ النار والدخان إليهم فاجتمع عليهم العطش وحرّ الزمان وحرّ النار والدخان وحرّ القتال. ثم علموا أنه لا ينجيهم من الموت إلا الإقدام عليه، فحملوا حملات متداركَة وكادوا يزيلون المسلمون (. . .) إلاّ أن الفرنج لا يحملون حملة فيرجعون إلا وقد قُتل منهم (. . .) وأخذ المسلمون صليبهم الأعظم (. . .) فكان أَخْذُه

عنـدهم من أعـظم المصـائب عليهم [لأن] فيـه قـطعـة من الخشبـة التي صُلب عليها المسيح عليه السلام بزعمهم»[1].

وبحسب الإسـلام فإنـه شُبّه أن المسيـح صُلب، لأن الله يحبّ كثيـراً ابن مريم فلا يسمح بأن يلحقه عذاب في مثل هذا القُبح.

وعلى الرغم من تلك الخسـارة فقد ظـلّ من بقوا أحيـاء من الفرنـج، وهم حوالي مئة وخمسين من خيرة فـرسانهم، يقـاتلون بضـراوة منسحبين إلى مـرتفَـع من الأرض فــوق قـريــة حـطين لنصب خيــامهم وتنـظيم مقاومتهم. ولكنّ المسلمين أحاطوا بهم من كل صوب ولم يبق منتصباً من الخيام غيرُ خيمة الملِك. وأمّا بقية القصة فيرويها ابن صلاح الدين، وهـو الملك الأفضل الذي كان في السابعة عشرة من عمره حينذاك فيقول:

«كنت إلى جانب أبي في ذلك المصـافّ، وهو أوّل مصـافّ شاهـدته. فلما صار مِلك الفرنج على التلّ في تلك الجماعة حملوا حملة منكرة على من بإزائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدي (. . .) فنظرت إليه وقد علته كـآبـة واربـدّ لـونـه وأمسـك بلحيتـه وتقـدّم وهـو يصيـح «كـذب الشيطان» (. . .) فعاد المسلمون على الفرنج فرجعوا فصعـدوا إلى التلّ. فلما رأيت الفـرنـج قـد عـادوا والمسلمـون يتبعـونهم صحت من فــرحي «هزمناهم» فعـاد الفرنـج فحملوا حملة ثانيـة مثل الأولى ألحقـوا المسلمين بوالدي، وفعـل مثل مـا فعل أوّلاً. وعـطف المسلمون عليهم فـألحقوهـم بالتلّ فصحت أنا أيضاً «هزمناهـم»، فـالتفت والدي إليّ وقـال «اسكت، ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة» (. . .) فهـو يقول لي وإذ الخيمـة قد سقطت، فنزل السلطان وسجد شكراً لله تعالى فبكى من فرحه»[2].

ونهض صلاح الدين وسط تهـاليل الفـرح واعتلى حصـانه وتـوجّه إلى خيمتـه. واقتيـد إليــه كبـار الأسرى، ولا سيّــما الملك «غي» و«الـبرنس

(1) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ۹، ص ۱۷۸. (المترجم).

(2) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ۹، ص ۱۷۸. (المترجم).

أرناط». ولقد حضر الكاتب عماد الدين الأصفهاني مستشار صلاح الدين ذلك المشهد وقال فيه:

«أجلس صلاح الدين الملك إلى جانبه، وعندما دخل أرناط بعده أجلسه إلى جانب مليكه وذكّره باساءاته قائلاً: «كم مرّة أقسمت وحنثت بقسمك، وكم مرّة أخذت على نفسك المواثيق ولم تفِ بها!» فأجاب أرناط على لسان الترجمان: «جميع الملوك كانوا يتصرّفون دائماً على هذا النحو، ولم أفعل غير ما فعلوا». وفي هذا الوقت كان «غي» يلهث من العطش ويرجّح رأسه وكأنه سكران وعلى وجهه أمارات الذعر. وطيّب صلاح الدين خاطره بعبارات التطمين وأمر بماء مثلوج فقدّمه إليه. وشرب الملك وأعطى ما بقي لأرناط فشرب. وعندها قال السلطان لـ «غي»: «لم تطلب إذني قبل أن تعطيه ليشرب، وهذا لا يُجبرني على إنالته الأمان».

والحقّ أن الأسير الذي يُقَدَّم إليه الطعام أو الشراب ينبغي حسب التقاليد العربية أن يبقى على قيد الحياة، وهو عهد ما كان صلاح الدين ليتقيّد به بالطبع بإزاء الرجل الذي أقسم على قتله بيديه. ويتابع عماد الدين كلامه قائلاً:

«بعد أن قال السلطان ذلك خرج فامتطى حصانه وابتعد تاركاً أسيريه نهباً للرعب. وقد أشرف على عودة العساكر ثم عاد إلى خيمته فدعا بأرناط وتقدّم إليه شاهراً سيفه فضربه به بين العنق والترقوة. وإذ سقط أرناط أرضاً فقد حُزّ رأسه ودُفع جسده بالأقدام حتى وصل إلى الملك الذي أخذ يرتجف. ولما أبصره السلطان على هذه الحال قال له مُطمئناً: «لم يُقتل هذا الرجل إلا لإساءته وخيانته».

وقد نجا بالفعل المِلك ومعظم الأسرى من القتل، وأمّا الداويّة والاسبتاريّة فقد لقوا المصير الذي لقيه رينو دوشاتيّون.

ولم ينتظر صلاح الدين نهاية هذا اليوم المشهود لجمع أمرائه الرئيسيين

وتهنئتهم بنصرهم الذي أعاد الشرف الـذي طالما عبث به الغُـزاة. وقدّر أنه لم يعد للفرنج بعـد الآن من جيش وينبغي استغلال ذلـك بلا إبـطاء لاستعادة الأراضي التي احتلّوها ظُلماً. وهكذا فقد هاجم منذ صباح اليوم التالي، وكان يوم أحد، قلعة طبريّـة حيث زوجة ريمـون التي كانت تعلم حقّ العلم ألاّ فائدة تُرجى من المقاومة. وفوّضت أمرها إلى صلاح الدين الـذي سمح بـالطبـع برحيـل الـمُـدافعـين بجميـع مـا يملكـون دون أن يزعجهم أحد.

وسار الجيش المظفّر يوم الثلاثاء التالي إلى ثغر عكـا الذي استسلم من دون مقاومة. وكـانت المدينـة قد اكتسبت أهميـة اقتصاديـة كبرى خـلال السنـوات الأخيرة لأن التجـارة مع الغـرب كانت تمـرّ كلّها بهـا. وحاول السلطان حمل التجّار الإيطاليين الكثيرين على البقاء واعِداً بمنحهم كـامل الحـماية الـلازمة. ولكنّهم فضّلوا الـذهاب إلى مـرفأ صـور المجـاور. ولم يعـترض على رغبتهم رغم أسـاه لرحيلهم. بـل إنه أذِن لهم بنقـل جميـع ثرواتهم وزوّدهـم بحرّاس لحمايتهم من قطّاع الطرق.

وإذ رأى أن لا فائدة من تحرّكه هو على رأس مثل ذلك الجيش القويّ فقد كلّف أمراءه إخضاع مختلف حصون فلسـطين. واستسلمت المنشآت الفرنجية في الجليل والسامرة الواحـدة بعد الأخـرى في بضع سـاعات أو بضعة أيام. وكانت هذه على الأخصّ حال نـابلس وحيفا والنـاصرة التي توجّه سكانها جميعاً إلى صـور أو إلى القدس. والاشتبـاك الجدّي الـوحيد الذي حدث كـان في يافـا التي اصطدم فيهـا جيش قادم من مصر بقيـادة العـادل أخي صلاح الـدين بمقـاومـة ضـاريـة. ولـمّا أوتي العـادل النصر استرقّ السكان برمّتهم. ويروي ابن الأثير أنه اشـترى هو نفسـه في أحد أسواق حلب سبيّة فرنجية شابّة جاءت من يافا. فيقول:

«وكان عندي جارية من أهلها وأنا بحلب ومعها طفل عمره نحو سنة فسقط من يدها فـانسلخ وجهه فبكت عليـه كثيراً فسكّنتها وأعلمتها أنـه

ليس بولدها ما يوجب البكاء، فقالت «ما أبكي لـه، إنما أبكي لما جرى علينا. كان لي ستـة إخوة كلّهم هلكـوا جميعهم، وزوج وأختان لا أعلم ما كان منهم»[1]. ويؤكد المؤرّخ العربي أنّه «جرى على أهلها [أي يافا] ما لم يجرِ على أحد من أهل تلك البلاد»[2].

والحقّ أن استعـادة الأمـلاك السليبـة قـد تمّت بيسر في جميـع المنـاطق الأخرى. وبعد إقامة صـلاح الدين إقـامة قصـيرة في عكا تـوجّه صـوب الشمال. ومرّ بصـور، ولكنّه إذ كـان قد قـرّر عدم التـوقّف عند سـورها القويّ فإنّه تابع مسيرةً مظفّرةً على طول الساحل. وفي التاسع والعشرين من تموز/يولية استسلمت صيدا بلا قتال بعد سبعين سنـة من الاحتلال، وتبعتها بعد بضعة أيام بـيروت وجبيل. وغـدت جيوش المسلمـين قريبـة جداً من كونتيّة طرابلس، ولكنّ صلاح الدين الذي كان يعتقـد أنه ليس هناك ما يُخشى من هذه الناحية رجع إلى الجنـوب متوقّفـاً من جديـد أمام صور ومتسائلاً عمّا إذا كان ينبغي أن يحاصرها. ويقول لنا بهاء الدين:

«وبعد تردّد قليل عدل السلطان عن ذلك. فقد كانت جيوشه موزّعـة في كـلّ ناحيـة، وكان رجـاله مُتعَبـين من تلك الحملة الـطويلة، وكـانت صور منيعة لأن جميع فرنج الساحل كانوا محتشدين فيها. وفضّل مهـاجمة عسقلان التي كان أمر الاستيلاء عليها أيسر له».

ولسوف يأتي يوم يندم فيه صلاح الـدين على هـذا القرار. وأمـا الآن فإنّ المسيرة المظفّرة تتـواصل. ففي الـرابع من أيلول/سبتمـبر استسلمت عسقلان ثم غزّة اللتان كانتا تابعتـين للداويّة. وأرسـل صلاح الـدين في الوقت نفسه بعض أمـراء جيشه إلى نـواحي القدس فـاستولَـوْا على عـدّة أمـاكن، ومن بينهـا بيت لحم. ولم يعـدُ للسلطان سـوى أمنيـة واحـدة: تتويج حَمْلته المظفّرة وحياته العسكرية باستعادة المدينة المقدّسة.

أيكون في مقدوره أن يدخل هذا المكان المقدّس بلا تـدمير ولا سفـك

---

(١) و(٢) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٦، ص ١٨٠. (المترجم).

دماء على غرار ما فعل الخليفة عمر؟ وأرسل إلى أهل القدس رسالة يدعوهم فيها إلى إجراء محادثات تتناول مستقبل المدينة. وجاء وفد من الأعيان لمقابلته في عسقلان. وكان عرضُ المنتصرِ معقولاً: تُسلّم إليه المدينة بلا قتال، وفي وسع من يرغب من الأهالي في تركها أن يذهب بسلام آخذاً معه كل أمواله، وسوف تُحترم أماكن العبادة المسيحية ولا يتعرض بسوء لمن يريد القدوم للحجّ في قابل الأيام. ولكنْ شدّ ما كانت دهشة السلطان لوقاحة جواب الفرنج وكأنّهم ما برحوا في أيام قوّتهم وسطوتهم. تسليم القدس، المدينة التي مات فيها يسوع؟ الأمر غير وارد في الحسبان! فالمدينة مدينتهم وسوف يدافعون عنها حتى النهاية.

وإذ أقسم صلاح الدين على ألا يأخذ القدس إلا بالسيف فقد أمر عساكره الموزّعين في أربعة أرجاء بلاد الشام بالاحتشاد حول المدينة المقدّسة. وهُرع جميع الأمراء، فأيّ مسلم لا يرغب في أن يقول لخالقه يوم الحساب: لقد قاتلت من أجل القدس! أو أفضل من ذلك: لقد استشهدت من أجل القدس! وأمّا صلاح الدين الذي قال له أحد المنجّمين إنه سيفقد إحدى عينيه إذا دخل المدينة المقدّسة فقد أجاب: «إني مستعدّ لفقد عينيّ الثنتين للاستيلاء عليها!».

كان يؤمّن الدفاع داخل المدينة المحاصَرة «باليان ديبلان» صاحب الرملة، وهو، كما يقول ابن الأثير: «كانت مرتبته عندهم [أي الفرنج] تقارب مرتبة الملِك»(١). وكان قد غادر حطّين قبل هزيمة جماعته بقليل ولجأ إلى صور. وإذ كانت امرأته في القدس فقد طلب إلى صلاح الدين طوال الصيف أن يأذن له بالذهاب لإحضارها واعداً بعدم حمل السلاح وعدم المبيت غير ليلة واحدة في المدينة المقدّسة. وعندما وصل إلى هناك رجاه القوم مع ذلك أن يبقى لأنه لم يكن في المدينة من يملك من السلطة ما يكفي لإدارة المقاومة. ولكنّ «باليان» الذي كان يتمسّك بالشرف ولا يستطيع قبول الدفاع عن القدس وشعبها من غير أن يحنث باتفاقه مع

(١) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٩، ص ١٨٢. (المترجم).

السلطان لجأ إلى صلاح الدين نفسه لمعرفة ما ينبغي عليه أن يفعل، فما كان من السلطان الشهم إلا أن أحلّه من التزامه. فإذا كان الواجب يفرض عليه البقاء في المدينة المقدّسة وحمل السلاح فليفعل! ولـمّا كان «باليان» منهمكاً بتنظيم الدفاع عن القدس فلا يستطيع حماية زوجته فقد هيّأ له السلطان موكب حراسة لإيصالها إلى صور!

لم يكن صلاح الدين يرفض أمراً لرجل يتمسّك بأهداب الشرف، حتى وإن كان أشرس أعدائه. والحقّ أن الخطر في هذه الحالة المحدّدة يكون ضئيلاً. فعلى الرغم من شجاعة «باليان» فإنّه لم يكن قادراً على إزعاج جيش المسلمين بشكل جِدِّيّ. وإذا كانت أسوار المدينة متينة وأهلها الفرنج شديدي التعلّق بعاصمتهم فإن جهاز الدفاع ينحصر في حفنة من الفرسان وبضع مئات من المدنيين الذين لا يملكون أية خبرة عسكرية. ومن جهة ثانية فإنّ المسيحيين الشرقيين من الأرثوذكس واليعاقبة الذين يعيشون في القدس هم في جانب صلاح الدين، ولا سيّما رجال الكهنوت الذين طالما أساء إليهم الرهبان اللاتين، وأحد مستشاري السلطان الرئيسيين كاهن أرثوذكسي يُدعى يوسف بتيت، وهو الذي سيهتّم بأمر الاتصالات بالفرنج والطوائف المسيحيّة الشرقيّة. وقبل الحصار بقليل كان رجال الكهنوت الأرثوذكس قد وعدوا «بتيت» بفتح أبواب المدينة إذا طال عناد الغربيّين.

والحقّ أن مقاومة الفرنج ستكون باسلة ولكنْ قصيرة ومن غير أوهام. فقد بدأت محاصرة القدس في العشرين من أيلول/سبتمبر، وسوف يطلب صلاح الدين الذي أقام معسكره في جبل الزيتون من جيوشه بعد ستّة أيام أن يشدّدوا الضغط تمهيداً للهجمة الأخيرة. وفي التاسع والعشرين من أيلول/سبتمبر تمكّن النقّابون من إحداث نقب في الجهة الشمالية من السور، قريباً جداً من المكان الذي دخل منه الغربيون في تموز/يولية ١٠٩٩ م. وإذ وجد «باليان» أنه لم يعد من المجدي متابعة القتال فقد طلب الأمان لنفسه ومَثَل أمام السلطان.

وظهر أن صلاح الـدين غير مستعـدّ للتفاوض. أفلم يكن قـد عرض على الأهالي قبـل الموقعـة بكثير أحسن شروط التسليم؟ وأمّـا الآن فليس الـوقت وقت مفاوضـات لأنه أقسم عـلى أخذ المـدينة بـالسيف كما فعـل الفـرنج من قبـل! والوسيلة الـوحيدة لإحـلالـه من قَسَمـه هي أن تفتـح القدس أبوابها وتخضع إليه بكلّيتها بلا شروط. ويقول ابن الأثير:

«أرسل باليـان (. . .) وطلب الأمان (. . .) وسـأل فيه فلم يجبـه إلى ذلك. واستعطفـه فلم يعطف عليـه (. . .) فلما أيس من ذلك قـال لـه: «أيها السلطان أعلم أننا في هـذه المدينـة في خلق كثير لا يعلمهم إلاّ الله تعالى. وإنّما يَفتُرون عن القتال رجاءَ الأمان ظنّاً منهم أنك تُجيبهم إليه كما أجبت غيرهم، وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة. فإذا رأينـا الموت لا بدّ منه فوالله لنقتُلنّ أبناءنا ونساءنا ونُحرق أموالنا وأمتعتنا ولا نترككم تغنمـون منها دينـاراً واحـداً ولا درهماً، ولا تَسْبُـون وتـأسرون رجـلاً ولا امرأة. وإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغـيرهما من المواضع، ثم نقتل مَنْ عندنـا من أسارى المسلمـين (. . .) ولا نترك لنـا دابّة ولا حيواناً إلاّ قتلناه، ثم خرجنا إليكم كلّنا فقاتلناكم قتالَ من يـريد أن يحمي دمه ونفسه، وحينئذٍ لا يُقتل الرجل حتى يقتل أمثاله»[1].

وتـأثّر صـلاح الدين لحـماسة مخاطبه من غـير أن تؤثّر فيـه تهديـداته. ولكيلا يبدو أنه رقّ له بأهْوَنِ السبل فقد التفت إلى مستشاريه وسألهم عمّا إذا لم يكن تلافي خراب الأمكنة المقدّسة الإسلاميـة يُحلّه من قَسَمه. عـلى أخذ المدينة بالسيفِ وكـان جوابهم بـالإيجاب، بيـد أنّهم لعلمهم بسخاء سيّـدهم الذي يستحيـل علاجـه فقد ألحـوا على أن يحصّـل من الفـرنـج تعويضاً مالياً قبل تركهم يذهبون لأن الحملة الطويلة القائمـة قد أفـرغت خزائن الدولـة بكلّيتها. وشرح المستشـارون أنّ الكفّار يُعتـبرون أسرى، وأنّ على كل منهم أن يفتـكّ نفسه بفـدية مقـدارها عشرة دنـانير للرجـل وخمسـة للمرأة ودينـار للطفل. وقَبِـل «باليـان» بالمبـدأ، ولكنّه دافـع عن

(١) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٩، ص ١٨٣. (المترجم).

الفقراء الذين ليس في مقدورهم دفعُ مثـل هذا المبلغ. أفـلا يمكن تحريـر سبعة آلاف منهم مقابل ثلاثين ألف دينار؟ ومرّة أخرى قُبِل الطلب عـلى الرغم من غيظ الخَزنة. وإذ نال «باليان» ما يريد فقد أمـر رجالـه بإلقـاء السلاح.

وفي يـوم الجمعة الثـاني من تشرين الأول/أوكتوبـر ١١٨٧ م، الموافق للسابع والعشرين من رجب عـام ٥٨٣ هـ، وهو اليـوم الذي يحتفـل فيه المسلمـون بذكـرى إسراء النبي إلى القـدس، كـان دخول صـلاح الـدين الرسمي إلى المدينة المقدّسة. وكان أمـراؤه وجنوده مـزوّدين بأوامـر محدّدة وصارمة: عـدم التعرُّض لأيّ مسيحي، سـواء أكان فـرنجياً أم شرقيـاً. والحقّ أنه لن يحدث ذبح ولا نهب. وطالبَ بعض المتـزمّتين بهـدم كنيسة القيامة عقاباً عـلى التعدّيـات التي ارتكبها الفـرنج، ولكنّ صـلاح الدين أوقفهم عنـد حدّهم. بـل إنه ضـاعف من الحراسـة على أمكنـة العبـادة وأعلن أن في وسع الفرنـج أنفسهم أن يقدمـوا للحج إذا شـاءوا. وأُنزل بالطبع الصليب الفرنجي الـذي كان منصـوباً عـلى قبّة الصخـرة، وأعيد الأقصى الذي كان قد تحوّل إلى كنيسة كما كان بيت عبادة للمسلمـين بعد رش جدرانه بماء الورد.

وبينما كان صلاح الدين يطوف في ثلّة من رفاقه من محراب إلى محـراب باكياً داعياً ساجداً، كان معظم الفرنج لا يزالون في المدينة. وكان الأغنياء منهم مشغولين ببيع منازلهم أو محلات تجارتهم أو رياشهم قبل خـروجهم، وكان الشارون بصورة عامة من المسيحيين الأرثوذكسيين أو اليعاقبة الـذين سيبقَوْن في أمكنتهم. ولسوف تُباع أملاك أخرى بعد ذلـك إلى العائـلات اليهودية التي سيقيمها صلاح الدين في المدينة المقدّسة.

وجهد «باليان» من جهته في جمع المال اللازم لافتداء الـمُعـوِزين. ولم تكن الفـدية بحـدّ ذاتها بـاهـظة، ففـديـة الأمـراء تبلغ في العـادة بضـع عشراتُ الآلاف من الدنانير بَلْهَ مئة ألف أو تزيد. بيـد أن عشرين ديناراً

للأسرة الواحدة من الأسر الفقيرة تمثل دَخْلَ سنة أو سنتين. واجتمع آلاف الفقراء على أبواب المدينة يتسوّلون. وطلب العادل، وهو لا يقل شفقة عن أخيه، من صلاح الدين أن يأذن له بتحرير ألف شخص من الفقراء بلا فدية. وإذ نُمي الخبر إلى البطرك فقد طلب تحرير سبعمئة آخرين، كما طلب «باليان» تحرير خمسمئة. وحُرّروا جميعاً، وبادر السلطان من ذات نفسه إلى القول بأن في وسع المسنّين أن يذهبوا من دون أن يدفعوا، وتمّ كذلك تحرير أرباب العائلات من الأَسْر. وأمّا الأرامل والأيتام الفرنج فإنّه لم يكتف بإعفائهم من الدفع، بل زوّدهم بالهدايا قبل رحيلهم.

ونادى خَزَنة صلاح الدين بالويل والثبور، فإذا كان تحرير الفقراء والمُعوِزين يتمّ بلا مقابل فلترفع قيمة الفدية للأغنياء على الأقل! وبلغ سُخط خدم الدولة الطيّبين هؤلاء قمّته وهم يرون بطرك القدس يغادر المدينة مصحوباً بعدّة عربات محمّلة بالذهب والسجّاد وكل أنواع المتاع النفيس. وهال الأمر عماد الدين الأصفهاني كما يروي لنا بنفسه:

قلت للسلطان: «إن البطرك ينقل أموالاً لا تقلّ قيمتها عن مئتي ألف دينار. ولقد سمحنا لهم بحمل متاعهم، وأمّا خزائن الكنائس والأديرة فلا يجوز تركها لهم». بيد أن صلاح الدين أجاب: «علينا أن نطبّق المواثيق التي قطعناها بحذافيرها فلا يستطيع إنسان اتّهام المسلمين بخيانة عهودهم. بل إن المسيحيين سوف يتذكّرون أينما حلّوا ما غمرناهم به من إحسان».

والحقّ أن البطرك دفع عشرة دنانير كالآخرين وزُوِّد فوق ذلك بموكب حراسة للوصول إلى صور من غير أن يزعجه أحد.

وإذا كان صلاح الدين قد فتح القدس فما ذاك لأجل المال ولا حتى للانتقام. لقد سعى على الأخصّ كما يقول إلى القيام بما يفرضه عليه ربّه ودينه. وانتصاره أنّه حرّر المدينة المقدّسة من نير الغُزاة من غير حمّام دم

ولا تدمير ولا حقد. وسعادتـه هي أن يستطيـع السجود في هـذه الأمكنة التي لولاه لما استطاع مسلم أن يصلّي فيها. وبعد أسبوع على النصر أقيم يومَ الجمعة التاسع من تشرين الأول/أوكتوبر احتفـال رسمي في المسجد الأقصى تزاحم فيه عدد كبير من رجـال الدين عـلى شرف إلقاء الخـطبة. وكـان أن عهد صـلاح الدين بـذلـك إلى قـاضي دمشق محيي الـدين بن الزكي خليفة أبي سعد الهروي، فصعـد إلى المنبر في كسـاء أسود فـاخر. وكان صوته جليّاً جهورياً وإن اعـترته رجفـة انفعال خفيفـة: «الحمد لله الذي أعزّ الإسلام بهذا النصر وأعاد هذه المدينة إلى حظيرته بعد قرن من الضـلال. والمجد لهـذا الجيش الذي اختـاره الله للفتح المبـين، والسلام عليـك يا صـلاح الدين يـوسف بن أيّوب، يـا مَنْ أعـاد إلى هـذه الأمـة كرامتها بعدما أهينت وذلّت».

القسم الخامس

التأجيل (١١٨٧ ـ ١٢٤٤ م)

«حين عزم صاحب مصر على تسليم القدس إلى الفرنج هزّت عاصفة كبيرة من الاستنكار جميع ديار الإسلام».

سبط ابن الجوزي

مؤرخ عربي (١١٨٦ ـ ١٢٥٦ م)

اللقاء المستحيل

إذا كانت آيات التعظيم قد انهالت على صلاح الدين بَطَلاً غداة استرجاعه القدس فإن ما وُجِّه إليه من نقد لم يكن أقلّ من ذلك. فقد يوجّهه خواصّه بروح المحبّة وخصومه بكثير من الحدّة والصرامة. فهذا ابن الأثير يقول في صلاح الدين:

«كانت عادته متى ثبت البلد بين يديه ضجر منه ومن حِصاره (. . .) [و] الملك لا ينبغي أن يترك الحزم وإن ساعدته الأقدار. فَلأَنْ يعجز حازماً خيرٌ له من أنْ يظفر مُفَرِّطاً (. .) لـمّا رأى [أي صلاح الدين] هو وأصحابه شدّة أمر صور ملّوها وطلبوا الانتقال عنها، ولم يكن لأحد ذنب في أمرها غير صلاح الدين»[1].

وعلى الرغم من أن مؤرّخ الموصل الأمين لآل زنكي لا يُظهر ما يدلّ على عداء مستحكم لصلاح الدين فإنّه طالما بدا متحفّظاً تجاهه. وقد شارك ابن الأثير العالم العربي فرحته الشاملة بعد حطين والقدس. ولكنّ ذلك لم يمنعه من تعداد أخطاء البطل من غير أن يحسب حساباً لأي تعاطف معه. وفيما يتعلّق بقضية صور فإن المآخذ التي أخذها المؤرّخ سائغه على الوجه الأكمل.

«فإنّه هو [أي صلاح الدين] جهّز إليها جنود الفرنج وأمدّها بالرجال

(١) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٩، ص ١٨٧. (المترجم).

والأموال من أهل عكا وعسقلان والقدس (...) كان يعطيهم الأمان ويرسلهم إلى صور، فصار فيها فرسان الفرنج بالساحل (...) وراسلوا الفرنج داخل البحر يستمدّونهم فأجابوهم بالتلبية لدعوتهم ووعدوهم بالنُصرة. [أفلا يمكن القول إن صلاح الدين نفسه هو الذي نظّم بشكل ما دفاع صور ضدّ جيشه بالذات؟]»[1].

ليس في الإمكان بالطبع مؤاخذة السلطان على الشهامة التي كان يعامل بها المغلوبين. وإنّ لإبائه سفكَ الدماء بلا جدوى، ودقّتِه في احترام مواثيقه، ونبلِ كلّ تصرّف من تصرّفاته، من القيم في عين التاريخ ما لا يقلّ عن فتوحاته. ومع ذلك فإنه لا سبيل إلى دفع ارتكابه خطأً سياسياً وعسكرياً فادحاً. فقد كان يعلم أنه باستيلائه على القدس فإنما هو يتحدّى الغرب، وأنّ هذا سوف يَرُدُّ. وكان معنى السماح في هذه الظروف لعشرات الآلاف من الفرنج باللجوء إلى صور، أحصنِ القلاع الساحلية، منحهم رأسَ جسرٍ مثالياً لغزو جديد، ولا سيّما أنّ الفرسان وجدوا لهم في غياب الملك «غي»، وكان لا يزال أسيراً، زعيماً عنيداً، بشكل متميّز في شخص من يسميه المؤرّخون العرب «المركيش»، المركيز كونراد دوموفرّان القادم حديثاً من الغرب.

وإذ لم يكن صلاح الدين مُدرِكاً مدى الخطر فإنه لم يُعِره شأناً. وهكذا شرع منذ تشرين الثاني/نوفمبر ١١٨٧ م، أي بعد بضعة أسابيع من فتح المدينة المقدّسة، في حِصار صور. ولكنّه فعل ذلك من دون كبير تصميم. فما كان بالإمكان مَلْكُ المدينة الفينيقية القديمة إلّا بمعونة حاشدة من الأسطول المصري، وكان صلاح الدين يعرف ذلك. ومع هذا فقد حضر إلى أسوار المدينة وكل ما معه عشر سفن سرعان ما أحرق المدافعون خمساً منها خلال موقعة جريئة، وهربت الباقيات باتّجاه بيروت، وإذ حُرِم الجيش المسلم من البحرية فإنّه لم يكن في وسعه مهاجمة صور

---

(١) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٨، ص ١٨٧. (المترجم)

إلّا من الطريق الساحلي الضيّق الذي يصل المدينة باليابسة. وكان من الممكن في هذه الأحوال أن يدوم الحصار أشهراً. أضف إلى ذلك أن الفرنج الذين عبّأهم «المركيش» بصورة فعّالة كانوا مستعدّين على ما يبدو للقتال حتى آخر واحد فيهم. وإذ كان الأمراء قد أنهكتهم هذه الحملة التي لا تنتهي فقد نصحه معظمهم بالعدول. وكان في وسع السلطان أن يُقنع بالمال بعضاً منهم بالبقاء إلى جانبه، ولكنّ نفقات الجند في الشتاء باهظة وخزائن الدولة فارغة. وهو نفسه متعب. وعليه فقد سرّح نصف عساكره ورفع الحِصار واتجه صوب الشمال حيث بالإمكان استعادة عدد من المدن والحصون بلا كبير عناء.

ومن جديد كانت لجيش المسلمين مسيرة مظفّرة: اللاذقية وطرطوس وبغراس وصفد وكوكب... وتطول لائحة الفتوحات. ولعل الأيسر تعداد ما بقي للفرنج في الشرق: صور وطرابلس وأنطاكية وميناؤها وثلاث قلاع بعيدة متفرّقة. ولكنّ أحكم الناس وأنفذهم بصراً في محيط صلاح الدين ما كانوا لينخدعوا. فما فائدة تكديس الفتوحات إن لم يكن هناك ما يضمن القدرة على تثبيط العزائم في سبيل أيّ اجتياح جديد؟ والسلطان نفسه يُبدي اطمئناناً لا يتزعزع. وإذ لاح أمام اللاذقية أسطول صقلّي فقد قال: «إذا جاء الفرنج من البحر كان مصيرهم كمصير الفرنج هنا!» ومن جهة أخرى فإنه لم يتردّد في تموز/يولية ١١٨٨ م في إطلاق سراح «غي» مستحلِفاً إيّاه أمام الملأ ألّا يشهر قطّ سلاحاً على المسلمين.

ولسوف تكلّفه هذه الهديّة الأخيرة غالياً. فقد جاء الملك الفرنجي في آب/أغسطس ١١٨٩ م حانثاً بعهده محاصِراً ثغر عكا. وكان ما معه من القوّات ضئيلاً، ولكنّ السفن كانت تصل مذّاك كل يوم فتفرغ على الساحل موجات متلاحقة من المقاتلين الغربيّين. ويروي ابن الأثير أنّ الفرنج بعد سقوط القدس «لبسوا السواد (...) [وذهبوا إلى ما وراء البحار في بلاد الفرنج] يطوفون بها جميعاً ويستنجدون أهلها [ولا سيّما رومية الكبرى] ويحثّونهم على الأخذ بثأر البيت المقدّس، وصوّروا المسيح

عليه السلام وجعلوا صورة عربيّ، والعربيّ يضربه. وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح (. . .) وقالوا لهم: «هذا المسيح يضربه نبيّ المسلمين وقد جرحه وقتله». فعظُم ذلك على الفرنج فحشروا وحشدوا حتى النساء (. . .) ومَنْ لم يستطع الخروج استأجر من يخرج (. . .) وحدّثني بعض الأسرى منهم أن له والدة ليس لها ولد سواه ولا يملكون من الدنيا غير بيت باعته وجهّزته بثمنه (. . .) وكان عند الفرنج من الباعث الديني والنفساني ما هذا حدّه فخرجوا على الصعب والذّلول. . .»[1].

وتلقّتْ عساكر «غي» في الواقع مَدَداً بعد مَدَد منذ الأيام الأولى من أيلول/سبتمبر. وعندها بدأت معركة عكا، وهي واحدة من أطول حروب الفرنج وأشدّها بلاء. فعكا مبنيّة على جزيرة بشكل زائدة أنفية: في الجنوب الميناء؛ وفي الغرب البحر؛ وفي الشمال والشرق سوران يؤلّفان زاوية قائمة. والمدينة مسيّجة تسييجاً مزدوجاً. وحول الأسوار التي يحرسها المسلمون حراسةً مشدّدة أقام الفرنج على شكل قوس دائرة متزايد الثخانة، ولكنْ كان عليهم أن يتعاملوا في مؤخّرتهم مع جيش صلاح الدين. وقد حاول هذا في الساعات الأولى أن يأخذ العدو في فكّ كمّاشة لتمزيقه، ولكنّه سرعان ما أدرك أنه لن يبلغ غايته لأنه وإنْ أحرز جيش المسلمين عدّة انتصارات متتابعة لا يلبث الفرنج أن يعوّضوا خسائرهم. فكلّ يوم يطلع يحمل إليهم من صور أو من البحر حصّته من المحاربين.

وفي تشرين الأول/أوكتوبر ١١٨٩ م، وبينما كانت معركة عكا قد حمي وطيسها، تلقى صلاح الدين رسالة من حلب تنبئه بأن «ملك الألمان»، الإمبراطور فريدريك بربروس، يقترب من القسطنطينية في طريقه إلى بلاد الشام وبصحبته ما يراوح بين مئتي ألف ومئتين وستين ألف رجل. وانشغل السلطان بالأمر انشغالاً كبيراً على ما يرويه لنا

(١) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٩، ص ٢٠١. (المترجم).

صديقه المخلص بهاء الدين. «ونظراً لخطورة الحال فقد رأى من الضروري دعوة جميع المسلمين للجهاد وإخبار الخليفة بتطوّرات الوضع. وكلّفني على ذلك الذهاب إلى أصحاب سنجار والجزيرة والموصل وإربل وحثّهم على المجيء بعساكرهم للمشاركة في الجهاد. ثم كان عليّ أن اتوجّه بعدها إلى بغداد لحضّ أمير المؤمنين على العمل، وهذا ما فعلت». ولكي ينتشل صلاح الدين الخليفة من سُباته فقد كتب إليه مؤكّداً أن «البابا الموجود في روما قد أمر شعوب الفرنج بالمسير إلى بيت المقدس». وأرسل في الوقت نفسه كتباً إلى القادة في المغرب وإسبانيا المسلمة يدعوهم فيها لنجدة إخوانهم «كما أنجد فرنج الغرب فرنج الشرق».

وحلّت الحماسة لاستعادة البلاد محلّ الخوف في العالم العربيّ بأسره. وسرى الهمس بأنّ انتقام الفرنج سيكون رهيباً، وأنّ الناس سيشهدون حمّاماً جديداً من الدم، وأنّ المدينة المقدّسة سوف تضيع من جديد، وأنّ مصر والشام سيسقطان كلاهما في يد الغُزاة. ولكنْ مرّة أخرى تدخّلت الصدفة، أو العناية الإلهية، لمصلحة صلاح الدين.

وصل الإمبراطور الألماني في ربيع عام ١١٩٠ م إلى قونيا عاصمة أحفاد قلج أرسلان بعد أن اجتاز ظافراً آسية الصغرى، وسرعان ما اغتصب أبوابها قبل أن يُرسل الرُسُل إلى أنطاكية لإعلان نبأ وصوله. وذُعر الأرمن في الجنوب للأمر فأرسل كهنتهم رسولاً إلى صلاح الدين يتوسّلون إليه أن يحميهم من هذا الاجتياح الفرنجي الجديد. ولكنّ تدخّل السلطان لن يكون ضرورياً. ففي العاشر من حزيران كان بربروس يستحمّ من حمارّة القيظ في مجرى ماء عند جبال طوروس «فغرق في مكان منه لا يبلغ الماء وسط الرجل»[1]، كما يؤكّد ابن الأثير والسبّب دون شك نوبة قلبية، فتشتّت جيشه «وكفى الله شرّه»[2] وشرّ الألمان «وهم نوع من الفرنج من أكثرهم عدداً وأشدّهم بأساً»[3].

---

(١) و(٢) و(٣) انظر ذلك في «الكامل في التاريخ»، ج ٩، ص ٢٠٧. (المترجم).

لقد انزاح الخطر الألماني إذن بمعجزة، لكنّه لم يفعل من غير أن يشلّ صلاح الدين خلال عدّة أشهر مانعاً إيّاه من شنّ المعركة الحاسمة على محاصري عكا. فقد غدا الوضع حول الميناء الفلسطيني جامداً، وإذا كان السلطان قد تلقّى ما يكفي من الدعم ليكون في مأمن من هجوم معاكس فإنّ الفرنج ما كان من الممكن اقتلاعهم من مكانهم. وشيئاً فشيئاً قامت صيغة تعايش، فكان فرسان الفرنج وأمراء المسلمين يتداعَوْن بين مناوشتين إلى مآدب، ويتحادثون بَدَعَةٍ، ويمارسون الألعاب معاً في بعض الأحيان كما يروي بهاء الدين.

«ذات يوم قرّر الرجال من الفريقين وقد أتعبهم القتال أن ينظّموا معركة بين الأولاد، فخرج فَتَيان من المدينة لمقارعة فتييْن من الكفّار. وفي حمأة المصارعة وثب أحد الصبيّيْن المسلمين على نظيره وطرحه أرضاً وأخذ بخناقه. وعندما رأى الفرنج أنّه يوشك أن يقتله اقتربوا منه وقالوا: «دَعْهُ! لقد صار حقاً أسيرك وسوف نفتديه منك». وأخذ دينارين وتركه».

وبالرّغم من هذا الجوّ من الاحتفالات الجوّالة فإنّ وضع المتقاتلين لم يكن يدعو إلى الاغتباط. فالقتلى والجرحى كثيرون، والأوبئة على قدم وساق، وليس التموين في فصل الشتاء بالسهل. والذي كان يشغل أكثر ما يشغل بال صلاح الدين هو وضع حامية عكا. فبقدر ما كانت السفن تأتي من الغرب كان الحصار البحريّ يضيق ويشتدّ. وتمكن الأسطول المصري المؤلّف من بضع عشرات من السفن أن يشقّ طريقه إلى الميناء مرّتين، ولكن الخسائر كانت فادحة، وكان على السلطان أن يلجأ عمّا قريب إلى الحيلة لتموين المحاصَرين. وفي تموز/يولية ١١٩٠ م سلّح في بيروت سفينة ضخمة ملأى بالقمح والجبن والبصل والخرفان. ويروي بهاء الدين أنّ «نفراً من المسلمين ركبوا السفينة وقد لبسوا مَلْبَس الفرنج وحلقوا لحاهم وعلّقوا صلباناً على سارية السفينة وأقاموا خنازير ظاهرة على سطحها. واقتربوا من المدينة وهم يمرّون بسلام وسط سفن العدو.

واستوقفهم الفرنج قائلين لهم: «نراكم متوجّهين إلى عكا!» وتظاهر المسلمون بالدهشة وسألوا: «ألم تستولوا على المدينة؟» وأجاب الفرنج الذين اعتقدوا أنهم حقّاً أمام إخوة لهم: «لا، لم نأخذها بعد». قال المسلمون: «حسناً سوف نرسو إذن بمحاذاة المعسكر، ولكنْ هناك سفينة أخرى وراءنا، وينبغي تحذيرها في الحال كيلا تتوجّه إلى المدينة والحقّ أن البيروتيين كانوا بكل بساطة قد لاحظوا أن سفينة تسير خلفهم. وتوجّه بحارة العدو إليها على الأثر في حين أقلع جماعتنا بكلّ ما لديهم من أشرعة إلى ميناء عكا حيث استقبلوا بالتهليل لأن المجاعة كانت تسود المدينة».

ومع ذلك فإنه لا يمكن أن تتكرّر مثل هذه الخدعة كثيراً. وإذا لم يتوصّل جيش صلاح الدين إلى فكّ الطوق انتهى الأمر بعكا إلى الاستسلام. ومن جهة أخرى فإنّه كلما مرّت الشهور كانت فرص فوز المسلمين بالنصر، بحطين جديدة، تقلّ وتضعف. وإذ كان سيل المقاتلين الغربيّين أبعدَ ما يكونُ عن النضوب فإنه كان يتعاظم: ففي نيسان/أبريل ١١٩١ م وصل ملك فرنسا فيليب أوغست بجيوشه إلى جوار عكا وتبعه في أوائل حزيران/يونية ريكاردوس قلب الأسد. ويقول لنا بهاء الدين:

«كان ملك إنكلترا ـ ملك الانكتار ـ هذا رجلاً شجاعاً نشيطاً مِقداماً في القتال. وعلى الرغم من أنه أقلّ رتبة من ملِك فرنسا فإنه كان أغنى منه وأكثر شهرة في الحرب. وقد مرّ في طريقه بقبرص واستولى عليها، وعندما ظهر أمام عكّا في خمس وعشرين سفينة غاصّة بالرجال والعتاد هلّل الفرنج واشعلوا نيراناً ضخمة احتفالا بمقدمه. وأمّا المسلمون فقد ملأ هذا الأمر قلوبهم خشية وهلعاً».

وكان هذا العملاق الأصهب الشعر ابن الثلاثة والثلاثين عاماً الذي يحمل تاج إنكلترا مثال الفارس الشرس الطائش، ولم يكن نبل مُثُله

لِيُفلح كثيراً في إخفاء فظاظته المحيِّرة وانعدام كل ذمّة في نفسه. ولكنْ إذا لم يكن من غربيٍّ إلاّ وقد تأثر بلطف صلاح الدين وسحر شخصيته الذي لا مراء فيه فإنّ ريكاردوس نفسه كان مفتوناً به. فما إن وصل حتى سعى إلى لقائه، وأرسل رسولاً إلى العادل يطلب إليه إعداد لقاء له مع أخيه. وأجاب السلطان من غير أن يتردّد لحظة واحدة: «لا يجتمع الملوك إلا بعد اتفاق لأنه لا يليق بهم التحارب بعد التعارف وتقاسم الطعام»، ولكنّه أذن لأخيه بلقاء ريكاردوس شريطة أن يكون كلّ منهما محاطاً بجنوده. وهكذا تواصلت الاتصالات، ولكنّ نتائجها لم تكن ذات شأن. وكما يقول بهاء الدين فإن «نيّة الفرنج وهم يرسلون إلينا الرُسُل كانت والحقّ يقال معرفة مواطن قوّتنا وضعفنا وإذ كنّا نستقبلهم نحن ١
أيضاً فإنّما للغاية نفسها». وإذا كان ريكاردوس يرغب رغبة صادقة في التعرّف إلى فاتح القدس فإنه بالتأكيد لم يحضر إلى الشرق للمفاوضة.

وفيما كانت هذه المبادلات تتواصل كان الملك الانكليزي يحضّر على قدم وساق للهجوم الأخير على عكّا. فإذ كانت المدينة منقطعة تماماً عن العالم فإنها كانت تعيش في مجاعة. والسبّاحون الماهرون وحدهم هم القادرون على بلوغها مخاطرين بأرواحهم. ويروي بهاء الدين قصّة أحد هؤلاء المغاوير فيقول:

«هذه واحدة من أغرب وقائع هذه المعركة الطويلة وأمثلها. فقد كان هناك سبّاح مسلم اسمه عيسى اعتاد أن يغوص ليلاً تحت سفن الأعداء ويبرز من الجهة الثانية حيث كان ينتظره المحاصرون. وكان يحمل بصورة عامّة في حزامه مالاً ورسائل موجّهة إلى الحامية. وبينما كان يغوص ذات ليلة ومعه ثلاث حقائب فيها ألف دينار وعدّة رسائل اكتُشف أمره وقُتل. وسرعان ما عرفنا بأن كارثة حلّت لأن عيسى كان يخبرنا بوصوله على الدوام بإطلاق حمامة من المدينة باتّجاهنا. ولم تصلنا تلك الليلة أيّة إشارة. وبعد عدّة أيام رأى بعض أهل عكّا ممّن كانوا عند حافة الماء جثة مسجّاة على الشاطىء. وإذ اقتربوا منها عرفوا أنها جثة عيسى السبّاح وكان المال

والشمع الذي خُتمت به الرسائل لا يـزالان عالقـين بحزامـه ـ فهل رؤي يوماً رجل يؤدّي مهمّته حتى بعد مماته، وبنفس الأمانة المعروفة عنه لو ظلّ حيّاً؟».

إنّ بطولة بعض المحاربين العرب لا تكفي. فوضع حامية عكّا بات في غاية الحَرَج. وفي أوائل صيف ١١٩١ م لم تَعُدْ نداءات المحاصَرين سوى صرخـات قنوط: «خـارت قوانـا وليس لنا سـوى التسليم. وإذا لم تفعلوا شيئاً من أجلنا فإننا سنـطلب الأمان من غيرنا ونسلّم المـدينة». واستسلم صلاح الدين لـلانهيار. وإذ فَقَـد كلّ أمـل خُلّب بإنقـاذ المدينـة فقد بكى بـدمع سخـين. وخاف خـواصّه عـلى صحّته ووصف لـه الأطبـاء أشربـة لتهـدئته. وطلب من جميـع المنادين أن ينـادوا في كـل أرجـاء المعسكـر أنّ هجوماً شاملاً سيُشنّ لإنقاذ عكّا. ولكنّ أمراءه لم يوافقـوه الرأي وقـالوا: «لمـاذا نعرّض جيش المسلمـين برمتـه للخطر بـلا جدوى؟» فـالفرنـج قـد أصبحوا من الكثرة والمَنَعَة بحيث غدا أي هجوم عمليّة انتحار.

وبعد حصار دام سنتـين برزت فجـأة في الحادي عشر من تمـوز/يوليـة ١١٩١ م أعلام صليبيّة على أسوار عكّا.

«كان الفرنج يهلّلون والناس في معسكرنا قد أصيبوا بـالخبال. فـالجنود يبكـون وينتحبون، والسلطان كـالأم الثكلى. وذهبت لـرؤيته جـاهـداً في إدخال العزاء عـلى قلبه، وقلت لـه إنه ينبغي عليـه بعد الآن أن يفكـر في مستقبل القدس والمدن الساحلية، ويهتمّ بمصير أسرى المسلمين في عكا».

وتعالى صلاح الدين على تعاسته وأرسل إلى ريكاردوس رسولاً لمناقشـة شروط تحرير الأسرى. ولكنّ الانكليـزي كان عـلى عجلة من أمره، فقـد عزم على استغلال نجاحه لشنّ هجوم واسـع، وليس عنده وقت لـلاهتمام بـالأسرى أكثر من اهتـمام السلطان قبل أربـع سنوات حـين كـانت المـدن الفرنجية تتساقط الواحدة تلوى الأخرى في يديه. والفـرق الوحيـد هو أن صلاح الدين لم يكن يريد إثقـال نفسه بـالأسرى فكان يُـطلق سراحهم، بينـما يفضّل هـو ريكاردوس إبـادتهم. وجُمع ألفـان وسبعمئـة جنـدي من

حامية عكا عند الأسوار ومعهم ثلاثمئة امرأة وطفل من أُسَرهم، وربطوا بالحبال فلا يؤلّفون إلا كتلة بشرية واحدة وقُدّموا إلى المقاتلين الفرنج الذين انهالوا عليهم بسيوفهم ورماحهم، وحتى بالحجارة، إلى أن لم تَعُدْ تُسمع أيّة آهة.

وإذ حلّ ريكاردوس هذه المعضلة على عجل فقد غادر عكا على رأس عساكره، وتوجّه صوب الجنوب بمحاذاة الساحل يتبعه أسطوله عن كثب في الوقت الذي كان صلاح الدين يسلك طريقاً موازياً داخل البلاد. وتعدّدت المواجهات بين الجيشين، ولكنّ أيّاً منها لم تكن حاسمة. وأصبح السلطان مقتنعاً الآن بأنه ليس في وسعه منع الغُزاة من استعادة السيطرة على الساحل الفلسطيني، وبدرجة أقل تدمير جيشهم. وانحصر طموحه في احتوائهم والحؤول مهما كلّف الأمر بينهم وبين بلوغ القدس التي ستكون خسارتها فادحة جدّاً على المسلمين. وأحسّ بأنه يعيش أحلك ساعات حياته العسكرية. ومع أنّه كان شديد التهالك فقد جهد في المحافظة على معنويّات جيوشه وخواصّه. واعترف أمام هؤلاء الأخيرين أنّه نزلت به كوارث فادحة، ولكنّه قال لهم إنّه وشعبه وُجدوا هنا ليبقَوْا، في حين أنّ ملوك الفرنج لا عمل لهم سوى الاشتراك في حملة لن تلبث أن تنتهي عاجلاً أو آجلاً. ألم يغادر ملك فرنسا فلسطين في آب بعد أن أمضى مئة يوم في الشرق؟ ألم يردّد ملك إنكلترا غير مرّة أنه يستعجل العودة إلى مملكته البعيدة؟

وكان ريكاردوس يضاعف من جهة أخرى الانفتاحات الدبلوماسية. ففي حين كانت جيوشه قد حازت بعض الانتصارات في أيلول/سبتمبر ١١٩١ م، ولا سيّما في سهل أرسوف الساحلي شمالي يافا، كان يلح على الملك العادل في عقد اتفاق سريع. وقد قال له في بعض كتبه:

«مات رجالنا ورجالكم ودُمّرت البلاد وأفلت زمام الأمور تماماً من أيدينا جميعاً. أفلا تظنّ أنّ ذلك يكفي؟ ومن جهتنا فليس هناك خلاف إلا على ثلاثة: القدس وصليب المسيح والأرض.

«فأمّا القدس فمحلّ عبادتنا ولا نقبل أبداً بالعدول عنها حتّى وإن لزم أن نقاتل إلى آخر رجل فينا. وأمّا الأرض فنريد أن يُعاد إلينا ما هو واقع غربي نهر الاردن. وأمّا الصليب فليس في نظركم أكثر من قطعة من الخشب، بينما قيمته في نظرنا لا تقدّر بثمن. فليعطِنا السلطان إيّاه. ولننتهِ من هذا العراك المضني».

ونقل العادل الأمر على الفور إلى أخيه الذي استشار معاونيه الرئيسيين قبل إملاء الجواب:

«المدينة المقدسة لنا بقدر ما هي لكم؛ بل هي أهمّ لنا ممّا هي لكم لأن نبينا أسرى إليها إسراءه الـمُعْجِز. وإليها تُحشر أمّتنا يوم القيامة، وعليه فإنّ أمر تركها غير وارد في حسابنا، فالمسلمون لا يقبلون قطّ بذلك. وأمّا الأرض فطالما كانت أرضنا، واحتلالكم إيّاها ليس إلا عَرَضاً. ولقد أقمتم فيها بسبب ضعف المسلمين الذين كانوا فيها؛ أما والحرب قائمة فإننا لن نسمح لكم بالتمتّع بما ملكتم. وأمّا الصليب فامتياز في أيدينا ولا نتخلّى عنه إلاّ في مقابل تنازل مهمّ لمصلحة الإسلام».

ينبغي ألا تخدعنا صرامة الرسالتين. فإذا كان كل واحد يقدّم مطالبه القصوى فإنه واضح أن طريق التسوية غير مسدود. والحقّ أن ريكاردوس لم يلبث أن أبلغ أخا صلاح الدين عرضاً عجيباً للغاية. ويروي بهاء الدين فيقول:

«استدعاني العادل ليبلغني نتائج اتّصالاته الأخيرة. وكان الاتفاق المرتجى يقضي بأن يتزوّج العادل أخت ملك إنكلترا، وكانت هذه قد زوّجت إلى صاحب صقلّية ومات. وعليه فقد صحب الإنكليزي أخته إلى الشرق وهو يقترح تزويجها بالعادل ويقيم الزوجان في القدس. ويعطي الملك الأراضي التي يحكمها من عكا إلى عسقلان إلى أخته فتصبح ملِكة الساحل. ويتنازل السلطان عمّا يملكه من الساحل لأخيه فيصبح ملِك الساحل. ويُعْهَد إليهما بالصليب ويُطلق سراح الأسرى من

الفريقين. وعندما يُبرم الصلح يعود ملك إنكلترا إلى بلاده وراء البحار».

والظاهر أن العرض أغرى العادل، فهو يوصي بهاء الدين ببذل كل ما في وسعه لإقناع صلاح الدين. ويَعِدُ المؤرخ بذلك:

«تقدّمت من السلطان وردّدت على مسامعه ما سمعت، فقال لي على الفور إنه لا يمانع، ولكنّه يرى أنّ ملك إنكلترا نفسه لا يقبل أبداً بمثل هذا التدبير، وأنّ الأمر لا يعدو أن يكون دعابة أو خديعة. وطلبت إليه ثلاث مرّات تأكيد موافقته ففعل. ورجعت إلى العادل أنبئه بموافقة السلطان فما أسرع ما أرسل رسولاً إلى معسكر العدو لنقل الجواب. ولكنّ الإنكليزي الملعون قال له إنّ أخته غضبت غضباً شديداً عندما عرض عليها الاقتراح؛ وقد أقسمت ألّا تبيح نفسها لمسلم أبداً».

لقد حزر صلاح الدين، فقد كان ريكاردوس يخادع. وكان يرجو أن يعارض السلطان مشروعه برّمته فينزعج العادل لذلك أشدّ الانزعاج. وعلى العكس من ذلك فإنّ صلاح الدين بقبوله أكره المِلك الفرنجي على فضح لعبته المزدوجة. فقد جهد ريكاردوس في الواقع في إقامة علاقات مميّزة مع العادل بمناداته «أخي» مدغدغاً طموحه، محاولاً استخدامه ضد صلاح الدين. وتلك من أساليب الحرب الجيّدة، والسلطان يستخدم من ناحيته أساليب مماثلة. ففي موازاة مفاوضاته مع ريكاردوس كان يُجري محادثات مع صاحب صور «المركيش» كونراد الذي يقيم علاقات شديدة التوتّر مع الملك الإنكليزي متّهماً إيّاه بالسعي لحرمانه من ممتلكاته. ولسوف يذهب إلى حدّ اقتراح حلف على صلاح الدين ضد «فرنج البحر». وقد استخدم السلطان الاقتراح من غير أن يأخذه بمعناه الحرفي لزيادة ضغطه الدبلوماسي على ريكاردوس الساخط على سياسة المركيز إلى حدّ أنه سعى إلى قتله بعد بضعة أشهر!

وإذ خابت مناورة ملك إنكلترا فقد طلب إلى العادل أن يُعدّ له مقابلة مع صلاح الدين. ولكنّ جواب هذا كان نفس الجواب الذي أعطاه قبل بضعة أشهر:

«لا يلتقي الملوك إلا بعد اتّفاق». وقد أضاف «وعلى كل حال فأنا لا أفهم لغتك وأنت تجهل لغتي، ونحن بحاجة إلى ترجمان نثق فيه كلانا. فليكن هذا الرجل إذن رسولاً بيننا، وعندما نتمكن من التفاهم نجتمع وتسود الصداقة بيننا».

لسوف تطول المفاوضات عاماً آخر. وصلاح الدين المتحصّن في القدس يترك الوقت يمضي. واقتراحاته للسلام بسيطة: يحتفظ كل فريق بما يملك؛ ليأتِ الفرنج بلا أسلحة إذا كانوا يرجون حجّ المدينة المقدّسة، ولكنّ هذه ستبقى في أيدي المسلمين. وحاول ريكاردوس الذي يتحرّق للعودة إلى بلاده أن ينتزع القرار بالمسير مرّتين باتجاه القدس من غير أن يهاجمها. ولكي ينفّس طاقته العارمة فقد اندفع طوال أشهر في بناء قلعة رائعة في عسقلان كان يحلم بالانطلاق منها في حملة مقبلة إلى مصر. وما إن انتهى العمل فيها طالبه صلاح الدين بتفكيكها حجراً حجراً قبل إبرام الصلح.

وفي آب/أغسطس ١١٩٢ م فَقَد ريكاردوس كل سيطرة على أعصابه واعتّلت صحته اعتلالاً ينذر بالخطر. وإذ كان كثيرٌ من الفرسان قد تخلّوا عنه آخذين عليه عدم سعيه إلى استعادة القدس، متّهمين إيّاه بقتل كونراد، وكان أصدقاؤه يستعجلون عودته إلى إنكلترا من غير إبطاء، فإنه لم يعد في وسعه تأخير رحيله. وها هوذا يتوسّل تقريباً إلى صلاح الدين أن يُبقي عليه عسقلان. ولكنّ الجواب كان بالسلب. وعندها أرسل رسالة جديدة مكرّراً فيها طلبه ومؤكداً أنّه إن لم يُعقد صلح ملائم خلال ستة أيام «وجد نفسه مضطراً إلى قضاء الشتاء هنا». وحمل هذا التحذير المبطّن صلاح الدين على الابتسام فدعا الرسول إلى الجلوس وقال له: «تقول لمليكك إنّي لا أتنازل عن عسقلان. وأمّا بشأن مشروعه قضاء الشتاء في هذه البلاد فأظن أنه لا بدّ من ذلك لأنّه يعرف أن هذه الأرض التي استولى عليها سوف تُستعاد ما إن يرحل. بل إنّه من الممكن استردادها من غير أن يرحل. فهل يرغب حقّاً في قضاء الشتاء هنا على بُعْد شهرين

من أسرته وبلاده في حين أنّه في عنفوان الشباب وفي مقدوره التمتّع بلذّات الحياة؟ أنا من جهتي قادر على قضاء الشتاء ثم الصيف ثم شتاء آخر ثم صيف آخر لأنّي في بلدي بين أولادي وأهلي الذين يَرْعَوْنني بعنايتهم، وعندي جيش للصيف وآخر للشتاء. وأنا رجل مسنّ ليس له شأن بمتاع الدنيا. وهكذا سأنتظر إلى أن يُؤتي الله نصره أحدنا».

وإذ تأثّر ريكاردوس على ما يبدو بهذا الكلام فقد أرسل يخبر في الأيّام التي تلت باستعداده للعدول عن عسقلان. وتمّ في أوائل أيلول/سبتمبر ١١٩٢ م عقد صلح مدّته خمس سنوات ومُفاده أن يحتفظ الفرنج بالمنطقة الساحلية من صور حتّى يافا ويعترفوا بسلطة صلاح الدين على سائر البلاد بما فيها القدس. وهرع المحاربون الغربيّون وقد حصلوا على أذون من السلطان إلى المدينة المقدّسة للصلاة على قبر المسيح. وكان صلاح الدين يستقبل المهمّين منهم بما يليق بمقامهم داعياً إيّاهم إلى مقاسمته طعامه ومؤكداً لهم رغبته الصادقة في المحافظة على حرّية العبادة. ولكنّ ريكاردوس ظلّ يرفض الذهاب إلى هناك، فهو لا يريد أن يكون مدعوّاً في مدينة كان يَعِدُ نفسه بدخولها فاتحاً. وغادر أرض الشرق بعد شهر من إبرام الصلح من غير أن يرى كنيسة القيامة ولا صلاح الدين.

لقد خرج السلطان في النهاية رابحاً من تلك المواجهة الشاقّة مع الغرب. وقد استعاد الفرنج بالطبع السيطرة على بضع مدن وحصلوا بذلك على تأجيل قارَب مئة سنة، ولكنّهم لن يشكّلوا أبداً قوّة قادرة على إملاء قانونها على العالم العربي، ولن يمارسوا كذلك الحكم في دول حقيقية، وإنما في منشآت ليس إلا.

وعلى الرغم من هذا النجاح فقد أحسّ صلاح الدين أنه مضعضع ومستضعف بعض الشيء. فهو لم يعد يشبه قطّ بطل حطّين الأخّاذ. وقد ضعُفِ سلطانه على أمرائه وازداد لذع ناقديه وثالبيه وساءت صحّته التي لم تكن يوماً ممتازة والحقّ يُقال. فمنذ سنوات وهو مضطر لاستشارة أطبّاء البلاط في دمشق والقاهرة بشكل منتظم. وفي العاصمة المصرية أفاد

بشكـل خاصّ من خـدمات طبيب ذائع الصيت قادم من إسبـانيا، وهـو يهوديّ يدعى موسى بن ميمون ويُعـرف في الغرب بـاسم «ميمونيـد». ولا يمكن إغفال إصابته طوال أصعب سنوات العراك مع الفرنـج بنوبـات من حمّى الملاريا كانت تُجبره على ملازمة السرير أياماً طويلة. ومع ذلك فإنّ ما كان يُقلق الأطبّاء في عام ١١٩٢ م لم يكن تطوّر مـرض بعينه، وإنمـا كان ضعفـاً عامـاً، نوعـاً من شيخوخـة مبكّرة كـان يلاحـظها كـلّ من يخـالط السلطان. ولم يكن عمر صلاح الدين سوى خمسة وخمسين عاماً، وأمّا هو فكان يرى أنه قد بلغ أجله.

* * *

لقـد أمضى صلاح الـدين أيامـه الأخيرة بسـلام وسط ذويه في مـدينته الأثـيرة دمشق. ولم يكن بهاء الـدين يفارقـه مسجّلاً بحنـوّ كل حـركة من حركاته. وفي الثامن عشر من شباط/فبراير ١١٩٣ م زاره في حديقة قصره بالقلعة.

«كان السلطان جالساً في الظلّ يحيط به الصغار من أبنائه. وسأل عمنّ ينتظره في الداخل فأجابوه: «رُسُلٌ فرنـج وجماعـة من الأمراء والأعيـان». فـاستدعى الفـرنج. وعنـدما مثلوا أمـامه كـان في حجـره أحـد صبيـانـه الصغار، الأمير أبو بكر، وكان يحبّه كثيراً. وإذ رأى الصبي منظر الفـرنج بوجوههم الـمُـرْد وقَصّة شعـورهم وملابسهم الغـريبة فقـد شرع يبكي. واستأذن السلطان من الفرنـج وأعلن انتهاء المقـابلة من غير أن يكـون قد استمع إلى ما يريدون قوله، ثم قال لي: «هل أكلت شيئاً اليوم؟» وكانت تلك طريقته في الدعوة إلى الـطعام. وأضـاف: «ليؤتَ لنا بشيء نـأكله». وقُدّم لنا أرزّ ولبن رائب وأطعمة خفيفة أخرى فأكل. وطمأنني ذلـك لأنّي كنت أظنّ أنه فَقَد قابليته للطعام. فقد كان يشعر منذ زمن بأنـه مُثقل ولم يكن يستـطيع أن يـزدرد شيئاً. وكـان ينتقل بمشقّـة ويعتـذر للنـاس عـلى ذلك».

وفي يـوم الخميس ذاك شعر صـلاح الدين بـأنه في حـال حسنـة تؤهّله

حتى لركوب فرسه واستقبال قافلة من الحجيج كانت رجعت من مكّة. ولكنّه تعذّر عليه بعد يومين أن ينهض، وغام شيئاً فشيئاً في ما يشبه السُبات، وبلغت لحظات وعيه حدّ النُدرة. وإذ ذاع خبر مرضه في أرجاء المدينة فقد خشي الدمشقيون أن يغرق بلدهم عمّا قريب في الفوضى.

«سُحبت الأقمشة من الأسواق خوفاً من النهب. وكنت حين أغادر السلطان في المساء عائداً إلى منزلي يحتشد الناس في طريقي ويتفرّسون في وجهي ليروا إذا كان المقدّر قد وقع».

وفي مساء الثاني من آذار/مارس أقبل على حجرة المريض نسوة القصر عاجزات عن حبس دموعهن. وكانت حالة صلاح الدين من الدقّة بحيث طلب ابنه البكر «الأفضل» من بهاء الدين وشخص آخر من معاوني السلطان هو القاضي الفاضل أن يقضيا الليل في القلعة. وأجاب القاضي بأنّه ليس من الحزم أن نفعل لأن الناس إذا لم يرونا نخرج ظنّوا السوء، وقد يقع النهب. وأُحضر للسهر على المريض شيخ من حفظة القرآن يسكن داخل القلعة «فأخذ يتلو ما يتيسّر له من الآيات ويذكر الله ويوم الحساب، والسلطان ممدّد في فراشه فاقد الوعي. وحين عدت في صباح اليوم التالي كان قد مات رحمه الله. وقد أخبروني أنه حين قرأ القارىء قول الله تعالى (لا إله إلا هو عليه توكّلت) تبسّم السلطان وتهلّل وجهه وأسلم الروح».

وما إن عُرف نبأ موته حتى توجّه عدد كبير من الدمشقيين إلى القلعة، ولكنّ الحرّاس منعوهم من دخولها. وكان كبار الأمراء وأكابر العلماء هم وحدهم الذين أُذن لهم بتقديم التعازي إلى الأفضل ابن السلطان الراحل البكر الجالس في إحدى قاعات الاستقبال في القصر. ودُعي الشعراء والخطباء إلى التزام الصمت، وخرج أصغر أولاد صلاح الدين إلى الشارع واختلطوا بسواد الناس وهم ينتحبون. ويقول بهاء الدين:

«واستمرت هذه المشاهد التي تقطّع نياط القلب إلى صلاة الظهر

فغُسل الجثمان وكُفّن؛ وقد استُعير كلّ ما يلزم لـذلك لأن السلطان لم يكن يملك شيئاً لنفسه. وعلى الرغم من أنّني دعيت لحضور الغسل الذي تولاه الفقيه الدولعي فإن نفسي لم تطاوعني على ذلك. وبعد صلاة الـظهر أبـرز جسمه في نعشه في تابوت. وأخذ الناس في العويل والانتحاب والدعاء له والابتهال. ثم نقل جثمان السلطان إلى حدائق القصر حيث كان يُعالج في أثناء مرضه ودُفن في الجناح الغربي عند صـلاة العصر، قدّس الله روحـه وأكرم مثواه».

الفصل الثاني عشر

العادل والكامل

كانت الحرب الأهلية هي خليفة صلاح الدين المباشر، شأنه في ذلك شأن جميع القادة المسلمين في عصره. فما إن غاب حتى انقسمت الإمبراطورية، فأخذ أحد أبنائه مصر وثانٍ دمشق وثالث حلب. ومن حسن الطالع أنّ معظم أبنائه الذكور السبعة عشر وابنته الوحيدة كانوا لا يزالون صغاراً على القتال، الأمر الذي حدّ شيئاً من أمر التفتيت. ولكنّ السلطان ترك أيضاً شقيقين وعدّة أبناء أخ، وكلّهم يريدون نصيبهم من الإرث، بل التركة بأكملها إن أمكن. وقد استلزم الأمر زهاء تسعة أعوام من القتال والتحالف والخيانة والقتل قبل أن تخضع الإمبراطوريّة الأيّوبية من جديد لقائد أوحد هو «العادل» الذي كان ذات يوم على وشك مصاهرة ريكاردوس قلب الأسد.

وكان صلاح الدين يَحْذَرُ قليلاً أخاه الأصغر الطليّ الحديث، الكثير المكائد والطموح، المبالغ في التعاطف مع الغربيّين. ولذلك فقد عهد إليه بإقطاعة ليست على قدر كبير من الأهمية: الحصون المنتزعة من رينو دو شاتيّون على ضفة الأردن الشرقية. وكان السلطان يقدّر أن ليس في وسع أخيه أن يطمع في حكم الإمبراطورية انطلاقاً من تلك الأرض المجدبة التي تكاد تكون غير مأهولة. ولكنّ ذلك جهْلٌ بأمره. ففي تموز/يوليه ١١٩٦ م انتزع العادل دمشق من الأفضل. وقد بدا ابن صلاح الدين البكر، وعمره ستة وعشرون عاماً، عاجزاً عجزاً كاملاً عن الحكم. وإذ عَهِد بالنفوذ الفعلي إلى وزيره ضياء الدين بن الأثير أخي المؤرّخ فقد

انصرف إلى معاقرة الخمر وملذّات الحريم. ولقد تخلّص عمّه منه بمؤامرة ونفاه إلى قلعة صلخد حيث ندم وتاب وعاهد على ترك حياة المجون والانقطاع للصلاة والتفكّر. وفي تشرين الثاني/نوفمبر ١١٩٨ م قُتِل ابن آخرُ من أبناء صلاح الدين، هو العزيز صاحب مصر، إذ وقع عن حصانه في أثناء عملية صيد للذئاب بجوار الأهرام. ولم يستطع الأفضل مقاومة الإغراء بترك عزلته وتسلّم مقاليد الخلافة، ولكنّ عمّه لم يجد أية صعوبة في انتزاع مُلْكه الجديد منه وإعادته إلى حياة الزهد. وابتداء من عام ١٢٠٢ م أصبح العادل وهو في السابعة والخمسين من العمر سيّد الإمبراطورية الأيّوبية غير مُدافَع.

وإذا لم يكن له عبقرية أخيه الشهير ولا سحر شخصيته فإنه خيرٌ منه إدارةً. وقد عرف العالم العربي تحت لوائه عصراً من السلام والازدهار والتسامح. وإذ قدّر السلطان الجديد أنّه لم يعد هناك سبب للجهاد بعد استرجاع القدس وضعف الفرنج فقد التزم نحو هؤلاء سياسة تعايش وتبادل تجاري؛ حتى إنه شجّع إقامة عدّةمئات من التجّار الإيطاليين في مصر. ولسوف يَريْن على الجبهة العربية ـ الفرنجية خلال عدّة سنوات سلام لم يُعرف له مثيل من قبل.

وفي مرحلة أولى، وكان الأيوبيون غارقين في صراعاتهم، حاول الفرنج أن يُعيدوا بعض النظام إلى أملاكهم المبتورة بشكل خطير. وكان ريكاردوس قد عهد قبل مغادرته الشرق بمملكة القدس التي غدت عاصمتها عكا إلى أحد أبناء أخيه «الكوندهري»، أو (الكُندهري)، أي «الكونت هنري دو شامپاني». وأمّا «غي دو لوزتيان» الذي ذهب اعتباره بعد هزيمة حطّين فقد نُفي محاطاً بالإجلال وهو يغدو مَلِكَ قبرص حيث ستحكم سلالته طوال أربعة قرون. ولكي يعوّض هنري دو شامپاني ضعف دولته فقد سعى إلى عقد حلف مع الحشاشين، وذهب بنفسه إلى إحدى قلاعهم، الكهف، لملاقاة زعيمهم الأكبر. وكان سنان شيخ الجبل قد توفي قبل ذلك بقليل، ولكنّ خليفته كان يتمتع بالسلطة المطلقة نفسها

على الجماعة. ولكي يثبت ذلك للزائر الفرنجي فإنه أمر اثنين من أتباعه بالقفز من فوق الأسوار ففعلا بلا أيّ تردد، بل إنّه كان يتهيّأ لمتابعة المذبحة لو لم يتوسّل إليه هنري أن يتوقّف. وأبرمت معاهدة تحالف، ولكي يُكرم الحشّاشون ضيفهم سألوه عمّا إذا لم يكن في ودّه أن يعهد إليهم بعملية قتل. وشكرهم هنري واعداً إيّاهم باللجوء إلى خدماتهم حين تسنح الفرصة. ومن سخريات القدر أنّ ابن أخي ريكاردوس مات في العاشر من كانون أيلول/سبتمبر ١١٩٧ م إثر سقوطه المفجع من إحدى نوافذ قصره في عكا.

وحدثت خلال الأسابيع التي تلت موته المواجهات الجدّية الوحيدة التي طبعت تلك الحقبة. فقد استولى بعض الحجّاج الألمان المتعصبين على صيدا وبيروت قبل أن يُمزّقوا إرباً على طريق القدس فيما كان العادل يستعيد في الوقت نفسه يافا. ولكنّ معاهدة جديدة مدّتها خمس سنوات وثمانية أشهر أبرمت في أول تموز/يولية ١١٩٨ م، وهي هدنة استغلها أخو صلاح الدين لتوطيد سلطانه. وإذ كان رجل دولة نافذ البصيرة فإنه يعلم أنّه لا يكفي بعد الآن التفاهم مع فرنج الساحل لتفادي غزوة جديدة، ولكن ينبغي التوجّه إلى الغرب بالذات. أفلا يكون من المفيد أن يستخدم علاقاته الحسنة بالتجّار الإيطاليين لإقناعهم بوقف سيل المحاربين المتدفّق بلا حسيب ولا رقيب على مصر وبلاد الشام؟

ولقد أوصى ابنه الكامل نائب ملك مصر بأن يُجري في عام ١٢٠٢ م محادثات مع جمهورية البندقية السامية، القوّة البحرية الرئيسية في البحر المتوسط. وإذ كانت الدولتان تتكلمان لغة الواقع العملي والمصالح التجارية فإنه سرعان ما أُبرم اتفاق بينهما. فالكامل يؤمّن للبندقيّين الوصول إلى مرافىء دلتا النيل كالإسكندرية ودمياط ويمنحهم الحماية والمساعدة اللازمة، وتعِد جمهورية الدوجيّة في المقابل بألّا تدعم أيّة حملة غربيّة على مصر. وإذ كان الايطاليون قد وقّعوا مقابل وعد بمبلغ كبير من المال اتفاقاً مع جماعة من الأمراء الغربيين ينصّ بالتحديد على نقل حوالي خمسة

وثلاثين ألف محارب إلى مصر فقد آثروا التكتّم على المعاهدة. ولـمّا كان البندقيون مفاوضين مهرة فقد عزموا على عدم الإخلال بأيّ من التزاميهما.

وحين وصل الفرسان، وكانوا على أهبة ركوب البحر، إلى عاصمة الأدرياتيك استقبلهم الدوج داندولو بالترحاب. وهو، كما يقول ابن الأثير: «شيخ أعمى إذا ركب تُقاد فرسه»(١). وعلى الرغم من سنّه وعاهته فقد أعلن نيته بالاشتراك بنفسه في الحملة تحت لواء الصليب. غير أنّه طالب الفرسان بالمبلغ المتّفق عليه قبل الرحيل. وعندما طلب هؤلاء تأخير الدفع لم يقبل إلا بشرط واحد هو أن تبدأ الحملة باحتلال مرفأ «زارة» الذي ما برح ينافس البنادقة منذ سنوات في الأدرياتيك. ولم يُذعن الفرسان إلاّ بعد كثير من التردّد لأنّ «زارة» مدينة مسيحية تخصّ ملك المجر، وهو خادم أمين لروما، ولكن لم يكن لهم خيار. فالدوج يطالب بهذه الخدمة الصغيرة أو يُدفع على الفور المبلغُ الموعود. وهكذا هوجمت «زارة» ونُهبت في تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٢٠٢ م.

ولكنّ البندقيين كانوا يتطلعون إلى أعلى من ذلك. وها هم أولاء الآن يحاولون إقناع رؤساء الحملة بالانعطاف إلى القسطنطينية لينصّبوا على العرش الإمبراطوري أميراً شاباً محبّذاً للغربيين. وإذا كان هدف الدوج الأخير هو بالطبع منح جمهوريته حقّ السيطرة على البحر المتوسط فإنّ الذرائع التي يقدّمها تتّسم بالمهارة. وإذ استخدم حذر الفرسان تجاه «الهراطقة» الروم، وصوّر لهم كنوز بيزنطة الكبيرة، وشرح لزعمائهم أن السيطرة على عاصمة الروم سوف تتيح لهم شنّ هجمات أكثر فعالية على المسلمين، فقد انتهوا إلى اتخاذ القرار. وكان أن وصل الأسطول البندقيّ إلى القسطنطينية في حزيران/يونيه ١٢٠٣ م. ويقول ابن الأثير:

«وخرج ملك الروم هارباً [من غير أن يقاتل] وجعل الروم الـمُلْك في

(١) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٩، ص ٢٦٤. (المترجم).

ذلك الصبيّ وليس له من الحكم شيء (...) إنما الفرنج هم الحكّام في البلد فثقّلوا الوطأة على أهله وطلبوا منهم أموالاً عجزوا عنها، وأخذوا أموال البِيَع وما فيها من ذهب (...) حتى ما على الصلبان وهو على صورة المسيح عليه السلام (...) فعظُم ذلك على الروم وحملوا منه خطباً عظيماً فعمدوا إلى ذلك الصبي المِلك فقتلوه وأخرجوا الفرنج من البلد وأغلقوا الأبواب (...) وكان الروم قد ضعفوا ضعفاً كثيراً فأرسلوا إلى (...) سليمان بن قلج أرسلان صاحب قونية (...) يستنجدونه فلم يجد إلى ذلك سبيلاً»[1].

ولم يكن الروم بالفعل قادرين على الدفاع عن أنفسهم، لا لأنّ قسماً كبيراً من جيشهم كان من المرتزقة الفرنج وحسب، وإنما لأنّ عدداً كبيراً من عملاء البندقيين كانوا يعملون ضد مصلحة الروم داخل أسوارهم أيضاً. وفي نيسان/أبريل ١٢٠٤ م، وبعد حوالي أسبوع من بدء القتال، اجتيحت المدينة وأُعمل فيها النهب والقتل مدّة ثلاثة أيام. وسُرقت أو حطّمت الأيقونات والتماثيل والكتب وعدد كبير من التحف الفنية، وكلّها شاهدة على الحضارتين الإغريقية والبيزنطية، وذُبح آلاف السكّان. ويروي مؤرّخ الموصل أنّه:

«أصبح الروم كلّهم ما بين قتيل أو فقير لا يملك شيئاً، ودخل جماعة من أعيان الروم الكنيسة العظمى التي تدعى صوفيا فجاء الفرنج إليها فخرج إليهم جماعة من القسيسين والأساقفة والرهبان وبأيديهم الإنجيل والصليب يتوسّلون بهما إلى الفرنج ليُبْقوا عليهم فلم يلتفتوا إليهم وقتلوهم أجمعين ونهبوا الكنيسة»[2].

ويُحكى أيضاً أنّ بَغِيّاً كانت قد قدمت مع الحملة الفرنجية جلست على كرسي البطرك وهي تغنّي أغاني بذيئة في حين كان جنود سكارى ينتهكون أعراض الراهبات الروميّات في الأديرة المجاورة. وكما قال ابن الأثير فقد

(١) «الكامل في التاريخ، بالنص العربي، ج ٩، ص ٢٦٣. (المترجم).
(٢) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٩، ص ٢٦٣/٢٦٤. (المترجم).

تبع نهب القسطنطينية، وهو من أفظع الأعمال المخزية في التاريخ، تنصيب إمبراطور لاتيني من الشرق هو «بودوان دوفلندر» الذي لن يعترف بسلطانه الرومُ أبداً بالطبع. ولسوف يذهب الناجون من البلاط الإمبراطوري للإقامة في نيقية التي ستكون عاصمة الإمبراطورية الرومية المؤقتة حتى استرجاع بيزنطة بعد سبع وخمسين سنة.

وبدلاً من أن توطّد حملة القسطنطينية المجنونة دعائم المنشآت الفرنجية في بلاد الشام فقد أصابتها بضربة قاصمة. والحقّ أنّ الأرض الرومية كانت تُغدِق أفضل الأماني على أولئك الفرسان الكثيرين الذين جاءوا للبحث عن الثروة في الشرق. فهناك إقطاعات معدَّة للاغتصاب وثروات برسم الجمع، في حين لا يستهوي المغامرين شيءٌ في ذلك الشريط الساحلي الضيّق حول عكا وطرابلس وأنطاكية. ولقد حرم انعطاف الحملة في الوقت الحاضر فرنج الشام من الأمْداد التي كان من الممكن أن تسمح لهم بمحاولة القيام بعملية جديدة تستهدف القدس، وأرغمهم على أن يطلبوا من السلطان في عام ١٢٠٤ م تجديد الهدنة. وهذا ما قبِل به العادل لمدة ست سنوات. وعلى الرغم من أن أخا صلاح الدين قد غدا في ذروة قوّته فإنه لم يكن في نيّته على الإطلاق الاندفاعُ في مشروع لاستعادة ما أُخذ. ولم يكن وجود الفرنج على الساحل ليزعجه بأي شكل.

وكان فرنج الشام في معظمهم راغبين في أن يطول السلام. وأمّا وراء البحار، ولا سيّما في روما، فلم يكن الناس يفكرّون إلا في استئناف القتال. وفي عام ١٢١٠ م انتقلت مملكة عكا على أثر عقد زواج إلى «جان دوبرين»، وهو فارس في الستين من العمر كان قد وصل حديثاً من الغرب. وعلى الرغم من أنّه كان قد رضخ لتجديد الهدنة مدّة خمسة أعوام في تموز/يولية ١٢١٢م فإنّه لم ينفكّ يرسل الرُسُل إلى البابا حاثّاً إياه على الإسراع في تجهيز حملة قويّة بحيث يكون في الإمكان شنّ هجوم اعتباراً من صيف عام ١٢١٧ م. وبالفعل فقد وصلت طلائع سفن

الحجّاج المسلّحين إلى عكا بشيء قليل من التأخير، أي في شهر أيلول/سبتمبر. وما لبثت أن لحقت بها مئات أخرى من السفن. وبدأ في نيسان/أبريل ١٢١٨ م غزو فرنجي جديد هدفه مصر.

* * *

دهش العادل لهذا الاعتداء وخاب أمله على الأخصّ من جرّائه. ألم يبذل كل ما في وسعه منذ وصوله إلى الحكم، وحتى قبل ذلك أيامَ المفاوضات مع ريكاردوس، لإنهاء حالة الحرب؟ ألم يتحمّل منذ سنين سخرية رجال الدين الذين كانوا يتّهمونه بالتخلّي عن الجهاد بسبب صداقته للرجال الشقر؟ لقد مرّت شهور على هذا الرجل المريض الذي بلغ الثالثة والسبعين من العمر كان يرفض فيها تصديق التقارير التي كانت تتناهى إليه. ولأن تعمد عصابة من الألمان المسعورين إلى نهب بعضِ قرى الجليل فما كان ذلك ليقلقه. ولكنْ أن يشنّ الغرب اجتياحاً شاملاً بعد ربع قرن من السلام فذاك ما يبدو له غير قابل للتصوّر.

ومع ذلك فقد أخذت المعلومات تزداد دقّة ووضوحاً. فهناك عشرات الآلاف من المحاربين الفرنج محتشدون أمام مدينة دمياط التي تتحكّم بمدخل فرع النيل الرئيسي. وقد سار الكامل للقائهم على رأس جيوشه بناء على تعليمات أبيه. وإذ كان يخشى كثرة عددهم فهو يحاول تجنّب مواجهتهم. وقد أقام مخيّمه بحذر جنوبي المرفأ بحيث يساند الحامية من غير أن يضطر إلى خوض معركة منظمة. والمدينة من أحصن مدن مصر، فأسوارها محاطة من الشرق والجنوب بشريط ضيّق من المستنقعات، في حين يؤمّن النيل في الشمال والغرب خطّ ارتباط دائم بداخل البلاد. وعليه فإنه ليس في وسع العدو حصارها بشكل فعّال ما لم يؤمّن لنفسه إمكان التحكّم بالنهر. وتملك المدينة لاتّقاء مثل هذا الخطر جهازاً في غاية البراعة ليس سوى سلسلة ضخمة من الحديد معلّقة من أحد طرفيها بالأسوار وبالطرف الآخر بحصن مبنيّ على جزيرة صغيرة قريبة من الضفّة المقابلة، وهي تقطع طريق الوصول إلى النيل. وإذ لاحظ الفرنج أنه ليس

في إمكـان أيـة سفينـة العبـور إذا لم تُفـكّ السلسلة فقـد هـاجمـوا الحصن بضراوة. ورُدّت جميع هجماتهم طـوال ثلاثـة أشهـر حتى اهتـدوا إلى وَسْق سفينتين كبيرتين وأقامـوا فوقهـما نوعـاً من برج عـائم يبلغ ارتفاعـه ارتفاع الحصن. وأخذوه عَنْوة في الخامس والعشرين من آب/اغسطس ١٢١٨ م وفُكّت السلسلة.

وعنـدما حملت بعـد أيام حمـامة من حمـام الزاجـل نبأ تلك الهـزيمة إلى دمشق تكدّر العادل أشدّ الكدر. فقد كان جليّاً أنّ سقوط الحصن سـوف يجـرّ سقوط دميـاط وأنّ أيـة عقبـة لا يمكن أن تقف في طـريق الغُـزاة إلى القـاهـرة. وبـرزت ضرورة القيـام بحملة طـويلة لم يكن يملك القـوّة ولا الرغبة في القيام بها. وما هي إلا ساعات حتى مات بنوبة قلبية.

ولم تكن الكارثة الحقيقية في نظر المسلمين سقوط الحصن النهـري وإنما موت السلطان العجوز. والواقع أن الكامل تمكّن على الصعيد العسكـري من احتواء العدو وإنزال خسائر فادحة به ومنعه من إكمال حصـار دمياط. وفي المقابل فقد احتدم على الصعيد السياسي الصراع الذي لا يمكن تلافيه على الخلافة بالرغم من الجهود التي كان السلطان قد بـذلها لتجنيب أبنـائه ذلـك المصـير. فقـد قسم مُلكـه في حيـاتـه: فمصر للكـامـل، ودمشق للمُعظّم، والجزيرة للأشرف، وإقطاعات أقـلّ شأنـاً لمن هم أصغر سنـاً. ولكنْ ليس بـالإمكـان إرضـاء جميـع المطامـح: فـلا يمكن تـلافي بعض النـزاعات حتى وإن كـان يسود بـالفعل بـين الإخوة انسجـام نسبي. وفي القاهرة استغلّ عدد كبير من الأمراء غيـاب الكامـل لتنصيب أحد إخـوته الصغـار على العـرش. وكاد الانقـلاب ينجح لـو لم يعرف صـاحب مصر بالأمر وينسَ دمياط والفرنج ويرفع معسكره ويتـوجّهْ إلى عـاصمته لإعـادة النـظام فيها ومعـاقبة المتـآمرين. ولم يلبث الغُـزاة أن احتلّوا المـراكـز التي أخلاها وأصبحت دمياط محاصرة.

وعـلى الرغم من تلقّي الكـامل مسـاندة أخيـه المعظّم الـذي هُرع من دمشق على رأس عساكره فإنّه لم يكن قادراً على إنقاذ المدينة، وبدرجة أقلّ

على وضع حدّ للغزو. وعليه فقد قامت مفاوضات سخيّة بشكل استثنائي لعقد الصلح. وبعد أن طُلب من المعظّم تفكيك تحصينات القدس أرسل رسولاً إلى الفرنج يؤكد لهم استعداده لتسليم المدينة المقدّسة إذا وافقوا على مغادرة مصر. بيد أنّ الفرنج الذين كانوا يشعرون بأنهم في مركز القوة رفضوا أن يفاوضوا. وفي تشرين الأول/أوكتوبر ١٢١٩ م وضّح الكامل عرضه: إنه حاضر لتسليم القدس، بل فلسطين بأسرها حتى غربيّ الأردن، وفوق ذلك كلّه الصليب الحقيقيّ. وكلّف الغُزاة أنفسهم هذه المرّة درس المقترحات. وحبّذ «جان دوبريين» وجميع فرنج الشام العرض. ولكنّ القرار النهائي يعود إلى شخص يدعى «پيلاج»، وهو كاردينال إسباني من أنصار الحرب المقدّسة المغالين، وكان البابا قد عيّنه على رأس الحملة. وقد قال إنه لا يقبل أبداً التفاوض مع العرب. ولكي يؤكد رفضه فقد أمر بالهجوم دون إبطاء على دمياط. وإذ كان القتال والجوع ووباءٌ حلّ حديثاً قد فتكت بالحامية وأنهكتها فإنها لم تُبْدِ أيّة مقاومة.

وأصبح «پيلاج» وقد قرّ رأيه على الاستيلاء على مصر بأكملها. وإذا كان لم يَسِرْ على الفور إلى القاهرة فلأنّه أُعلن بغتةً عن وصول «فريدريك دو هوهنستوفن» ملك ألمانيا وصقلية، وأقوى ملوك الغرب، على رأس حملة عظيمة. وأخذ الكامل الذي كان قد اطلّع بالطبع على تلك الأخبار يستعدّ للحرب. وها هم أولاء رُسُله يجوبون ديار الإسلام داعين الإخوة وأبناء العمومة والحلفاء إلى الإنجاد. ومن جهة ثانية فإنّه بنى غربي الدلتا غير بعيد من الإسكندرية أسطولاً كان من أمره أن فاجأ خلال صيف عام ١٢٢٠ م سفن الغربيين في عُرض المياه القبرصية وأنزل بها هزيمة نكراء. وإذ فقد العدو السيطرة على البحر فقد سارع الكامل يجدّد عرضه للصلح مُضيفاً إليه وعداً بعقد هدنة مدّتها ثلاثون عاماً. ولكنْ عبثاً. فقد رأى «پيلاج» في هذا السخاء الـمُفْرِط دليلاً على أنّ صاحب القاهرة يعاني أشدّ الضيق. ألم تردِ الأخبار بأن فريدريك الثاني قد كُرّس إمبراطوراً في روما

وأقسم على أن يرحل إلى مصر من دون إبطاء؟ أوَلا ينبغي أن يكون هنا في ربيع عام ١٢٢١ م على أقصى حدّ ومعه مئات السفن وعشرات آلاف الجنود؟ وليس على الجيش الفرنجي بانتظار ذلك أن يحارب ولا أن يُسالم.

والحقّ أن فريدريك لم يصل إلا بعد ثمانية أعوام! واصطبر «بيلاج» إلى أوائل الصيف. وفي تموز/يولية ١٢٢١ م غادر الجيش الفرنجي دمياط وقد عقد النيّة على المسير إلى القاهرة. وكان على جنود الكامل في العاصمة المصرية أن يمنعوا الناس بالقوّة من الهرب. ولكنّ السلطان بدا مطمئناً لأن اثنين من إخوته أتيا لإنجاده: الأشرف الذي انضمّ إليه بعسكر الجزيرة لمحاولة منع الغُزاة من بلوغ القاهرة، والمُعظم الذي توجّه بجيشه الشامي إلى الشمال للحؤول ببسالة بين العدو ودمياط. وأمّا الكامل نفسه فقد وقف يرقب عن كثب وبفرحة عارمة فيضان النيل، إذ كان مستوى الماء قد أخذ بالارتفاع من غير أن يتنبّه الغربيّون إلى ذلك. وفي منتصف آب/أغسطس غدت الأراضي موحلة وزلِقة بحيث اضطر الفرسان إلى التوقّف وسحب جيشهم برمته.

وما كاد الانسحاب يبدأ حتى كان نفر من الجنود المصريين قد بادروا من أنفسهم بتحطيم السدود. نحن الآن في السادس والعشرين من شهر آب/أغسطس ١٢٢١ م. وما هي إلا ساعات، وكانت عساكر المسلمين تقطع جميع المنافذ، حتى كان الجيش الفرنجي بأسره غارقاً في بحر من الوحل. وإذ يئس «بيلاج» بعد يومين من إنقاذ جيشه من الفناء فقد أرسل رسولاً إلى الكامل لطلب الصلح. وأملى العاهل الأيوبي شروطه: على الفرنج أن يُخلوا دمياط ويوقعوا هدنة مدّتها ثماني سنوات؛ وبالمقابل يستطيع جيشهم ركوب البحر من غير أن يضايقه أحد. ولم يعُد في الحسبان بالطبع إعطاؤهم القدس.

وبينما كان العرب يحتلفون بهذا النصر المُبين بقدر ما هو غير منتظر كانوا يتساءلون عمّا إذا كان الكامل جادّاً بالفعل في عرضه تسليم المدينة

المقدّسة إلى الفرنج. أفلم يكن ذلك خديعة هدفها كسب الوقت؟ إنّه لن يطول بهم الأمر للتثبّت من ذلك.

* * *

كثيراً ما تساءل صاحب مصر في أثناء أزْمة دمياط الأليمة عن فريدريك الشهير ذاك، «الإنبرور»، الذي كان الفرنج يترقبون وصوله. أيكون حقّاً بالقوّة التي يصوّرونها؟ أيكون عازماً بالفعل على شنّ الحرب المقدّسة على المسلمين؟ وإذ كان الكامل يسأل معاونيه ويستخبر من المسافرين القادمين من صقلّية، هذه الجزيرة التي مَلِكُها فريدريك، فقد كان ينتقل من مفاجأة إلى أخرى. وعندما بلغه في عام ١٢٢٥ م أن الإمبراطور قد تزوّج «يولاند» ابنة «جان دوبريين» وأصبح بذلك ملك القدس قرّر أن يُرسل إليه بعثة من السفراء برئاسة دبلوماسي لبق هو الأمير فخر الدين بن الشيخ. وما إن وصل هذا إلى «پالرمو» حتى ملكت عليه الدهشة نفسه: أجل، كل ما يُقال عن فريدريك صحيح! إنّه يتقن الكتابة والقراءة بالعربية كل الإتقان، ولا يُخفي إعجابه بالحضارة الإسلامية، ويُبدي الاحتقار للغرب البربري، ولا سيّما لبابا رومية العظيمة. وأعوانه الأقربون عرب، وكذلك حرّاسه من الجنود الذين يوجّهون وجوههم في ساعات الصلاة إلى مكّة ويركعون ويسجدون. وإذ كان قد قضى صباه في صقليّة بؤرة العلوم العربية الفضلى فإنّ ذلك الذهن الطُلَعَة لم يكن يشعر بكبير مشاركة للفرنج الخاملين المتعصّبين. وصوت المؤذّن يترجّع في مملكته بلا انقطاع.

وسرعان ما أصبح فخر الدين صديق فريدريك ومستودَع أسراره. وقد اشتدّت عَبْرَهُ الأواصر بين الإمبراطور الجرماني وسلطان القاهرة. وأخذ العاهلان يتبادلان الرسائل التي تتناول بالبحث منطق أرسطو وخلود النفس وأصل الكون. وإذ علم الكامل بولع مراسله بالعناية بالحيوان فقد أهدى إليه دببة وقِردة وجِمالا وكذلك فيلاً عهد به الإمبراطور إلى المسؤولين العرب عن حديقة الحيوانات الخاصّة به. ولم يكن سرور

السلطان بالقليل لوجود مسؤول مستنير في الغرب قادر على أن يفهم مثله عدم الجدوى من تلك الحروب الدينية التي لا تنتهي. وعليه فإنّه لم يتردّد في التعبير لفريدريك عن رغبته في رؤيته قادماً إلى الشرق في المستقبل القريب، وأن يضيف إلى ذلك أنّه سعيد برؤية القدس وقد أصبحت في حوزته.

ويمكن فهم نوبة الكرَم هذه بشكل أفضل عندما يُعلم أنّه في الوقت الذي صيغ فيه ذلك العرض لم تكن المدينة المقدّسة تنتمي إلى الكامل وإنما إلى أخيه المُعظم الذي كان وإيّاه على خصام وفي خَلَد الكامل أن احتلال حليفه فريدريك فلسطين من شأنه إقامة منطقة عازلة تحميه من مشاريع المعظم. وعلى المدى الأطول فإنّ مملكة القدس قادرة إذا أعيد تنشيطها على الحؤول بشكل فعّال بين مصر وشعوب آسيا المحاربة التي أخذ خطرها يتجلّى. وما كان لمسلم مخلص أن يواجه أبداً بمثل هذه البرودة أمر التخلّي عن المدينة المقدّسة، ولكنّ الكامل يختلف اختلافاً تامّاً عن عمّه صلاح الدين. ففي نظره أنّ قضيّة القدس هي قبل شيء قضيّة سياسية وعسكرية، ولا دخل للمظهر الديني في شأنها إلّا بالقدر الذي يؤثر به في الرأي العام. وإذ لم يكن فريدريك يشعر بأنّه أقرب إلى المسيحية منه إلى الإسلام فإنّه سيسلك سلوكاً مماثلاً. وإذا كان راغباً في امتلاك المدينة المقدّسة فما ذاك من أجل الاستغراق في التأمّل فوق قبر المسيح، وإنما لأنّ من شأن مثل هذا الفوز أن يدعم موقفه في صراعه مع البابا الذي كان قد حرمه عقاباً له على إبطائه في الحملة على الشرق.

وعندما نزل الإمبراطور في عكّا في أيلول/سبتمبر ١٢٢٨ م كان مقتنعاً بأنّ في وسعه دخول القدس مظفراً بمعاونة الكامل فيخرس بذلك أعداءه. والحقّ أنّ صاحب القاهرة محرَج إحراجاً مريعاً لأن أحداثاً كانت قد جدّت فقلبت رقعة المنطقة رأساً على عقب. فقد مات المعظم فجأة في تشرين الثاني/نوفمبر ١٢٢٧ م تاركاً دمشق لابنه الناصر، وهو فتى غِرٌّ لا يملك أيّة تجربة. ولم يعد وارداً في حساب الكامل الذي أصبح في إمكانه

التفكير بالاستيلاء بنفسه على دمشق وفلسطين إقامةُ دولة حاجزة بين مصر والشام. وهكذا يمكن الجزم بأن وصول فريدريك الذي جاء يطالبه باسم الصداقة الخالصة بالقدس ما كان ليسرّه قطّ. وإذ كان من الذين يوفون بعهودهم فإنه لا يستطيع نكران وعوده، ولكنّه حاول المراوغة شارحاً للإمبراطور الوضع الذي تغيّر على غير انتظار.

وكان فريدريك الذي جاء بثلاثة آلاف رجل فقط يقدّر أنّ امتلاك القدس ليس سوى أمر شكلي. وهكذا لم يكن في وسعه الاندفاع في سياسة تخويفية وسعى إلى الإلانة الكامل فكتب إليه: إني صديقك، وأنت الذي حرّضني على المجيء. والبابا وجميع ملوك الغرب على علم الآن بهمتي وإذا عدت صفر اليدين فقدت كل اعتبار. فأتوسّل إليك أن تعطيني القدس لأتمكن من الاحتفاظ برأسي مرفوعاً! وتأثّر الكامل، وعليه فقد أرسل إلى فريدريك صديقه فخر الدين محمّلاً بالهدايا ومعه جواب يحتمل معنيين. فقد قال له: عليّ أنا أيضاً أن أحسب حساب الرأي العام. فإذا سلّمت القدس إليك جررت على نفسي محاسبةَ الخليفة إيّاي على عملي وقيامَ عصيان ديني من شأنه إطاحة عرشي. وهكذا كان كل منهما يسعى إلى حفظ ماء وجهه. وبلغت الحال بفريدريك أن توسّل إلى فخر الدين أن يجد له مخرجاً مشرّفاً، فما كان من هذا إلّا أن ألقى إليه بموافقة مسبّقة من السلطان طوقاً للنجاة. «لن يقبل الشعب أبداً بتسليم القدس التي فتحها صلاح الدين فتحاً مبيناً بلا قتال. وإذا كان الاتفاق على المدينة المقدّسة من شأنه في المقابل أن يجنّبنا حرباً دامية. . .» وأدرك الإمبراطور المغزى المراد فابتسم وشكر صديقه على نصحيته وأمر عسكره القليل بالاستعداد للقتال. وبينما كان يسير في نهاية شهر تشرين الثاني/نوفمبر ١٢٢٨ م إلى ميناء يافا بكثير من الأبّهة كان الكامل يذيع في أنحاء البلاد أنه ينبغي الاستعداد لحرب طويلة وقاسية مع ملك الغرب القويّ.

وبعد بضعة أسابيع، ومن غير أن يكون قد جرى أيّ قتال، كان نص

الاتفاق جاهزاً: يحصل فريدريك على القدس وممّر يصلها بالبحر، وعلى بيت لحم والناصرة ونواحي صيدا وقلعة تبنين الحصينة شرقي صور. ويحتفظ المسلمون بوجود لهم في قطاع الحرم الشريف حيث محاربهم الرئيسية. وأُبرمت المعاهدة في الثامن عشر من شباط/فبراير ١٢٢٩ م بين فريدريك والسفير فخر الدين باسم السلطان. وبعد شهر حضر الإمبراطور إلى القدس التي كان الكامل قد أجلى سكّانها المسلمين باستثناء بعض رجال الدين الموكلين بأمكنة العبادة الإسلامية. واستقبله شمس الدين قاضي نابلس وقدّم إليه مفاتيح المدينة وكان دليلَه تقريباً فيها. ويروي القاضي نفسه أخبار هذه الزيارة فيقول:

«عندما قَدِمَ الإنبرور ملك الفرنج إلى القدس بقيتُ معه كما طلب مني الكامل. وقد دخلت معه الحرم الشريف حيث طاف بالمساجد الصغيرة، ثم اتّجهنا إلى المسجد الأقصى فأُعجب بعمارته كما أُعجب بقبّة الصخرة. وفتنه جمال المنبر وصعد درجاته حتى أعلاه، وعندما نزل أخذ بيدي وجرّني من جديد إلى الأقصى. وهناك وجد كاهناً في يده الإنجيل يريد دخول المسجد. وحنق الإنبرور وأخذ يعنفه قائلاً: «ما الذي أتى بك إلى هذا المكان؟ والله لئن تجرّأ أحدكم بعدُ على وطء هذا الموضع دون إذن فقأت عينيه!» وابتعد الكاهن وهو يرتعد. وطلبتُ في تلك الليلة من المؤذّن ألاّ يرفع الأذان كيلا يزعج الإنبرور. ولكنّ هذا سألني عندما أتيت إليه في اليوم التالي قائلاً: «أيها القاضي لماذا لم يرفع المؤذّنون الأذان كعادتهم؟» فأجبت: «أنا الذي منعهم أن يفعلوا إكراماً لجلالتك». فقال الإنبرور: «ما كان ينبغي أن تفعل ذلك لأني إن كنت قد قضيت هذه الليلة في القدس فإنّما لأسمع أذان المؤذّن في الليل».

ولدى زيارة فريدريك لقبّه الصخرة قرأ نقشاً يقول: لقد طهّر صلاح الدين هذه المدينة المقدسة من المشركين. وتعني هذه الكلمة من يُشركون في عبادة الله الواحد آلهة غيره، ولا سيّما أتباع التثليث من النصارى. وتظاهر الإمبراطور بجهل ذلك وسأل بابتسامة مداعبة مضيفيه المُحْرَجين

عمّن يمكن أن يكون أولئك «المشركون». وإذ رأى بعد دقائق شبكة عند مدخل القبّة فقد سأل عن الفائدة منها فقيل له: «لمنع الطيور من دخول هذا الموضع». وعلّق فريدريك قائلاً لمخاطبيه الذين شُدهوا للتلميح إلى الفرنج بالطبع: «ومع هذا فقد سمح الله للخنازير بدخوله!» ويرى مؤرّخ دمشق سبط ابن الجوزي الذي كان في عام ١٢٢٩ م خطيباً مفوّهاً في الثالثة والأربعين من العمر في تلك الخواطر دليلاً على أن فريدريك لم يكن مسيحياً ولا مسلماً، «وإنما هو بالتأكيد ملحد». ويضيف معتمداً على شهادات مَنْ خالطوا الإمبراطور في القدس أنّه «كان أصهب شعر البدن أصلع ضعيف البصر، ولو كان عبداً لما دُفع فيه مئتا دينار».

وتعكس عدائية السبط للإمبراطور شعور الغالبية العظمى من العرب. ولو كانت الظروف غير الظروف لُقدِّر ولا ريب موقفُ الإمبراطور الوديُّ من الإسلام وحضارته. ولكنّ بنود المعاهدة التي أبرمها الكامل أسخطت الرأي العام. ويقول المؤرّخ إنه «ما إن ذاع خبر تسليم المدينة المقدّسة إلى الفرنج حتى عصفت ببلاد المسلمين العواصف، فلبس الناس السواد بسبب الحادث الجلل وطافوا في الشوارع». واجتمع الناس في المساجد ببغداد والموصل وحلب مستنكرين خيانة الكامل. ومع ذلك فقد كان أعنف ردود الفعل في دمشق. ويروي السبط ذلك فيقول: «طلب مني الملك الناصر أن أجمع الناس في المسجد الجامع بدمشق وأحدّثهم عمّا جرى في القدس. ولم يكن في وسعي إلّا القبول لأنّ واجبي الديني كان يملي عليّ ذلك».

لقد صعد المؤرّخ ـ الواعظ المنبر بحضور حشد حانق وقد اعتمر عمامة سوداء فقال: «لقد حطّم الخبر المشؤوم الذي تلقّيناه أفئدتنا، فلن يستطيع حجّاجنا الذهابَ إلى القدس، ولن تتلى آيات القرآن في مدارسها. فيا لخزي المسلمين ويا لعارهم!» وقد شهد الناصر بنفسه تلك المظاهرة. واندلعت بينه وبين عمّه حرب مفتوحة، ولا سيّما أنّه حين كان هذا يسلّم القدس إلى فريدريك كان الجيش المصري يفرض حصاراً قاسياً على

دمشق. وقد غدت مقارعة خيانة صاحب القاهرة في نظر أهل العاصمة الشاميّة المتراصينّ حول عاهلهم الشاب موضوع تعبئة واحتشاد. ومع ذلك فإنّ بلاغة السبط لن تكفي لإنقاذ دمشق. وإذ كان الكامل يملك تفّوقاً عددياً ساحقاً فقد خرج من تلك المواجهة منتصراً حاصلاً على استسلام المدينة مُعيداً لمصلحته وحدةَ الإمبراطورية الأيّوبية.

وكان على الناصر أن يغادر عاصمته اعتباراً من حزيران/يونية ١٢٢٩ م. وإذ كان مُفعَم النفس بالمرارة من غير أن يعرف اليأس على الاطلاق فقد أقام في شرقي الأردن في حصن الكرك حيث سيكون طوال أعوام الهدنة رمز المصابرة في وجه العدو. وظلّ عدد كبير من الدمشقيين متعلّقين بشخصه، ولم يفقد عددٌ كبير من المناضلين المتديّنين الذين خيّبت آمالهم سياسةُ الأيوبيّين الآخرين المغاليةُ في التوافق رجاءهم بفضل ذلك الأمير الشاب المتحمّس الذي كان يحّرض أنداده على مواصلة الجهاد ضد الغُزاة. وقد كتب يقول: «ومن غيري يبذل قصارى جهده لحفظ الإسلام؟ ومن غيري يقاتل دائماً في سبيل الله؟» وفي تشرين الثاني/نوفمبر ١٢٣٩ م، أي بعد مئة يوم على انتهاء مدة الهدنة استولى الناصر على القدس بفضل غارة مباغتة. وعمّت الفرحة العالم العربي برمته، وأخذ الشعراء يشبّهون المنتصر بعمّ أبيه صلاح الدين ويُزجون له الشكر على غسله العار الذي سبّبته خيانة الكامل.

ومع ذلك فإنّ مِنْ يمتدحون الناصر يَنْسَوْن أن يذكروا أنه تصالح مع صاحب القاهرة قبل موت هذا بقليل عام ١٢٣٨ م آملاً ولا شكّ في أن يُعيد إليه بذلك حكومة دمشق. ويتجنّب الشعراء كذلك أن يذكروا أن الأمير الأيوبي لم يَسْعَ إلى الاحتفاظ بالقدس بعد مَلْكه؛ فإذ قدّر أنّه لا يمكن حماية المدينة فقد بادر إلى تهديم برج داود وعدد من التحصينات كان الفرنج قد أقاموها حديثاً قبل أن ينسحب بعساكره إلى الكرك. ويمكن القول إنّ الحماسة لا تستبعد الواقعية السياسية ولا العسكرية، فسلوك المسؤول المغالي في التطرّف لن ينفكّ أن يكون محيّراً مع ذلك فيما

بعـد. ففي أثناء الحـرب على الخـلافة التي تلت مـوت الكامـل لم يتـورّع النـاصر عن اقتراح حلف عـلى الفرنـج ضـدّ أبنـاء عمّـه. ولكي يُغـري الغربيين فقد اعترف رسمياً في عام ١٢٤٣ م بحقّهم في القـدس ذاهباً إلى حدّ القول بسحب رجـال الدين المسلمـين من الحرم الشريف. والحقّ أنّ الكامل لم يذهب قطّ إلى هذا الحدّ في تعريض نفسه للشُّبُهات!

القسم السادس

الطرد (١٢٢٤ - ١٣٩١ م)

«ولقد بُلي الإسلام والمسلمون في هذه المدّة بمصائب لم يُبتلَ بها أحد من الأمم، منها هؤلاء التتر (. . .) أقبلوا من المشرق (. . .) ومنها خروج الفرنج (. . .) من المغرب (. . .) نسأل الله أن ييُسّر للإسلام والمسلمين نصراً من عنده»[1]
ابن الأثير

(١) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٩، ص ٣٣٠ (المترجم)

الفصل الثالث عشر

السوط المغولي

«لقد بقيتُ عدّة سنين مُعرِضاً عن ذكر هذه الحادثة (. . .) فَمَنِ الذي يِسْهُلُ عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين (. . .) فيا ليت أمّي لم تدلني، ويا ليتني متّ قبل هذا (. . .) فلو قال قائل إن العالم مُذ خلق الله (. . .) آدم (. . .) لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً (. . .) ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصّر ببني إسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدّس. وما بنو اسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا (. . .) ولعلّ الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا»[1].

لم يسبق لابن الأثير أن اتّخذ طوال «تاريخه الكامل» الضخم نبرة بهذا القدر من الشّبحى. وها إنّ أساه وفَرَقه وعدم تصديقه تتفجّر صفحة إثر صفحة، وها هوذا يؤخّر، وكأنه يفعل ذلك بدافع التطيّر، اللحظة التي لا بدّ أن يُلفظ فيها أخيراً الاسم الدالّ على البليّة: «جنكيز خان».

لقد أخذ نجم الغازي المغولي بالصعود بعد موت صلاح الدين بقليل، بيد أن العرب لم يشعروا باقتراب الخطر إلّا بعد ربع قرن فقط. فقد لجأ جنكيز خان أوّلاً إلى حشد مختلف القبائل التركية والمغولية في آسيا الوسطى تحت لوائه قبل اندفاعه في غزو العالم. وكان ذلك في ثلاثة اتجاهات: الشرق حيث تمّ إخضاع الإمبراطورية الصينية ثم ضمّها؛ الشمال الغربي حيث أُخربت روسيا وأوروبا الشرقية؛ الغرب حيث

(١) «الكامل في التاريخ»، بالنص العربي، ج ٩، ص ٣٢٩ (المترجم)

اجتيحت فـارس. وكان جنكيـز خـان يقـول: «ينبغي هـدم جميـع المـدن بحيث يصبح العالم بأسره سُهباً شاسعاً تُرضِع فيه الأمهات أطفـالاً أحراراً وسعـداء». والحقّ أن مُدُنـاً مهمّة مثـل بُخارى وسمـرقنـد وهـراة دُمّـرت وأبيدت شعوبها.

وقد توافق أوّل ظهور للمغول في البلاد الإسلامية مع الغـزو الفرنجي لمصر من ١٢١٨ م إلى ١٢٢١ م. وعنـدها شعـر العالم العـربي بـأنّـه بـين نارين، وهذا يفسّر ولا ريب سلوك الكامل المهادن بصدد القدس. ولكنّ جنكيـز خان استنكف عن التغلغـل حتى غربي فـارس. وعند مـوته عـام ١٢٢٧ م، وهـو في السابعـة والستين من العمـر، تراخى ضغط فـرسـان السهوب على العالم العربي بضع سنوات.

ظهرت الكارثة في بلاد الشـام أوّل الأمر بشكـل غير مبـاشر. ومن بين الأُسَر الحاكمة التي سحقها المغول في طريقهم كانت هناك الأسرة التركيـة الخوارزمية التي كانت قد حلّت في السنـوات السابقـة محلّ السـلاجقة من العراق إلى الهند. وقد أدّى تمزّق أوصال هذه الإمبراطورية الاسلامية التي عرفت لحظة من لحظات المجد إلى إرغـام بقايـا جيشها عـلى الفرار بعيـداً عن الغُزاة المرعبين، وهكذا وصل ذات يوم إلى بلاد الشام أكثر من عشرة آلاف فارس خوارزميّ ناهبين فارضين الجزية على المدن مشـاركين بصفـة مرتزقة في صراعات الأيّوبيين الداخلية. وإذ آنس الخوارزميّون في أنفسهم ما يكفي من القوّة لإقامة دولة خاصّة بهم فقد اندفعوا في حـزيران/يـونية ١٢٤٤ م يهاجمون دمشق. ونهبوا القرى المجاورة وعاثـوا فساداً في بسـاتين الغـوطة، ولكنهم إذ كـانوا عـاجزين عن الاستمـرار إلى النهايـة في حصار طويل أمام صمود المـدينة فقـد غيّروا هـدفهم واتجهوا بغتـة نحو القـدس فاحتلّوها بلا مشقّة في الحادي عشر من تموز/يولية. وقد نهبوها وأحرقـوها وإن لم يُلحقوا الأذى بمعظم سكّانها الفرنج. غير أن هجـوماً جـديداً عـلى دمشق أدّى إلى تمزيقهم على يد تحالف من الأمراء الأيّوبيـين، الأمر الـذي أدخل البهجة والارتياح إلى قلوب الناس في جميع المدن الشاميّة.

لن يستعيد الفرسان الفرنج القدس هذه المرّة. فلم يعد يهتمّ بمصيرها فريدريك الذي أتاحت مهارته الدبلوماسية للفرسان الغربيّين أن يرفرف علمهم الصليبي فوق أسوار المدينة خلال خمسة عشر عاماً. وهو يُؤْثِر الآن وقد تخلّى عن مطامحه الشرقيّة أن تتّسم علاقاته بالمسؤولين في القاهرة بالودّ. وعندما عزم مِلك فرنسا لويس التاسع على تنظيم حملة جديدة على مصر في عام ١٢٤٧ م حاول الإمبراطور ثنيه عن عزمه. وأكثر من هذا فإنّه كان يُعلِم أيّوب ابن الملك الكامل أوّلاً بأوّل باستعدادات الحملة الفرنسية.

وكان أن وصل لويس إلى الشرق في أيلول/سبتمبر ١٢٤٨ م، ولكنّه لم يتوجّه مباشرة إلى الشواطيء المصرية مُقدِّراً أنّ خوض معركة قبل الربيع قد يكون مخاطرة كبرى. وعليه فقد أقام في قبرص جاهداً أشهر الراحة هذه في تحقيق الحلم الذي سيراود الفرنج حتى نهاية القرن الثالث عشر (الميلادي)، بل إلى ما بعد ذلك: إبرام حلف مع المغول لوضع العالم العربيّ في فكّ كمّاشة. وأخذ السفراء يتنقّلون مذّاك بين غزاة الشرق وغُزاة الغرب. وفي نهاية عام ١٢٤٨ م استقبل لويس في قبرص بعثة مغولية ذهبت إلى حدّ التلويح له بإمكان اعتناق المغول الديانة المسيحية. وإذ دغدغت هذه التلويحات مشاعره فقد بادر إلى تزويد البعثة عند عودتها بهدايا دنيوية ودينية نفيسة. بيد أن خلفاء جنكيز خان لم يدركوا القصد من بادرته. وإذ كانوا ينظرون إلى ملك فرنسا على أنّه واحد من أتباعهم فقد سألوه أن يُرسِل إليهم في كل عام هدايا من النوع نفسه. ولسوف يجنّب هذا الالتباس العالم العربي، آنيّاً على الأقلّ، هجوماً متوافقاً عليه من العدوّين.

وعليه فقد اندفع الغربيّون وحدهم في الهجوم على مصر في الخامس من حزيران/يونية ١٢٤٩ م، ولكن ليس من دون أن يتبادل العاهلان حسب تقاليد العصر إعلانات الحرب الراعدة. فقد كتب لويس يقول: «كنت قد وجّهتُ إليك عدّة إنذارات فلم تحفل بها. وقد اتّخذت الآن

قراري: سوف أهاجم بلادك، ولن أعود عن رأيي حتى وإن أبديت ولاءك للصليب. وإنّ الجيوش التي تدين لي بالطاعة لتملأ الجبال والسهول، وهي بعَدَدِ الحصى والتراب، وتسير إليك بسيوف القَدَر».
ولقد دعم ملك فرنسا تهديداته بأن ذكّر عدوّه ببعض الانتصارات التي حقّقها المسيحيون في العام الماضي على مسلمي إسبانيا: «لقد طاردنا جماعتكم أمامنا كقطيع من البقر وقتلنا الرجال ورمّلنا النساء وسبينا البنات والصبيان. أليس في ذلك عبرةٌ لك؟» وكان جواب أيّوب من المعين ذاته: «أنسيتَ أيها الأحمق الأراضي التي كنتم تحتلّونها ففتحناها في الماضي وحتى من عهد قريب؟ أنسيتَ ما أنزلنا بكم من فواجع؟» وإذ كان واضحاً أن السلطان كان يعي قلّة عدد عسكره فقد وجد ما يشدّ من أزره بالاستشهاد بالقرآن (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين)، وشجعه ذلك على التنبؤ للويس بأن: «هزيمتك محتّمة، ولن تلبث أن تندم أشدّ الندم على المغامرة التي تورطت فيها».

ومع ذلك فإنّه ما إن بدأ الفرنج هجومهم حتى أحرزوا نجاحاً باهراً. فدمياط التي كانت قد صمدت ببسالة للحملة الفرنجية الأخيرة قبل ثلاثين عاماً سُلِّمت هذه المرة بلا قتال. وكشف سقوطها الذي زرع الاضطراب في العالم العربي عن ضعف ورثة صلاح الدين العظيم أبلغ الضعف. وآثر أيّوب الذي شلّه السلّ عن قيادة عسكره أن يعود إلى سياسة أبيه الكامل فيعرض على لويس مبادلة دمياط بالقدس بدلاً من أن يفقد مصر. ولكنّ ملك فرنسا رفض التعامل مع «كافر» مغلوب مُشرِف على الموت. وعندها قرّر أيّوب أن يقاوم وطلب نقله في حمّالة إلى مدينة المنصورة التي بناها الكامل في المكان الذي حاقت فيه الهزيمة بالحملة الفرنجية السابقة. وسرعان ما ساءت مع الأسف صحّة السلطان وانتابته نوبات سعال شديد بدا أنها لن تتوقّف ابداً، ثم أُغمِي عليه إغماء كاملاً في العشرين من تشرين الثاني/نوفمبر بينما كان الفرنج يغادرون دمياط باتجاه المنصورة يشجّعهم على ذلك تناقص مياه النيل. وما هي إلا ثلاثة أيام حتى مات وسط هلع حاشيته الشديد.

كيف السبيل إلى إخبار الجيش والشعب بموت السلطان في حين أنّ العدو على أبواب المدينة، وتورانشاه بن أيوب في مكانٍ ما شمالي العراق ويلزمه بضعة أسابيع للعودة؟ وهنا تدخّل شخص كأنما بعثت به العناية الالهية: «شجرة الدرّ»، وهي جارية من أصل أرمني جميلة شديدة الدهاء كانت منذ سنوات زوجة أيّوب الأثيرة. وقد جمعت المقرّبين من السلطان وأمرتهم بالتزام الصمت حتى يصل وريث العرش، بل إنها طلبت من الأمير العجوز فخر الدين صديق فريدريك أن يكتب رسالة باسم السلطان يدعو فيها المسلمين إلى الجهاد. وفي رأي أحد معاوني فخر الدين، وهو المؤرّخ الشامي ابن واصل، أنه لو قدّر لملِك فرنسا أن يعلم بسرعة نبأ موت أيّوب لحمله ذلك على زيادة ضغطه العسكريّ. ولكنّ السرّ حُفظ في المعسكر المصريّ بما يكفي لتجنيب الجيوش وهن العزيمة وانهيار المعنويات.

وإذ كان وطيس المعركة حول المنصورة حامياً طوال أشهر الشتاء فإن الجيش الفرنجي دخل المدينة على حين غِرة في العاشر من شباط/فبراير ١٢٥٠ م بفعل عملّية خيانة. ويروي ابن واصل الذي كان يومذاك في القاهرة أنّه:

«كان فخر الدين في الحمّام عندما نُقل إليه الخبر، فذهل وامتطى جواده بلا شِكّة ولا زرد وذهب لاستطلاع الأمر. وهاجمه نفر من الأعداء وقتلوه. ودخل ملك الفرنج المدينة وبلغ حتى قصر السلطان. وانتشر جنوده في الشوارع في حين كان عساكر المسلمين وأهل البلد يَسْعَوْنَ إلى النجاة هاربين كيفما اتفق. وكان يبدو أنّ الإسلام أصيب بطعنة قاتلة وأنّ الفرنج على وشك قطاف ثمار النصر عندما وصل المماليك الأتراك. ولمّا كان الأعداء قد توزّعوا في الشوارع فقد بادر هؤلاء الفرسان إلى مهاجمتهم ببسالة. وقد فوجيء الفرنج في كل ناحية ومُزّقوا بالسيوف أو بالمطارق. وفي الضحى كان حَمَام الزاجل يحمل إلى القاهرة بلاغاً عن مهاجمة الفرنج من دون ذكر لنتائج المعركة فساوَرَنا القلق. وبات كل الناس في غمّ في

أحياء المدينة إلى الصباح عندما وصلت رسائل جديدة تنبئنا بانتصار الأتراك الأسود. وعمّت الفرحة شوارع القاهرة».

لسوف يعاين المؤرخ في الأسابيع التالية من العاصمة المترّية سلسلتين متوازيتين من الأحداث سيكون من شأنهما تغيير وجه الشرق العربي: فهناك من ناحية الكفاح المظفَّر ضدّ آخر حملة فرنجية كبيرة؛ ومن الناحية الأخرى ثورة فريدة في التاريخ لأنّها ستحمل إلى الحكم خلال ما يناهز القرون الثلاثة طبقة من الضبّاط المماليك.

لقد تأكّد لملِك فرنسا بعد هزيمته في المنصورة أنّ وضعه العسكري بات مزعزعاً. وإذ عجز لويس عن أخذ المدينة وغدا محاصراً من كلّ صوب من المصريين في أرض موحلة تخترقها تُرع لا يُحصى عددُها فقد قرّر أن يفاوض. وفي أوائل آذار/مارس توجّه إلى تورانشاه الذي كان قد وصل إلى مصر برسالة مصالحةٍ قال فيها إنه مستعدّ للقبول بما كان قد اقترحه أيّوب من تسليم دمياط في مقابل القدس. وسرعان ما ورد جواب السلطان الجديد: كان ينبغي القبول بعروض أيّوب السخيّة في أيّام أيّوب! وأمّا الآن فقد فات الأوان! والحق أنّ ما يمكن أن يرجوه لويس على الأكثر هو إنقاذ جيشه ومغادرة مصر سليماً معافى لأن الضغط عليه بدأ يتزايد. وفي منتصف آذار/ مارس تمكّنت بضع عشرات من السفن المصرية من إنزال هزيمة نكراء بالأسطول الفرنجي مدمّرة أو آسرة ما يقرب من مئة قطعة من جميع الأحجام، وقاطعةً على الغُزاة كل إمكان في الانسحاب إلى دمياط. وفي السابع من نيسان/أبريل طوّقت أفواج من المماليك التي انضمّ إليها آلاف المتطوّعين جيشَ الغُزاة الذي كان يحاول فكّ الحصار. وما هي إلا ساعات قليلة حتى كان الفرنج في ضيق شديد. ولكي يوقف مِلك فرنسا المجزرة التي يتعرّض لها رجاله فقد استسلم وطلب الأمان. واقتيد إلى المنصورة مغلولاً وسُجن في منزل أحد الموظّفين الأيّوبيين.

والغريب أن هذا النصر الباهر للسلطان الأيّوبي الجديد أدّى إلى

سقوطه بدلاً من أن يوطد دعائم حكمه. والحقّ أن نزاعاً نشأ بين تورانشاه وضبّاط جيشه الرئيسيين من المماليك. فقد قدّر هؤلاء ـ وهم على حقّ ـ أنّه يعود إليهم الفضل في عودة السلام إلى مصر، وطالبوا بدور فعّال في إدارة دفّة البلاد، في حين كان العاهل يرغب في انتهاز ما كسبه حديثاً من هيبة لإسناد مراكز المسؤولية إلى رجاله بالذات. وبعد مرور ثلاثة أسابيع على الانتصار على الفرنج اجتمع نفر من المماليك بطلب من ضابط تركيّ ماهر في الأربعين من العمر، هو الظاهر بيبرس، وقرّروا البدء بالعمل. وفي الثاني من أيار/مايو ١٢٥٠ م قام تمرّد في أعقاب وليمة أقامها العاهل فأصاب بيبرس تورانشاه في كتفه وجرحه فركض باتّجاه النيل على أمل الفرار في مركب، ولكنّ مهاجميه ألْقَوا القبض عليه هناك. وتوسّل إليهم أن يُبقوا على حياته واعداً إيّاهم بترك مصر إلى الأبد والتنازل عن الحكم. ولكنّ آخر سلاطين بني أيّوب قضى بلا رحمة تحت ضرباتهم. بل إنّه كان على مبعوث الخليفة أن يتدخّل حتى قبِل المماليك بتشييد ضريح لمولاهم السابق.

وعلى الرغم من نجاح انقلاب الضباط ـ المماليك فإنهم تردّدوا في الاستيلاء على العرش. وأخذ أحكمُهم يبحثون عن تسوية تُضفي على حكمهم الوليد ما يشبه الشرعيّة الأيّوبية. وسيكون للصيغة التي خرجوا بها موضعها في تاريخ العالم الإسلامي كما أشار ابن واصل الذي كان شاهداً غير مصدِّق على هذا الحدث الفريد. فاسمعه يقول:

«وبعد مقتل تورانشاه اجتمع الأمراء والمماليك بالقرب من جناح السلطان وعزموا على تنصيب شجرة الدرّ، وهي إحدى زوجات أيّوب، فغدت ملكة وسلطانة. وقبضت على مقاليد الدولة وصنعت لنفسها خاتماً ملكياً بنقش «أمّ خليل» متكنيّة بولد ولدته ومات وهو صغير. ودُعي في خطبة الجمعة في المساجد باسم أم خليل سلطانة القاهرة وكلّ مصر، وكان ذلك حدثاً لم يُعرف مثيله في تاريخ الإسلام».

وتزوّجت شجرة الدرّ بعد تنصيبها بقليل واحداً من زعماء المماليك

اسمه أيبك وأطلقت عليه لقب السلطان.

ولقد سجّل حلول المماليك محلّ الأيّوبيين تصلّباً واضحاً في موقف العالم الإسلامي من الغُزاة. وكان أحفاد صلاح الدين قد أظهروا أنهم أكثر من مهادنين للفرنج، ولا سيّما أن سلطانهم الذي كان قد بدأ يضعف لم يكن بالمستوى اللازم لمواجهة الأخطار المحيقة ببلاد الإسلام في الشرق كما في الغرب. وسرعان ما سيتجلّى أنّ الثورة المملوكية كانت عمليّة تقويم عسكريّة وسياسية ودينية.

لم يُغيّر الانقلاب الذي حدث في القاهرة شيئاً من مصير ملك فرنسا الذي كان قد اتفق عليه اتفاقاً تاماً في عهد تورانشاه ويقضي بإطلاق سراح لويس في مقابل سحب جميع العساكر الفرنجية من الأراضي المصرية، ولا سيّما دمياط، ودفع جزية مقدارها مليون دينار. والحقّ أنّ سراح العاهل الفرنسي أطلق بعد أيّام من وصول أم خليل إلى سدّة الحكم، ورافق ذلك موعظة ألقاها المفاوضون المصريون: «كيف خطر لرجل حكيم ذكيّ مثلك أن يُبحر هكذا في سفينة للمجيء إلى بلد يقطنه عدد لا يُحصى من المسلمين. وفي شرعنا أنه ليس في وسع رجل يجتاز البحر على هذا النحو أن يمثل للشهادة أمام القاضي». وسأل الملك: «ولماذا؟» وأجيب: «لأنه يُعتبر غير مالكٍ جميع قواه وملكاته».

ولسوف يغادر آخر جندي فرنجي مصر قبل نهاية شهر أيار/مايو.

ولن يحاول الغربيّون أبداً غزو بلاد النيل، وسرعان ما سيكسف «الخطر الأشقر» خطرٌ أشدُّ وأدهى، خطرُ أحفاد جنكيز خان. وكانت إمبراطورية الفاتح الكبير قد ضعفت بعض الضعف بعد موته بفعل النزاعات على الخلافة وغنم الشرق المسلم بذلك هدنة لم تكن في الحُسبان. ومع ذلك فإنّه منذ عام ١٢٥١ م عاد فرسان السهوب فتوحّدوا تحت لواء ثلاثة إخوة من أحفاد جنكيزخان هم مُنكا وكوبلاي وهولاكو. فأما الأول فعينّ عاهلاً غير مُدافع للإمبراطورية وعاصمته كراكوروم في منغوليا؛ وأما الثاني فحكم سعيداً في بكين؛ وأمّا الثالث فقد استقرّ في

فـارس وكـان طـامحـاً في غــزو الشرق الإسـلامي بـأسره حتى شـواطيء المتوسّط، وربما حتى النيـل. وهولاكـو شخص مركّب. فمن رجـل مولـع بالفلسفة والعلوم وساع إلى مخالطة الأدباء، إذا به ينقلب أثناء حمـلاته إلى وحش دموي متعطّش إلى الـدماء والـدمار. ولا يقـلّ سلوكه في مـوضوع الدين تناقضاً. فعلى الرغم من تأثره بالمسيحية ـ كانت أمه وزوجته الأثـيرة وعدد من معاونيه ينتمون إلى الكنيسة النسطوريـة ـ فإنّـه لم يتخلّ قطّ عن الشهانية ديانة شعبه التقليدية [المتمثّلة في عبادة الـطبيعة والقـوى الخفيّة في آسيـا الوسـطى]. وكان مُتسـامحاً بصـورة عامّـة بازاء المسلمـين في البـلاد الخاضعة لحكمه، ولا سيّما فارس، ولكنّه لما كان مدفوعاً برغبتـه في تدمـير كلّ كيان سياسيّ قادر على معارضته فقد شنّ على أعظم حـواضر الإسلام حرب تدمير شاملة.

وأوّل غرض من أغراضه كان بغـداد. ففي مرحلة أولى طلب هـولاكو من الخليفـة المعتصم، السابـع والثلاثـين من أسرتـه، أن يعـترف بسيـادة المغول المطلقة كما قبل أسلافه في الماضي سيادة السلاجقـة. وإذ كان أمـير المؤمنين واثقاً جدّاً من هيبته فقد أرسل يقـول للغازي إن أيّ هجـوم على عاصمة الخلافة سوف يؤدّي إلى احتشاد العـالم الإسلامي بـأسره من الهند إلى المغرب. وإذ لم يتأثّر حفيد جنكيز خان قطّ بهذا القول فقـد أعلن عن نيّتـه في أخذ المـدينة بـالقوّة. وقـد سار في نهايـة عـام ١٢٥٧ م في مئـات الآلاف من الفرسان على ما يبدو إلى العاصمة العباسيـة هادمـاً في طريقـه مـلاذ الحشّاشـين في ألموت حيث أبيـدت مكتبة لا حصر لقيمتهـا، الأمـر الـذي أصبح متعـذّراً معه الـوصول إلى معـرفـة معمّقـة بمذهب الفـرقـة ونشـاطاتهـا. وإذ أدرك الخليفة هـول الخـطر فقـد عـزم عـلى التفـاوض، وعرض على هولاكو أن يُذكر اسمُـه في مساجـد بغداد ويُغـدَق عليه لقبُ السلطان. ولكنْ كان الأوان قد فات، فقد اختار المغوليّ اختياراً لا رجعة فيـه سلوك طريق القـوّة. وما هي إلا أسـابيع من المقـاومـة البـاسلة حتى اضطر أمير المؤمـنين إلى التسليم. وفي العاشر من شبـاط/فبرايـر ١٢٥٨ م حضر بنفسه إلى معسكر المنتصر وانتزع منه وعداً بالإبقـاء على حيـاة أهل

البلد بأسرهم إذا هم وافقوا على إلقاء السلاح. ولكنْ سُدىً، فما إن ألقى المقاتلون المسلمون سلاحهم حتى أبيدوا عن بكرة أبيهم. ثم انتشر الجحفل المغوليّ في المدينة الرائعة هادماً المباني، مُحرقاً الأحياء، ذابحاً بلا رحمة الرجالَ والنساء والأطفال، أي ما مجموعه زهاء ثمانين ألف نسمة. ولم يسلم من المعمعة سوى الطائفة المسحية بناء على تدخل زوجة الخان. وسوف يلقى أمير المؤمنين نفسه حتفه خنقاً بعد أيام من هزيمته. وأغرقت نهاية الخلافة العباسية المُفجعة العالم الإسلامي في الذهول. فلم يَعُدِ الأمر يتعلّق بعد اليوم بمعركة عسكرية من أجل السيطرة على مدينة أو بلد، بل بنضال مُقِنط من أجل بقاء الإسلام.

ولا سيّما أن التتار يواصلون مسيرتهم المظفّرة باتجاه بلاد الشام. ففي كانون الثاني/يناير ١٢٦٠ م هاجم جيش هولاكو حلب التي لم تلبث أن أُخذت على الرغم من مقاومة باسلة. وانهالت، كما على بغداد، المذابح والتخريبات على تلك المدينة القديمة التي كان ذنبها أنها عاندت الغازي. وما هي إلا أسابيع حتى كان الغُزاة على أبواب دمشق. وما كان بالطبع في وسع صغار الملوك الأيوبيين الذين كانوا لا يزالون يحكمون مختلف المدن الشاميّة أن يقفوا سدّاً في وجه السيل. بل إن بعضهم عزموا على الاعتراف بسيادة الخان الأعظم المطلقة، وفكّروا - وهنا طامّة العجز الكبرى - في التحالف مع الغُزاة على مماليك مصر أعداءِ سُلالتهم. وانقسمت آراء المسيحيين من شرقيين وفرنج. فالأرمن وقفوا بشخص ملكهم «هتهوم» في صفّ المغول، كما وقف في صفّهم صهره بيمند صاحب أنطاكية. والتزم فرنج عكا في المقابل وقفة حيادٍ هو أُمْيَلُ إلى المسلمين. ولكنّ الشعور السائد في الشرق كما في الغرب هو أن الحملة المغولية نوع من حرب مقدّسة تُشنّ على الإسلام وتمثّل تتمة للحملات الفرنجية. وقد دعم هذا الشعور أنّ نائب هولاكو الرئيسي في بلاد الشام، القائد كيتبوكا، مسيحي نسطوري. وعندما أُخذت دمشق في أوّل آذار/مارس ١٢٦٠ م كان الذين دخلوها ظافرين وسط استنكار العرب الشديد ثلاثة أمراء مسيحيين هم بيمند وهتهوم وكيتبوكا.

إلى أين سيوغل التتار يا تُرى؟ إلى مكّة، كما يؤكد بعضهم، لإطلاق رصاصة الرحمة على دين النبي. وقد صدر هذا التأكيد في القدس على كل حالٍ، ومن غير أن يمرّ كبير وقت. وكانت بلاد الشام بأسرها مقتنعة بذلك. وغداة سقوط الشام بادر فصيلان مغوليّان إلى احتلال مدينتين فلسطينيتين: نابلس في الوسط وغزّة في الجنوب الغربي. وإذ كانت هذه الأخيرة على أطراف سيناء فقد بدا من تحصيل الحاصل في ذلك الربيع من عام ١٢٦٠ م أنّ مصر نفسها لن تنجو من الخراب. وعلى كل حال فإنّ هولاكو لم ينتظر نهاية حملته على الشام لإرسال مبعوث إلى القاهرة يطلب خضوع بلاد النيل غير المشروط. واستُقبل الرسول واستمع إليه ثم فُصل رأسه، فالمماليك لا يمزحون، وأساليبهم لا تشبه في شيء أساليب صلاح الدين. ويعكس السلاطين ـ المماليك الذي يحكمون القاهرة منذ عشر سنوات تصلّبَ العالمِ العربيِّ المطوَّقِ من كل الجهات وثباتَه. فهم يقاتلون بكل الوسائل، بلا ذمام ولا مروءة ولا تسويات، ولكن بإقدام وفعالية.

وإليهم على كل حال كانت تتّجه الأنظار لأنّهم يمثّلون آخر رجاء بإعاقة تقدّم المجتاح. وكانت مقاليد الحكم في القاهرة منذ أشهر خلت في يد عسكريّ من أصل تركي هو قُطُز. فبعد أن حكمت شجرة الدرّ وزوجها أيبك معاً سبعة أعوام انتهى بهما الأمر أن سعى كل منهما في قتل الآخر. وقد راجت في هذا الصدد طويلاً عدّة روايات. والرواية التي تحظى بتأييد القُصّاص الشعبيين هي بالطبع التي تمزج الحبّ والغَيْرة بالمطامح السياسية. فقد انتهزت السلطانة التي كانت تساعد زوجها كالعادة في الاغتسال فرصة هذه اللحظة من الاسترخاء والحميميّة لتأخذ عليه اتخاذ محظيّة جاريةٍ جميلةٍ في الرابعة عشرة ربيعاً. وسألته لإثارة حنانه: «ألم أعُد إذن أروق لك؟» ولكنّ أيبك أجاب بفظاظة: «إنها شابّة ولستِ كذلك». وأرغت شجرة الدرّ وأزبدت، وغطّت عيني زوجها برغوة الصابون ووجّهت إليه بعض عبارات الاسترضاء لهدهدة حذره واستلّت خنجراً مزّقت به خاصرته. وسقط أيبك، وظلّت السلطانة لحظات بلا حراك كالمشلولة. ثم استدارت إلى الباب ونادت بعض العبيد المخلصين

لتخليصها من الجثة. ولكنْ لسوء طالعها أن أحد أبناء أيبك، وعمره خمسة عشر عاماً، كان قد لاحظ أنّ ماء الحمام المتدفّق إلى الخارج أحمر فاندفع إلى الحجرة ولمح شجرة الدرّ واقفة لدى الباب نصف عارية وهي ما تزال ممسكة بخنجر مصبوغ بالنجيع. وها هي ذي تفرّ في أروقة القصر يلاحقها ابن زوجها الذي كان قد أخطر الحرّاس. وفي اللحظة التي كاد يتمّ فيها القبض عليها تعثّرت وارتطم رأسها بعنف ببلاطة من المرمر. وعندما وصلوا إليها كانت أنفاسها قد خمدت.

وعلى الرغم من الحبكة القصصيّة المفرطة فإن هذه الرواية تقدّم فائدة تاريخية حقيقية في النطاق الذي تُردد فيه، طبقاً لكل احتمال، ما كان يُروى بالفعل في شوارع القاهرة غداة المأساة في نيسان/أبريل ١٢٥٧م.

ومهما يكن من أمر فإنّه بعد اختفاء العاهلين جلس ابن أيبك الفتيّ على العرش، ولكنّ جلوسه لم يدم طويلاً. فبقدر ما كان الخطر المغوليّ يتّضح كان إدراك قادة الجيش المصري يزداد بأن يافعاً لا يمكن أن يضطلع بمسؤولية المعركة الخامسة التي يُهيَّأ لها. وفي كانون الأول/ديسمبر ١٢٥٩ م، وفي الوقت الذي كانت فيه جحافل هولاكو قد بدأت تزحف إلى بلاد الشام، حمل انقلابٌ إلى الحكم قُطُز، وهو رجل ناضج حيويّ كان يُردِّد من البداية لغة الجهاد ويدعو إلى التعبئة العامّة في وجه الغازي عدوّ الإسلام. وبالعودة بالتاريخ إلى الوراء يبدو انقلاب القاهرة الجديد وكأنه إنتفاضة وطنية حقيقية. فقد غدت البلاد فوراً على أهبة الحرب. ومنذ تموز/يوليه ١٢٦٠ م دخل جيش مصريٌّ قويّ فلسطين لمواجهة العدو.

ولم يكن قُطُز ليجهل أن الجيش المغوليّ قد فقد معظم قوّاته منذ أن اضطر هولاكو بعد موت أخيه مونكا خان المغول الأعظم إلى الرجوع بعسكره للمشاركة في الصراع المحتوم على الخلافة. فقد غادر حفيد جنكيزخان بلاد الشام على أثر استيلائه على دمشق من غير أن يترك في تلك البلاد غير بضعة آلاف من الخيّالة بإمرة نائبه كيتبوكا.

كان السلطان قُطُز يعلم أنّه أوان إنزال ضربة بالغازي وإلاّ فلا. وعليه فقد بدأ الجيش المصري بالهجوم على حامية غزّة المغولية التي لم تكد تقاوم وقد أخذت على حين غِرَّة. ثم تقدّم المماليك نحو عكا وهم على علم من أن فرنج فلسطين كانوا اشدّ تحفّظاً وتردُّداً من فرنج أنطاكية تجاه المغول. وإذا كان بعض باروناتهم لا يزالون متهلّلين للهزائم التي حلّت بالمسلمين فإن معظمهم فزِعون لقسوة الفاتحين المغول. ولذلك فإنّه حين عَرَضَ عليهم قُطُز حلفاً لم يكن جوابهم بالسلب: إنهم إن لم يكونوا مستعدّين للاشتراك في المعارك فليسوا يعارضون في السماح للجيش المصري بالمرور على أراضيهم والتزوّد بالمؤن. وهكذا أصبح في إمكان السلطان أن يُوغل داخل فلسطين ويتقدّم حتى إلى دمشق من غير أن يكون عليه حماية مؤخرة جيوشه.

وإذ كان كيتبوكا يستعدّ للمسير للقائهم فقد قام عصيان شعبي في دمشق. فقد انتهز مسلمو المدينة الذين أرهقتهم تجاوزات الغُزاة فرصة رحيل هولاكو فرفعوا الحواجز والسواتر في الشوارع وأضرموا النار في الكنائس التي لم يمسها المغول. وقد احتاج كيتبوكا إلى بضعة أيام لإعادة النظام، الأمر الذي أتاح لقُطُز أن يقويّ مواقعه في الجليل. ثم كان أن التقى الجمعان بجوار قرية «عين جالوت» في الثالث من أيلول/سبتمبر ١٢٦٠ م. وقد وجد قُطُز ما يكفي من الوقت لإخفاء معظم عساكره، ولم يترك على ساحة القتال سوى طليعة بقيادة ألمع ضباطه بيبرس. ووصل كيتبوكا على عجل، وإذ لم يكن مطّلعاً اطّلاعاً كافياً على الوضع فقد سقط في الفخّ فاندفع للهجوم بكل عساكره. وتراجع بيبرس، ولكنْ بينما كان المغوليّ يلاحقه وجد نفسه مطوّقاً فجأة من كل صوب بالقوّات المصرية التي كانت تفوق قوّاته عدداً.

وما هي إلا ساعات حتى أُبيدت الخيّالة المغولية. وأُسر كيتبوكا نفسه وقُطع رأسه على الفور.

وفي مساء الثامن من أيلول/سبتمبر دخل الخيّالة المماليك دمشق محرِّرين جذلانين.

الفصل الرابع عشر

لا قدر الله أن تطأ أقدامهم بلادنا بعد اليوم

على الرغم من كون «عين جالوت» أدنى بهاء من «حطّين» وأقلّ منها إبداعاً على الصعيد العسكري فإنها تبدو مع ذلك وكأنّها إحدى المعارك الحاسمة في التاريخ. فهي لن تتيح بالفعل للمسلمين أن يُفلتوا من الفَناء وحسب، بل ستتيح لهم أيضاً أن يستعيدوا جميع الأراضي التي انتزعها المغول منهم. وسرعان ما سيعتنق خلفاء هولاكو المقيمون في فارس الإسلام ليزيدوا من توطيد سلطانهم.

وسوف تُفضي الانتفاضة المملوكية على الأثر إلى سلسلة من تصفية الحسابات مع جميع الذين ساندوا المجتاح. وقد كان الإنذار ساخناً. فلم يَعُدْ وارداً في الحسبان إمهال العدو، سواء أكان فرنجياً أم تترياً.

وبعد أن استعاد المماليك حلب في أوائل تشرين الأول/أوكتوبر ١٢٦٠ م وصدّوا بلا عناء هجوماً معاكساً قام به هولاكو شرعوا في تنظيم غارات تأديبية على بيمند صاحب أنطاكية وهتهوم صاحب أرمينية، وهما الحليفان الرئيسيان للمغول. ولكنّ صراعاً على السلطة انفجر داخل الجيش المصري. فبيبرس كان يرغب في الإقامة في حلب بصفة حاكم نصف مستقلّ؛ ورفض قُطز الذي كان يرتاب في مطامح نائبه. فهو لا يريد قيام نفوذ منافس له في بلاد الشام. ولكي يضع السلطان حدّاً لهذا النزاع فقد جمع جيشه وقفل راجعاً إلى مصر. وإذ وصل على مسيرة ثلاثة أيام من القاهرة أذن لجنوده بيوم من الراحة، الثالث والعشرين من تشرين

الأول/أوكتوبر، وعزم على قضائه هو في رياضته المفضّلة، صيد الأرانب البريّة، بصحبة قادة جيشه الرئيسيّين. وحرص من جهة ثانية على اصطحاب بيبرس خوفاً من أن يستغلّ هذا غيابه فيشرع في تمرّد. وابتعد الجمع الصغير عن المعسكر عند الفجر. وبعد ساعتين توقف لأخذ قسط صغير من الراحة فاقترب أحد الأمراء من قُطُز وكأنّه يريد تقبيل يده. وفي اللحظة نفسها سحب بيبرس سيفه من غمده وغرسه في ظهر السلطان الذي ما لبث أن انهار. ومن غير أن يُضيع المتآمران لحظة واحدة قفزا إلى صهوة جواديهما وعادا بأقصى سرعة إلى المعسكر. ومَثَلا أمام الأمير «أقطاي»، وهو ضابط عجوز محترم من الجيش بالإجماع، وقالا: «قتلنا قُطُز». وسأل أقطاي الذي لم يبدُ عليه التأثّر للأمر: «وأيّكما قتله بيده؟» ولم يتردّد بيبرس في القول: «أنا». واقترب المملوك العجوز منه ودعاه إلى الجلوس في خيمة السلطان وانحنى أمامه إجلالاً. وسرعان ما هتف الجيش بأسره للسلطان الجديد.

إنّ هذا الجحود لفضل المنتصر في عين جالوت بعد أقلّ من شهرين على عمله الباهر لا يشرّف المماليك بالطبع. وينبغي مع ذلك أن نوضّح إبراء للضباط ـ المماليك أنّ معظمهم كانوا يعتبرون منذ سنوات طويلة أن بيبرس هو زعيمهم الحقيقي. أفلم يكن هو أول مَنْ تجرّأ في عام ١٢٥٠ م على قتل تورانشاه الأيّوبي بسيفه مُعلناً بذلك إرادة المماليك أن يستولوا بأنفسهم على الحكم؟ ألم يقم بدور حاسم في الانتصار على المغول؟ ولقد انتزع المكانة الأولى بين ذويه بفضل نفاذ بصيرته السياسية ومهارته العسكرية وشجاعته البدنية العجيبة.

لقد بدأ السلطان المملوك المولود عام ١٢٢٣ م حياته عبداً في بلاد الشام. وكان مولاه الأوّل، أمير حماة الأيّوبي، قد باعه تطيّراً لأن نظراته كانت تزعجه. والحقّ أن بيبرس كان عملاقاً شديد السمرة ذا صوت أجش وعينين زرقاوين صافيتين مع بقعة بيضاء كبيرة في العين اليمنى. وقد اشترى السلطانَ المُقبِلَ ضابطٌ مملوكٌ سلكه في حرس أيّوب

فاستطاع بفضل خصاله، ولا سيّما انعدام ذمّته الكامل، أن يشقّ لنفسه سريعاً مَعبراً إلى قمّة السلّم التراتبي.

وفي نهاية تشرين الأول/أوكتوبر ١٢٦٠ م دخل بيبرس القاهرة منتصراً فاعترف الجميع بسلطانه من غير عناء. وفي المقابل فإنّ ضباطاً مماليك آخرين في المدن الشامية استغلّوا موت قُطُز لإعلان استقلالهم. ولكنّ السلطان استولى بحملة خاطفة على دمشق وحلب ضامّاً من جديد تحت سلطته مُلْك الأيّوبيين القديم. وسرعان ما أظهر هذا الضابط الدموي الأُميّ أنّه رجل دولة عظيم وصانع نهضة حقيقية للعالم العربي. ففي عهده رجعت مصر، وبدرجة أدنى الشام، مركزيْ إشعاع ثقافي وفنيّ. ولسوف يُثبت بيبرس الذي نذر حياته لهدم أي قلعة فرنجية كانت قادرة على معاندته أنه من جهة ثانية بنّاء عظيم بتجميله القاهرة وبنائه الجسور والطرق على مُلكه بأكمله. كما أنّه سينشىء نظام بريد بالحمام أو بالخيول فاق في فعاليته النظامينْ اللذيْن كانا في عهد نور الدين أو عهد صلاح الدين. وسوف يكون حكمه صارماً، بل فظّاً أحياناً، ولكنّه مستنير وغير اعتباطي على الإطلاق. وقد سلك منذ اعتلائه سدّة الحكم تجاه الفرنج سلوكاً قاسياً يرمي إلى اختزال نفوذهم. ولكنّه كان يفرّق بين فرنج عكا الذين كان يريد أن يضعضعهم وحسب، وفرنج أنطاكية الذين ارتكبوا أفدح الذنب بتحالفهم مع الغُزاة المغول.

وشرع منذ نهاية عام ١٢٦١ م يُعِدّ لحملة تأديبية على أراضي الأمير بيمند والملك الأرمني هتهوم. ولكنّه اصطدم بالتتر. وإذا كان هولاكو عاجزاً عن اجتياح بلاد الشام فإنّه لا يزال يملك في فارس قوّات كافية للحؤول دون معاقبة حلفائه. وعزم بيبرس بكثير من الحكمة على انتظار فرصة أفضل.

وقد سنحت عام ١٢٦٥ م بموت هولاكو. وعندها استغلّ بيبرس الانقسامات التي لاحت في صفوف المغول واجتاح أوّل الأمر الجليل وقضى على عدّة قلاع بالتواطؤ مع نفر من السكان المسيحيين المحلّيين. ثم

توجّه إلى الشمال بغتة فدخل أملاك هتهوم وهدم المدن واحدة بعد الأخرى، ولا سيّما عاصمته «سيس» التي قتل قسماً كبيراً من أهلها وعاد بأكثر من أربعين ألف أسير. ولن تقوم بعدها قائمة للمملكة الأرمنية. وفي ربيع ١٢٦٨ م انطلق بيبرس مقاتلاً من جديد فبدأ بمهاجمة نواحي عكّا واستولى على قلعة الشقيف ثم توجّه بجيشه إلى الشمال فوصل إلى أسوار طرابلس في أول أيار/مايو. ووجد فيها صاحبها الذي لم يكن سوى بيمند الذي كان صاحب أنطاكية في الوقت نفسه. ولم يكن هذا يجهل مشاعر السلطان تجاهه فأخذ يستعدّ لحصار طويل. ولكنْ كان لبيبرس مشاريع أخرى. فما هي إلّا أيام حتى استأنف سيره نحو الشمال فوصل إلى أنطاكية في الرابع عشر من أيار/مايو. ولم تصمد أكبر المدن الفرنجية التي وقفت بعناد في وجه جميع الملوك المسلمين مدة مئة وسبعين عاماً أكثرَ من أربعة أيام. فمنذ مساء الثامن عشر من أيار/مايو نُقب السور بالقرب من القلعة وانتشر عسكر بيبرس في الشوارع. ولا تشبه هذه الغزوة لاستعادة المدينة في شيء ما كان صلاح الدين يفعله في أيامه. فأهل البلد برّمتهم قتلى أو أسرى، والمدينة قد خربت تماماً. ولن يبقى من الحاضرة الرائعة سوى بلدة معزولة مزروعة أطلالاً لم يلبث الزمن أن يدفنها تحت الأعشاب والخضرة.

ولم يعلم بيمند بسقوط مدينته إلا برسالة تذكارية أرسلها إليه بيبرس وحرّرها في الواقع مؤرّخ السلطان الرسمي المصري ابن عبد الظاهر:

«إلى الفارس الجليل النبيل بيمند الأمير الذي أصبح مجرّد قُمْص بعد الاستيلاء على أنطاكية».

ولا يقف التهكّم عند هذا الحد:

«عندما غادرناك في طرابلس توجّهنا على الأثر إلى أنطاكية حيث وصلناها في اليوم الأول من شهر رمضان المبارك. وفي ساعة وصولنا خرج إلينا عسكرك ليقاتلونا ولكنهم غُلبوا لأنّهم وإن كانوا يؤيّد بعضهم بعضاً فإنّه كان ينقصهم التأييد من الله. لو أنّك رأيت خيّالتك مطروحين أرضاً

تحت سنابك الخيل، وقصورك تُنهب، ونساءك يُبعن في أحياء المدينة فتُشترى الواحدة منهنّ بدينار واحد مأخوذ من مالك الخاصّ على أي حال!»

وبعد وصف طويل لم يُغفَل ذكرُ أي تفصيل فيه من متلّقي الرسالة يختم السلطان مبلِّغاً الأمر الواقع الذي يريد الانتهاء إليه:

«سوف تُسعدك هذه الرسالة وهي تخبرك بأن الله تولاّك برحمته إذ حفظك سليماً معافى ومدّ في عمرك لأنك لم تكن في أنطاكية. فلو كنت فيها لكنت اليوم قتيلاً أو جريحاً أو أسيراً. ولكنْ قد يكون الله جنّبك ذلك لكي تخضع وتطيع».

وإذ كان بيمند رجلاً عاقلاً، وبلا حَوْل ولا قوّة على الأخص، فقد أجاب باقتراح هدنة. وقبلها بيبرس. فهو يعرف أن القُمّص الذي دبّ الهلع إلى صدره لم يعدْ يشكّل أيّ خطر، وأنه لا يزيد في شيء عن هتهوم الذي شُطبت مملكته عملياً من الخارطة. وأمّا فرنج فلسطين فإنّهم، هم أيضاً، لا تسعهم الفرحة بالحصول على هدنة. وأرسل إليهم السلطان إلى عكا مؤرّخة ابن عبد الظاهر لإبرام الاتفاق:

«حاول ملكهم أن يراوغ للحصول على أفضل الشروط، ولكنّي أظهرت تصلُّباً وفقاً لتوجيهات السلطان. وتميّز من الغيظ وطلب إلى ترجمانه: «قل له أن ينظر وراءه!» واستدرت ورأيت جيش الفرنج بأكمله في وضع القتال. وأضاف الترجمان: «يقول لك الملك ألاّ تنسى وجود هذا الحشد من الجنود». وإذ لم أُجب فقد ألحّ الملك على الترجمان فسألت عندها قائلاً: «هل أثق من الأمان إذا قلت الحقيقة؟» قال: «أجل» قلت: «هيه، قل للملك إن هناك من الجنود في جيشه أقلّ ممّا في سجون القاهرة» من الأسرى الفرنج!» وكاد الملك يَشْرَق وأنهى المقابلة، ولكنّه استقبلنا بعد أيام لإبرام الهدنة».

والحقّ أن الفرسان الفرنج ما كانوا ليزعجوا بيبرس على الإطلاق. فهو

يعلم أن ردّ الفعل المحتوم على أخذ أنطاكية لن يصدر عنهم، وإنما عن أسيادهم ملوك الغرب.

ولم يكن عام ١٢٦٨ م قد انتهى حتى سرت شائعات ملحة بعودة ملك فرنسا قريباً إلى الشرق على رأس جيش قويّ. وكثيراً ما استعلم السلطان التجار أو المسافرين. وتوالت البلاغات خلال صيف ١٢٧٠ م على القاهرة تفيد بأن لويس قد أبحر بصحبة ستة آلاف رجل إلى شاطىء قرطاجة بالقرب من تونس. وبلا تردّد جمع بيبرس أمراء المماليك الرئيسيين وأخبرهم بنيّته في الذهاب على رأس جيش قويّ إلى الولاية الإفريقية البعيدة لمساعدة المسلمين على صدّ هذه الغزوة الفرنجية الجديدة. ولكنْ ما هي إلا أسابيع حتى وصلت رسالة جديدة إلى السلطان موقّعة من المستنصر أمير تونس يبلّغه فيها أن ملك فرنسا وُجد قتيلاً في معسكره وأن جيشه قد عاد بعد أن فتك بقسم كبير منه الحرب أو المرض. وإذ انزاح هذا الخطر فقد حان الوقت لكي يشنّ بيبرس هجوماً جديداً على فرنج الشرق. وفي آذار/مارس ١٢٧١ م استولى على حصن الأكراد المرهوب الذي لم يتمكّن صلاح الدين نفسه قطّ من شطبه.

وفي السنوات التالية نظّم الفرنج، وعلى الأخص المغول بقيادة أبغا ابن هولاكو وخليفته، عدّة غارات على بلاد الشام؛ ولكنها سوف تُصدّ جميعاً بلا استثناء. وعندما مات بيبرس مسموماً عام ١٢٧٧ م لم تكن تمثّل جميع الممتلكات الفرنجية سوى سِبحة من المدن الساحلية محاطة من كل ناحية بالإمبراطورية المملوكية. فقد فُككت شبكة قلاعهم بأكملها، وانتهى تماماً التأجيل الذي نعموا به في زمن الأيّوبيين، وغدا الآن طردهم أمراً محتّماً.

ومع ذلك فإنه ليس هناك ما يحثّ على ذلك، والهدنة التي أبرمها بيبرس جدّدها السلطان الجديد قلاوون عام ١٢٨٣ م. ولم يكن هذا الأخير ليُبديَ ما يدلّ على عدائه للفرنج. وقد كشف عن استعداده لضمان وجودهم وأمنهم في الشرق شريطة أن يكفّوا بعد كل اجتياح عن لعب دور المساعدين لأعداء الإسلام. وإنّ نصّ المعاهدة التي عرضها على

مملكة عكّا لتؤلّف محاولة فريدة من قِبَل هذا الإداريّ الماهر المستنير لـ «تطبيع» وضع الفرنج يقول النصّ:

«متى تحرّك أحد من ملوك البحر الفرنجية وغيرهم (. . .) لقصد الحضور لِمَضَرَّة (. . .) السلطان أو مَضَرَّة ولده (. . .) فيلتزم نائب المملكة والمقدّمون بعكّا تعريف (. . .) السلطان بحركتهم قبل وصولهم إلى البلاد بمدّة شهرين. وإن وصلوا بعد انقضاء مدّة شهرين فيكون كفيل المملكة بعكا والمقدّمون براءً من عهدة اليمين في هذا الفصل.

وإن تحرّك عدو من جهة البرّ من التتار وغيرهم فأيُّ مَنْ سبق إليه من الجهتين فيعرِّف الجهة الأخرى. وعلى أنّه إن قصد البلادَ الشامية ـ والعياذ بالله ـ عدوٌ من التتار وغيرهم من البر وانحازت العساكر قدّامهم (. . .) فلكفيل المملكة بعكّا والمقدّمين بها أن يداروا عن نفوسهم ورعيّتهم وبلادهم (. . .)»[1].

وإذ وقعت هذه الهدنة في أيار/مايو ١٢٨٣ م لمدة عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات فقد شملت جميع البلاد الفرنجية الساحلية، أي مدينة عكّا وبساتينها وأراضيها وطواحينها وكرومها والقرى الثلاث والسبعين التابعة لها؛ ومدينة حيفا وكرومها وبساتينها والقرى السبع المتّصلة بها. . . وبالنسبة إلى صيدا فإن قلعتها والمدينة والكروم والضواحي هي للفرنج، وكذلك القرى الخمس عشرة المرتبطة بها والسهل المحيط بها وأنهاره وسواقيه وينابيعه وبساتينه وطواحينه واقنيته وسدوده المستخدمة منذ أمد طويل لريّ أراضيه. وإذا كانت اللائحة طويلة ودقيقة فإنّما ذاك لتجنب كل نزاع. ومع ذلك فإنّ الأراضي الفرنجية تبدو هزيلة: مجرّد شريط ساحلي ضيّق ودقيق لا يشبه في شيء القوّة المحليّة القديمة المرهوبة التي كان يشكلها الفرنج مثلاً. والصحيح أن

(١) «تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور»، محيي الدين بن عبد الظاهر، الجمهورية العربية المتحدة ـ وزارة الثقافة والارشاد القومي، الطبعة الأولى ١٩٦١، ص ٤٢. (المترجم).

الأماكن المذكورة لا تمثّل مجموع الممتلكات الفرنجية. فصور المفصولة عن مملكة عكّا تعقد مع قلاوون اتّفاقاً منفصلاً. وأبعَدَ إلى الشمال استُبعدت من الهدنة مدنٌ مثل طرابلس واللاذقية.

كذلك كانت الحال بالنسبة إلى حصن المَرْقَب الذي كان بيد «الاسبتار». وكان هؤلاء الرهبان ـ الفرسان قد انحازوا إلى المغول وذهبوا إلى حدّ القتال إلى جانبهم في محاولة غزو جديدة قاموا بها عام ١٢٨١ م. وهكذا فقد عزم قلاوون على جعلهم يدفعون ثمن انحيازهم. ويقول لنا ابن عبد الظاهر إنه في ربيع عام ١٢٨٥ م:

«جهّز [السلطان] المجانيق من دمشق (...) وكان قد جهّز (...) زَرَدْخاناه عظيمة من مصر فيها أحمال كثيرة من النشّاب وغيره (...) فُرِّق على الأمراء (...) وجُهِّزت آلات من الحديد والنفط ممّا لا يوجد إلا في ذخائره وخزائن سلاحه (...) واستُخدمت جماعةٌ كبيرة من الصنّاع الذين لهم خبرة بالحصارات (...) ونُصبت المجانيق (...) ومن جملة ذلك مجانيق فرنجية ثلاثة (...) ومجانيق شيطانية أربعة (...) [في ٢٥ أيار/مايو] كانت النقوب قد أخذت من تحت الخنادق (...) فسُقط في أيديهم [أي الفرنج] (...) فأجابهم [أي قلاوون] إلى العفو والأمان (...) ومن له مال يتعلّق بنفسه يُنْعَمُ عليه به»(١).

ومرّة جديدة عوقب حلفاء المغول من غير أن يتمكن هؤلاء من التدخل. ولو أرادوا ذلك لما كفتهم الأسابيع الخمسة التي استغرقها الحِصار لتنظيم حملة تنطلق من فارس. ومع ذلك فقد كان التتار في تلك السنة، ١٢٨٥ م، أكثر عزماً من أيّ وقت مضى على استئناف هجومهم على المسلمين. وكان زعيمهم الجديد الخان أرغون حفيد هولاكو قد احتضن أعزّ الأحلام على قلب أسلافه: تحقيق تحالف مع الغربيين للإيقاع بالسلطنة المملوكية في فكّ كمّاشة. وهنا قامت اتصالات منتظمة بين تبريز وروما لتنظيم حملة مشتركة، أو متوافقة على الأقلّ. وفي عام

(١) «تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور»، ص ٧٧ ـ ٧٩. (المترجم)

١٢٨٩ م استشعر قلاوون خطراً وشيك الوقوع، ولكنّ عملاءه لم يتمكّنوا من تزويده بأخبار دقيقة محدّدة. وكـان يجهل عـلى الأخصّ أنّ خطّة قتـال دقيقة وضعها أرغـون كانت قـد عُرضت خـطّياً عـلى البابـا وملوك الغرب الرئيسيّين. وقد حفظ الزمن إحدى تلك الرسائل، وكانت قد وُجّهت إلى العاهل الفرنسي فيليب الرابـع الجميل. ويعـرض فيها الـزعيم المغولي أن يبـدأ اجتيـاحُ بـلاد الشـام في الأسبـوع الأول من كـانـون الثـاني/ينـايـر ١٢٩١ م. وكان يتوقّـع سقوط دمشق في منتصف شبـاط/فبرايـر والقدس بعد ذلك بقليل.

ومن غير أن يعرف قـلاوون حقّاً كـان يُحاك ازداد قلقـه وتعاظم. فهـو يخشى أن يتّخـذ غُزاة الشرق أو الغـرب من المدن الفـرنجية ببـلاد الشـام رأس جسر يسهّل أمر دخولهم. ولكنّه على الرغم من أنّه بات مقتنعـاً بأن الوجود الفرنجي يؤلّف خطراً دائماً على سلامة العـالم الإسلامي فـإنّه كـان يـرفض الخلط بين أهـل عكّا وأهـل النصف الشمالي من بـلاد الشـام ممّن أظهروا علناً تعاطفهم مع المجتاح المغولي. وعـلى أيّ حال فـإنّه لم يكن في وسـع السلطان الذي يـرعى عهوده أن يهـاجم عكّا التي لا تـزال تحميهـا خمسـة أعوام أخـرى من معاهـدة الصلح، وعليـه فقـد صرف جهـده إلى طـرابلس. وهكذا احتشـد جيشه القـويّ في آذار/مـارس ١٢٨٩ م تحت أسوار المدينة التي غنمها ابن سان جيل [صنجيل] قبل مئة وثمانين عاماً.

وفي عـداد عشرات الآلاف من المحاربـين في جيش المسلمين كـان ابو الفدا، وهو أمير فتيّ في السادسـة عشرة من العمر سليـل الأسرة الأيّوبيـة ولكنّه غدا من أتباع المماليك. وقد حكم بعد سنوات مدينة حمـاة الصغيرة حيث أنفق معظم وقته في القراءة والكتابة. وأهميّة عمل هذا المؤرّخ الذي كان جغرافياً وشاعراً أيضاً تتمثّـل على الأخصّ في السرد الـذي يقدّمـه لنا عن السنوات الأخيرة من الوجود الفرنجي في الشرق. فأبـو الفدا حـاضر في جميع ساحات القتال، عينُه تراقب بدقّة وسيفُه في يده. اسمعه يقول:

«يكتنف البحر مدينة طرابلس وليس بالإمكان مهاجمتها من البر إلا من

الجهة الشرقية عبر ممرّ ضيّق. وبعد أن حصرها السلطان نصب في مواجهتها عدداً كبيراً من المجانيق من كلّ الأحجام وشدّد عليها الخِناق».

وبعد قتال دام شهراً سقطت المدينة بيد قلاوون في السابع والعشرين من نيسان/أبريل.

ويضيف أبو الفدا الذي لا يسعى قطّ إلى إخفاء الحقيقة أنّ عسكر المسلمين دخلوها عنوة، فانكفأ أهلها باتّجاه الميناء حيث نجا بعضهم بالسفن، ولكنّ معظم الرجال قُتلوا وسُبيت النساء والأطفال، وغنم المسلمون غنائم كثيرة.

وعندما انتهى الفاتحون من القتل والتخريب أمر السلطان بهدم المدينة ومساواتها بالأرض.

«وكان على مسافة قليلة من طرابلس في عُرض البحر جزيرة صغيرة بها كنيسة. وعندما مُلكت المدينة التجأ إليها كثير من الفرنج مع عائلاتهم. ولكنّ عساكر المسلمين ألْقَوْا بأنفسهم في الماء وسبحوا إلى الجزيرة فقتلوا كل الرجال الذين لجأوا إليها وعادوا بالنساء والأطفال مع الغنائم. وذهبت أنا نفسي بعد المذبحة إلى الجزيرة في قارب، ولكني لم أستطع البقاء فيها لشدّة نتن الجثث».

ما كان الأيّوبي الشاب المفعم بعظمة أجداده وشهامتهم ليتمالك نفسه من استنكار تلك المذابح التي لا تفيد في شيء. ولكنّه يعلم أنّ الأيام تغيّرت.

والعجيب أن عملية طرد الفرنج قد تمّت في جوّ يذكّر بالذي اتّسم به مجيئهم قبل ما يناهز القرنين. فمذابح أنطاكية في عام ١٢٦٨ م تبدو نسخة مكرّرة عن مذابح عام ١٠٩٨ م، وسوف يصوّر المؤرّخون العرب في العصور التالية عملية الانقضاض على طرابلس وكأنها ردّ متأخر على تدمير مدينة بني عمّار في عام ١١٠٩ م ومع ذلك فإن الثأر سيغدو بالفعل موضوع الدعاية المملوكية الرئيسيّ عقب معركة عكّا، آخر معركة كبرى في الحروب الفرنجية.

أخذ ضباط قلاوون يلحّون عليه منذ اليوم التالي لانتصاره مؤكدين أنه بات واضحاً أنْ ليس في وسع أيّة مدينة فرنجية الاستعصاء على الجيش المملوكي، وأنّه ينبغي الهجوم على الفور فلا يُترك المجالُ للغرب المروَّع بسقوط طرابلس لتنظيم حملة جديدة على بلاد الشام. أفلا ينبغي الخلاص مرة واحدة وأخيرة ممّا تبقّى من المملكة الفرنجية؟ ولكنّ قلاوون أبى: لقد وقّع هدنة ولا يمكن أبداً أن ينكث بعهده. وأصرّت الحاشية متساءلة عمّا إذا لم يكن بالإمكان الطلب إلى الفقهاء أن يُعلنوا عدم الجدوى من المعاهدة مع عكّا، وتلك وسيلة كثيراً ما استخدمها الفرنج في ماضي الأيّام. ورفض السلطان ذلك مذكّراً أمراءه بأنه أقسم في نطاق الاتفاق المعقود عام ١٢٨٣ م على أنّه لا يعمد إلى الفتاوى لنقض الهدنة. وأكّد أن لا، وأنه سيستولي على جميع الأملاك الفرنجية التي لا تحميها المعاهدة لا أكثر. وأرسل بعثة إلى عكّا مجدّداً التأكيد لآخر الملوك الفرنج، هنري «ملك قبرص والقدس» أنه سوف يحترم التزاماته. وأحسنُ من ذلك أنّه قرّر تجديد هذه الهدنة الشهيرة عشر سنوات أخرى ابتداء من تموز/يوليه ١٢٨٩ م وشجّع المسلمين على استخدام عكّا في مبادلاتهم التجارية مع الغرب. والواقع أنّ المرفأ الفلسطيني قد عرف نشاطاً كثيفاً في الأشهر التي تلت. وكان التجّار الدمشقيّون يفدون بالمئات للإقامة في الخانات الكثيرة القريبة من الأسواق محقّقين معاملات مثمرة مع التجّار البنادقة أو الداويّة [فرسان الهيكل] الأثرياء الذين غَدَوا صيارفة بلاد الشام الرئيسيين. ومن جهة أخرى فإنّ آلاف الفلاحين العرب الآتين بصورة خاصة من الجليل كانوا يتقاطرون على الحاضرة الفرنجية لتصريف محاصيلهم. وكان هذا الازدهار يعود بالخير على جميع دول المنطقة، وعلى المماليك بخاصّة. وإذ كان تيّار التبادل مع الشرق قد تعكّر منذ سنوات كثيرة بسبب الوجود المغوليّ، فإنّه لم يكن بالإمكان تعويض النقص في الربح إلا بتنمية تجارة متوسّطية.

وكان أكثر المسؤولين الفرنج واقعيةً ينظرون إلى الدور الجديد المُسند إلى عاصمتهم، دور الوكالة التجارية التي تؤمّن العلاقات بين عالميْن، على

أنّه فرصة غير متوقَّعة للبقاء في منطقة لم يَعُدْ لهم فيها أيّ حظّ للقيام بدور الهيمنة. ومع ذلك فإنّه لم يكن هذا رأيَ الجميع. فقد كان بعضهم لا يزالون يأملون بتحريك تعبئة دينية في الغرب تكون كافية لتنظيم حملات عسكرية جديدة على المسلمين. وغداة سقوط طرابلس أرسل الملك هنري رُسُلاً إلى روما يطلبون منها الأمْداد حتى إنّ أسطولاً ضخماً وصل في منتصف صيف ١٢٩٠ م إلى ميناء عكّا مُفرغاً في المدينة آلاف المقاتلين الفرنج المشحونين بعواطف التعصّب. وأخذ السكّان يراقبون في حذر هؤلاء الغربيّين المترنّحين من السُكْر الذين تبدو عليهم سِيما قطّاع الطرق ولا يدينون بالطاعة لأيّ زعيم.

وما هي إلا بضع ساعات حتى بدأت الحوادث. فقد هوجم عدّة تجار دمشقيّين في الشارع وسُلبوا وتُركوا بين الموت والحياة. وتمكّنت السلطات من إعادة النظام كيفما جرى الأمر، ولكنّ الوضع تدهور من جديد في حدود نهاية شهر آب/أغسطس. فعقب مأدبة كان الخمر فيها مِدراراً انتشر القادمون حديثاً في الشوارع فطاردوا كل شخص مُلْتَحٍ وذبحوه بلا رحمة. وهكذا قضى كثير من العرب، تجّاراً وفلاحين مسالمين، مسلمين ومسيحيين على حدٍّ سواء، وهرب الباقون فأخبروا بما حدث.

تميّز قلاوون من الغضب. أمِنْ أجل الوصول إلى هذا الدرك جدّد الهدنة مع الفرنج؟ ودفعه أمراؤه إلى العمل على الفور، ولكنّه لا يريد بوصفه رجل دولة مسؤولاً أن يستسلم لسلطان الغضب. وأرسل إلى عكّا بعثة يطلب معها إيضاحات عمّا جرى ويُطالب على الأخصّ بتسليمه القَتَلة لينالوا عقابهم. وانقسم الفرنج، فأقلّية توصي بقبول شروط السلطان لتجنّب حرب جديدة، والآخرون رفضوا وبلغ بهم الأمر أنْ قالوا لرُسُل قلاوون إنّ التجار المسلمين هم المسؤولون عن المذبحة لأن أحدهم حاول إغواء امرأة فرنجية.

* * *

عندها لم يتردّد قلاوون فجمع أمراءه وانبأهم بعزمه على أن يُنهي إلى غير رجعة احتلالاً فرنجياً طال أَمَدُه كثيراً. وعلى الفور ابتدأت الاستعدادات فاستُدعي الأتباع من أربعة أركان السلطنة للاشتراك في معركة أخيرة من الجهاد.

وقبل أن يغادر الجيش القاهرة حَلَف قلاوون على المصحف ألّا يُلقي السلاح قبل أن يطرد من البلاد آخر فرنجي. والذي يزيد من إكبار ذلك القَسَم أن السلطان كان في ذلك الحين عجوزاً متهالكاً. وعلى الرغم من الجهل بسنّه على وجه الدقّة فإنّه يبدو أنّه كان قد تخطّى بكثير الأعوام السبعين. وفي الرابع من تشرين الثاني/نوفمبر ١٢٩٠ م تحرّك الجيش المملوكي الضخم. وفي اليوم التالي بالذات سقط السلطان مريضاً. واستدعى أمراءه إليه وجعلهم يُقسمون على طاعة ابنه خليل، وطلب إلى هذا أن يلتزم مثلَه بقيادة الحملة على الفرنج إلى نهايتها. ومات قلاوون بعد أقلّ من أسبوع مُكرّماً من رعيّته كما يليق بعاهل عظيم.

لم يؤّخر موت السلطان الهجوم الأخير على الفرنج إلا بضعة أشهر. فمنذ شهر آذار/مارس ١٢٩١ م استأنف خليل مسيره على رأس جيشه إلى فلسطين. وانضّمت إليه عدّة أفواج شاميّة في أوائل أيار/مايو في السهل المحيط بعكّا. وقد اشترك أبو الفدا الذي كان في الثامنة عشرة من العمر في المعركة مع أبيه، بل إنه كان مكلّفاً إحدى المسؤوليات، فإليه يعود أمر الاهتمام بدرّاعة رهيبة تُدعى «المنصورة» كان ينبغي نقلها مفكّكة من حصن الأكراد إلى جوار المدينة الفرنجية.

«كانت العربات من الثقل بحيث استغرق الانتقال شهراً، في حين كانت ثمانية أيام كافية في العادة. وعندما وصلنا كانت الثيران التي تجرّ العربات قد نفقت جميعها تقريباً من التعب والبرد».

ويتابع مؤرخنا قائلاً:

«وفي الحال بدأ القتال. وكنّا نحن أهل حماة في أقصى ميمنة الجيش

كعادتنا. وكنا بحذاء البحر حيث كانت تهاجمنا مراكب فرنجية تعلوها أبراج مغطّاة بالخشب ومفروشة بجلود الجواميس يرشقنا منها العدو بسهام الأقواس والقذّافات. وكان علينا أن نقاتل على جبهتين. أهل عكّا الذين كانوا بمواجهتنا وأسطولهم. وقد أُصبنا بخسائر فادحة عندما بدأت سفينة فرنجية تحمل منجنيقاً تقذف خيامنا بكتل الصخور. ولكن هبّت ذات ليلة رياح صرصر فأخذت السفينة تترجّح فوق اللجّة تتقاذفها الأمواج حتى إن المنجنيق تكسّر قطعاً. وفي ليلة أخرى خرجت جماعة من الفرنج وتقدّمت نحو مخيّمنا، ولكنّ بعضهم تعثّر في الظلمة بحبال خيامنا، بل إنّ أحد الفرسان سقط في حفرة القاذورات وقُتل. وتنبّهت عساكرنا وهاجمت الفرنج من كل صوب واضطرتهم إلى الانسحاب إلى المدينة بعد أن خلّفوا عدّة قتلى على الساحة. وفي صباح اليوم التالي علّق ابن عمّي الملك المظفّر صاحب حماة رؤوس الفرنج القتلى إلى أعناق الجياد التي أسرناها وقدّمها إلى السلطان».

وفي يوم الجمعة الواقع في السابع عشر من حزيران/يونية ١٢٩١ م دخل جيش المسلمين المتمتع بتفوّق عسكريّ ساحق إلى المدينة المحاصَرة. وركب الملك هنري ومعظم وجهاء المدينة البحر على عجل ليلوذوا بقبرص. وأمّا الفرنج الآخرون فقد أُسروا جميعاً أو قُتلوا. ومُهدت المدينة بأكملها.

ولقد استعيدت مدينة عكّا كما يؤكد أبو الفدا ظهر السابع عشر من جمادى الثانية عام ٦٩٠ هـ. والحقّ أنّه في اليوم نفسه بالضبط، والساعة نفسها من عام ٥٨٧ هـ مَلَكَ الفرنج عكّا من صلاح الدين وأسروا جميع المسلمين الذين كانوا فيها ثم قتلوهم. أليس في ذلك صدفة غريبة؟

وليست هذه المصادفة أقلّ غرابة في التقويم المسيحي لأن انتصار الفرنج وقع عام ١١٩١ م، أي قبل مئة سنة، ويوماً بيوم على وجه التقريب، من هزيمتهم النهائية. ويتابع أبو الفدا قائلاً:

«بعد فتح عكّا ألقى الله الرعب في قلوب الفرنج الذين كانوا لا

يزالون على ساحل الشام. وعليه فقد عجّلوا في إخلاء صيدا وبيروت وصور وكل المدن الأخرى. وهكذا كان من حُسْنِ طالع السلطان أن فتح بلا مشقّة، وهذا ما لم يحصل لأحد غيره، جميع تلك الأماكن ولم يُعَتِّم أن هدمها».

والحقّ أن خليل قرّر في حمأة انتصاره أن يهدم على طول الساحل كلّ قلعة كان بالإمكان أن يستخدمها الفرنج يوماً إذا ما فكّروا بعدُ في العودة إلى الشرق.

ويختم أبو الفدا بالقول:

«عادت بهذه الفتوح جميع بلاد الساحل برمّته إلى المسلمين، ولم يكن ذلك متوقّعاً. وهكذا فإن الفرنج الذين كانوا قبلاً على أهبة فتح دمشق ومصر ومناطق أخرى طُردوا من كل بلاد الشام والمناطق الساحلية. لا قدَّر الله أن تطأ أقدامُهم بلادَنا بعد اليوم!»

خاتمة

لقد حاز العالم العربي في الظاهر نصراً مُبيناً. وإذا كان الغرب قد سعى باجتياحاته المتلاحقة إلى احتواء المدّ الإسلامي فقد جاءت النتيجة معاكسة تماماً. فما كان للدويلات الفرنجية في الشرق أن تُقْتَلع وحسب بعد قرنين من الاستعمار، بل إنّ المسلمين نهضوا إلى درجة أنّهم سوف ينطلقون لغزو أوروبا بالذات تحت الراية العثمانية. ففي عام ١٤٥٣ م وقعت القسطنطينية في قبضتهم. وفي عام ١٥٢٩ م كان فرسانهم يعسكرون تحت أسوار ڤيينا.

ولكنّه لم يكن، كما قلنا، سوى مظهر. إذ لا بدّ بعد مرور الزمن من ملاحظة: كان العالم العربيّ في عهد الحروب الصليبيّة من إسبانيا إلى العراق لا يزال فكرياً ومادّياً خازن أرقى حضارة على وجه الأرض. ولسوف ينتقل مركز العالم بعدها بعزم وتصميم إلى الغرب. أيكون في ذلك علاقة سبب إلى نتيجة؟ وهل يمكن الذهاب إلى حدّ التأكيد بأن الحروب الصليبيّة قد أطلقت إشارة نهضة أوروبا الغربية ـ التي ستتوصل بالتدريج إلى الهيمنة على العالم ـ ودقّت نفيرَ موت الحضارة العربية؟

ومن غير أن يكون هذا الحكم خاطئاً ينبغي تمييز فوارقه. لقد كان العرب يَشْكُون، حتّى قبل الحروب الصليبيّة، من بعض «عاهات» أبرزَها الوجود الفرنجي إلى النور، وربّما فاقمها، ولكنّه لم يخلقها من لا شيء.

لقد كان شعب النبيّ قد فقد منذ القرن التاسع التحكّم بمصيره.

فمسؤولوه كانوا جميعهم عمليّاً من الغرباء. فَمَنِ الذي كان عربيّاً من كل هذا الحشد من الأشخاص الذين رأيناهم يمرّون أمامنا خلال قرني الاحتلال الفرنجي؟ المؤرّخون والقضاة وبعض الملوك المحليين الصغار - ابن عمّار وابن منقذ - والخلفاءُ الذين لا حَوْل لهمْ ولا قوّة. وأمّا القابضون الحقيقيون على أزمّة الحكم، وحتّى أبطال مجاهدة الفرنج الرئيسيون - زنكي ونور الدين وقُطُز وبيبرس وقلاوون - كانوا أتراكاً؛ وأمّا الأفضل فكان أرمنياً، وشيركوه وصلاح الدين والعادل والكامل كانوا أكراداً. وكان رجال الدولة هؤلاء بالطبع قد تعرّبوا ثقافياً وعاطفياً؛ ولكنْ لا ننسينّ أننا رأينا في عام ١١٣٤ م السلطان مسعوداً يناقش الخليفة المسترشد عَبْر ترجمان لأنّ السلجوقيّ لم يكن يتكلم كلمة عربية واحدة حتى بعد ثمانين عاماً من استيلاء عشيرته على بغداد. وأخطر من هذا أنّ عدداً لا يُستهان به من محاربي السهوب الذين لا تربطهم أيّة رابطة بالحضارة العربية أو المتوسطية كانوا يندمجون بانتظام في الطبقة العسكرية الحاكمة. وإذ كان العرب محكومين ومضطَّهَدين ومُهانين وغرباء في عقر دارهم فإنّهم لم يكونوا قادرين على إكمال تفتّحهم الثقافيّ الذي بدأ في القرن السابع (الميلادي). ولدى وصول الفرنج كانوا قد أصبحوا يراوحون مكانهم قانعين بالعيش على مُكْتَسَبات ماضيهم. وإذا كانوا لا يزالون متقدّمين بشكل جليّ على أولئك الغُزاة الجدد في معظم الميادين فإنّ أفول نجمهم كان قد بدأ.

و«عاهة» العرب الثانية التي ترتبط بالأولى هي عجزهم عن بناء مؤسسات ثابتة. وقد نجح الفرنج منذ وصولهم إلى الشرق في خلق دول حقيقية. فكانت الخلافة في القدس تتمّ بشكل عام من غير صدامات؛ فكان مجلس المملكة يمارس رقابة فعليّة على سياسة العاهل، وكان للكهنوت دورٌ معترف به في لعبة الحكم. ولم يكن شيء من هذا في الدول الإسلامية. فكلّ نظام مَلَكيّ كان مُهدَّداً عند موت الملك، وكلّ انتقال في الحكم كان يثير حرباً أهليّة. أفينبغي إلقاء المسؤوليّة بكاملها في هذه الظاهرة على الاجتياحات المتلاحقة التي كانت تجدّد باستمرار استدعاء

وجود الدول بالذات؟ أفينبغي إلقاء التبعة على الأصول البدوية للشعوب التي سيطرت على هذه المنطقة سواء أكانوا العرب أنفسهم أم الأتراك أم المغول؟ ليس في الإمكان الحسم في هذه المسألة في نطاق هذه الخاتمة. ولنكتفِ بالتأكيد بأنّها لا تزال مطروحة بعبارات مختلفة تقريباً في العالم العربيّ في نهاية القرن العشرين.

فلم يكن بالإمكان ألّا يكون لغياب المؤسسات الثابتة المعترف بها من أثر على الحريّات. فسلطان الملوك عند الغربيّين محكوم في عهد الحروب الصليبية بمبادىء من الصعب تجاوزها. وقد لاحظ أسامة خلال زيارة قام بها إلى القدس أنه «حين يُصدر الفرسان حكماً فلا يمكن للملك أن يعدِّله أو ينقضه». ولعلّ هذه الشهادة الصادرة عن ابن جبير في أواخر أيام رحلته إلى الشرق أن تكون أعمق مغزى:

«ورحلنا من تبنين (بالقرب من صور)... وطريقنا كله على ضياع متّصلة وعمائر منتظمة، سكّانها كلّها مسلمون وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه ـ نعوذ بالله من الفتنة (...) ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم. وكلّ ما بأيدي الإفرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل، رساتيقها كلّها للمسلمين، وهي القرى والضياع. وقد أشربت الفتنة قلوبَ أكثرهم لما يبصرون عليه إخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعمّالهم لأنهم على ضدّ أحوالهم من الترفيه والرفق. وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين أن يشتكي الصنف الإسلاميّ جَوْرَ صنفه المالك له، ويحمد سيرة ضدّه وعدوّه المالك من الإفرنج ويأنس بعدله»[1].

وابن جبير على حقّ في أن يقلق، فقد اكتشف على طرقات لبنان الجنوبي الحالي حقيقة مُثْقَلَة بالنتائج: فحتى لو كان لمفهوم العدل عند الفرنج بعض المظاهر التي يمكن نعتها بـ «البربرية»، كما أشار أسامة، فإنّ لمجتمعهم امتيازاً هو أنه «يُحسِنُ توزيع الحقوق». ولم يكن مفهوم المواطن قد وُجد بعدُ بالطبع، ولكنّ الاقطاعيين والفرسان ورجال الكهنوت

(١) «رحلة ابن جبير»، بالنص العربي، ص ٢١٠/٢١١. (المترجم).

والجامعة والبرجوازيين، وحتى الفلاحون «الكَفَرة»، لهم جميعاً حقوق مشروعة واضحة. وأمّا في الشرق فإنّ الاجراءات القضائية أكثر عقلانية؛ ومع ذلك فليس هناك حدّ لسلطة الأمير الاعتباطية. وعليه فإنّه لم يكن بالإمكان إلاّ أن يتأخرّ نموّ لمدن التجارية، وكذلك تطوّرُ الأفكار.

بل إنّ ردّ فعل ابن جبير يستحقّ فحصاً أدق. فإذا كان يملك الشهامة للاعتراف بالمحامد لـ «العدوّ عليه لعنة الله» فإنّه لا يُعتِّم أن ينهال بالابتهالات معتبراً أنّ عدل الفرنج وحُسْنَ إدارتهم يشكّلان خطراً مميتاً على المسلمين. ألا يوشك هؤلاء بالفعل أن يُديروا ظهورهم لإخوتهم في الدين - بل لدينهم - إذا وجدوا رغد العيش في المجتمع الفرنجي؟ وإذا كان من الممكن فهم موقف الرحّالة فإنّه لا يخلو أن يكون مشخِّصاً لداء يشكو منه إخوته: لقد رفض العرب طوال الحروب الصليبية أن ينفتحوا للأفكار الوافدة من الغرب. وربما كان ذلك نتيجة أسوأ الاعتداءات التي كانوا ضحيّتها. وكان تعلّم الغازي لغة الشعب المغزوّ مهارة منه؛ وكان تعلّم هؤلاء لغة الغازي شُبهة، بل خيانة. والحقّ أن الذين تعلّموا العربية من الفرنج كانوا كُثُراً، بينما ظلّ أهل البلاد، باستثناء بعض المسيحيين، منغلقين على لغات الغربيّين.

وبالإمكان مضاعفة الأمثلة لأنّ الفرنج قد أقبلوا على المدرسة العربية في جميع الميادين، سواء في بلاد الشام أو في إسبانيا أو في صقلّية. وكان من غير الممكن الاستغناء عمّا تعلّموه منها لتوسّعهم وانتشارهم فيما بعد. فتراث الحضارة الإغريقية ما كان لينتقل إلى أوروبا الغربيّة إلاّ عن طريق العرب مترجمين ومكمِّلين. ففي الطب والفلك والكيمياء والجغرافيا والرياضيات والعمارة استقى الفرنج معارفهم من الكتب العربية التي هضموها وحاكَوْها وتجاوزوها. وكم من كلمة لا تزال تشهد بذلك: (Zénith) السَمْت، و(Nadir) النظير، و(Azimut) السِمْت، و(Algèbre) الجَبْر، و(Algorythme) الخوارزمي، وأبسط من ذلك (Chiffre) الصِّفْر. وفي مجال الصناعة استخدم الأوروبيّون ما استخدمه

العرب من طرق ـ قبل أن يُحسِّنها الأوّلون ويطوّروها ـ في صُنع الورق والاشتغال بالجلود والنسيج وتقطير الكحول واستخراج السُكّر، والكحول (Alcool) والسُكّر (Sucre) كلمتان أخريان مقترضتان من العربية. ولا يمكن أن نُغْفِل إلى أيّ مدى اغتنت الزراعة عن طريق الاتصال بالشرق: المشمش والباذنجان والكرّاث والبرتقال والبطيخ... ولائحة الكلمات «العربية» لا تنتهي.

وفي حين كان عهد الحروب الصليبية شرارة ثورة حقيقية اقتصادية وثقافيّة معاً بالنسبة إلى أوروبا الغربية فإنّ هذه الحروب المقدّسة ستُفضي في الشرق إلى عصور طويلة من الانحطاط والظلامية. فالعالم الإسلامي المطوّق من كل صوب انغلق على نفسه. وأصبح يرتعش برداً لكل نسمة ويحاول الدفاع عن نفسه، وانعدم فيه التسامح، وغدا عقيماً، وتكثر المواقف المستفحِلة في الوقت الذي تتتابع فيه دورة الكوكب التطوّرية التي يشعر إزاءها بأنّه على الهامش. وبات التقدُّم هو الطرف الآخر، والحداثة هي الطرف الآخر. أفكان عليه تثبيت هويّته الثقافية والدينيّة برفض هذه الحداثة التي يمثّلها الغرب؟ أم كان عليه بالعكس من ذلك السير بعزم على درب الحداثة مخاطراً بفقد هويّته؟ لم تنجح إيران ولا تركيا ولا العالم العربي في إيجاد حلّ لهذا المأزق؛ وهذا هو السبب في أنّنا لا نزال نشهد ترجّحاً كثيراً ما يكون عنيفاً بين مراحل من التغرّب الاضطراري وأخرى من الأصولية المفرطة الشديدة الكراهية للأجنبي.

وإذا كان العالم العربي مُعْجَباً ومُرتاعاً معاً من هؤلاء الفرنج الذين عرفهم برابرة وانتصر عليهم، وإن كانوا قد نجحوا مذّاك في الهيمنة على الدنيا، فإنّه لا يستطيع أن يصمّم على اعتبار الحروب الصليبية مجرّد فصل من ماضٍ انتهى. وكثيراً ما يدهش المرء عندما يكتشف إلى أيّ مدى ظلّ موقف العرب، والمسلمين بعامّة، متأثراً، إلى اليوم أيضاً، بأحداث يُفترض أنّه انتهى أجلها منذ سبعة قرون.

ومن جهة أخرى فإنّ المسؤولين السياسيين والدينيّين في العالم العربي لا

يزالون، عشيّة الألف الثالث، يستشهدون بصلاح الدين وسقوط القدس واستعادتها. وتُشَبَّه اسرائيل في المفهوم الشعبي كما في بعض الخُطب الرسميّة بدولة صليبية جديدة. ومن فصائل جيش التحرير الفلسطيني الثلاثة يحمل واحد اسم «حطين» وآخر اسم «عين جالوت». وكان الرئيس عبد الناصر في إبّان مجده يُقارَن بصلاح الدين الذي كان ـ مثلَه ـ قد وحّد الشام ومصر، وحتى اليمن! وأما حملة السويس في عام ١٩٥٦ م فقد نظر إليها ـ على قدم المساواة مع حملة ١١٩١ م ـ على أنها حملة صليبية بقيادة الفرنسيين والإنكليز.

والحقّ أن التشبيهات مثيرة. فكيف لا يذكر المرء الرئيس السادات وهو يسمع سبط ابن الجوزي يفضح أمام أهل الشام «خيانة» الكامل صاحب القاهرة الذي تجرّأ على الاعتراف بسيادة العدوّ على المدينة المقدّسة؟ وكيف يميِّز الماضي من الحاضر حين يكون الصراع دائراً بين دمشق والقدس حول السيطرة على الجولان أو البقاع؟ وكيف لا يبقى الإنسان متفكرّاً وهو يقرأ ملاحظات «أسامة» عن تفوّق الغُزاة العسكري؟

إنه لا يمكن في عالم إسلامي معتدىً عليه أبداً أن نمنع بروز شعور بالاضطهاد يتخذ عند بعضهم شكل وسواس خطر: ألم نَرَ التركيّ علي آقا يطلق النار في الثالث عشر من أيار/مايو ١٩٨١ على البابا بعد أن شرح في رسالة قائلاً: «قرّرت أن أقتل جان پول الثاني قائد الصليبيين الأعلى»؟ وبعيداً عن هذه الواقعة الفردية فإنه واضح أنّ الشرق العربي لا يزال يرى في الغرب عدوّاً طبيعياً. وكلّ عمل عدائيّ ضدّه، سواء أكان سياسياً أم عسكرياً أم بترولياً، ليس سوى ثأر شرعيّ. ولا يمكن الشكّ في أنّ الصدْع بين هذين العالمين يعود تاريخه إلى الحروب الصليبية التي يشعر العرب بأنّها، إلى اليوم أيضاً، انتهاك واغتصاب.

المصادر والحواشي

يقارب المرء خلال سنتين من الأبحاث في الحروب الصليبية عدداً كبيراً من الأعمال والمؤلّفين فيؤثّرون في العمل الذي يقوم به، سواء كان لقاؤه إيّاهم اقتضاباً أو مخالطة متواصلة. وإذا كانوا كلّهم يستحقون أن يُذكروا فإنّ رؤية هذا الكتاب تفرض عمليّة اختيار. وبالفعل فإنّنا نقدّر أن القارىء لا يبحث عن ثبت حصري بالكتب عن الحروب الصليبية، وإنّما عن مراجع تسمح بتعميق المعرفة بتلك «النظرة الأخرى».

ثلاثة أنماط من المؤلفات مثبتة في هذه الحواشي. فهناك أوّلاً بالطبع مؤلفات المؤرّخين ومسجّلي الحوادث العرب الذين تركوا لنا شهادات عن الغزوات الفرنجية. وسوف نتكلّم عنهم فصلاً بعد فصل حسب ورود اسمائهم في نصّنا مشيرين إلى المصادر الأصليّة التي استندنا إليها بصورة عامة، وكذلك إلى الترجمات الفرنسية المتيسرة. وَلْنَذْكُرْ مع ذلك انطلاقاً من هذه المقدّمة مجموعة النصوص الرائعة التي جمعها المستشرق الإيطالي فرنشسكو غبريلّي ونشرت بالفرنسية بعنوان (Chroniques arabes des Croisades), Sindibad, Paris, 1977.

نمط ثانٍ من المؤلفات يتناول التاريخ العربي والإسلامي الوسيط في علاقاته مع الغرب. ونذكر على وجه التخصيص:

E. Ashtor : *A social and economic history of the near east in the middle ages*, Collins, London, 1976.
P. Aziz : *La Palestine des croisés*, Famot, Genève 1977.
C. Cahen : *Les Peuples musulmans dans l'histoire médiévale*, Institut

français de Damas, 1977.
M. Hodgson : *The venture of islam*, University of Chicago, 1974.
R. Palm : *Les Etendards du Prophète*, J.-C. Lattès, Paris, 1981.
J.J. Saunders : *A history of medieval islam*, RKP, London, 1965.
J. Sauvaget : *Introduction à l'histoire de l'Orient musulman*, Adrien-Maisonneuve, Paris, 1961.
J. Schacht : *The legacy of islam*, Oxford university, 1974.
E. Sivan : *L'Islam et la croisade*, Adrien-Maisonneuve, Paris, 1968.
H. Montgomery Hatt : *L'Influence de l'islam sur l'Europe médiévale*, Geuthner, Paris, 1974.

ويتعلّق النمط الثالث من المؤلّفات بالنصوص التاريخية الكاملة أو الجزئية عن الحروب الصليبية. وغنيّ عن البيان أن العودة إليها كانت ضرورية لجمع الشهادات العربية المبتسرة حتماً في نص متّصل يشمل قرنين من الغزوات الفرنجية. وسوف نشير إليها غير مرّة في هذه الحواشي. وَلْنَذْكُرْ منذ الآن عملين كلاسيكيين: (Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jérusalem) لمؤلّفه رينيه غروسيّه، في ثلاثة مجلدات، Plon, Paris, 1934-1936؛ و(A history of the Crusades) لمؤلفه ستيفن رونسيمن، في ثلاثة مجلدات أيضاً، Cambridge univesity, 1951-1954.

التمهيد

ليس المؤرخون العرب متّفقين جميعُهم على نسبة الخطاب الذي نذكره إلى الهروي. فحسب المؤرّخ الدمشقي سبط ابن الجوزي فإن القاضي هو نفسه الذي قال هذه الكلمات. ويؤكّد المؤرّخ ابن الأثير أنّ قائلها هو الشاعر الأبيوردي الذي قد يكون استلهم قصيدته من تفجّعات الهروي. وعلى كل حالٍ فإنّه ليس هناك من شكّ ممكن في المضمون، فالأقوال المذكورة تطابق تماماً الرسالة التي أراد الوفد بقيادة القاضي إبلاغها إلى بلاط الخليفة.

قام ابن جبير (١١٤٤ ـ ١٢١٧ م) [٥٣٩ ـ ٦١٤ هـ] برحلته إلى الشرق بين عام ١١٨٢ م [٥٧٨ هـ] وعام ١١٨٥ م [٥٨١ هـ] منطلقاً من بلنسية في الأندلس. وقد أعيد طبع النص الأصلي بالعربية (صادر، بيروت، ١٩٨٠).

شغل ابن القلانسي المولود والمتوفّى في دمشق (١٠٧٣ ـ ١١٦٠ م) [٤٦٥ ـ ٥٥٦ هـ] وظائف إدارية عالية في مدينته. وقد ترك تاريخاً عنوانه «ذيل تاريخ

دمشق» ونصّه الأصلي غير متيسر إلا في طبعة تعود إلى عام ١٩٠٨. وقد صدرت منه طبعة فرنسية مجتزأة بعنوان (Damas de 1075 à 1154) نشرها عام ١٩٥٢ المعهد الفرنسي بدمشق بالاشتراك مع (Editions Adrien-Maison-neuve. Paris).

الفصل الأول

«هذه السنة» وفق ما يذكر ابن القلانسي هي سنة ٤٩٠ هـ. جميع مسجّلي الحوادث والمؤرخين العرب في ذلك العهد يستخدمون بفارق ضئيل طريقة العرض نفسها: يعدّدون، بغير نظام في أكثر الأحيان، الحوادث التي جرت في كل سنة قبل الانتقال إلى السنة التي تليها.

ولفظة روم ـ ومفردها رومي ـ تستخدم أحياناً في القرن العشرين في بعض أجزاء العالم العربي للدّلالة على الغربيين بصورة عامة لا على اليونانيين وحدهم.

و«الأمير» في الأساس هو الذي «يتولّى الأمر». و«أمير المؤمنين» هو أمير المسلمين وقائدهم. وأمراء الجيش هم نوعاً ما الضبّاط الكبار. و«أمير الجيوش» هو قائد الجيش الأعلى، و«أمير البحر» هو قائد الأسطول، وهي كلمة اقترضها الغربيون بصيغة مختصرة هي: «أميرال».

هناك غموض يكتنف السلجوقيين. فرأس العشيرة «سلجوق» كان له ولدان اسمهما ميخائيل وإسرائيل، الأمر الذي يدعو إلى الافتراض بأن الأسرة التي وحّدت الشرق الإسلامي كانت أصولها مسيحية أو يهودية. وبعد اعتناق السلجوقيين الإسلام غيّروا بعض أسمائهم. ولحق التتريك بصورة خاصة اسم «إسرائيل» فتحوّل إلى «أرسلان».

تولّى نشر كتاب «سيرة الملك دنشمند» عام ١٩٦٠، النص الأصلي والترجمة، معهد الآثار الفرنسي في اسطمبول.

الفصل الثاني

لا يوجد كتاب ابن الأثير (١١٦٠ ـ ١٢٣٣ م) [٥٥٦ ـ ٦٣١ هـ] الرئيسي

(الكامل في التاريخ] باللغة الفرنسية إلا في ترجمات جزئية، وعلى الأخص في (Le Recueil des Historiens des Croisades) الـذي صدر في باريس بين ١٨٤١ و١٩٠٦ عن (L'Acadèmie des Inseriptions et Belles-Lettres). وقد أعيد طبع «الكامل في التاريخ» في ثلاثة عشر مجلداً عام ١٩٧٩ في (صادر، بيروت). والمجلّدات العاشر والحادي عشر والثاني عشر هي التي تَذْكُرُ مع أشياء أخرى كثيرة الغزوات الفرنجية.

عن فرقة الحشاشين راجع الفصل الخامس.

المرجع عمّا ذكره ابن جبير عن البترول: «الرحلة» في الطبعة الفرنسية ص ٢٦٨، وفي الطبعة العربية ص ٢٠٩.

لمزيد من المعلومات عن انطاكية ينظر
(C. Cahen: la Syrie du Nord à L'èpoque des Croisades et la Primcipauté d'Antioche, Geuthner, Paris, 1940).

الفصل الثالث

النصوص المتعلّقة بأكل لحوم البشر الذي قام به الفرنج في المعرّة عام ١٠٩٨ م كثيرة ـ ومتوافقة ـ في سجلات الوقائع الفرنجية لذلك العهد. وهي موجودة بتفاصيلها عند المؤرخين الأوروبيين حتى القرن التاسع عشر. وهذه هي الحال مثلاً في (L'Histoire des Croisades) لمؤلفه ميشو، وقد نشر في ١٨١٧ ـ ١٨٢٢. انظر الجزء الأول، ص ٣٥٧ وص ٥٧٧، و(Bibliographie des Croisades)، الصفحات ٤٨ و٧٦ و١٨٣ و٢٤٨. وفي المقابل فإن هذه النصوص تُخفى ـ المهمّة التمدينية تستوجب؟ بصورة عامة في القرن العشرين. فـ «غروسيّه» لا يشير إليها مجرد إشارة في «تاريخه» المؤلف من ثلاثة مجلدات، ويكتفي روسيمن بمجرّد تلميح: «كانت المجاعة سائدة... وكان أكل لحم البشر يبدو الحل الوحيد» (المذكور آنفاً، ج ١، ص ٢٦١).

انظر عن الفرنج الـ «طفور»: (J. Prawer: Histoire du royaume France de Jérusalem, C.N.R.S., Paris, 1975) «ج ١، ص ٢١٦».

انظر عن أسامة بن منقذ الفصل السابع
انظر عن أصل:

Paul Deschamps, la Toponomastique: «Karc en Chevalies» en terre sainte au temps des Croisades, in Recueil de Travaux.. Geuthner, Paris, . 1955.

سوف يجد الفرنج رسالة قيصر الروم في خيمة الأفضل بعد معركة عسقلان في آب/أغطس ١٠٩٩ م.

الفصل الرابع

انـظر في ماضي نهر الكلب المـدهش «تـاريـخ لبنـان»، فيليب حتي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٨.

حـاول بـوهيمـون (بيمنـد) بعـد عـودتـه إلى أوروبـا أن يجتـاح بيـزنـطة. وطلب ألكسي إلى قلج أرسلان أن يرسل إليه عساكـر لصدّ الهجـوم. وإذ غُلب بـوهيمون وأسر فقـد أكـره عـلى عقـد اتفـاق يعـترف فيـه بحقـوق للروم عـلى أنطاكية. وقد أجبره هذا الإذلال على عدم العودة قطّ إلى الشرق.

تقع الرُّها اليوم في تركيا، واسمها «أورفه».

الفصل الخامس

انظر بشأن معركة صور وكل ما يتعلّق بالمدينة كتاب الأمير مـوريس شهاب، . (Tyrà l'époque des Croisades, Adrien-Maisonneuve. Paris, 1975)

لم يُخصّص الحلبي ابن العديم(١١٩٢ ـ ١٢٦٢ م) [٥٨٨ ـ ٦٦١ هـ] سوى القسم الأول من حيـاته لكتـابة تـاريخ مـدينتـه. وإذ شغله نشـاطـه السيـاسي والدبلوماسي ورحـلاته الكثـيرة خلال بـلاد الشام والعـراق ومصر فقد قـطع ما سجّله من حوادث عند عام ١٢٢٣ م [٦٢٠ هـ]. وقد نشر نص كتابه «تـاريخ حلب» المعهـد الفرنسي بـدمشق عام ١٩٦٨.

تختلف تسمية المكان الذي دارت فيه المعـركة بـين أيلغازي وجيش أنـطاكية

باختلاف المصادر: سرمدا، درب سرمدا، تلّ عكبرين... وقد أطلق عليه الفرنج اسم «Ager Sanguinis» أي ساحة الدم.

أنظر الحشّاشين كتاب M. Hodgson, The order of Assassins, Mouton, La Hape, 1955.

الفصل السادس

سوف يظل المستشفى الذي تأسّس في دمشق عام ١٩٥٤ م [٥٤٩ هـ] يعمل إلى عام ١٨٩٩ م، وهو العام الذي تحوّل فيه إلى مدرسة.

كان والد زنكي، آق سنقر، والياً على حلب حتى عام ١٠٩٤ م [٤٨٧ هـ]. وإذ اتهمه تتش والد رضوان بالخيانة فقد قطع رأسه. واحتضن كربوقا صاحب الموصل الفتى زنكي وربّاه وأشركه في جميع معاركه.

كانت الأميرة زمرّد ابنة جاولي والي الموصل السابق.

الفصل السابع

يشغل الأمير أسامة بن منقذ المولود عام ١٠٩٥ م [٤٨٨ هـ]، أي قبل سنتين من مجيء الفرنج إلى بلاد الشام، والمتوفى عام ١١٨٨م [٥٨٤ هـ]، أي بعد سنة من استعادة القدس، مكانة خاصة بين من شهدوا الحروب الصليبية من العرب. وإذ كان كاتباً ودبلوماسياً وسياسياً فقد عرف شخصياً نور الدين وصلاح الدين ومُعين الدين أُنر والملك فُلْك وكثيرين غيرهم. ولمّا كان طموحاً ومدبّر مكائد وحائك مؤامرات فقد اتهم بتدبير مقتل خليفة فاطميّ ووزير مصريّ، وبأنه أراد قَلْبَ الحكم على عمّه سلطان، وحتى على صديقه مُعين الدين. ومع ذلك فإنّه لم يبقَ منه سوى صورة الأديب البنية والمراقِب الثاقب البصر الممتلىء ظرفاً. وقد نُشر كتاب أسامة الرئيسي، وهو سيرة حياته الذاتية، في باريس عام ١٨٩٣ بعناية H. Derenbourg. وصدرت طبعة جديدة منه مذيّلة بالحواشي ومزينة بشكل رائع بالصور في عام ١٩٨٣ بقلم أندريه ميكيل بعنوان «Imprimerie Nationale, Paris». (Des enseignements de la vie)،

انـظر في وصف معركـة الـرُّهـا (J.B. Chabot, un épisode de L'Histoire des Croisades, in Mélanges... Geuthner, Paris, 1924)

الفصل الثامن

انـظر لزيـادة المعرفـة بـابن زنكي وعـهـده (N. Elisseeff, Nur-ad din, un grand prince musulman de Syrie au Temps des Croisades, Institut Français de Damas, 1967)...

أوّل مصدر شرعي للدخل عند الأمراء ـ بمن فيهم نور الدين ـ كان نصيبهم ممّا يغنمونه من العدو: ذهب وفضة وخيول وأسرى يبـاعون عبيـداً. وكان ثمن هؤلاء ينقص نقصاً كبيراً حين يكونون كثيري العدد كما يؤكّد المؤرخون؛ وكـان ذلك يصل إلى حدّ مبادلة رجل بحذاء!

حدثت طوال أيام الحروب الصليبية زلازل قويّة كانت تخـرب بلاد الشـام. وإذا كان الزلزال الذي حـدث عام ١١٥٧ م [٥٥٢ هـ] أشـدَّها هـولاً فإنّـه لم يكن يمر عقد من الزمن من غير أن تحدث هزّة كبيرة.

الفصل التاسع

يدعى فرع النيل الشرقي، وهو اليوم جافّ، «الفرع البلوزي» لأنه كان يمرّ بمدينة «بلوز» القديمة. وكان يصبّ في البحر قرب سبخة البردويل (بودوان).

كـان على أسرة أيّـوب أن تغادر تكـريت في عـام ١١٣٨ م [٥٣٣ هـ] بعـد قليل من مولد صلاح الدين في هذه المدينة إذ اضطُر شيركوه لقتل رجل انتقامـاً على ما يقال لعرض امرأة هُتِك.

حكم الفـاطميون، وهم من أصـول إفريقيـة شمـاليـة، مصر من ٩٦٦ م إلى ١١٧١ م [٣٥٦ ـ ٥٦٧ هـ]. وهـم الـذين أنشأوا القـاهرة. وهم ينتسبـون إلى فاطمة بنت النبي وزوجة عليّ الذي عُرف أتباعه بالشيعة.

انظر في أحداث معركة مصر المدهشة (G. Schlumberger. Campagnes du

roi Amaury 1er de Jérusalem en Egypte, Plon, Paris, 1906)

الفصل العاشر

رسالة الحلبيين موجودة كمعظم رسائل صلاح الدين في (كتاب الروضتين) وهو للمؤرخ الدمشقي أبي شامة (١٢٠٣ - ١٢٦٧ م) [٦٠٠ - ٦٦٦ هـ]. ويضمّ هذا الكتاب مجموعة نفيسة كبيرة من الوثائق الرسمية التي لا يُعثر عليها في مكان آخر.

دخل بهاء الدين بن شدّاد (١١٤٥ - ١٢٣٤ م) (٥٤٠ - ٦٣٢ هـ] في خدمة صلاح الدين قبل معركة حطين بقليل، وظل حتى موت صلاح الدين موضع سرّه ومستشاره. وقد أعيد حديثاً طبع ما كتبه من سيرة حياة صلاح الدين، الأصل والترجمة الفرنسية، في بيروت وباريس، (Méditerranée, 1981).

لم تقتصر المعاملة الحسنة في عرس «الكِرك» على صلاح الدين، فقد حرصت أمّ الزوج على أن ترسل إلى المحاصير أطباقاً معدّة بعناية ليتمكّن هو الآخر من المشاركة بالاحتفالات.

ذُكرت شهادة ابن صلاح الدين عن معركة حطين في الجزء التاسع من كتاب ابن الأثير في حوادث سنة ٥٨٣ هـ.

كتب عماد الدين الأصفهاني (١١٢٥ - ١٢٠١ م) [٥١٩ - ٥٩٨ هـ] الذي كان معاوناً لنور الدين قبل أن يدخل في خدمة صلاح الدين عدداً من الكتب في التاريخ والأدب، ولا سيّما مجموعة نفيسة من مختار الشعر. وقد قلّل أسلوبُه المتكلّف من قيمة شهادته بعض الشيء في الأحداث التي عاصرها. ولقد نشرت (L'Académie des Inscriptions et Belles- Lettres, Paris, 1972) كتابه (Conquête de la Syrie et de la Palestine).

الفصل الحادي عشر

حسب المعتقد الإسلامي فإن الله أسرى بالنبيّ من مكة إلى المسجد الأقصى

ثم عرج به إلى السماء. وهناك التقى يسوع وموسى، الأمر الذي يرمز إلى تكامل «الأديان السماوية».

كانت اللحية في نظر الشرقيّين من عرب وأرمن وروم علاقة من علاقات الرجولية. وكانت الوجوه المُرْد يطالع بها الناس معظم الفرسان الفرنج مدعاة للتّسلية، وأحياناً للاستنكار.

من بين الكتب الغربية الكثيرة المخصّصة لصلاح الدين ينبغي التذكير بكتاب (S. Lane-Pool, Saladin and the Fall of Kingdom of Jerusalem) المنشور في لندن عام ١٨٩٨ م، وكان قد غيّبه النسيان مع الأسف منذ عدّة سنوات، وقد أعيد طبعه في بيروت (مكتبة خياط، ١٩٦٤).

الفصل الثاني عشر

يبدو أن الكامل استقبل عام ١٢١٩ م [٦١٦ هـ] القدّيس فرانسوا الأسّيزي الذي جاء إلى الشرق على أمل إعادة السلام. وقد يكون استمع إليه باستلطاف وعرض عليه هدايا قبل أن يُعيده مواكباً بحراسة إلى معسكر الفرنج. وحسب علمنا فإنّ أيّاً من المصادر العربية لم يذكر هذا الحدث.

كتب سبط ابن الجوزي (١١٨٦ ـ ١٢٥٦ م) [٥٨٢ ـ ٦٥٤ هـ]، وهو خطيب ومؤرّخ دمشقي، تاريخاً شاملاً ضخماً بعنوان (مرآة الزمان) لم يُنشر منه إلا بعض أجزاء.

أنظر عن شخصية الامبراطور المدهشة كتاب (Benoist- Meschin, Frédéric de Hohenstaufen ou le rêve excommunié, Perrin, Paris, 1980)

الفصل الثالث عشر

انظر في تاريخ المغول كتاب ر. غروسيه «امبراطورية السهوب»، پايو، باريس، ١٩٣٩. ذكر المقريزي (١٣٦٤ ـ ١٤٤٢ م) [٧٦٦ ـ ٨٤٦ هـ]. قضية تبادل الرسائل بين لويس التاسع وأيّوب.

ترك جمال الـدين بن واصل (١٢٠٧ ـ ١٢٩٨ م) [٦٠٤ ـ ٦٩٨ هـ]، وهـو دبلوماسي وقاضٍ سجلاً بوقائع الحقبة الأيوبية وبدايـة عصر المماليـك. وحسب علمنا فإنّ كتابه لم يُنشر قطّ رغم وجود بعض الاستشهادات والترجمات الجـزئية منه في Michaud et Gabreili، المذكورين آنفاً.

بعد تدمير «ألـمَوت» استمرّت فرقة الحشّاشـين في شكل لا يمكن أن يكـون أكثر وادعةً: الإسماعيلية أتباع الآغا خـان الذي يُنسى أحيـاناً أنّـه سليل مبـاشر لحسن الصبّاح.

الرواية التي سقناها عن موت أيبك وشجرة الدرّ منقـولة من ملحمـة شعبية بعنوان «سيرة الملك الظاهر بيبرس» (دار الثقافة ـ بيروت).

الفصل الرابع عشر

كـان مـن سـوء حظّ ابن عـبـد الـظاهـر (١٢٢٣ ـ ١٢٩٣ م) [٦٢٠ ـ ٦٩٣ هـ] ـ وقـد شغـل منصب كـاتب السرّ للسلطانـين بيـبرس وقـلاوون ـ أن اختصر كتـابه الأسـاسي «سيرة الملك الـظاهر» ابن أخ لـه جاهـل ترك لنـا نصّاً مبتسـراً لا نكهـة لـه. والأجـزاء القليلة التي وصلت إلينـا من العمـل الأصـلي تكشف عن موهبة حقيقية لأديب ومؤرّخ.

من بين جميع مسجّلي الحوادث والمؤرّخين العرب الـذين ذكرنـاهم أبو الفـدا (١٢٣٧ ـ ١٣٣١ م) [٦٣٥ ـ ٧٣٢ هـ] وحـده حَكَمَ دولـة: الحـق أنّ هـذه الدولة، إمارة حماة، كانت صغيرة كثيراً، الأمر الذي أتاح لهذا الأمير الأيّوبي أن يصرف معظم وقته لأعماله الكثيرة ومنها (مختصر تـاريخ البشر). يمكن الـرجوع إلى نصـه الأصـلي مـع تـرجمتــه في (Recueil des Historiens des Croisades) المذكور آنفاً.

على الرغم من أن الهيمنة الغربية على طـرابلس قد انتهت في عـام ١٢٨٩ م [٦٨٨ هـ] فقد بقيت أسماء كثيرة من أصل فرنجي في المدينة والمناطق المجـاورة لها حتى أيامنا: أنجول (Anjou) ودويهي (de Douai) ودكيـز (deguise) ودبليز

(de Blise) وشـنبـور (Cambord)) وشـنفـور (Chamfort) وفـرنـجيـة (Franque) . . .

وقبل اختتام هذه اللمحة عن المصادر نَذْكُرُ أيضاً:

(Z. Oldenbourg: Les Croisades, Gallimard, Paris, 1965).

وهو نص نابع من رؤية مسيحية شرقية.

(R Pernoud: les Hommes des Croisades, Tallandier, Paris, 1977)
(J. Sauvaget: Historiens Arabes, Adrien-Maisonneuve, Paris, 1946)

جدول زمني

قبل الغزو

٦٢٢ م: هجرة النبيّ محمد من مكّة إلى المدينة؛ بدء السنة الهجرية.

٦٣٨ م: الخليفة عمر يستولي على القدس.

القرنان السابع والثامن الميلاديّان: أسّس العرب امبراطورية شاسعة تمتدّ من نهر السند إلى جبال البرانس.

٨٠٩ م: وفاة الخليفة هارون الرشيد؛ الامبراطورية العربية في قمة مجدها.

القرن العاشر الميلادي: عرف العرب انحطاطاً سياسيّاً على الرغم من استمرار حضارتهم في الازدهار. فقد خسر الخلفاء نفوذهم لمصلحة العسكريين الفرس والاتراك.

١٠٥٥ م: أصبح السلاجقة الأتراك أسياد بغداد.

١٠٧١ م: سحق السلاجقة البيزنطيين في «ملزجرد» واستولّوْا على آسيا الصغرى. وسرعان ما سيطروا على الشرق الإسلامي باستثناء مصر.

الغزو

١٠٩٦ م: هزم قلج أرسلان سلطان نيقية جيشَ غزوٍ فرنجياً بقيادة بطرس الناسك.

١٠٩٧ م: أوّل حملة فرنجية كبيرة. أخذت نيقية وهُزم قلج أرسلان في «دوريله».

١٠٩٨ م: استولى الفرنج على الرُّها ثم أنطاكية وانتصروا على جيش مَدَدٍ إسلامي بقيادة كربوقا صاحب الموصل. حادث أكل لحوم بشر في المعرّة.

١٠٩٩ م: سقوط القدس تبعته مجازر وعمليات نهب. انهزام جيش مَدَدٍ مصري. الهروي قاضي دمشق يذهب إلى بغداد على رأس وفد من النازحين للتنديد بعدم تحرّك المسؤولين المسلمين بإزاء الغزو.

الاحتلال

١١٠٠ م: بغدوين كُونت الرُّها ينجو من كمين قرب بيروت ويعلن نفسه ملك القدس.

١١٠٤ م: انتصار إسلامي في حرّان يوقف تقدّم الفرنج نحو الغرب.

١١٠٨ م: معركة عجيبة بالقرب من تلّ باشر: تحالفان إسلاميان فرنجيان يتواجهان.

١١٠٩ م: سقوط طرابلس بعد ألفيْ يوم من الحصار.

١١١٠ م: سقوط بيروت وصيدا.

١١١١ م: ابن الخشاب قاضي حلب ينظّم شغباً على الخليفة في بغداد مطالباً بتدخّل لوقف الاحتلال الفرنجي.

١١١٢ م: مقاومة أهل صور المظفّرة.

١١١٥ م: تحالف الأمراء المسلمين والفرنج في بلاد الشام في وجه جيش مرسل من السلطان.

١١١٩ م: إيلغازي صاحب حلب يسحق الفرنج في سرمدا.

١١٢٤ م: الفرنج يستولون على صور: أصبحوا يحتلّون الساحل كلّه باستثناء عسقلان.

١١٢٥ م: الحشّاشون يقتلون ابن الخشاب.

الردّ

١١٢٨ م: إخفاق الفرنج في هجوم على دمشق. زنكي يغدو صاحب حلب.

١١٣٥ م: زنكي يحاول الاستيلاء على دمشق فلا يُفلح.
١١٣٧ م: زنكي يأسر فُلْك ملك القدس ثم يُطلق سراحه.
١١٣٨ م: زنكي يُحبط تحالفاً فرنجياً بيزنطياً؛ معركة شيرز.
١١٤٠ م: تحالف دمشق والقدس على زنكي.
١١٤٤ م: زنكي يستولي على الرُّها محطماً أوّل دولة من الدول الفرنجية الأربع في الشرق.
١١٤٦ م: مقتل زنكي. ابنه نور الدين يخلفه في حلب.

النصر

١١٤٨ م: هزيمة أمام دمشق تَنْزِل بحملة فرنجية جديدة بقيادة امبراطور المانيا كونراد وملك فرنسا لويس السابع.

١١٥٤ م: نور الدين يسيطر على دمشق موحِّداً بلاد الشام الإسلامية تحت سلطانه.

١١٦٣ - ١١٦٩ م: الصراع على مصر وانتهاؤه بفوز شيركوه أحد نوّاب نور الدين به. وإذ أعلن نفسه وزيراً فقد قُتل بعد شهرين. ابن أخيه صلاح الدين يخلفه.

١١٧١ م: صلاح الدين يُعلن سقوط الخلافة الفاطمية. وإذ غدا سيّد مصر الأوحد فقد دخل في نزاع مع نور الدين.

١١٧٤ م: موت نور الدين وصلاح الدين يستولي على دمشق.

١١٨٣ م: صلاح الدين يستولي على حلب، ومذّاك توحّدت مصر وبلاد الشام تحت رايته.

١١٨٧ م: عام النصر. صلاح الدين يسحق الجيوش الفرنجية في حطين قرب بحيرة طبريّة، ويستعيد القدس والقسم الأكبر من الأراضي الفرنجية، وما هي حتى لم يبقَ في حوزة المحتلّين غير صور وطرابلس وأنطاكية.

التأجيل

١١٩٠ - ١١٩٢ م: إخفاق صلاح الدين أمام عكا. وتدخل ملك انكلترا

ريكاردوس قلب الأسد يتيح للفرنج أن يستعيدوا من السلطان عدّة مدن، وأمّا القدس فلا.

١١٩٣ م: وفاة صلاح الدين في دمشق وقد بلغ الخامسة والخمسين من العمر. وبعد بضع سنوات من الحرب الأهليّة عادت إمبراطوريته فتوحّدت تحت سلطان أخيه العادل.

١٢٠٤ م: الفرنج يستولون على القسطنطينية وينهبون المدينة.

١٢١٨ - ١٢٢١ م: الفرنج يغزون مصر ويستولون على دمياط ويتوجهون إلى القاهرة، ولكنّ السلطان الكامل، ابن العادل، يتمكن من صدّهم.

١٢٢٩ م: الكامل يسلّم القدس إلى الامبراطور فريدريك الثاني دو هوهنستاوفن مثيراً بذلك عاصفة من الاستنكار في العالم العربي.

الطرد

١٢٤٤ م: الفرنج يخسرون القدس لآخر مرّة.

١٢٤٨ - ١٢٥٠ م: ملك فرنسا لويس التاسع يجتاح مصر فيُهزم ويؤسر. سقوط الأسرة الأيوبية وحلول المماليك محلّها.

١٢٥٨ م: الزعيم المغولي هولاكو حفيد جينكيز خان يخرب بغداد ويرتكب مجزرة بحق سكّانها ويقتل آخر الخلفاء العبّاسيين.

١٢٦٠ م: هزيمة الجيش المغولي الذي احتل حلب ثم دمشق في «عين جالوت» بفلسطين. بيبرس يتربّع على سدّة السلطنة المملوكية.

١٢٦٨ م: بيبرس يستولي على أنطاكية التي كانت قد تحالفت مع المغول. عمليات هدم ومجازر.

١٢٧٠ م: لويس التاسع يموت بالقرب من تونس خلال غزو باء بالفشل.

١٢٨٩ م: السلطان المملوك قلاوون يستولي على طرابلس.

١٢٩١ م: السلطان خليل بن قلاوون يأخذ عكا مُنهياً قرنين من الوجود الفرنجي في الشرق.



كانت «الحروب الصليبية» ولا تزال تشغل حيّزاً كبيراً من الكتابات التاريخية في الشرق والغرب لما لها من شأن وخطر على الصّعد السياسية والإجتماعية والفكرية والإقتصادية والحضارية.

ولما كان الغرب بأكثريته ـ ولا سيما غير المتخصصة ـ لا يعرف من هذه «الحروب» سوى الصورة الرائجة التي قدمها بعض من اشتركوا في الحملات الصليبية ـ وقد تكون تلك الصورة صادرة في كثير من الأحيان عن هوى وغرض ـ فقد عمد أمين معلوف الى صورة مقابلة تركها المؤرخون العرب ولم تعرف طريقها الى جمهور الغربيين فقدّمها ـ على الرغم من الجهود الكبيرة ـ في حلّة بسيطة وجذّابة هي هذا الكتاب الذي حرصت «دار الفارابي» على تعريبه لينتفع به القارىء العربي، متخصّصاً كان أو غير متخصّص، كما انتفع به القراء الغربيون.